المكتبة التاريخية

مصر والشرق الأدنى القديم

١

مصر

من فجر التاريخ إلى قيام الدولة الحديثة

دكتور نجيب ميخائيل إبراهيم

الطبعة الرابعة
١٩٦٣
معدلة ومنقحة



دار المعارف بمصر

مصر والشرق الأدنى القديم

١

مصر

من فجر التاريخ إلى قيام الدولة الحديثة

دكتور نجيب ميخائيل إبراهيم



دار المعارف بمصر

مطبعة التجارية بالإسكندرية

مقدمة الطبعة الرابعة

بعد صدور الطبعة الثالثة ، ظهرت بعض المؤلفات التى تتناول كشوفا أثرية حديثة ، أو تعالج التاريخ القديم من زوايا أخرى بوجهة نظر جـــديدة تسترعى الاهتمام ... وكان لابد أمام ذلك أن يتعرض الكتاب فى طبعته الجديدة إلى هذه النواحى جميعا فيتضمن أحدث الكشوف الأثرية ويناقش آخر الآراء التاريخية .

ومن بين ما تناوله الجديد فى هذه الطبعة الأضواء التى ألقاها « إيميرى» Emery على عصر الأسرتين الأولى والثانية كثمرة لبحوثه فى سقارة التى ضمنها كتابا جديدا أصدره عام ١٩٦٢ ، كما عرض لكشوف المرحوم محمد زكريا غنيم فى ناحية سقارة والكشف عن مراكب جنوبى الهرم الأكبر أصدرت عنها مصلحة الآثار المصرية فى العام الماضى مؤلفا ضخما ...

ومن بين أحدث الكتب عن الحقبة التى تناولها هذا الجزء كتاب للاستاذ احمد فخرى بالانجليزية فى العام الماضى عن « الاهرام » وآخر أصدره الاستاذ السير ألن جاردنر عن « مصر الفراعنة » Egypt of the Pharaohs . ورغم ان السير جاردنر يكتب للمرة الأولى كتابا كاملا عن تاريخ مصر القديمة إلا أن بحوثه الكثيرة ومقالاته العديدة فى هذا المضمار تجعل آراءه موضع تقدير كما تضفى على كتابه قيمة وأهمية خاصة . وقد عرف السير ألن جاردنر من قبل بوصفه عالما فى اللغة المصرية ، بل هو إمام المتخصصين فى هذه الناحية ، وقد لفت نظرى بخاصة فى كتابه معالجته للأسماء التى اصطلح من قبل المؤرخون والأثريون عليها فهو

يكتبها بصورة لم نألفها .. وقد وجدت نفسى بين أمرين : إما أن أتابعه فيما ارتآه فأنحو نحوه أو أتابع ما اصطلح عليه من قبل ، وقد فضلت الأمر الأول وتناولت بالتعديل فى هذه الطبعة - كما تناولت فى الطبعة الثالثة من الجزء الثانى من هذه السلسلة - الأسماء التى عرفناها من قبل متابعا السير الن جاردنر فى معالجتها على الصورة التى يقترحها بوصفه المرجع الوحيد الأخير للنطق الصحيح حتى الآن .

وقد يصدم القارىء أحيانا بنطق غير مألوف لبعض الاسماء مثل « امنمحيه » بدلا من « امنمحات » و « سنوسرة » بدلا من « س ان اوسرت » و «حاشپسوة» بدلا من « حتشپسوت » و « عحموزه » بدلا من « احمس » ولكن تصحيح الأخطاء خير من التمادى فيها ، ولو أصبح الخطأ عرفا شائعا . .

لقد ظلت اللغة المصرية القديمة بعد اندثارها غامضة حتى قيض لها فى أوائل القرن الماضى أن يعالج معمياتها بعض العلماء الذين بذلوا جهودا جبارة فى هذا الميدان ، وقد حذا حذوهم من جاء بعدهم .. ولا يزال الشوط فى رأيى طويلا . . ورغم المرحلة الناجحة التى تخطيناها فانه لا يزال هناك أمل فى إلقاء أضواء أخرى تكشف عن كثير مما لا نزال نجهله أو ما نزال — على الاقل — مترددين فى الجزم بصحته

والله الموفق إلى سواء السبيل ؟

يناير ١٩٦٣

نجيب ميخائيل ابراهيم

الفصل الأول

مصر والنيل

مصر هي تلك الأرض الطيبة التي نعيش عليها اليوم وهي مهد إحدى حضارتين قديمتين على الأقل أهدت للعالم ثمار جهادها طوال عشرات القـــرون وأشعت بأضوائها على العالم القديم فمنحته الحكمة والثقافة والعلم .

وهي كلمة تعني في اللغات السامية « الحد » عرفها الأشوريون باسم « مصر » والآراميون باسم « مصرين » والعبرانيون باسم « مصرايم » والعرب باسم مصر، وأطلقت الشعوب السامية من أشوريين وآراميين وعبريين وعرب على أهلهـا اسم مصريين . وإنه لما تجدر ملاحظته أن كلمة الحـد في اللاتينية تقابل finis وقد أطلق الرومان هذه الـكلمة بصيغة الجمع على القطر جميعه .

أما المصريون فعرفوها تحت اسم « كمت » أي الأرض السوداء مفرقين بذلك بينها وبين الصحراوات على جانبي الوادي التي عرفوها تحت اسم « دشرت » أي الأرض الحمراء .

وأما كلمة Egypt فهي أصلا Ægyptus وهي كلمة سمعها اليونان في مصر محرفة من نطق أشوري للفظ مصري قديم هـو « حاكابتـــاح » كان يطلق على معبد للإله بتاح أكبر معبودات المصريين في منف ثم أطلقه المصريون على المدينة نفسها ثم على القطر نفسـه كما يطلق اسم مصر اليوم على البلاد كلها وعلى العاصمة وحدها كذلك ، وقـد وردت كلمة « ايجبتوس » وترددت في شعر هومير فإذا حذفنا علامة الرفع (وس) ثم الحركة الأولى التي ظنها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم « جبت » المحرفة إلى « قبط » .

والقبط لا تعنى دينا وإنما القبط هم المصريون اعتنقوا المسيحية جميعهم دهراً فأصبحت الكلمة ترادف مسيحى مصر أو المصريين قاطبة ثم جاء الاسلام فاعتنقه غالبية القبط على مر العصور وظلوا قبطاً مسلمين أى مصريين مسلمين كما ظل إخوانهم فى الوطن قبطاً مسيحيين ... أولئك من وراء محمد وهؤلاء من وراء المسيح ... والدين من قبل ومن بعد للديان جل جلاله والوطن لأصحابه القبط ... المصريين .

* * *

وتقع مصر من الناحية الجغرافية فى الحوض الأدنى للنيل وسط منطقة صحراوية تمتد من شمال غرب إفريقيا إلى الهضبة الإيرانية ، والواقع أن هضبة إيران وهضبة بلاد العرب أجزاء متممة للصحراء الكبرى ولولا النيل والفرات لكانت المنطقة كلها صحراء متصلة .

وقد شبهت أرض مصر بقناة ذات طرفين مفتوحين ووصف النيل الذى يجرى بها كأنما هو نخلة باسقة تمتد جذورها فى أواسط القارة أما جذعها فمجرى النهر نفسه وأما سعفها فالفروع التى تسرى فى الدلتا وقنواته وترعه . وقيل عن الوادى إنه مستطيل أطول أبعاده من الشمال إلى الجنوب ولا يزيد عرضه من الشرق إلى الغرب عن النصف وهو أكثر من الثلث بقليل . وحده الجنوبى المرتفع قائم وراء وادى حلفا ، وأما حده الشمالى فالبحر المتوسط وإن كانت المائة ميل الأخيرة التى تقع فى الشمال أرضا مكتسبة من البحر خلقها النهر ومنحها هبة الوادى . وأما الحد الشرقى فالبحر الأحمر وأما معالم الحدود الغربية فالمنخفضات فى الصحراء الغربية التى نعرفها بالواحات التى تبدأ الهضبة الافريقية عندها فى الارتفاع مرة أخرى .

ويجرى النيل متجها من أواسط أفريقيا إلى البحر المتوسط فينبع من خط

٤ جنوبا ويصب عند خط ٥ر٣١ شمالا وطوله ٤٠٠٠ ميـــلا . ويلتقى به فى السودان النيل الأزرق والعطبرة ويمدانه بالطمى . . وهـذا الغرين هو سبب خصوبة أرض مصر . ويخترق النيل فيما بين الخرطوم وعطبرة هضبة بلاد النوبة وهى من الحجر الرملى . وتعترض مجرى النيل فى ستة مواضع من الخرطوم حتى أسوان صخور تؤثر على الملاحة النهرية فى هذه المنطقة عند انخفاض الماء . وقد سميت خطأ بالشلالات والواقع أنها جنادل أحيانا وخوانق أحيانا أخرى ، ويقع الخانق السادس بين الخرطوم ومروى وأما الجندل الخامس فبين مصب العطبرة وأبى حمد والرابع بين هذه وموقع نبتة القديم وهى الأرض التى عرفها المصريون تحت إسم « كاروى » أقصى حـــدود الامبراطورية من الجنوب ، وأما الثالث فيقع بين جزيرتى « أركو » و « تومبوس » إلى جنوب « صواب » القديمة بقليل ، وأما الثانى فيمتد من قلاع سمنة وقنة (وهى حدود الدولة الوسطى الجنوبية) حتى وادى حلفا . وأما أشهرها جميعـــا فالجندل الأول الذى خلقت فكرة أمواهه الدافقة فى خيال المصريين عقيدة انبثاق النهر من مصادر سفلية خفية ... عنـد هذه المنطقة شق النهر مجراه خلال قرون طوال فى صخور متجاورة اعترضت مجراه وقطع منها الفراعين فى العصور التاريخية ذلك الحجر الجميل الصلب ــ الجرانيت ــ الذى شادوا منه المسلات والهياكل .

وعلى بعد أربعين ميلا إلى شمال سوان حين يغادر جبل السلسلة نرى التلال من الحجر الرملى على الجانبين توحى بأن جندلا سابعا كان يعترض مجرى النهر يوماً من الأيام استطاع أن يلتهمه ... وبعد هذه المنطقة يزداد المجرى عرضـــا حتى تتبدل الصخور بعد أربعين ميلا أخرى أى بالقرب من ادفو إلى حصى مستدير صغير رقيق السمك ويبدأ النهر فى الدخول فى منطقة من الحجر الجيرى فيعمق المجرى ويتسع حيث كمص فى صباه وشبابه من البحر أرضاً ظهرت فى أقصى الشمال كأنما انفرجت الصحراء الشرقية والغربية عنها على شكل مروحة أو مثلث

غمرته المياه وأرسبت غرينها فيه منذ أقدم العصور فكونت طبقة رسوبية كان النهر يتخللها عن طريق صبعة فروع وأطلق اليونان عليها إسم « دلتا » لأنها تشبه فى شكلها رابع حروف الهجاء عندهم .

ومصر الحقيقية التى عاش عليها المصريون «أسلافنا الأمجاد» وصاغوا فيها الحضارة التى ورثها العالم المتحضر من بعدهم عبارة عن ذلك الشريط الضيق من الأرض السوداء الذى يمتد على جانبى النهر من أسوان حتى القاهرة حيث تبدأ الدلتا . وهى مساحة صغيرة نسبيا ، ذلك لأن مصر بصحراواتها تكاد تبلغ مساحتها ٤٠٠٫٠٠٠ ميلا مربعا بينما لا تزيد الأرض المكونة عن ١٣٫٠٠٠ ميلا مربعا ، وكثافة السكان فيها تكاد تزيد عن أية بقعة أخرى فى العالم . والفضل فى هذا كله للنهر فهو عامل الحياة الأوحد فى مصر ، عليه يتوقف كيانها وبه تتصل حياتها ولعل أصدق قول سرى عبر القرون هو ما ذكره «هيرودوت» من أن « مصر هبة النيل » لأنه كان «ولا يزال» «عصب الحياة فيها» يتعلق مصيرها به مادام قد منحها الحياة والوجود وحفظها عليها وما دام قد ربط أجزاءها ببعضها من قديم ، ومن أجل ذلك قدره أسلافنا فعبدوه وأطلقوا عليه إسم « حعبى » ... واهب الحياة . ولقد ازداد المصريون معرفة بالنهر وعرفانا لجميله حين انجاب الجليد فجفت أشجار الصحراء ونزلوا إلى النهر يلتمسون الرزق عنده فكان بهم حفيا أمدهم بالغذاء ومنحهم السلام ، وقد أدركوا من البدء أنهم يدينون له بكل شىء ... ولكن كان فى قحط الصحراء المحيطة بهم كذلك نعمة وبركة إذ أنها كانت تحميهم شر الطامعين وترد هجمات المغيرين وكانت بذلك حصنا طبيعيا ساعد سكان الوادى على التطور السريع وإنشاء مدنية بلغت روعتها فى كثير من نواحيها حد الاعجاز .

وساعد النهر على الرقى السياسى كذلك إذ أنه كان رابطة الاتصال بين

أجزائها مما عاون على قيام الوحدة رغم اختلاف العادات واللهجات أحيانا . وكان للصحراء فضل على المصرى من ناحية أنها أثرت على معتقداته وأخيلته فقد رأى فى ترامى أطرافها واستقرار أحوالها ودوام ظروفها معنى من معانى الخلود وإذا كان النيل قد علم المصريين تجدد الحياة فان الصحراء ألقت عليهم درس الخلود . ولعل سر احتفاظ المصرى القديم والحديث بالتقاليد يرجع إلى طبيعة بلاده الثابتة : فالنيل منتظم الورود والصحراء ثابتة لاتتغير وليس فى جو البلاد أعاصير أو تقلبات ولعل هذا كله مما ساعد المصرى على الحرص على قديمه وعلى محاولة إلباس جديده مظهر القدم فى حرص وحذر .

وللصحراء فضل آخر إذ استغل المصريون منذ القدم ثرواتها من معادن وأحجار ، وقد اشتهرت مصر فى تاريخها القديم بالذهب الذى كان يستجلب من النوبة ومن أطراف الصحراء الشرقية كما استخرجوا من صحراء سيناء النحاس والفيروز وكانت لهم بها محطات ثابتة مستمرة للتعدين وقطع الأحجار .

ويحدثنا المؤرخ « چيمس بيكى » فى كتابه عن تاريخ مصر أنه « من الصعب أن نبالغ فى قيمة الدور الذى لعبته الصحراء فى حماية وتأمين حياة الناس فى مصر وفى نمو حضارتهم » وهو يدفعنا إلى أن نتذكر « أنه من الخطل أن نظن أن الشعب المصرى كان شعبا ميالا للعدوان وشن الحروب ورغم أنه اضطر تحت ضغط ظروف معينة فى تاريخه، وبإيحاء خاص ،إلى الغزو فإن الجنس كان بالضرورة جنسا مسالما لا يميل للعدوان كما هى الحال اليوم كذلك » وهناك شك فى أنه لو كان من الممكن الوصول إلى وادى النيل فى يسر وسهولة كما حدث فى بعض بلدان العالم القديم لما قامت تلك الحضارة الرائعة أو — على الأقل — لما تطورت ... بل ربما كان من الممكن أن تقضى عليها غارات وحشية ... إن فضل الصحراء يظهر هنا واضحا، ذلك لأنها ساعدت على رعاية الحضارة وتقدمها

بأن حدتها ترد المعتدين الأبديين ولا يحق لنا أن نزعم أن الوصول إلى مصر غير ممكن أو مستحيل فقد اعتدى عليها وتم غزوها أكثر من مرة فى تاريخها الطويل ورغم ذلك فإن وجود الصحراء ساعد على التخفيف من حدة الغــزو وجعل الهجوم عليها أشق ، والدفاع أيسر . وقد تمت محاولات الغزو فى أحيان كثيرة بنجاح ولكن غزو مصر لم يحدث إلا بعد أن تطورت حضارتها تطورا لا يستطاع معه القضاء عليها ... وعلى هذا فان صيانة هذا التراث العالمى لا يرجع الفضل فيها إلى النيل أو الوادى وحدهما بل إلى الصحراء كذلك .

المصريون

إن معلوماتنا عن الأجناس التى امتزجت مع بعضهــا البعض وخرج منها ما نسميه بالمصريين مستمدة من نظريات انثولوجية أو تاريخية إذ أنه لم يعثر على هياكل بشرية سابقة لفترة «البدارى» (أوائل الحقبة الانيوليثية) فيما يختص بالوجه القبلى وفترة « مرمدة » فيما يتصل بالدلتا .

ونحن نعرف أن الوادى لم يعمر بالسكان إلا حين بدأ ســكان الهضبة يهجرونها بعد أن جفت غاباتها وقلت أمطارها وهرب حيوانها وأخذت تتحول إلى صحراء لا تصلح للحياة .

ويغلب على الظن أن السكان فى الفترة البدارية كانوا خليطا ما بين الزنجى وغير الزنجى وأخذ العنصر الزنجى يختفى تدريجيا . ويغلب على الظن أن العنصر الحامى الذى ينتسب إلى الصومال الحاليــة هو أول ما حل من أجنــاس بمصر ثم أخذت تفد من المسارب الشرقية القبائل السامية عن طريق شبه جزيرة سيناء فى غالب الأحيان وعن مسارب أخرى بنسبة أقل كما وفد غيرهم من صحراء الغرب وبعض سكان جزر البحر من الشمال واندمجوا جميعا بالسكان الأصليين

واختلطت لغاتهم ولهجاتهم وخرج من ذلك مزاج هو اللغة المصرية التى حاول اللغويون أن يرجعوها إلى أصل سامى بحت أو إلى أصل سامى بحت وإن كان من المؤكد أن هناك قرابة بين اللغات السامية واللغة المصرية واللهجات البربرية والكوشية تجوز استعمال الاصطلاح « اللغات الحامية السامية » . ويرى « دريوتون » أن اللغة المصرية لغة إفريقية تحولت جزئيا بدخول عناصر سامية بدلا من إعطاء هذه العناصر السامية ذاتها دورا غالبا — إن لم يكن خالصا — دون سواه فى تكوين اللغة المصرية ... وهو افتراض على كل حال لم يحاول أن يدعمه بدليل مادى لأنه موضوع يصعب الجزم فيه برأى حاسم . ومما لا شك فيه أن الجنس المصرى خليط من الحاميين والساميين الذين اختلطوا وامتزجوا وانصهروا فى بوتقة البيئة حتى خرج منها جنس واحد لا هو بالحامى الخالص ولا هو بالسامى الخالص وإن احتفظ بمميزات الجنسين . ويتفق مع هذا الرأى ما يراه « وليم ورل » من « أن المصريين شعب أبيض من جنس البحر المتوسط نزحوا إلى حافة وادى النيل ثم استوطنوه تدريجيا وأزالوا غاباته بعد جفاف الصحراء الكبرى فى العصر الجيولوجى الحالى. وتختلف العشائر التى استقرت فى وادى النيل حتى منف شمالا عن العشائر التى قطنت الدلتا إذ كانت الأولين علاقات بالبلاد الحامية إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية على حين كان الآخرون على اتصال بالبلاد الواقعة على طول شاطىء البحر الأبيض إلى الغرب . ومع أن هذه الشعوب جميعا تعتبر جغرافيا شعوبا إفريقية إلا أنها ليست من أصل زنجى. ويعوزنا الدليل على وجود دم زنجى فى مصر فى العصور السحيقة وإن كانت بعض المميزات الاجتماعية تذكرنا بمثيلاتها عند الزنوج ولكن لعل مرجع ذلك إلى عوامل البيئة الافريقية المشتركة » .

ولقد اختلف المؤرخون فى تفسير القرابة بين الحاميين والساميين وهما على أغلب الظن فرعان شديدا القرابة من جنس البحر المتوسط الصحراوى .

الكتابة المصرية

كان المصرى القديم يكتب لغته بحروف أو مقاطع على شكل الصور فى أول الأمر ولم يكن هذا اللون من التعبير كافيـــاً لتوضيح مدلولات المعنويات أو الأعلام فاستعاض ببعض الصور عما تؤديه من صوتيات ما دامت متفقة فى النطق ثم رأى أن هذه الطريقة لا تفى بالغرض المنشود فأضاف إليها التكملة الصوتية أحيانا والمخصص أحيانا أخرى أو استعملهما معا ثم زاد على ذلك استعمال علامات تعبر بصفة عامة عن طبيعة ما تدل عليه الكلمة المكتوبة .

وحروف الهجاء المصرية أربعة وعشرون حرفا وما كنا كتبت بالهيروغليفية التى تطورت إلى كتابة سميت بالهيراطيقية ومعنـــاها الكهنوتية (لأن استعمالها اقتصر فى عهد الرومان عـــلى الكهنة) . والهيراطيقية مرحـــلة مبسطة من الهيروغليفية ولكن هذا التبسيط لم يكن كافيا بمضى الزمن فاستبدلت الهيراطيقية — أو صاحبتها على الأقل ولكن بشيوع أكثر فى الاستعمال — كتابة أخرى هى الديموطيقية كانت أكثر أنواع الكتابة انتشارا فى العصر اليونانى (شكل ١).

كتابة هيروغليفية

كتابة هيراطيقية

كتابة ديموطيقية

(شكل ١)

وقد كتبت اللغة المصرية بالحروف اليونانية ابتداء من القرن الثالث الميلادى حتى تسأير المصر ، وروى استخدام حروف الهجاء اليونانية مع إضافة سبعة حروف من الأحرف المصرية لتساعد على قراءة اللغة قراءة صحيحة وعرفت اللغة المصرية المكتوبة بالحروف اليونانية باسم اللغة القبطية ... وهكذا تكون اللغة المصرية قد عاشت حتى القرن السابع عشر الميلادى حين اقتصر استعمالها على الطقوس الدينية فى الكنائس ، وظلت كذلك حتى اليوم .

ولقد تحولت الهيروغليفية المنقوشة على المعابد والمسلات والمقابر إلى طلاسم لا يستطاع حل رموزها بعد أن بطل استخدامها ، وقد باءت المحاولات لحل رموزها بالفشل . ونستطيع أن نقرر أن غالبية المصريين فى القرن السادس لم يكونوا يعرفون قراءتها وظل الأمر كذلك حتى عثر جنود حملة نابليون على الحجر المعروف بحجر رشيد عام ١٧٩٩ (شكل ٢) وكان يحوى قرارا صدر من الملك بطلميوس المتجلى وأقام الكهنة هذا الحجر إشادة بذكر الملك لاعفائهم من جانب من الضرائب وأمروا باقامة نظائره فى كافة المعابد ، وكان الحجر مكتوبا بكتابات ثلاثة هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية . ولما كانت اللغة اليونانية القديمة لغة يستطاع قراءتها وفهمها فقد أمكن فهم مضمون النص وبقيت أمام الباحثين مشكلة محاولة حل طلاسم الكتابتين الأخريين .

وقد استطاع « أكربلاد » السويدى أن يصل إلى معرفة أربع كلمات . وانتهى « يونج » الانجليزى إلى أن الهيروغليفية وما تطور منها من هيراطيقية وديموطيقية ليست أبجدية . وقد أضاف إلى المحصول العلمى معجما به ٨٦ مطابقة بين ألفاظ يونانية وألفاظ مصرية كتبت بالديموطيقية .

وفى عام ١٨٢٢ كشف « شامبليون » عن سر طـــلاسم الهيروغليفية عن طريق محاولة قراءة الأسماء بالخانات الملكية وكانت مكتوبة بحروف أبجدية ،



حجر رشيد

(شكل ٢)

واستعان فى بحوثه باللغة القبطية ... وهكذا بدأت بحوث أخرى على ضوء جديد وأسس ثابتة وبقى لعامل الزمن أن يعاون على التقدم فى هذا المضمار . وقد نشر « شامبوليون » كتاباً عام ١٨٢٤ عنوانه « موجز للطريقة الهيروغليفية » وتابعه بعد وفاته فى سلوك هذا الطريق « دى روچيه » و « لبسيوس » و « شاباس » و « برش » و « جودوين » و « ماربيت » و « ناڤيل » و « ماسبرو » .

وفى أوائل القرن الحالى ظهرت جمهرة من العلماء الذين عنوا بدراسة اللغة المصرية وعلى رأسهم « أرمان » و « جـــرابو » و « زيتـــا » و « يونكر » و « جاردنر » و « جن » و « لكـا » و « دريوتون » و « جريفث » وقد خطوا باللغة فى مراحلها المختلفة خطوات جعلت منها شيئاً مفهوما بعد أن كانت طلاسم وألغاز مستعصية وأعادوا لنا قواعدها ونشروا لهـــا معاجم وأسهموا فى ترجمة النصوص حتى أصبح من اليسير على الراغبين فى دراسة اللغة المصرية بمختلف أنواع الكتابات التى سجلت بها أن ينهجوا فيها نهج الدارسين للغات الأخرى .

ولم يكن الكشف عن معميات هذه اللغة مهما لذاته بقدر ما أفاد من ناحية تنوير الأذهان وتفتحها للحضارة المصرية القديمة . فلقد سارت الدراسات المصرية جنباً الى جنب مع التقدم فى معرفة اللغة وهكذا بدأ ضوء جديد يسلط على تاريخ مصر القديم وبدأت المخلفات تنطق بالكثير من المعانى التى ظلت صامتة دهوراً طويلة . وبدأت أقوال الكثيرين من مؤرخى الاغريق تفند ويظهر فيها التجنى والبعد عن الحقيقة ومجافاة الصواب ومجانبة الصدق وبـــدا لكثيرين أنهم حين كتبوا عن مصر كانوا متأثرين بنزعة خاصة فجاءت كتاباتهم مغرضة رمـــت المصريين فى أحيان كثيرة بما هم منه براء .

الفصل الثانى

بداية المدنية الإنسانية

الحضـــارة الانسـانية

إن المدنية التى ننعم بثمارها اليوم والحضارة التى نفخر بسموها وروعتها ليست من خلقنا . . . إن العناصر الأولى لهذا التقدم فى مختلف نواحى الحيـاة وليدة جهاد طويل مضى استغرق أكثر من مائة ألف عام .

وإن الصورة التى نستطيع أن نتخيلها للأرض التى نعيش عليها هى صورة أرض تختلف كثيراً عما هى عليه اليوم . . . صورة أرض ترتجف بأنهار الثلج جعلت من المنطقة المعتدلة التى نعيش فيها منطقة متجمدة مدى آلاف السنين . . زحفت عليها الثلوج فغطتها أربع مرات . وكان الزحف الأول منذ نصف مليون عام ثم تلاه فترة انجابت فيها الثلوج واستغرقت حوالى ۷۵۰۰۰ عام نعمت فيهـا الأرض بفترة فيها اعتدال يســاعد على الحياة الانسانية ولـكن هجمات الجليد عاودتها للمرة الثانيـة منذ أربعمائة ألف عام وظل الجليد يغطى الأرض حوالى ۲۵۰۰۰ عام انجاب بعدها مدى مائتى ألف عام ، وزحف للمرة الثالثة منذ خمس وســبعين ومائة ألف عام وظل يغمرها للمرة الثالثة مدى ۲۵۰۰۰ عام أخرى ثم انجاب عنها للمرة الثالثة وعادت إليها الحياة مدى مائة ألف عام وزحف للمرة الرابعة والأخيرة منذ خمسين ألف عام وظل كذلك مدى ۲۵۰۰۰ عام أخرى . . ونحن اليوم نعيش على ســطح الكرة الأرضية بعد أن انجاب عنها الجليد للمرة الرابعة جاهدين منذ حوالى خمسة وعشرين ألف عام فى النهوض بأسس الحضارة

الانسانية التي لا تزال مع ذلك تعمل على تدعيمها لتورث الخلف تراثاً أضخم مما ترك أسلافنا .

والحضارة الانسانية على سطح الأرض تاريخ طويل يتمثل في صراع بين الانسان والطبيعة التي عاونته أحياناً وقست عليه أحياناً أخرى ، فنعم بعونها واحتال على قسوتها فرضخ لأحكامها حيناً أو حاول الملاءمة بينه وبين ما تفرضه عليه . ودراستنا لهذه الحضارة تكشف عن جهاد مستمر مثمر استغرق قروناً طوالا انقضت في التجربة والتحسس . ونحن — كما يقول ول ديورانت — مدينون لأسلافنا بكل شيء تقريباً كما يرث اليافع المحظوظ ، أو إن شئت فقل اليافع المنحلل ، كما يرث هذا اليافع سبيله إلى الثقافة والأمن والدعة من أسلاف أمين ورثوه ما ورثوه بكدحهم الطويل .

وليس من الضروري أن تكون الأصول التي تفرعت عنها مدنيتنا تراثاً متصل الحلقات فليس ما يمنع من أن تكون بقايا متحللة من حضارات تدهورت حين تحركت زعامة البشر في أثر الثلوج التي كانت تنجاب عن صدر الأرض فانتقلت من المدارين إلى المنطقة المعتدلة الشمالية ، ولا يزال أمامنا أن نتعقب أصول مدنيتنا فيما قبل التاريخ فنتعقب الخطوات التي خطاها الانسان ليمهد السبيل إلى المدنية التي عرفها التاريخ .

إن الحضـــارة الانسانية بدأت ترسي قواعدها حين انتهى القلق من نفس الانسان فنزع إلى الانشاء واستخدم عقله فصنع أدواته البدائية التي دفع إلى التفكير فيها إحساسه بضرورتها ليقاوم الحيوان ، وكانت ثمرة هذا الصراع غلبة الانسان عن طريق العقل .

ولقد كان الصيد المهنة الأولى التي احترفها الانسان البدائي ثم انتقل منها إلى

الرعى . وحين عرف النار كان قد قطع مرحلة خطيرة من الحياة البدائيـــة ، ولسنا نستطيع أن نعرف متى اهتدى إلى النار وإن كنا نستطيع أن نتصور ما أفاده منها ، فبها استطاع أن يقهر أخوف أعدائه وهو الظلام ثم تحرك بها وأخذ يعمر الأرض وظل يحملها حتبة طويلة شعلة دائمة لا يريد لها أن تخمد .

وصحبت حياة الصـــيد والرعى مظاهر التنقل ولكنه حين عرف الزراعة واهتدى إليها دفع دفعاً إلى الاستقرار وإلى تكوين البيت وإلى إنشاء الأسرة التى تعتمد على قوة ساعده والتى تعيش لا على الصيد وحده بل على جهاده فى فلاحة الأرض والرعى معاً .

ومع الزراعة نشأت الملكية ... ملكية المأوى وملكية الأثاث والمتاع القليل وملكية الأرض التى يهمه ألا يغير عليها مغير من جيرانه . . وصحب التوريث الملكية أو أعقبها ، ثم نشأ المجتمع كنتيجة لضرورة التعاون . واستخدم الدين لتدعيمه، وكانت الضرورة تدعو لقيامه رهبة وخوفاً من المجهول أو رغبة فى الوصول إلى نفع.وكانت العبادة تقدم إلى عناصر الطبيعة المختلفة ، وجاء السحر مع الدين كوسيلة من وسائله .

ولقد كتب الكتاب عدداً ضخماً من الكتب ليوسعوا نطاق علمنا بالانسان البدائى ويخففوا معالم جهلنا به ولكن لعل ما يهمنا هنا هو تعقب ألوان الحضارات التى مر بها الانسان القديم حتى أرسى قواعد الحضارة التى ننعم بثمارها اليوم .

وقد اصطلح الجيولوجيون على تقسيم تاريخ القشرة الأرضية إلى دهور أربعة ينقسم كل دهر منها إلى عصور ، وهم يقررون أن الدهر الثالث ينقسم إلى الايوسين ثم الاوليجوسين ثم الميوسين ثم البليوسين ، وأما الدهر الرابع فينقسم إلى البليوستسين ثم الحقبه الحديثة . . ويعتمدون فى هذا التقسيم على بقايا الأصداف والنباتات المتحجرة . . ولم يظهر الانسان فى رأيهم إلا فى الدهر الرابع .

وقد تتابعت الدراسات فقسمت الحقب إلى دهور والدهور إلى عصور أطلق على كل عصر منها اسم المكان الذى عثر فيه أولا على آثار تميزه ، والإنسان فى رأى العلم المعاصر هو الكائن الذى حين عرف الكلام كان أحد الأنواع التى تعيش على الأرض والتى استطاعت أن تلائم بين نفسها وبين البيئة المحيطه بها .

ولقد وجدت بقايا كثيرة له فى أنحاء متفرقة من العالم :

ففى عام ١٨٩١ عثر فى جاوة على عظام جمجمة وفخذ .

وفى عام ١٩٠٧ عثر على عظمة فك بالقرب من هيدلبرج

وفى عام ١٩٢٩ عثر على جمجمة فى كهف تشوكوتين ثبت أنها جمجمة بشرية وقد عثر كذلك على عظام حيوان ممتزجة بتلك الآثار التى أجمعت الآراء على أنها ترجع إلى عصر البليستوسين الأول (منذ مليون سنة) وهذه العظام هى بإجماع الآراء أقدم ما عرف من القواقع البشريه كما أن الأدرات التى وجدت معا تعد أقدم ما صنع .

ولكن أقدم الأنواع التى لا يتناولها الشك من ناحية أنها بقايا إنسانية هى ما وجد فى نياندرثال عام ١٨٥٧ ويرجع تاريخها إلى ٤٠٠٠٠ سنة وتدل على أن صاحبها قصير القامة وسعه جمجمته ١٦٠٠ سم^{3} (أكبر من الانسان الحالى بـ ٢٠٠ سم^{3}) .

وقد كشف فى جنوب فرنسا عن جنس آخر عرف أصحابه باسم الكرومانيون ويرجع وجودهم إلى ٢٠٠٠٠ سنة وهم طوال القامة وسعة الجمجمة بين ١٩٥٠ ، ١٧١٥سم^{3} ويرى الباحثون أن هذا الجنس قدم من أواسط آسيا ومر بإفريقيا حتى وصل إلى جنوب فرنسا عن طريق جسور من اليابس وهم يرون كذلك أن الـ « كرومانيون » هم الذين وضعوا أسس المدنيه التى انتهت إلينا والتى تنعم بثمارها اليوم .

حضارات العصور الحجرية فى أوروبا

تقع الآثار الحضارية لهذه الأنماط البشرية التى عاشت فى أوروبا فى العصر الحجرى القديم فى سبعة أقسام رئيسية أعطيت أسماء نسبت إلى الجهات التى عثر على أقدم الآثار فيها . وكلها تمتاز باستخدام أدوات خشنة الصنع ، أما الأقسام الثلاثة الأولى فتقع فى الفترة المضطربة التى توسطت العصرين الجليديين الثالث والرابع وهى :

١ — الحضارة السابقة للعصر الشيلى Pre - chellian ومخلفاتها عبارة عن أحجار صوانية استخدمت على الصورة التى وجدت بها ولها قبضة ولها حد أو طرف وهى المعروفة بالمدية الحجرية ، ويحدد لها تاريخ يرجع إلى حوالى عام ١٢٥٠٠٠ قبل الميلاد .

٢ — الحضارة الشيلية وقد تناول الانسان خلالها أداته السابقة بالتحسين فأرهفها إرهافاً غليظاً ودببها حتى أصبحت على شكل اللوزة وهيأها لتكون أكثر صلاحية لقبضة اليد البشرية . وقد حدد لهذه المرحلة تاريخ يرجع إلى حوالى عام ١٠٠٫٠٠٠ ق . م .

٣ — الحضارة الأشولية Acheulian وقد دخلت خلالها تحسينات أخرى على الأداة تناولتها بالتهذيب وهى لم تصلح إصلاحا يجعلها متناسقة وأكثر حدة فحسب بل وأنتجت إلى جانبها أدوات أخرى هى المطارق والكاشطات ورؤوس السهام وسنان الرماح والمدى . وقد حدد لهذه المرحلة التى تمثل تطوراً هاماً فى الصناعة حوالى عام ٧٥٠٠٠ ق . م .

وهذه الأقسام الثلاثة هى المعروفة بالعصر الحجرى القديم الأسفل أو عصر صناعه النواة .

٤ — الحضارة الموستيرية Mousterian وهى حضارة ترتبط بإنسان نياندرثال ، وقد حلت الرقائق الصخرية خلال هذه المرحلة محل المدى الحجرية الخشنة الصنع وكانت هذه الرقائق أخف وزناً وأرهف حداً وأحسن شكلاً . وحدد لهذه المرحلة حوالى عام ٤٠٠٠٠ قبل الميلاد .

أما العصر الحجرى القديم الأعلى وهو المعروف بعصر المحتات فيشمل الثلاث حضارات الأخرى وهى الأورنياسية والسولترية والمجدلانية .

٥ — وأما الأورنياسية التى ترجع إلى حوالى عام ٢٥٠٠٠ ق.م . فهى أولى الحضارات التى ظهرت فى أعقاب عصر الجليد الرابع وهى تمثل الخطوة الأولى لحضارتنا التى نعيشها اليوم كما تمثل أولى ثقافات إنسان كرومانيون وقد ظهرت خلال هذه الحضارة أدوات مصنوعة من العظام إلى جانب الأدوات الحجرية كما ظهر فن النقش على الصخور ، وبدأ الانســـان يمارس فن التصوير فنقش على الصخور صوراً ورسومات ساذجة لنساء عاريات .

٦ — وأعقبت الحضارة السولترية حوالى عام ٢٠٠٠٠ ق.م . هذه الحضارة فأضافت إلى التراث الانســـانى تقدماً ملحوظاً يتضح فى صناعة المدى والمثاقب والمناشير والرماح والحراب والإبر من العظم والأدوات الأخرى التى صنعت من قرون الوعول .

٧ — وحوالى عام ١٦٠٠٠ ق.م. ظهرت بوادر الحضارة المجدلانية التى تمتاز بصناعة مجموعة متنوعة من الأنية من العاج والعظم وكذا المشابك والإبر .

ويميل بعض العلماء إلى توزيع هذه الأقسام توزيعاً يتفق وتطور المواد المختلفة التى استخدمت فى تلك العصور السحيقة .

فهناك الحقبة الباليوليتية وتعنى العصر الحجرى القديم وهى التى ساد فيها الحجر المنحوت نحتاً ساذجاً ، ثم الحقبة النيوليتيــة وهى التى استخدم خلالها الحجر المصقول . والحقبة الانيوليتية وهى التى دخلت فيها صناعة النحاس إلى جانب الأدوات

الحجرية وتمثل هاتان الحقبتان العصر الحجرى الحـــديث .

والواقع أن الحقبة النيوليتية متصلة اتصالا وثيقاً بالحقبة الانيوليتية وليس الفارق بينهما اقتصار استخدام النحاس على الأخيرة وإنما شيوع استعماله بنسبة أكبر ، ذلك لأن النحاس والذهب استخدما كذلك فى الحقبة النيوليتية وإن كان ذلك على نطاق ضيق كمواد للترف بقصد الزينة فقط ، وقد بدأت الحقبة الانيوليتية تتخذ صورتها الواضحة حين أدركت قيمة الاستخدام العملى للنحاس فظهرت أدواته إلى جانب أدوات الظران دون أن تنسخها أو تحل محلها .

ومن المرجح أن صناعة الفخار نشأت فى العصر الحجرى القديم (الپاليوليتى) ولكن تشكيل الأوانى والتحكم فى ألوانها لم يعرف بصفة قاطعة إلا فى العصر الحجرى الحديث (النيوليتى والانيوليتى) وهو العصر الذى يرجح البعض أن المورد الأساسى لحضارته كان أواسط آسيا .

ويميل بعض المحدثين إلى تناول حياة الانسان من ناحية تطوره الحضارى من زاوية أخرى تشتمل النشاط المتصل بتطور الصناعة والحياة الاقتصادية ، فهم يرون أن الانسان مر بثلاث مراحل هى :

١ — مرحلة جمع الطعام وهى المرحلة التى قضى عشرات الآلاف من السنين يسعى خلالها متنقلا وراء الرزق صائداً ومكافحاً فى سبيل الوصول إلى ما يقتات به وهى تقابل الحقبة الپاليوليتية (العصر الحجرى القديم) .

٢ — مرحلة الانقلاب الصناعى التى عرف خلالها الاستقرار وتوصل إلى الزراعة وتكوين المجتمع الأول .

٣ — مرحلة إنتاج الطعام وتشمل العصرى الحجرى الحديث بحقبتيـــه : النيوليتية والانيوليتية .

وهى كلها كما نرى مراحل تختلف فى أسمائها وتتفق فى مسمياتها وتحدد تطوراً حضارياً ملحوظاً .

العصر الحجرى القديم فى مصر

مر الإنسان فى مصر بنفس الأدوار التى مر فيها إنسان أوربا ولئن كانت الحضارة التى ألمعنا اليها قد درست دراسة مستفيضة هناك ، إلا أنها لم تحظ بمثل هذه العناية هنا لسوء الحظ ذلك لأن البحوث هنا حديثة واقتصرت على الجهات التى تطل على وادى النيل . . . أما الصحراوات المترامية الأطراف فلم يرتدها الباحثون لأسباب عدة : منها قلة موارد المياه ومنها وعورة المسالك ومع ذلك فهى لا تزال كتاباً مفتوحاً للباحثين .

وتدل طبقاتها على أنها ظلت تحت الماء فى عصر الأيوسين تتلقى الكثير من الرواسب البحرية ولم تكد تظهر فوقه حتى غطتها الغابات والبحيرات والأنهار.. ثم حدثت اضطرابات فى القشرة الأرضية نجم عنها تضرس فانحسرت المياه وكانت تجرى إلى الغرب من المجرى الحالى للنيل فى منخفض يمكن تتبع آثاره عن طريق خط الواحات الليبية .

وفى عصر الميوسين والبليوسين ازداد سقوط الأمطار وانسابت المياه فى وفرة إلى مجرى النهر الذى بدأ يشق مجراه .

و الحقبة البليوسينية توغلت مياه البحر المتوسط حتى أسوان ، وفى أواخر الدهر الثالث بدأ البحر ينحسر تدريجاً فنشأت المدرجات الجانبية .

وفى الدهر الرابع بدأ النهر فى دور الترسيب الذى لا يزال قائماً حتى اليوم وظهر الانسان الذى ترك مخلفاته فى قرى ومقابر تشير إلى حضارة أرقى من السابقة .

وكان الجو حاراً رطباً وأخذ الجفاف يتمشى تدريجاً نحو الشمال حتى اتخذت

مصر صورة قريبة من الصورة التى نعهدها اليوم وهى ذلك الوادى الخصيب تحيط به الهضبتان الصحراويتان .

أما تكوين التربة فى مصر فبدأ عن طريق الصخور النارية فى الدهر الأول ثم الرملية فى الدهر الثانى مختلطة بالأصداف والنباتات ثم الصخور الجيرية التى تحوى الأصداف فى أخريات الدهر الثانى وأوائل الثالث .

والنوع الأول ظاهر اليوم فى صحراء العرب ومنطقة الجندل الأول عند أسوان وأما النوع الثانى فيمتد من شمال أسوان حتى إسنا . وأما النوع الثالث فهو الهضبة الليبية من إسنا حتى القاهرة الحالية .

وأصبح المصرى بعد العصر الحجرى القديم راعياً ثم زارعاً فصقل حد فأسه وأتقن صناعة الأدوات الحجرية ، وقد عثر على مخلفات العصر الحجرى القديم الأسفل فى الصحراء عند سهل العباسية فى شرق القاهرة وفوق الهضبة الأبوسينية .

وعثر على طول الوادى كذلك على آثار العصر الحجرى القديم الأوسط فى الصحراوات على الجانبين وفى العباسية والفيوم .

وكان الانسان الباليوليتى يعيش فى الجهات المرتفعة فى كهوف كأخيه فى أوربا ، أما فى الجهات المنخفضة فكان يعيش فى العراء . وكانت صحراواتنا الحالية عامرة بالغابات التى تعج بالحيوانات الثديية الضخمة قبل أن يعصف بها الجفاف . ولما تحركت الموجات الثلجية إلى الشمال بدأ الجفاف يحل بأماكن كثيرة فنزل إلى النهر خطوة خطوة تاركاً وراءه تدريجاً آثاره على المدرجات وهى أدوات تدل على مراحل متقدمة من تهذيب الأحجار ومن أهمها الفهر وهى قطع ضخمة ذات وجهين مثلثة الجوانب أو لوزية الشكل مشظاة على حافتين ولها سن حاد فى أحد طرفيها وقد تحد من أحد جانبيها حتى تصبح ساطوراً . وهناك قطع أخرى ذات حد واحد يمكن التعرف عليها من تشظيتها على شكل مخروط ومن تشظية جوانبها

ومنها المدابب وهى تمثل ما يعتبر مخارز أو مساحى أو مكاشط .

وتدل ظواهر الأمور على أن الجو بدأ يتحول إلى الدفء والجفاف فقلت النباتات وبدأت تكثر أنواع من الحيوان تألف الجفاف مثل النعام والغزال . ولم يعرف شكل إنسان ذلك العصر إلا من الآثار . على أنه لم يكن من جنس إنسان نياندرثال أو من جنس كرومانيون وهو لم يترك آثاراً تصل إلى مستوى نظيره فى أوربا .

ولقد عثر « فنيار Vignard » على آثار عند نجع حمادى بين المدرجات الموستيرية وطمى النيل الحديث قريبة الشبه بالأورنياسية . وقد عاشت الموستيرية فى مصر أطول مما عاشت فى أوربا وأطلقت عليها « كاتون تومسون Caton Thompson » فى الواحة الخارجه اسم « ما قبل السبيلية » ومعنى ذلك أن مصر ظلت فى مرتبة العصر الحجرى القديم الأوسط فى الوقت الذى كانت أوربا قد انتهت من مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى .

ولكى لاتضلنا هذه الحقيقة فإن البحث أثبت أن الفرق واضح بين الموستيرى فى مصر ونظيره فى أوربا .. فالموستيرى فى مصر يمكن اعتباره حضارة مبكرة من حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى فهو فى مستوى أعلى من غير شك من مستوى حضارة العصر الحجرى القديم الأوسط الذى ينضوى نظيره فى أوربا تحته. ومع ذلك فمعظم آثار هذه الحضارة فى مصر مدفون تحت طمى النيل لأن إنسان هذا العصر اضطر إلى الاقتراب من النهر لقلة الأمطار على الحبشة ، وقد وجدت بعض آثار هذه الحضارة فى الواحات ومن بينها ما يعرف بالنصل الموستيرى على شكل مثلث له ضلعان مستقيان أو مقوسان وهو مدبب وقاطع معاً . وقد أنتجت هـــذه الحضارة ومشتقاتها (الأثيرية والسبايكية) النصل ذا الرعظ لتثبيته فى النصاب . وتمتاز السبايكية بالنصل ذى الوجهين على شكل ورقة

الغار . كما أخرجت هــذه الصناعات نصالا ذوات رعظ فى الوسط وشوءين متدليين من الجانبين .

ولقد ظهرت فى أفريقيا من مجموعة العصر الحجرى حضارة عرفت تحت إسم « الحضارة القفصية » وبداية هذه الحضارة قريبة الشبه من الحضارة الأورنياسية فى أوربا أما القفصية الوسطى فتشبه السولترية وإن اختلفت عنها فى نوع الصناعة ويظهر أنه فى أواخر هــذه المرحلة خرجت من شمال أفريقيا هجرتان اتجهت إحداهما إلى أوربا حيث أنشأت حضارة عرفت بالحضارة التردنوازية (فى شمال فرنسا) واتجهت الأخرى الى جنوب افريقيا وهى لاتزال قائمة حتى الآن لدى البوشمان وتشبه من نواحى كثيرة القفصية الحديثة .

والقفصية الحديثة هى المعروفة بحضارة الأدوات الحجرية القزمية وأصحاب هذه الحضارة كانوا يعتمدون على الصيد ، وأوانيهم من بيض النعام .

ولقد ساد الاعتقاد دهراً طويلا فى أن الانسان الموستيرى ظل بمصر حتى قيام العصر الحجرى الحديث أى أن مصر لم تمر بالعصر الحجرى القديم الأعلى حتى أثبت « فنيار Vignard » عن طريق كشوفه فى نجع حمادى وكوم أمبو من الحضارة السبيلية عراتبها الثلاثة : الأولى الشبيهة بالموستيرية ثم الثانية وهى المرحلة الوسطى ثم الثالثة التى سادت فيها الأدوات القزمية .

والأولى كما نعلم هى الموستيرية المصرية ، أما الثانية والثالثة فتكاد الواحدة منهما تشبه الأخرى لولا الاختلاف فى حجم الأدوات .

وإنه لمن الثابت أن انسان العصر القفصى اتخذ الحلى من العظام وقشر بيض النعام وأصداف القواقع . وكان الميت يدفن فى هذه العصور ورجلاه مثنيتان الى

بطنه ويداه مضمومتان الى صدره (شكل ٣) ويرى « فنيار Vignard » أن السبيليين المتأخرين كانوا على دراية بصناعة الأوانى البسيطة من الطين والصلصال.

العصر الحجرى الحديث فى مصر

يشير العصر الحجرى الحديث فى مصر إلى تقدم ملحوظ فى صناعة الفخار وإتقان صقل أدوات الظران وبدء فلاحة الأرض وتربية الماشية . وليس لدينا حتى الآن ما يؤكد وجود علاقة بين العصر القفصى والعصر الحجرى الحديث فى مصر .

ولقد كانت الحياة فى وادى النيل فى العصر الحجرى الحديث تشبه الحياة فيه اليوم وإن تغيرت طبيعة الأرض . فقد كانت فى تلك العصور تكسوها الأدغال التى تأوى اليها وإلى الأحراش والمناقع الزرافة والفيل وأفراس النهر . ولعل الحياة فى مصر فى هذه العصور كانت تشابه الحياة اليوم فى إقليم النيل الأبيض .

ومعرفتنا بالأحداث السياسية والتاريخية التى مرت بالبلاد إذ ذاك تكاد تكون معدومة رغم أننا استطعنا أن نتلمس جوانب شتى تشير إلى فنونهم وصناعاتهم وحضارتهم .

وكان لكفاحهم وصراعهم فى سبيل الحياة أثره فى مرانهم على العمل الشاق فى مجموعات متآزرة وفى تعارفهم وتعاونهم مما كان له أثره فى توحيد البلاد فيما بعد .

وقد أمكن العثور فى الوجه القبلى على خمس محطات حضارية تمثل العصر الحجرى الحديث فى مصر مرتبة من الأقدم للأحدث بالجهات التالية :

١ - ديرتاسا .
٢ - البدارى .

٣ ـ العمرة .

٤ ـ جرزة .

٥ ـ السماينة .

أما الاولى والثانية فتمثلان العصر الحجرى الحديث الصميم :

وأما الباقيه فهى ما يطلق عليها عصر نقادة وتمثل عصر ما قبل الاسرات ،

وأما فى مصر الوسطى فقد وفق الباحثون للعثور على مركزين حضاريين للفيوم أمكن ترتيبهما ، فوضع الواحد فى العصر الحجرى الحديث ووضع المركز الآخر فى عصر ما قبل الأسرات .

ولدينا من حضارات الوجه البحرى أربعة مراكز هى على الترتيب من الاقدم إلى الأحدث :

١ ــ حلوان الاولى (العمرى) .

٢ ــ مرمدة .

٣ ــ حلوان الثانية .

٤ ــ المعادى .

وأما حلوان الأولى ومرمدة فمكانهما فى العصر الحجرى الحديث ، وأما حلوان الثانية والمعادى فمكانهما فى عصر ما قبل الأسرات .

وعلى ذلك فإن حضارات العصر الحجرى الحديث الصميم فى مصر هى :

دير تاسا والبدارى	فى الصعيد
الفيوم	فى مصر الوسطى
حلوان الأولى ومرمدة	فى الوجه البحرى

وحضارات عصر ما قبل الأسرات فى مصر هى :

العمرة وجرزة والسماينة وهى التى يطلق عليها عصر نقادة فى الصعيد .

الفيوم في مصر الوسطى

حلوان الثانية والمعادى في جنوب الدلتا

ونستطيع أن نقرر أن العصر الحجرى الحـــديث بدأ فى مصر حوالى عام ٦٠٠٠ ق. م. فى المرحلة التى عرفناها من قبل تحت اسم مرحلة الانقلاب الصناعى التى عرف الإنسان خلالها الاستقرار وتوصل للزراعة وتكوين المجتمع الأول. والواقع أن المصرى قطع فى هذا العصر مراحل واسعة فى سبيل الحضارة، فاستأنس الحيوان وقام بالرعى واهتدى للزراعة وبنى المسكن وانتظمت الجماعات وهذبت الأدوات التى كان يعرفها من قبل واتسع نطاق استعمالها بعد التحسينات الكثيرة التى أدخلت عليها مما يتفق ومطالبه الجديدة المتزايدة. وقد اهتدى فى أخريات ذلك العصر إلى معرفة النحاس فأدخله ضمن المواد التى يصنع منها أدواته، وكان للوصول إليه أثره وخطره فى الميدان الحضارى.

التوقيت المتتابع

فى شتاء عام ١٨٩٤ عثر السير فلندرز بيترى Sir Flinders Petrie بمعاونة « كويبل » Quibell فيما بين بلاص ونقادة على منطقة أثرية تختلف عما كان معروفاً من قبل. وقد اعتقد عند الكشف عنها أن آثارها من مخلفات جنس آخر أطلق عليه اسم الجنس الجديد، وزعم أنه دخل إلى مصر فى العهد الواقع بين الدولتين القديمة والوسطى وأنه استوطن الإقليم الواقع بين سوهاج وكوم أمبو وأنه كان على عداء مع المصريين ... بل زعم أكثر من ذلك أن المصريين طردوا أو أبيدوا عن آخرهم فى هذه الناحية كما زعم كذلك أن هذا الجنس ينتمى إلى الليبيين.

وتمكن « دى مورجان De Morgan » فى العام التـــالى (١٨٩٥) من أن يقوم بدراسة المقابر التى عثر بها على آثار تشبه ما عثر عليه فى نقادة وانتهى إلى

تقرير أن هذه الآثار ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات . وقد راجع « پيترى » نظريته وارتاح إلى نتائج دراسة « دى مورجان » وكان ذلك عقب قيامه ببعض أعمال الحفائر فى دندرة عام ١٨٩٧ . وهكذا لم يعد هناك شك فى تاريخ هذه المكتشفات .

وخلال هذه السنوات تمكن « پيترى » من الوصول إلى طريقة خاصة لتنظيم تاريخ ما قبل التاريخ وهو ما سماه بالتوقيت المتتابع .

* * *

كان من المتفق عليه قبل ذلك — كما شهدنا من قبل — أن يطلق على آثار ما قبل التاريخ أسماء الجهات والبلاد التى يقع الكشف فيها عليها أو بالقرب منها ولكن هذا لم يكن كافياً لمعرفة وترتيب ما يكشف عنه إذ أن كل منطقة لم تلتزم دائماً أشكالا ثابتة بل لابد أن يكون قد دخل عليها كثير من التبديل والتعديل ، وإن ما يمكن قوله فى هذه الحالة هو أن منطقة تسبق أخرى أو تعتبر لاحقة لها .

وقد بلغت الآثار التى عثر عليها فى نقادة من الكثرة حداً كبيراً وكان تنوعها تنوعاً واضحاً وتباينها من حيث الشكل والطراز مما يشير فى إبانة إلى اختلاف من تقدم أو تخلف فى المضمار الحضارى ، ولذا كان من الضرورى أن ترتب ترتيباً يشير إلى تطورها حتى يمكن الكشف عن تتابع الحضارات التى تمثلها وحتى تتضح صلة هذه الحضارات ببعضها البعض مما قد يعوض عدم القـــدرة على تأريخها تأريخاً زمنياً صحيحاً .

وقد اعتمد « پيترى » — ليحقق هـذه الأغراض — على نوع الأوانى من الفخار بسبب كثرتها وتنوعها . أما الآثار الأخرى كأوانى الحجـــر وأدوات الظران وغيرها فإنها إذا مارتبت طبقاً لما أدى إليه ترتيب الفخار الذى وجدمعها فإن ترتيبها يساعد على تحقيق صحة النتائج التى أدى إليها ترتيب الفخار .

وقد قسم « بيترى » الفخار أقساماً وجعل لكل مقبرة سجلا للأنواع المختلفة ثم لمحتوياتها ، ثم قام بترتيب الفخار تبعاً لتطور صناعة المقابض أحياناً (لأنها مثلت مراحل متتابعة) أو تبعاً لألوان الفخار ودرجة صقله معتمداً فى تقديم نتائجه على هذه الأمور مجتمعة .

وقد تمكن من ترتيب سبعمائة بطاقة لسبعمائة مقبرة حسب ترتيبها الزمنى ، ثم ارتأى أن يوزعها على خمسين مرحلة رمز إليها بالفترات من ٣٠ إلى ٧٧ تاركاً الفترة من ١ إلى ٢٩ لما يمكن الكشف عنه مستقبلا من آثار سابقة لعهد نقادة .

وقد أطلق على هذا النظام الذى اهتدى إليه اسم «التوقيت المتتابع» ، وقام بعمل قائمة لأشكال جميع أنواع الفخار التى وجدت فى مقابر نقادة ذاكراً رقم التوقيت المتتابع أمام كل شكل منها . وأضاف إلى هذه الأشكال أشكالا أخرى لما تحوى مقبرة تحوى عدداً من الفخار تساعد على دقة الترتيب الذى افترضه . وبذا أصبح عدد البطاقات تسعمائة بطاقة لتسعمائة مقبرة .

ثم عمد « بيترى » إلى فحص أشكال الفخار وتطورها ومقارنتها ببعضها البعض مما أدى إلى تعديل الكشف السابق تعديلا محدوداً لا يتعارض مع الحقائق التى سبق أن وصل إليها . وهكذا أصبح فى الإمكان معرفة رقم التوقيت المتتابع لأية مقبرة يكشف عنها بمقارنة أشكال الفخار التى يعثر عليها فيها بالقائمة المذكورة .

ولقد أثبتت هذه الطريقة فائدتها وإن كانت الآثار التى كشف عنها فيما بعد دفعتنا إلى إدخال بعض التعديلات والتفصيلات الجديدة . على أنه لا يجب أن نفهم أن الأرقام أو الفترات التى اتبعها « بيترى » والتى يطلق عليها التوقيت المتتابع تدل على تاريخ محدود كما يجب مثلا أن نلاحظ كذلك أن المدة الواقعة بين فترة وأخرى لا تعادل مدة زمنية بين فترتين أخريين .

وتمكن « پيترى » كذلك عن طريق التوقيت المتتابع من أن يميز مبدئياً بين عهدين مختلفين يمثلهما مجموع الآثار التى كشف عنها فى نقادة أطلق عليها إسمى الحضارة الأولى والحضارة الثانية . ولما أصبحت هذه التسمية لاتتفق وما كشف عنه فيما بعد من آثار أوائل العصر الحديث رأى « شارف Scharff » إطلاق اسم نقادة الأولى ونقادة الثانية عليهما . ثم رأى « پيترى » أن الحضارة الثانية وحدها تشمل عهدين متمايزين، وهكذا أصبحت هناك ثلاث مراتب حضارية لحضارات أوائل ما قبل التاريخ أو حضارات أوائل ما قبل عهـــد الأسرات . ولا يزال الكثيرون من العلماء يميلون إلى هـذه التسمية وإن عاد « پيترى » فميزها بالأسماء التى أشرنا إليها من قبل وهى حضارة عمرة وحضارة جرزة وحضارة السماينة . ويمكن وضع الأولى فى جدول التوقيت المتتابع مبتدئة برقم ٣٠ حتى رقم ٣٧ على أن تبدأ جرزة من ٣٨ وتنتهى عند رقم ٦٠ حيث تبدأ السماينة مستمرة إلى رقم ٧٥ +

وليس يهمنا هنا أن نتحدث تفصيلا عن مظاهر حضـــارات أوائل العصر الحجرى الحديث أو نتناول دقائقها هى والفترة التالية لها حتى قيام الأسرات بإسهاب فهذا مبحث تقوم دراسات الآثار بمعالجته . ولكن الدراسات للفترة السابقة لرقم ٣٠ أو على وجه التدقيق للفترة المحصورة بين رقمى ٢١ ، ٣٠ تدل على أن الحضارات التى قامت فى مرمدة والفيوم وديرتاسا تكاد تكون متشابهة فى كثير من النواحى .

فلقد كانت أشكال الفخار بسيطة لاتميزها علامات الصانع أو المالك وإن ظهرت بها بعض الزخارف . وكان الفخارون لم يتوصلوا بعد إلى معرفة الدولاب فكانت الصناعة يدوية . ولم يستعمل النحاس فى هـذه الفترة ولكنهم عرفوا كيف يفيدون من العظام فأدخلوها فى الصناعة وأنتجوا منها نصـــالا لتسليح

لخطاطيف وإبراً يخيطون بها الجلود . وكان جل اعتماد القوم إذ ذاك على الزراعة والصيد معا فزرعوا الحبوب والكتان وقاموا بتربية الماشية . واستطاعوا أن يخزنوا الفائض فى أهراء . . وألموا بصناعة النسيج الذى كان خشناً على كل حال كما توصلوا إلى معرفة عمل السلال والحصر . وكانوا يصبغون وجوههم بالمغرة ويزججون عيونهم بالدهنج وعرفوا من الحلى حلقات من العاج والخرز من العظم والأصداف .

ومما تجدر ملاحظته أن حضارة الفيوم أقوى صلة بمرمدة منها بدير تاسا كما أن هناك بعض الاختلاف اليسير الذى يتضح عند دراسة مظاهر هذه الحضارات ، ذلك أن أصحاب حضارة الوجه البحرى مثلا كانوا يدفنون موتاهم بين المساكن بينما كان الموتى فى مصر الوسطى والصعيد يدفنون خارج القرى . ومنها كذلك أن مخازن الحبوب تكاد تتفق والدفن فهى فى الشمال داخل القرى بين المساكن كذلك وهى فى الفيوم يحتفظ بها فى مكان خاص خارجها .

ويميز عصر ديرتاسا غياب المعادن وبدائية صناعة الفخار .

وكان سكان مرمدة أطول قامة من أهل الصعيد وهم أقرب لأصحاب ديرتاسا ممن جاءوا بعدهم . ورءوسهم طويلة أشبه برءوس التاسيين كذلك منها برءوس من جاءوا بعدهم . ويرى الدكتور « درى Derry » بهذه المناسبة أن وادى النيل كان يسكنه جنسان يرجعان إلى عنصرين مختلفين : الجنس الجنوبى ويرجع إلى العنصر الأفريقى الزنجى والجنس الشمالى ويظن أن بينه وبين الشرق صلات جنسية ، كما يظن أن الليبيين قد أثروا فيه وهو الرأى الذى أشرنا إليه من قبل ، وقد بنى أهل مرمدة قراهم من أكواخ من القصب الذى ينزل إلى مادون مستوى سطح الأرض .

من المعروف أن البداريين ورثوا حضارة التاسيين .

ومكان البداريين فى سلم التتابع بين رقمى ٢١ ، ٢٩ ويبدو أنهم اضطروا إلى تجفيف المستنقعات ليكسبوا بعض الأراضى الزراعية حتى يسهل ريها بدلا من الاعتماد على الأمطـــار التى أدركوا أنها لا تكفى لرى الأرض المزروعة ، ومع ذلك فإنهم لم يهملوا أمر الصيد .

وكان مجتمع البدارى يشتمل طائفة من الأكواخ البيضية أو المستديرة المبنية من مواد خفيفة ، وكان البداريون يحفظون طعامهم أحياناً فى ســـلال تعلق فى الكوخ وقد أضافوا إلى أثاثهم الحصير والأسرة الخشبية وعليها وسائد من النسيج أو الجلد المحشو بالقش . وتمتاز حضارة البدارى بفخارها الذى يعد أرقى من فخار الحضارات السابقة وتظهر به التموجات التى تحلى سطحه الخارجى كما توجد به الأنواع الفاخرة التى تتسم برقة جدرانها وأغلبها مسطح . ولقد اســـتعمل البداريون إلى جانب ذلك بعض الأوانى من البازلت (شكل ٤) ومن العاج . وحفظت لنا من تلك الفترة تماثيل صغيرة من الفخار ومن العظام ومن البازلت . وعرف البداريون كذلك النسيج بدليل وجود قطع من الكتان وكانوا هم أول من استخدم النحاس فى صنع الدبابيس وإن تم ذلك فى أضيق الحدود . وعرفوا التبادل التجارى كذلك فلم يقتصروا فى صناعاتهم على المواد المحليـــة بل كانوا يستوردون الكثير من جهات أخرى . أما مدافن البداريين فكانت على طراز بيوتهم : بيضية أو مستديرة ولم تكن بها تكسية داخلية : وكان الميت يوضع داخل حصير أو جلد ويوسد الثرى موجهاً نحو القرية وفى متناول يده أدواته ومتاعه .

وعرف البداريون الكماليات ومواد الترف والزينة وكان من بين ما عثر عليه من

مخلفاتهم ما يشير إلى ولعهم الشديد بالتزين بالحلى الخزفية والعاجية والمصنوعة من الأصداف كما كانوا يعرفون الامشاط والصلايات والتمائم . ومن بين ما عثر عليه فى مقابرهم قطع للزينة تشهد بذوق فنى لا بأس به فهناك قلائد من صنوف من خرز الفيروز تفصـــل بين حباته قطع من العقيق واليشب والحجر الارقط . وهناك كذلك مناطق من ضفائر من صنوف الخرز الازرق والاخضر وأساور ضخمة من العاج مخروطة مع خط بارز فى الوسط وأمشاط من العاج مثبتة فى الشعر، شكل هيكلها على صورة رأس طائر . وقد عثر على أدوات للتجميل فى المقابر منحوتة من العاج نحتا جميلا وتتمثل فى أوان مصغرة للدهون وملاعق مستديرة ومستطيلة ذات مقابض اسطوانية تنتهى برءوس الحيوانات .

وليس هناك من شك أن البداريين كانت لهم عقائد دينية من نوع ما بدليل وجود التمائم ودفن بعض الحيوانات كالثور والكلب والشاة والمعز وبنات آوى ويظن أنهم اعتقدوا فى الحياة بعد الموت بدليل وضع القرابين إلى جانب الميت مما يمكن أن يقوم شاهدا على وجود فكرة تردد الروح على المقبرة .

* * *

ولقد أعقبت حضارة البدارى حضارة أخرى لها قيمتها هى حضارة نقادة التى كشف عنها ، السير فلندرز بيترى ، والتى حـــددت فى سلم التوقيت بين رقمى ٣٠ ، ٧٧ وهى متصلة ليس هناك ما يشير إلى انفصال بين شعبيتها الممثلتين فى عمره وجرزه .

* * *

العمرة

أما الفترة بين ٣٠ ، ٣٧ فهى المعروفة بحضارة نقادة ١ وتمثلها حضـــارة العمرة (نجع العمرة قرب البلينا) التى يرى ، بيترى ، أنها ليبية الاصل بينما

يراها «شارف» افريقية خالصة أصحابها من الجنس الحامى الذى انتشر فى شرق وغرب وادى النيل . ويمكن تقسيم هذه الحضارة إلى مرحلتين : فأما المرحلة الأولى (من ٣٠ إلى ٣٤) فتمتاز بالفخار المحلى بالخطوط البيضاء المتقاطعه كالشبكة الذى اختفى فى المرحلة الثانية (من ٣٤ إلى ٣٧) وحل محله الفخار المصقول ذو الشفة السوداء والأحمر المصقول (شكل ٥) . ولا تبلغ جودة فخار العمرة المدى الذى بلغه فخار البدارى وإن ظهرت به أنواع جديدة محلاة بالرسوم يمتاز بعضها بظهور علامات الصانع أو الملكية . وقد انتشرت الأوانى الحجرية من الأحجار الصلبة كالجرانيت والبازلت وان وجدت أوانى من أحجار أقل صلابة كالستياتيت والمرمر . وقد عثر على دمى من الفخار والعاج تمثل رجالا يلبسون جعبة أو نساء يسترن العورة وبهن بعض الوشم . وأما رؤوس الأمشاط ذات الأسنان الطويلة فتمثل طيورا وحيوانات . وقد ظهرت من الحلى الدبابيس إلى جانب حيات النحاس كما ظهر ما يشير إلى بداية استخدام الذهب .

جرزة

أما الفترة بين ٣٨ ، ٦٠ فهى المعروفة بحضارة نقادة ٢ وتمثلها حضارة جرزة (قرية من قرى مركز العياط) وهى مستقلة تماما عن الحضارة السابقة . وكانت حضارة جرزة أوسع انتشاراً فى مصر الوسطى ولم يعثر على ما يمثلها فى الدلتا . ويمكن تقسيمها كسابقتها الى مرحلتين : الأولى من ٣٨ إلى ٤٤ وهى بداية عهد جرزة والثانية من ٤٥ إلى ٦٠ . ويرى «بيترى» أن أصحاب هذه الحضارة قدموا من سورية أو جبال البحر الاحمر . . . ويعارضه «شارف» مرة أخرى ، فيرى أن الحضارة هنا ترجع أصلا إلى الدلتا وأنها تسربت إلى مصر الوسطى ثم انتقلت فيما بعد إلى الصعيد حيث انتشرت وحلت محل حضارة العمرة . ورغم أنه لم يكشف عن مثيل لحضارة جرزة فى الوجه البحرى حتى الآن إلا أنه توجد قرائن تشير إلى أن هذه الحضارة كانت قائمة فى الدلتا قبل

انتقالها إلى مصر الوسطى والصعيد ذلك أن فخار جرزة تظهر عليه رسوم ينفرد بها تمثل أعلام المراكب المرسومة على الفخار المحلى بالرسوم باللون الأحمر وهى تمثل الوجه البحرى كما أن المراكب والطيور المائية المرسومة على هذا النوع من الفخار تشير إلى بلاد كثيرة البحيرات والقنوات مما يتفق وطبيعة الوجه البحرى إذ ذاك (شكل ٦) وعلى ذلك فإن حضارة جرزة تمثل مصر المتحدة بعد أن أخضع سكان الوجه البحرى الصعيد، وهى تجمع بين حضارة غرب الدلتا وشرقها. ومع هذا التوحيد انتشرت اللغة المصرية فى الجنوب وهى لغة ذات صبغة سامية تشير إلى قيام علاقة ثقافية بين الدلتا وغرب آسيا.

* * *

ولم يكن الأمر فى الدلتا كما كان فى الصعيد من حيث العزلة التى فرضتها الظروف الطبيعية ذلك لأن دلتا النيل كانت دواماً معبراً العالم الكائن فى شرق البحر المتوسط ففى هذه البقعة التقى الليبيون من الغرب بالقبارصة والرودسيين والكريتيين وبدو سينا وتبادلوا معهم خير ثمـــار ثقافاتهم كما فعلوا ذلك بالنسبة للجيران الأقربين من السوريين الذين حملوا معهم خلاصة المدنيات الكبرى التى قامت فى بلاد ما بين النهرين ... دجلة والفرات.

ويزعم بعض المؤرخين أن ثقافة الدلتا ذات أصل أسيوى بحت ولكن « باومجارتل Baumgartel » يرى تزكية رأى پيترى Petrie القائل بأن ثقافة الدلتا تسربت إليها عن طريق وادى الحمامات عبر البحر الأحمر ثم انتشرت من نقادة متسربة إلى مصر السفلى بينما يرى البعض الآخر أن الأمر لم يكن كذلك وأن انتقال الثقافة اتخذ طريقا عكسياً — وهو رأى يراه الكثيرون وفى مقدمتهم « هيس William Hayes » — بمعنى انتقالها من الشمال إلى الجنوب.

ومها يكن من أمر فإن أثر الارتباطات المباشرة فى الشمال يتضح جليا فى التراث الذى خلفته حضارات غرب الدلتا والفيوم من العصر النيوليتى وقد دفع استمرار وتدعيم هذه الارتباطات المصرى إلى أن يتطور فى عصور ما قبل الأسرات إلى حضارة لاتختلف اختلافا بينا عن حضارة الصعيد فحسب بل تسبقها سبقاً جلياً من الناحيتين العملية والفنية .

ولئن عاق السهل الفيضى قيام بحوث جدية فإن هذا اللون الحضارى يتمثل بجلاء فى حضارة جرزة من المرحلة الوسطى والمتأخرة لعصر ماقبل الأسرات وهى حضارة نلتقى بها فى أبو صير الملق وجرزة على السواء (على خط عرض الفيوم) وتعد من الحضارات الشمالية .

ولقد ظلت حضارتا ماقبل الأسرات فترة وجيزة تسيران جنباً إلى جنب ثم استطاعت حضارة الشمال الفتية أن تزحف زحفا متواصلا رتيباً إلى الجنوب ممتزجة بحضارته متصة إياها وهكذا نلتقى فى فترة أواسط ماقبل الأسرات بمحلات وجبانات فى مصر العليا تزخر بالفخار التقليدى وغيره من منتجات الشماليين ثم نرى الأشكال الجنوبية تتراجع حتى تختفى أو تنزوى فى النوبة وتظهر العمالية ، التى يبدو أنها بدأت خلال أوائل عصر ماقبل التاريخ ، جلية فى الجبانات الضخمة فى نقادة وبلاص . والواقع أن جانباً كبيراً مما وصلنا من حضارة الشمال والجنوب المادية استخرج من هذه الجبانات فى هاتين الناحيتين أو من مجاوراتهما .

* * *

ويمتاز فخار جرزة كذلك بالأوانى ذات المقابض المتموجة (شكل ٧) وقد تقدمت صناعة الأوانى من الأحجار المختلفة بحيث لايضـــارع جمال ما صنع هذا القبيل فى عصر آخر جمالها . وقد كثر نسبيا استعمال النحاس

فى صناعة بعض الأوانى وإن تم ذلك فى حدود ضيقة أول الأمر حتى أن سكان وادى النيل ظلوا حتى الأسرة الأولى يعتمدون لدرجة كبيرة فى صناعة أسلحتهم وأدواتهم على الظران الذى كان من السهل الحصول عليه فى كميات وفيرة من الهضاب المحيطة بوادى النيل . ورغم ذلك فإن صناعة الظران قد بدأت — من ناحية الكم — تتقهقر أمام صناعة النحاس وتفسح لها مجالا . . . وكلما قل استعمال الظران زادوا فى التأنق فى صنعه لأنه أصبح من مواد الترف .

وكان رقم ٤٠ من سلم التتابع رقما يستوقف النظر :

ففيه بدأ استعمال النحاس على النطاق الذى أوضحناه ؛ وفيه ظهرت أشكال جديدة من الأوانى الحجرية تماثل أشكال الأوانى الفخارية من جرار بيضية أو مستديرة وأكواب عميقة ؛ وعند هذا الرقم اختفت رؤوس الدبابيس (المقامع) على شكل القرص وحل محلها نوع آخر على شكل الكمثرى مستورد من غير شك من الوجه البحرى لأنه كان متداولا فى مرمدة من قبل ولقد أثرت التغيرات التى ظهرت فى جميع الميادين عند هذا الرقم على الحفر فى العاج وحلت محل أمشاط الزينة ذوات الأسنان الطويلة أمشاط للتجميل ذوات أسنان قصيرة وقد ثبت بعضها على دبوس طويل أسطوانى يغرس فى الشعر . وظهر طراز من المعالق هى مغارف بيضية أو مستطيلة فى نهاية مقبض بسيط .

وعند هذا الرقم كذلك استعمل الرسم المستطيل بدلا من الرسم البيضاوى

ولكن عند رقم ٤٥ اختفت الأكواخ الخفيفة وحلت محلها المبانى لمبنية بالطوب دون سواها .

وعند رقم ٥٠ ظهر فن النحت بازالة شظايا متساوية ومتوازية من قطع سبق صقلها حتى تكون تموجاتها على ارتفاع واحد ، بكل دقة ، وفى استدارة منتظمة .

وفى آخر عهد جرزة — عند رقم ٦٠ — أعيدت فى جميع الميـــادين الصلة بالتقاليد الفنية وتقدمت بفضل وسائل جديدة أكثر كمالا . ولم تزل كذلك حتى وصلت الى المرحلة التى أدت إلى قيام الفن الفرعونى . ولعل مقبض السكين التى وجدت فى جبل العرق والمحفوظة فى متحف اللوفر والتى ترجع إلى هذه الفترة تعد خير مثال يقدمه جمال الفن الذى يميز هذه الفترة .

ه ه ه

السماينة

أما الفترة من ٦٠ إلى ٧٥ + من حضارة نقادة فتمثلها حضارة السماينة (مركز دشنا — مديرية قنا) ويلحقها « شارف » بنقادة ٢ . وتمتاز هذه الفترة بحروب ومنازعات داخلية تشير إليها الصور المرسومة على مقابض السكاكين ووجوه الصلايات التى عثر عليها من ذلك العهد .

ولقد بلغت صناعة الظران فى الفترة مابين ٥٨ ، ٦٦ القمـة وساد استعماله فى النصال العريضة المدببة والمدى ذات القطاع المثلث والسيوف المقوسة ، ثم أخذ النحاس يحل محله فى صناعة الأسلحة.

ويحدد الرقم ٦٥ المدى الذى وصل إليه خزف الترف الذى يمتاز بزخارفه الكثيرة ورسومه ، وكان الخزف المزين بالصور قد اختفى من قبل عند رقم ٦٢ . ولعل رقم ٦٥ يختتم عهد خزف الترف فى مصر إذ أن فترة قبيل الأسرات ظلت تنتج الفخار ولكن من درجة منحطة . أما الأوانى الحجرية

فقد أخذت ترتقى وتزدهر صناعتها حتى بلغت الذروة فى عهد الأسرات الأولى .

وربما كان النزاع الداخلى الذى أشرنا إليه عاملا من العوامل التى أوقفت التقدم الحضارى من بعض نواحيه ولكن لعل أهم مايميز هذه الفترة إدراك خصائص النحاس واستخدامه فى صنع الخناجر ، وفيما عدا ذلك لايكاد هذا العهد يمتاز بغير النقوش التى ظهرت على مقابض السكاكين ووجوه الصلايات .

وكما تطور شكل المسكن من المستدير والبيضى إلى المستطيل نرى المدفن فى الفترة النقادية يتناوله نفس التطور فيتخذ الصورة الجديدة المستطيلة وقد عمت طريقة تدعيم الأرض بالبناء لاعداد قبو أكثر صلابة ، ثم استعملت جدران اللبن والقباء واستكمل القبر باضافة غرف جانبية وسلم . واختفت عادة لف الجثة فى الحصير أو الجلد وحلت محلها عادة وضع الميت فى سلة من الخوص ثم داخل تابوت من الفخار أو من الخشب .

المعادى

تلى هذه الحضارات جميعا أحدث الحضارات فيما قبيل الأسرات وهى حضارة المعادى التى تنسب إلى أواخر العصر الحجرى الحديث وتمثل الفترة السابقة مباشرة لعصر الأسرات . ولعل المعادى هى المركز الأنيوليتى الوحيد المعروف فى الوجه البحرى . وتتكون قراها من منازل مستطيلة حل فيها اللبن المجفف محل كتل الطين وهو تطور اتخذ مراحل طويلة من غير شك فى الفترة التى لانزال نجهل الكثير عنها والتى تمتد خلال الدهور التى انقضت بين عهد مرمدة والعصر السابق لقبيل الأسرات . وقد استبدلت بسلال الخوص المدهونة بالطين والمدفونة بجوار المنازل جرار هائلة من الفخار كانت تستعمل كصوامع للغلال كذلك .

* * *

ولعل أهم ما عثر عليه من هذه المراحل هو اللوحات التي كانت تستعمل لصحن الدهان وقد بدأت مستطيلة وتطورت إلى أشكال بيضية أو أصبحت تمثل أشكال حيوانات وكانت بغير نقوش فى أول أمر ثم شغل النقش منها حيزا ضيقا وأخذ ينتشر حتى ملأ جوانبها . والرسوم بهذه اللوحات تمثل مناظر صيد أو مناظر حروب . وقد راق لبعض الباحثين أثناء دراسة الرسوم أن يعقدوا لونا من المقارنات بين فنون آسيا الغربية وفن هذه اللوحات (وقد نضيف إلى فن اللوحات نقوش مقبض سكين جبل العرق) وقد انتهى رأى البعض إلى تقرير أن مصر تأثرت فى هذه المرحلة بفن ميزوبوتاميا حيث تعاصر « جمدة نصر » فى العراق عصر قبيل الاسرات فى مصر وحيث تبدو بعض الصور الأشخاص والمراكب وكأنما هى ذات مظهر سومرى . . هذا إلى أن هؤلاء الدارسين يشيرون إلى أن نظام الدخلات والخرجات فى عمارة المرحلة الأولى من الأسرات ١ — ٣ وشكل الأختام الاسطوانية وصور الحيوانات المركبة التى تظهر ببعض اللوحات . . . كل ذلك ثمرة تأثير ميزوبوتامى بدأ منذ عصر عمرة .

والواقع أنه ليس هناك مايمنع من وجود تسرب عن طريق غير مباشر إلى وادى النيل ولكنه لايمنع كذلك من وجود مثل هذا التسرب إلى وادى الرافدين وإن كان هذا لايعنى مطلقا صلات مباشرة تحمل فى ثناياها معنى الموجات الثقيلة التى تغير من لون الحضارة أو تشكلها . ولسنا نقبل بصورة من الصور مثل هذا اللون من التعصب لحضارة على حساب حضارة أخرى وخاصة والادلة أوهى من أن تقف على قدميها



(شكل ٥)

(شكل ٣)

(شكل ٤)

(شكل ٦)

(شكل ٧)

أقسام التاريخ المصرى ومصادره

اصطلح المؤرخون على تقسيم مراحل التاريخ المصرى إلى إحدى وثلاثين أسرة متبعين فى ذلك تقسيما قدمه المؤرخ المصرى « مانيتو » الذى جمع تاريخه عام ٢٨٠ ق . م . وحفظت لنا بعض فقرات منه عن طريق كتابات بعض المؤرخين المتأخرين مثل « جوزيف » و« افريكانوس » و« يوسبيوس » وغيرهم ، وهو تقسيم يقوم فى وجهه أكثر من اعتراض ، ولعل تقسيما من نوع آخر يكون أكثر رحابة ما دام يجمع كل طائفة تشترك فى صفات معينة معاً ، وأما التقسيم الذى اصطلح عليه فهو :

١ – ماقبل التاريخ .

٢ – العهد الطينى ويشمل الأسرتين الأولى والثانية الثينيتين من ٣١٩٧ إلى ٢٧٧٨ ق.م.

٣ – الدولة القديمة وتشمل الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة المنفية من ٢٧٧٨ إلى ٢٤٢٣ ق.م.

٤ – نهاية الدولة القديمة حتى الأسرة الحادية عشرة وهى المعروفة بعهد الاضمحلال الأول من ٢٤٢٣ إلى ٢٠٦٥ ق . م . وفيها الأسرتان السابعة والثامنة المنفيتان والتاسعة والعاشرة الهرقليوبوليتانيتان .

٥ – الدولة الوسطى وتشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتين من ٢٠٦٥ الى ١٧٨٧ ق. م.

٦ – عهد الاضمحلال الثانى (ويشمل فترة حكم الهكسوس) من الأسرة الثالثة عشرة الطيبية والرابعة عشرة السخاوية إلى نهاية الأسرة السابعة عشرة الطيبية من ١٧٨٧ إلى ١٥٨٥ ق . م . والتى يتخللها حكم الهكسوس .

٧ ـ الدولة الحديثة ـ عهد الإمبراطورية ـ ويشمل الأسرات ١٨، ١٩، ٢٠ من ١٥٨٠ إلى ١٠٩٠ ق.م.

٨ ـ عهد الانحلال ويشمل حكم الملوك الكهنة فى الأسرات الحادية والعشرين التانيسية من ١٠٩٠ ـ ٩٥٠ ق. م. وحكم الليبيين فى الأسرة الثانية والعشرين ثم الأسرة الثالثة والعشرون البوباستية من ٩٥٠ إلى ٧٢٠ ق.م.

٩ ـ فترة التحرير الأولى وتشمل العهد الصاوى الأول فى الأسرة الرابعة والعشرين الساوية من ٧٣٠ ق.م. إلى ٧١٥ ق.م.

١٠ ـ حكم الأثيوبيين ويشمل الأسرة ٢٥ من ٧٢٠ إلى ٦٦٣ ق.م.

١١ ـ فترة التحرير الثانية أو عصر النهضة (صحوة الموت) ويشمل الأسرة السادسة والعشرين الساوية من ٦٦٣ إلى ٥٢٥ ق.م.

١٢ ـ حكم الفرس والأسرة الوطنية الأخيرة ويشتمل الأسرة السابعة والعشرين الفارسية والثامنة والعشرين الساوية والتاسعة والعشرين المندسية والثلاثين السمنودية ثم الغزو الأخير الفارسى متمثلا فى الأسرة الحادية والثلاثين الفارسية ومحاولات التحرر أى من ٥٢٥ إلى ٣٣٢ ق.م.

١٣ ـ غزوة الإسكندر المقدونى وحكم البطالمة ويمتد من ٣٣٢ إلى ٣٠ق.م.

١٤ ـ حكم الرومان من ٣٠ ق.م. حتى دخول العرب عام ٦٤٠ ميلادية.

* * *

والتواريخ التى قدمناها أمام كل فترة من هـذه الفترات تقريبية فى معظم الأحوال وخاصة قبل عهد الدولة الحديثة لأنه لم يكن لدى المصريين تاريخ ثابت كالميلاد والهجرة مثلا بل كانوا يؤرخون ـ كما سنرى فيما بعد ـ طبقا لتولية الملوك

عروشهم . وليس لدينـــا ثبت صريح واضح المعالم يمكن الاعتماد عليه تماما فى أسماء الملوك حتى يعرف تسلسلهم الصحيح ، كما أن مـــدة الاشتراك فى الحكم وعصـــور الفوضى تطمس كثيرا من المعالم التى كان من الممكن أن تكون جلية واضحة .

وهناك فرق واضح بين عهود ما قبل الأسرات وعهود الأسرات . ومصادر التاريخ لعهود ما قبل الأسرات ليست كلها آثاراً مكتوبة أو منقوشة يمكن عن طريقها معرفة الأحداث التاريخية أو السياسية ، ولكنها تحيطنا على كل حال علما بمعيشة المصريين وأحوالهم فى تلك العصور السحيقة وتميط اللثام عن التطور الذى طرأ على حياتهم وصناعاتهم وفنونهـم المختلفة ، يضاف إلى هـذه الآثار مصادر أخرى من عهد الأسرات تشير إلى كثير من العقائد الدينية والأحداث السياسية التى تركت آثارا واضحة فى حياة المصريين فى تلك الأزمنة البعيدة ولعل أقدمها متون الأهـــرام التى تحوى نصوصاً توارثها المصريون ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات .

أما معلوماتنا عن العصور التاريخيـــة فتعتمد أول ما تعتمد على الآثار التى خلفها المصريون فى مختلف العصور وهى تحدثنا عن الكثير من أخبارهم وتروى لنا معلومات لها قيمتها عن عقائدهم وفنونهم . على أنه يلاحظ فيها أنها صادرة فى أغلب الأحوال عن المقابر أو المعابد أى أنها ذات طابع دينى أو جنزى وفى هذا قصـور من ناحية تزويدنا بالمعلومات الشاملة . ولعـل السر فى ذلك أن المصرى كان يعتقد فى الحياة الثانية وأنها على غرار الحياة الدنيـــا ، فزود قبره بالمناظر والصور التى تمثل حياته اليومية ، وحرص على أن ينقش على جدرانه الكثير من الحوادث والأخبار . ولكن يعيب هذه المصادر فى الوقت نفسه أن جلها صادر عن الوجه القبلى وأن ما وجد فى الوجه البحرى حتى الآن لا يشفى غليـلا ولعل الأيام تكفل لنا سد هذا الفراغ .

ومن بين المصادر التى خلفها المصريون مصادر ذات قيمة مباشرة فى دراسة التاريخ المصرى ومن بينها لوحات من العاج والأحجار عثر عليها فى مقابر الملوك ولكن ليس من شك فى أن من أهم المصادر الأخرى :

١ — حجر پالرمو

وهو قطعة من الديوريت محفوظة فى متحف پالرمو بجـــزيرة صقلية وتبلغ $\frac{1}{8}$ حجم القطعة الأصلية وقد جمعت فيها الحوليات الملكية ابتداء من اتباع حور



شكل ٨ — حجر پالرمو

حتى عهد ملك من ملوك الأسرة الخامسة هو « نفرأير كارع » وقد نقش الحجر من وجهيه . وهناك بالمتحف المصرى قطعة أخرى كبيرة ولكنها عسيرة القراءة وكذلك ثلاث قطع صغيرة ثم هناك قطعة صغيرة اشتراها « پترى » وإنه لمن العسير أن نقرر إن كانت كل القطع أجزاء للوح واحد أو أنها صور مختلفة لأصل واحد ، فإن مظاهر الكتابة وسمك القطع لا يوحى بأنها جميعاً أجزاء لنص كان يكمل بعضه البعض يوماً من الأيام . ومن الغريب أن حجر پالرمو لم يمدنا إلا بأسماء أتباع حور فى الشمال بينما إحدى قطع القاهرة تذكر خمسة من أسمـــاء هؤلاء الاتباع فى الجنوب وتحت اسم كل ملك من ملوك العصر التاريخى (عصر الأسرات) بيان بالحوادث الهامة التى حدثت فى كل سنة من سنى حكمه وتشمل هذه الحوادث الحروب والأعياد الملكية والأعياد الدينية والاحتفالات وتأسيس المعابد والمدن والتعداد والمبانى التى أقامها الملوك والبعوث البحرية التى أوفدوها إلى الخارج إلى غير ذلك . ولكل سنة قسم خاص داخل مستطيل وفى أسفل كل خانة كتب ارتفاع فيضان النيل أثناء السنة التى تقابل هذه الخانة ، ولو أن حجر پالرمو كان قد وصل لنا كاملا لأصبح لدينا ثبت كامل بأسماء الملوك وسنى حكمهم والأحداث التاريخية التى تمت فى عصر كل منهم حتى منتصف الأسرة الخامسة ولظل سجلا يمكن الاعتماد عليه والرجوع له فى كثير من المسائل الغامضة بالنسبة لنا فى الوقت الحاضر .

٢ — قائمة الكرنك

وترجع إلى عهد « تحوتمس الثالث » وكانت بالكرنك فى حجرة التدشين وهى الآن بباريس وبها أسماء ملوك الأسرات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة وأسماء ملوك غير مذكورين بقوائم أخرى . وقد سجل به أصلا ٦٢ اسماً من « منى » إلى « تحتمس الثالث » ولكنها لا تعدل من حيث القيمة قائمة أبيدوس لأنها سجلت على أساس التراث المتواتر أكثر منها عن وثائق رسمية .

٣ — قائمة أبيدوس



شكل ٩ — جانب من قائمة أبيدوس

وهى المسماة بلوحة الأجداد أمر بنقشها «ستخى الأول» من الأسرة التاسعة عشرة على أحد جدران معبد أبيدوس وهى أصل لقائمة «رعمسس الثانى» فى لندن وتحوى ٧٦ إسمـــاً تبدأ بـ «منى Meni» ومن الثابت أن ملوك مصر من عهد «منى» حتى عهد «ستخى» تعدوا هذا الرقم ولكن القائمة تغفل أسماء ملوك غير شرعيين فى رأيها لا تعترف بهم، وكان الغرض من ذكر هذه الأسماء عند عمـــل اللوحة تقديم القرابين لهم.

٤ — قائمة سقارة

وقد عثر عليها فى مقبرة الكاتب الملكى «تونرى» وهى بالمتحف المصرى الآن وترجع إلى عهد «رعمسس الثانى» وتختلف الأسماء المذكورة هنـــا عن



شكل ١٠ — جانب من قائمة سقارة

لأسماء التى ذكرت فى جدول أبيدوس بينما تتفق فى مواضع كثيرة مع ما جاء ببردية تورين التى سنتحدث عنها فيما بعد مما يدل على أنه كانت للوجه البحـــرى وجهة نظر خاصة فى شرعية الملوك تختلف عن وجهة نظر الوجه القبلى . وعدد الأسماء بها ٤٧ تبدأ بـ « عزيب » وتنتهى بـ « رعمسس الثانى » وهذه القوائم جميعا لا تشتمل إلا على أسماء عدد مختار من الملوك وبعض هذه الأسماء مرتب وبعضها غير مرتب وهى جميعا قد أغفلت أسماء الملوك الذين اعتبرهم المصريون غير شرعيين مثل ملوك الهكسوس وهو أمر - كما أسلفنا - يتفق والغرض الذى صنعت من أجله هذه القوائم حتى لاينعم من لم تذكر أسماؤهم بالقرابين التى تقدم للأجداد . ويلاحظ مثلا أن قائمة سقارة تبدأ كما قدمنا بسادس ملوك الأسرة الأولى ولا تعترف بشرعية أسلافه ، وربما كانت هذه هى وجهة نظر الشمال التى تخالف وجهة نظر الجنوب الممثلة فى القائمتين السابقتين : أبيدوس والكرنك .

٥ — بردية تورين

ويغلب على الظن أنها ترجع إلى عهد «رعمسس الثانى» وقد كتبت بالهيراطيقية وهى المرجع الأعـــلى لأسماء الملوك والحوادث . وقد عثر عليهـــا « دروفتى Drovetti » الإيطالى عام ١٨٢٠ ووجدت طريقها إلى ملك سردينيا ووضعت



شكل ١١ — قطعة من بردية تورين

فى صندوق بغير عناية فتهشمت ثم جمعت بقاياها فى غير نظام ، وحاول الكثيرون حل رموزها ورغم ذلك فما زالت تفتقر إلى دراسات طويلة . والصفحة الرئيسية للبردية لا قيمة لها بعكس الوجه الآخر . ولم تكن البردية وثيقة ملكية أو رسمية ويظهر أنها منقولة عن أصل لم يعثر عليه حتى الآن .

وتبدأ البردية بذكر أسماء الملوك السماويين ثم البشريين ، وتمتاز بأنها أثبتت مدة الحكم بالسنين والشهور والأيام وأجمل فى آخرها مجموع مدة الحكم . وقد ذكرت البردية أن مصر حكمها آلهة هم رع وبتاح وجب وشو وأوزير وايزه وستخ وحور ودحوتى وماعة . ويلى هؤلاء أنصاف الآلهة أتباع حور ، ومدة حكمهم ٢٢٠٠٠ سنة ثم ملوك منف ثم ملوك أون (عين شمس أو هليوبوليس) ثم الملك منى .

والبردية — وإن لم تخل من أخطاء — إلا أنه يمكن الاعتماد عليها إلى حد كبير . وقد كانت نظائر لهذه البردية توضع فى المعابد ودور الحكومة للرجوع إليها عند الحاجة لفهم تواريخ المستندات القديمة . والشىء الجديد فى هذه البردية هو تقسيم الملوك إلى بيوتات وعائلات أو أسر — وهو الأساس الذى قدم عليه « مانيتو » تاريخه ، أو نقله ، فيما بعد — وكتب مجموع مـــدة كل أسرة بالمداد الأحمر . وبقايا البردية الآن ٣٠٠ قطعة تقريبا كتبت بالهيراطيقية ، وقد رآها « شامبوليون » عام ١٨٢٦ وجمع « سيفوورث » ١٦٤ قطعة منها وأكبر هذه القطع هى التى تحمل أرقام ٧١ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٩٩ وقد قام بطبعها ونشرها « ليبسوس » و « ولكنسون » . وقد جاء فى هذه الورقة أن مجموع سنى الحكم من الأسرة الأولى إلى السادسة ٩٤٩ سنة ،وهى لاتورد مع ذلك من أسماء العهد الأركى سوى عشر ملوك من بين سبعة عشر ملكا عرفتهم القوائم والآثار . وقد جاء فيها أن الأسرة الثانية عشرة حكمت ٢١٥ سنة . والواقع أن آثار الأسرة نفسها دلت

على صحة هـذا الرقم لأنها تقدم مجموعاً قدره ٢١٣ سنة وهو قريب مما قدمته البردية .

* * *

وهناك غير هذه المصادر المصرية مصادر أخرى لها قيمة خاصة هى ما كتبه كتاب اليونان الذين زاروا مصر منذ القرن السادس قبل الميلاد فكتبوا الكثير عنها وعما شاهدوه من آثارها وقام الكثيرون منهم بجولات داخل البلاد ورحلات إلى مصر العليا رغبة منهم فى الاطلاع على حكمتها وفلسفتها . بل إن الكثيرين منهم لم يذهبوا بقصد السياحة فقط بل للبحث عن تاريخ اليونان أنفسهم وآلهتهم المختلفة إعتقادا منهم أن مصر وحضارتها قديمتان ، موغلتان فى القدم ، وأنه لابد وأن هناك من وراء ذلك مايعود عليهم بالكثير من المعلومات ومن عجب أن المصريين فى ذلك الوقت عرفوا كيف يرضون هذه الرغبات لدى السياح وكتاب اليونان فلم يحجموا عن أن يقصوا عليهم بلهجة الحكيم العارف الشىء الكثير ، فشاعت قصص وروايات كثيرة عن شخصيات مصرية قديمة صاغها اليونان من جديد حسب مزاجهم الخاص كما شاعت إلى جانب ذلك قصص وروايات أخرى تعبر عن وجهة نظر اليونان أنفسهم فى المسائل التى كانوا يشاهدونها . ولكن هذه القصص والروايات لم تكن تخلو من سوء فهم وتقدير لحقائق الأمور . هذا إلى ما قام به الأدلاء والتراجمة من ترويج ونشر لروايات لا تعتمد على الصدق . وهكذا وجدت الروايات سبيلها إلى كتابات كثير من الكتاب مثل « هيكاتيه » الملطى (ولد عام ٥٤٩ ق.م.) و « هيرودوت » الهاليكارناسوسى (زار مصر عام ٤٣٠ ق.م.) الذى انتفع بما كتبه « هيكاتيه » من قبله وغيرهما . وتنسب إلى « أراتوستين » الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد قائمة بها ٣٨ إسماً من الملوك الطيبيين منقولة إلى اليونانية وقد

أضاف إليها «أبولودوروس» المزعوم ٥٣ إسماً ... على أنه يلاحظ على كل حال أن ما جاء بهذه الكتابات عامة عن تاريخ مصر فى عهدها المتأخر (بعد الأسرة ٢٦) يمكن الاعتماد عليه فى كثير من الحذر لقرب العهد به ولأنه كانت توجد روايات متداولة عنه يمكن الركون إليها ومعرفة مدى تأثر الكاتب بعواطفه أو ركونه إلى الحق وحده . أما ما قبل ذلك فيسوده الاضطراب ، حتى أننــــا لا يمكننا الاعتماد عليه لا من ناحية ترتيب الأحداث التاريخية ولا من ناحية عدد الملوك وسنى حكمهم . ومــــع ذلك فان ما كتبه «هيرودوت» و «ديودور» الصقلى (٤٤ق.م.) و «سترابو» (٢٥ق.م.) و «بلينى» الأكبر و «بلوتارك» و «إيليان» و «جوزيفوس» عن مشاهداتهم الشخصية وعن عادات المصريين وتقاليدهم ووصف آثارهم لذو قيمة كبيرة إن نحن تناولناه بالمزيد من الحذر .

ورغبة فى تصحيح هذه المعلومات عمد مانيتو — وهو كاهن مصرى من سمنود عاش فى عهد بطلميوس الثانى محب الأخ (فيلادلف) — إلى كتابة تاريخ بلاده فى ثلاثة أجزاء باليونانية بعنوان «اجبتيا كا ايبومنيماتا» ، وربما كان ذلك بأمر الملك ، وخلص منه بموجز يحوى قائمة بأسماء الملوك مصحوبة بملاحظات قصيرة عن بعض العهود . ولم يصل إلينا المؤلف الأصلى ولم يهتم به اليونان اهتمام اليهود الذين رأوا فى الهكسوس أجدادا لهم فاستعانوا ببعض ماجاء فى الكتاب لتأييد حججهم ، وما استعمله اليهود لغرض المحاجة الدينية استعمله العرب كذلك . وهكذا أنقذ المؤرخ اليهودى جوزيف عن غير قصد جزءاً من تاريخ مانيتو ضمنه كتابه «فى رسالة ضد أپيون» ، كما نهج الكتاب المسيحيون نهج غيرهم فرتب «افريكانوس يوليوس» الافريقى (٢١٧م.) و «يوسيبيوس» (٣٤٠ م.) - وهو الذى كان أسقفا لقيصرية . . . الموجز ، كلا على طريقته الخاصة .

واعتماداً على ما بقى مما كتبه مانيتو يمكن القول بأنه قسم الحكم فى مصر الفرعونية على أساس ٣١ أسرة كما سلفت الاشارة تنتهى باستيلاء الفرس للمرة الثالثة على مصر .

° ° °

ومما تجدر الاشارة إليه أن بردية تورين وما أورده مانيتو ، ونقل عنه ، يشير إلى أن الآلهة القدامى الذين حكموا مصر يمتون الى التاسوع الأكبر ويرتبطون بلاهوت هليوبوليس . . . ولقد كان من المتوقع أن يكون اله الشمس « رع اتوم » على رأسهم ولكن مانيتو يبدأ قائمته بـ « هيفاستوس » (بتاح منف) سابقا لاله « هيلوبوليس » وربما يؤكد ذلك أن النص الذى نقل عنه مانيتو كتب فى عصر الأسرة السادسة حين كانت السيادة لمدينة منف . ويأتى بعدهما اجاثاديمون (شو ، اله الجو) — ولانجده فى تورين — ثم « كرونوس » (جب ، اله الارض) ثم أوزوريس ثم تيفون (ست قاتل اوزيريس) ثم حوريس المنتقم لأبيه . ولسنا نلتقى فى المصدرين بالالهات تفنيس ونوت وايزيس ونفتيس لأنهن إناث لايحكمن . . . ويلى الآلهة الملوك حكام من أنصاف الآلهة أو « الموتى » ومن بعدهم الملك البشرى « منى » على رأس الاسرة الاولى .

وفى بردية تورين نلاحظ أن « حورس الآلهة » يلى « ست » مباشرة . وهى تورد ذكر « حورس » آخر فى نهاية الأسرة الالهية ثم حورس ثالث فيما بعد . . . وبعد سطور مشوهة أو ضائعة يأتى « أتبـــاع حورس » وهم « الارواح المنعمة » ، أسلاف مينا المباشرين الذين يرى فيهم « زيته » Sethe ملوك هيراقونبوليس وبوتو والذين يشير اليهم « جريفث » Griffith بأنهم « أرواح بى — بوتو — أتباع حورس ملوك مصر السفلى » و « أرواح نخن — هيراقونبوليس — أتباع حورس ملوك مصر العليا » .

التقويم والتاريخ

قدمنا من قبل أن المصرى كان يجهل التواريخ المطلقة فكان كل حكم ملك تقويماً قائماً بذاته تورخ ابتداء منه الحوادث التى تتم خلاله . ولذا أصبح من العسير أن نعين لهذه الحوادث تاريخاً مطلقاً موثوقاً به ما لم نكن نعرف تماماً ترتيب تتابع الملوك فى كل العصور ومدد حكمهم بالضبط .

والقوائم التى ذكرناها من قبل مبتورة أو ناقصة أو هى مهشمة بحالة لاتسمح بمتابعة جداولها وهو أمر يحول دون تقديم التتابع على صورة متصلة ، ولئن لم يقدم لنا المصرى القديم تاريخاً ثابتاً متتابعاً كالميلاد أو الهجرة يصلح أن يعتمد عليه كمقياس ثابت لحساب الزمن فإنه استطاع أن يستخدم بعض مظاهر الطبيعة ليحدد طول السنة .

• • •

كانت هناك مسألتان جعلتا المصريين يفكرون فى التأريخ : أولاهما الطبيعة المحيطة بهم ، وثانيتهما النيل المنتظم الفيضان والجريان وإنه ليغلب على الظن أن الوصول إلى التقويم الشمسى تم فى الحقبة الأنيوليتية .

وكانت السنة المصرية تتكون من ثلاثة فصول هى الفصول المتصلة بالنهر والزرع وهى فصل الفيضان « أخت » وفصل الزرع أو الانبات « برت » ثم فصل الحصاد « شمو » . وكل فصل من هذه الفصول يحوى شهوراً أربعة أعطيت أرقاماً فى أول الأمر ثم أطلقت عليها أسماء منذ العصر الفارسى (حوالى القرن السادس قبل الميلاد) وهى الأسماء المعروفة الآن بأسماء شهور السنة القبطية التى يعتمد عليها فلاحو مصر اعتماداً مطلقاً حتى اليوم وهى : توت وبابة وهاتور وكيهك وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس وبؤونة وأبيب ومسرى .

وقد اشتق اسم كل شهر من العيد الرئيسى الذى كان يحتفل به خلاله .

وكانت عدة أيام كل شهر ثلاثين يوماً وأضافوا فى آخر السنة شهراً صغيرا يحوى خمسة أيام هى أيام النسىء .

وليس هناك شعب من الشعوب القديمة غير أصحاب مصر الفرعونية استعمل تقويما ليست السنة فيه مجموعة شهور قمرية بل أساسها جريان الشمس وعودة الفصول فى أوقاتها . وهذا التقويم هو نفس التقويم الذى اعتمده « يوليوس قيصر » وفرضه على العالم الرومانى بعد تعديل طفيف ثم أصلحه البابا « جريجورى الثالث عشر » فى القرن الرابع عشر وأصبح التقويم العالمى المعروف بالتقويم الميلادى .

* * *

كان من المشاهدات الفلكية لدى قدماء المصريين أن يوم ابتداء الفيضان (الذى يصل فيضه فى تاريخ ثابت) كان يصادف يوم الطلوع الشمسى لنجم الشعرى اليمانية (سيريوس Sirius أو سوثيس Sothis عند اليونان ، سوبد Soped عند المصريين) أى اليوم الذى يطلع هذا النجم فى صباحه فوق الأفق فى وقت واحد مع الشمس ويوافق ١٩ من شهر يولية من التقويم اليوليانى ، والسنة على ذلك وعدتها ٣٦٥ يوماً هى المدة التى تفصل بين شروقين شمسيين للنجم المذكور . وقد قسمها المصريون إلى الأقسام السالفة الذكر ثم حسبوها فى العهود التاريخية بسنى حكم الملك . ويتضح من مطالعة ماجاء بحجر بالرمو أن السنة كانت تسمى بمجرد انتهائها باسم أهم حادث وقع فيها ، ولكنهم لم يستعملوا حادثاً واحدا ليبدأوا منه عصرا ثابتاً يؤرخون به .

ولقد كان يرصد ظهور النجم فى الافق الشرقى عند خط عرض ٣٠ قبيل الشروق

بعشر دقائق ، والاسم المصرى الذى أطلق على النجم « سوبد » يعنى الجهز . وكان يظهر كذلك فى نواحى منف وعين شمس . . . ولكن مادامت منف لم تؤسس إلا فى أوائل الحقبة التاريخية بينما ورد ذكر « أون » (عين شمس أوهليوبوليس) فى أقدم النصوص كمركز دينى لعب دوراً كبيراً من قبل ، فإنه يرجح أن الفضل فى وضع التقويم المصرى يرجع إلى الفلكيين الذين كانوا يقومون بهذه الدراسة فى « أون » وحدها وبهذا يكون قد بدأ التقويم لمملكة الوجه البحرى منذ أواسط عهد ماقبل الأسرات .

ولقد رأى الكهنة فى ظهور النجم فى أول الأمر مظهراً منتظماً من المظاهر الطبيعية فقاموا بدراسة ظروف ظهوره واكتفوا بتسجيل ذلك ، وقدروا مدى ما يمكن أن يلاقوه من عنت إن هم حاولوا إجبار الشعب على التأريخ طبقاً له وخاصة وأن ذلك يحتاج إلى عملية حسابية معقدة لايستسيغها الفلاحون والعامة .

* * *

وإن المطالع لبعض نصوص الدولة القديمة يستطيع أن يميز بين تسميتين مختلفتين فهم مرة يقولون « رأس السنة » وأخرى يقولون « فاتحة السنة » . وقد أدى بحث علماء اللغة المصرية إلى أن هاتين الكلمتين تؤديان معنيين مختلفين فالأولى تعبر عن السنة العادية ، وعدة أيامها ٣٦٥ يوما ، والثانية استعملت للتعبير عن السنة الشمسية التى يحدد بدءها ظهور النجم « سوبد » وعدة أيامها ¼٣٦٥ يوما . والواقع أن الفرق يبدو طفيفاً لأول وهلة فهو بضع ساعات كل سنة ولكن حقيقته أن السنة المدنية تتأخر يوما كل أربع سنوات عن السنة الشمسية أو بمعنى آخر إن اليوم الأول من السنة المدنية لايتفق مع اليوم من السنة الشمسية إلا مرة كل ١٤٦٠ سنة (٣٦٥ × ٤) . وهذه المصادفة لم تحدث سوى

ثلاث مرات يمكن تعقبها فى تاريخ مصر القديمة على الأرجح . ولم يكن الأمر محسوساً فى الواقع من الناحية العملية إلا قليلا فى مدى جيل ولكنه برز واضحاً على مر القرون حتى بدت فصول التقويم غير مطابقة للفصول الحقيقية . ولدينا شاهد على ذلك هو تمرين إنشائى لأحد الكتاب حفظ فى كراسة تلميذ من عهد الأسرة التاسعة عشرة جاء فيه : « تعال إلى يا آمون . خلصنى من السنة المضطربة ! إن الشمس لم تعد تسطع ! الشتاء يحل محل الصيف والشهور تسير القهقرى ! » وهكذا نرى أن التباين بين التأريخين بدا واضحاً بل كان موضع تأفف وتذمر وربما حديث فكاهة . أما فى الواقع فإن هذا الشذوذ مها يكن سبباً للمضايقة بالنسبة للأعياد المدنية والدينية حين يجىء فى الشتاء بأعياد الصيف وبالعكس فإنه لم يؤد إلى ارتباك فى الحياة الزراعية للبلاد ذلك لأنها كانت قائمة على تتابع الظواهر الطبيعية كما هى الحال اليوم بالنسبة لتنقل التقويم القمرى : وهو أكثر وضوحاً ، ورغم ذلك فإن الفلاح المصرى اليوم لا يضيق به وبتقلباته .

وحين كانت تمر ١٤٦٠ سنة كانت الأمور تعود إلى نصابها وتستمر كذلك مدى أربعة أعوام ، وتسمى هذه الدورة ذات الـ ١٤٦٠ عاماً بدورة « الفترة الشعرية » أو « الدورة السوثيائية » .

* * *

وقد سجل المؤرخ «سانسرينون» عام « ١٤٠ م » أن النجم «سوبد» ظهر فى موعده ، وهو تسجيل له قيمته من غير شك ، ذلك لأنه لما كان ظهور النجم يتأخر يوماً كل أربعة أعوام فإنه يعاود الظهور فى نفس الموعد بعد مرور دورة سوثيائية كاملة ، أى أننا إذا رجعنا دورة إلى الوراء فإننا نكون فى عام ١٣٢٠ ق . م . وهو يتفق وعهد الاسرة الثامنة عشرة . وليس من شك فى أن المصريين عرفوا سوبد قبل ذلك العهد . وتوصلنا دورة أخرى إلى عام ٢٧٨٠ ق . م .

وهو تاريخ يتفق وعهد أخريات الدولة القديمة . . . ولكن المصريين عرفوا التاريخ قبل ذلك من غير شك : أولا لأن نصوص الأهرام التى كانت تعتبر عتيقة فى عهد الدولة القديمة ترجع إلى ماقبل الأسرة الأولى وهى تذكر أيام النسىء على أنها الأيام التى ولد فيها كبار آلهة أسطورة « أوزير » ، وثانياً لأن « أونى » الذى كان يعيش حوالى هذه الفترة يذكر فى نصوص مقبرته أنه كان مكلفاً بالقيام برحلة لإحضار حجر المرمر إلى منف وكان ذلك فى الشهر الحادى عشر . . . وكانت الأرض يابسة والترع لاماء بها . . . وهذا الوصف الذى يقدمه يدل على أن ظهور النجم لم يعد يتفق وغمر أرض منف بالفيضان مما يشير إلى أن إسقاط الربع يوم كان له أثر فى ارتباك التواريخ ، ولكن هذا يدل كذلك على أن المصريين عرفوا النجم قبل ذلك ، فاذا عدنا إلى الوراء دورة أخرى فإننا نجد أنفسنا فى عام ٤٢٤٠ ق. م. وهو التاريخ الذى اصطلح معظم المؤرخين عليه لتحديد العلاقة بين النجم سوبد والتاريخ الشمسى .

* * *

وقد قدمنا أن المصريين بدأوا حياتهم كأمة منظمة ، فكلما ارتقى ملك جديد العرش أرخوا حوادثهم تبعاً لذلك ، ولم يكن لديهم تاريخ ثابت كالميلاد أو الهجرة مثلا يبدأون منه التاريخ مما دفع المؤرخ إلى أن يسلك عدة طرائق لتحديد وتتابع التواريخ :

١ — يجب جمع سنى حكم كل ملك وهو أمر بالغ الصعوبة فالأسماء موضع شك أحياناً ، وهى لم تذكر بأكملها أحياناً أخرى ، كما أن تحديد الأزمنة وطول مدة الحكم يختلف باختلاف المصادر .

٢ — هناك صعوبة قائمة فى بـــدء التأريخ من الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة فهم لا يذكرون سنة من سنى حكم الملك المرتقى للعرش بل يؤرخون

الحوادث تبعاً لحادثة مشهورة مثل « تمداد الماشية » وهى مدة لا يمكن تحديدها فى الواقع بالنسبة لحكم ملك من الملوك .

ولم يتبع المصريون التأريخ طبقاً لسنى الحكم الملكى إلا ابتداء من الأسرة الثانية عشرة . ففى هذه الأسرة توصلنا إلى رقم مضبوط ، ذلك لأن سنى حكم كل ملك ذكرت على آثاره التى خلفها ولأن الملوك اعتادوا منذ ذلك العهد إشراك أبنائهم فى السلطة ، وبذلك أصبحنا نعرف جميع السنين التى حكمها ملوك الأسرة الثانية عشرة ، كما أمكن تحديد مدة الاشتراك فى الحكم ، فالسنة الثلاثون مثلا من حكم « أمنمحى الأول » تقابل السنة العاشرة من ملك ابنه وإشراكه معه فى الحكم . والسنة الخامسة والأربعون من عصر « سنوسرة الثالث » توافق السنة الثالثة من حكم « أمنمحى الثالث » ، وهكذا .

وللوصول إلى حل المسائل التاريخية تجب معرفة أسماء الملوك أولا ثم البحث عن مدة حكم كل منهم فإن تعذر الوصول إلى أحـــد الأمرين لسبب ما فإن الاستعانة بحوادث الأمم المجاورة ومقارنة تواريخها هو المنقذ الوحيد للوصول إلى نتيجة أقرب للصواب ، فعصر « أخناتون » مثلا محيت الكتابة عن كثير من آثاره بعد موت « أخناتون » . ولما كانت هناك كتب متداولة بينه وبين البابليين والميتانيين وكان تاريخ بابل منتظما فى هذه المرحلة أكثر من انتظام تاريخ المصريين فإن مدة حكم « أخناتون » عرفت تماما كنتيجة لهذه المعلومات .

ما قبل العصر التاريخى

احتفظ المصريون طوال عصورهم التاريخية فى رواياتهم المتواترة وأخبارهم المكتوبة بذكرى بعض الحوادث الهامة التى حفلت بها عصور ما قبل الأسرات. وهذه الذكرى ، وإن تكن قد شوهتها الأساطير ومرور الزمن كما يشير إلى

ذلك بعض ما جاء فى بردية تورين وما بقى كذلك مما سطره مانيتو ، إلا أن ما بقى يكفى للدلالة على أن مصر — فى عقيدتهم — حكمها فى أول الأمر آلهة أتباع حور، أرواح نخن ، ب Nekhen & Pe قبل عهد الأسرات مباشرة .

وأما حجر بالرمو فقد سلفت الاشارة إلى أنه يشتمل على أسماء الملوك للوجهين القبلى والبحرى قبل قيام الاسرة الأولى وتوحيد البلاد فى عهد « منى » .

وأما مانيتو فيشير إلى أن الأسرة الأولى من الملوك البشريين الذين قدمهم فى قائمته ليست أول أسرة بسطت سلطانها على مصر ذلك لأنه سبقتها أسرتان على الأقل أولاهما أسرة من الآلهة لم يكن للزمن بالنسبة لمراكزهم كآلهة قياس محدود ، ولذا نرى أطولهم حكماً يجلس على عرشه ٩٠٠٠ سنه (وهو هيفاستوس « بتاح ») بينما جلس أقلهم ٣٥٩ سنة على العرش ، وأنهم بلغوا الستة عدداً ، وأن مجموع مدة حكمهم وصل إلى ١١٩٨٥ سنة . وأما الاسرة الثانية فهى الأسرة التى أطلق عليها اسم « أنصاف الآلهة الموتى » حكم تسعة منهم مدى ٨٥٦ سنة كما حكم عاشرهم — وهو مجهول الاسم — مدى عامين فقط ، وبذا تكون مدة حكم هذه الأسرة ٨٥٨ سنة وعدة ملوكها عشرة ، وهم الذين عرفوا فيما بعد تحت اسم « أتباع حور » لأنهم كانوا ينضوون تحت لواء الاله حور فى صراعهم ضد أتباع سوتخ .

وهناك إشارات كذلك فى الأساطير الدينية القديمة إلى الأحداث التى تمت فى تلك العهود السحيقة ولكنها إشارات شديدة الاختصار لا تكاد تشفى قليلا .

وقد عمد الباحثون إلى دراسة هذا كله بقصد تقديم صورة للأحداث التى حفلت بها تلك العهود وقد استعانوا فى دراساتهم بما تدل عليه الألقاب التى انتحلها الملوك وما توحى به من انتشار عبادة الآلهة المختلفة فى الأماكن المختلفة

وما قد يؤدى إليه ذلك من الكشف عن بعض النظم والتقاليد فى عهد الأسرات مما يمكن إرجاع أصوله إلى العهود السابقة . وقد تشعبت الآراء فى هذه الأمور ولكن الأبحاث لا تزال فى بداية مراحلها ولا يزال تحقيقها يتطلب شوطاً كبيراً حتى يستطاع الوصول إلى رأى حاسم .

* * *

كانت مصر تتألف فى عهودها الأولى من جماعات مختلفة لكل منها علمهـــا ورمزها وآلهتها التى تمثل على شكل حيوان أو نبات . وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الرموز والأعلام لم تكن فى الأصل سوى طواطم ، وأن هذه الجماعات لم تكن سوى عشائر طوطمية على اعتبار أن العشيرة الطوطمية جماعة لا تربطها رابطة الدم بل ترتبط ببعضها عن طريق انتسابها إلى طوطم متخذ من عالم النبات أو الحيوان يعتقدون أنه أصلهم ويتخذونه رمزاً يدل عليهم ويشير اسمه لهم . ويرى أصحاب هذا الرأى أنه عندما أخذت السلطة تتحد فى ذات شخص واحد (مما أدى إلى قيام الملكيه) اعتبر الملك من نسل الطوطم، إذ أنه يشتمل عليه ويمثله ،وبذلك أصبحت مصر مكونة من عدد من العشائر المختلفة تحت سلطان ملك واحد، وأصبح الطوطم الملك إلهاً وطنياً لمصر المتحدة يتخذ شكله الملك كما يتخذ اسمه، وكما يجعله رمزاً لسلطته ... وبهذا تحولت الطواطم الأخرى إلى آلهة محلية .

ويرى أصحاب هذا الرأى كذلك أن مثل ذلك الأمر لا يزال قائما فى بعض أشكاله وصوره لدى بعض سكان أعالى النيل الذين لا يزالون على هيئة عشائر طوطمية ،فهناك قبائل من«الشلوك» لا تزال خاضعة لسلطان ينتسب إلى أصل طوطمى وهم فى هذا يشبهون المصريين قبل«منى») ، كما تمثل بعض قبائل «الدنكة» حالة أسبق من هذه ، فهم مجموعات من العشائر الطوطمية يصارع بعضها البعض ويحكمها رئيس

يحتفلون بقتله قبل أن تدركه الشيخوخة . وتطبيق هذه الأوضاع على مصر فى عصر ما قبل الأسرات يشير إلى أن الجماعات التى كانت تعيش فى عهد حضارة العمرة كانت تعيش فى قرى مستقلة على نمـــط قبائل الدنكة وأنها استقرت فى مواطنها فى عهد حضارة جرزة وأصبحت الطواطم رموزاً وأعلاماً لهذه القرى والمواطن . ثم أخذت بعض القرى تستحيل إلى مدن أصبحت فيما بعد عواصم المقاطعات التى كانت تتألف منها مصر . وقد احتفظت هذه المقاطعات بالاعلام الخاصة بها كرموز تميزها عن غيرها وإن كان كل منها يمثل أصلا الطوطم الذى اتخذته كل عشيرة والذى أصبح المعبود المحلى فى المقاطعة ... ويضيف أصحـــاب هذا الرأى كذلك أن الإشارة إلى هذه الطواطم تكاد تتضح مما تواتر من حكم الآلهة لمصر فى العصور الأولى وإن استبدل المصريون أسماءها فيما بعد بأسماء الآلهة العظيمة ...

ولكن هذا الرأى فى جملته وتفصيله لا يكاد يلقى إجماعا من الباحثين إذ يهدمه بعض الباحثين من أساسه حين يقرر أن الطواطم لم تكن تعتبر أصلا للعشائر بل إن كل عشيرة كانت لها عقيدتها فى إله خاص تعتبره أصلا لها وأنه اتخذ شـــكل حيوان تناسل منه الأجداد الأولون ومن هنا كانت صلة القرابة بين فصيلة هذا الحيوان وأبناء العشيرة مما دفع العشيرة إلى أن تتخذ اسمه .

ويعارض « إدوارد ماير E. Meyer » هذا الرأى كذلك — بين جمهـــرة المعارضين — ويضيف إلى الحجج التى يقدمها أنه لا محل فى وادى النيل لقيام عشائر أو قبائل وأن الواجبات الجديدة التى استدعت النزول إلى الوادى اقتضت تنظيما اجتماعياً جديداً واختفت نتيجة لذلك النظم الاجتماعية والحكومية التى نشهدها لدى الشعوب البدائية (والتى بقيت لدى الشعوب الحامية الأخرى دون أن تترك آثاراً لها فى مصر) ... ولذا لا نجد فى مصر قبائل ، بل إننا لا نلتقى بإسم

واحد لقبيلة ما ... هذا إلى أن المصريين كمجموعة شعبية لم يكن لهم اسم عام يميزهم كشعب ، ولم تقم بينهم رابطة عائلية وليس فيهم ما يشير إلى صلة دم تربط بين جماعاتهم ... بل إن مصر تبدو فى أبعد العصور التى يستطاع ترسمها وكأنما تعدت مراحل البداوة بخطى واسعة . . . كما أن التقسيم الذى مرت به تقسيم محلى وليس تقسيما إلى جماعات ... إنه تقسيم إلى مقاطعات كانت كل منها نواة للحكومات الكبيرة فيما بعد تشبه حكومات المدن فى بابل القديمة ... ويرجح « ادوارد ماير » أن كثيراً من القبائل التى تربطها القرابة نزلت إلى وادى النيل فى فجر التاريخ تحت حماية آلهتها (وربما كذلك تحت حماية آلهة محلية جديدة اختارتها لنفسها) وأنها تآلفت ثم تألفت منها المقاطعات بعد حروب وصراع طويل وكذا هجرة وتشتيت أو ترابط ومصاهرات .

ويرى جمهرة من الباحثين أن اقتصار الزواج على غير قبيلة الزوج لم يكن له أثر فى مصر ... فقد كان ملوك مصر يتزوجون من أخواتهم . ويضيفون إلى ذلك أنه ليس هناك من دليل على أن كل مصرى كان يسمى نفسه باسم الطوطم وإن اعتبره أباً له وحاميا ، وهو ما يحدث فى العشائر الطوطمية [1] . ويشير

---

(١) الطوطمية Totemism تعنى عبادة الأسلاف من غير البشر ، وللعشائر أو القبائل البدائية تفكير يتصل بالآلهة والعبادات يختلف كثيرا عما تعرفه الديانات، ذلك لأن ما يؤمنون به ليس دينا وإنما عبادة لمظاهر أو قوى مختلفة . فهناك غير الطوطمية مثلا عبادة التماثيل المعروفة باسم Fetishism وهى تسمية خاطئة لأنه كان يظن أن عبادتها تتصل بالدمى على هيئة حيوان أو انسان أو شىء ما ، ولكن هذه الدمى لم تكن فى الواقع سوى رموز تمثل الأسلاف . وهناك كذلك عبادة الحياة Animism وتشير الى وجود أرواح تسرى فى الطبيعة ، وعبادة الطبيعة Naturalism وعبادة أرواح الموتى Manism التى تشير الى الاعتقاد ببقاء النفس بعد فناء الجسم . وليس من شك أن هذه العقائد كلها أو بعضها تسربت فى صورة ما الى عقائدنا الحديثة واتخذت مظاهر يمكن ارجاعها الى أصولها .

« شتيندورف Steindorff » إلى أن علامات المقاطعات ليست أعلاما أو رموزاً وإنما هي كتابات لأسماء المقاطعات على الأغلب .

• • •

هذه هي مختلف وجهات النظر التي قدمها الباحثون وقد بلغ التعارض بينها حداً يمنع إمكان محاولة التوفيق ولكن هناك بعض الحقائق التي يحسن تقديمها علها تنير السبيل وتلقى ضوءاً على لون الحياة الاجتماعية ، والحكومية ، في هذه العصور السحيقة ...

ليس من شك في أن مصر كانت مقسمة إلى مقاطعات وأنه كان لكل واحدة منها حاكمها أو رئيسها ثم معبودها المحلي .. وليس من شك كذلك أن هذه العصور الغابرة حفلت بأحداث مختلفة تتصل بعلاقة المقاطعات ببعضها البعض مما كان يزيد في نفوذ بعضها على حساب بعضها الآخر عن طريق الحروب أحيانا والمصاهرة أحياناً أخرى أو غير ذلك مما كان من الأسباب الجوهرية في توحيد كثير من المقاطعات حتى انتهى الأمر بتوحيد أجزاء مصر في حكومة موحدة واحدة .

وقد قام العالم الأثري الألماني « زيته K. Sethe » بدراسات مقاطعات الوجه البحري وديانات مصر القديمة ، وانتهى إلى الرأي القائل بأن الدلتا كانت تتكون من شرق الدلتا الصغير وغربها الكبير ... وأن القسمين اتحدا تحت لواء الاله « حور » ثم تم لهذه الجبهة الموحدة التوغل جنوبا والاستيلاء على مملكة الصعيد التي كانت تحت لواء « ستخ » والتي كانت عاصمتها قفط ، وبذلك تأسست حكومة موحدة للقطرين قبل أن يتم للملك « منى » ذلك بقرون طوال ، وكانت عاصمة تلك المملكة الموحدة إذ ذاك هي « ايون » (عين شمس) . وقد تم وضع التوقيت الشمسي خلال فترة التوحيد هذه (حوالى ٤٢٤٥ ق . م .) قبل

أن تتفكك الوحدة وتنفصل المملكتان «نخب» و«دبي» عن بعضهما ... فلئن صح هذا الأمر — وهو ما تدعمه قرائن عدة — فإن حضارة جرزة وحضارة نقادة الثانية يمكن اعتبارهما على هذا الأساس مظهراً للتوحيد الأول، واستقراء الآثار التي عثر عليها في جرزة يؤكد وجود صلات بينها وبين شرق الدلتا وغربها من ناحية وبين مملكة الصعيد المغلوبة على أمرها من ناحية أخرى.

ويعلل بعض العلماء تقدم الدلتا على الصعيد وقدرة الشمال على الغلبة على الجنوب بأن ظروف الحياة في الوجه البحري الكثير المستنقعات تختلف عنها في الوادي الضيق في الوجه القبلي وأن تعاون سكان الدلتا على اتخاذ جميع الوسائل لحماية مواطن سكناهم من الفيضان ... كما أن وجود المواد الخام من الظران بعيدة عن متناول أيديهم مما يدعوهم إلى استيراده من مواطنه ... كل ذلك مضافاً إليه محاولة التغلب على الظروف القاسية للحياة كان دافعاً قوياً لنشأة نظام اجتماعي لم تكن هناك من ضرورة لقيام مثله في الصعيد ... هذا إلى أن الوضع الجغرافي للدلتا يسمح للمقاطعة الواحدة فيها بإمكان الاتصال المباشر ببضعة مقاطعات تحيط بها بينما لا يسمح الشريط الضيق الذي يضم مقاطعات الصعيد بإمكان اتصال المقاطعة الواحدة بغير المقاطعتين الواقعتين إلى شمالها وجنوبها إلا إذا استطاعت القيام بالوحدة المباشرة لتزحف ناحية المقاطعات البعيدة.

ولكن مصر انقسمت قسمين بعد قيام هذه الوحدة: أحدهما هو مملكة الشمال والآخر مملكة الجنوب. وقد أطلق المصريون على ملوك هاتين المملكتين لقب «أتباع حور». وإنه لما يلفت النظر أن تقاليد كل من المملكتين يشبه ما ساد من تقاليد في المملكة الأخرى إلى حد كبير، وفي ذلك قرينة واضحة إلى أنهما خضعتا معاً يوماً ما إلى نظام موحد ... ومن بين المظاهر الواضحة في كل من المملكتين وجود عاصمة كل منهما في أقصى مكان منها، كما أن النيل أو أحد فروعه كان

يقسم كلا من العاصمتين إلى قسمين وأنه كان يعبد فى أحد القسمين أحد الآلهة التى تحمى المملكة بينما يعبد «حور» فى القسم الثانى : فالعاصمة فى الجنوب «نخب» (وهى الكاب الحالية شمال إدفو بقليل) على الضفة الشرقية حيث مقر الآلهة «نخبة» يقابلها على الضفة الغربية «نخن» حيث مقر المعبود «حور».

وعاصمة الشمال «دب Dep» (وهى بوتو فى شمال غرب الدلتا) حيث مقر الإلهة «ودجه» يقابلها من الناحية الأخرى «بى» حيث مقر المعبود «حور».

وقد اتخذت مملكة الجنوب نباتاً من فصيلة السوسن رمزاً لها واتخذ ملوكها لقب «اينسو» وميزوا أنفسهم بتاج أبيض ذى شكل مخروطى خاص.

واتخذت مملكة الشمال نباتا آخر هو البردى رمزا لها كما اتخذ ملوكها لقب «بيتى» وميزوا أنفسهم بتاج أحمر ذى شكل خاص.

وكان لكل من المملكتين بيت مال خاص : فللجنوب البيت الأبيض وللشمال البيت الأحمر.

هذه المظاهر المتعددة المتشابهة فى الشمال والجنوب لا يمكن إلا أن تكون صدى وأثرا لحكومة موحدة، وقد حفظت لنا قطعة من حجر بالرمو أسماء لبعض الملوك الذين يضعون فوق رؤوسهم تاج الوجه البحرى وحده وآخرين يضعون تاج الوجه القبلى وحده ... كما أن كثيرا من آثار العصر السابق لعهد الأسرات لا تكشف عن حكم ملوك الوجه القبلى فحسب بل تشير إلى أحداث هذا العصر كذلك بما وضحها فى عداد اللوحات التاريخية. ولقد رسم على كثير من الصلايات وبعض مقابض السكاكين صور القتال والمعارك التى تميز عهد ما قبل الأسرات أو عصر ما قبيل الأسرات وهى المعارك التى أدت إلى عودة التوحيد التى قام بها فى هذه المرة ملوك الوجه القبلى.

على أن فريقا من العلماء يرى أن جنسا أجنبيا أطلق عليه إسم «جنس الأسرات» يرجع منشؤه إلى عيلام على الخليج الفارسى كان يتخذ الحور (الصقر) معبودا خرج من بلاده واستقرت شعبة منه فى بونت وسارت شعبة أخرى إلى الشمال فى البحر الأحمر ودخلت مصر عن طريق القصير وقفط ... وإلى هذا الجنس يرجع أصل الوافدين الجدد الذين قاموا بتوحيد مصر . وذهب فريق ثالث شمالا إلى سورية حيث أسسوا صور وصيدا كان نواة للانتشار فيما بعد فى جزر البحر المتوسط وشمال وجنوب المحيط الأطلسى .

ويدعم هذا الفريق من العلماء نظريته بأن الغزاة الوافدين كانوا على دراية تامة بصناعة المعادن وأن أسلحتهم كانت قوية وأنهم هم الذين علموا المصريين تعدين الذهب والنحاس والبرونز وصياغتها كما علموهم طريقة استعمال اللبن والأحجار فى المبانى ، وكذا الكتابة التى تعتبر أساساً لكل تقدم ونظام ، وبذلك انتقلت مصر من نظام العشائر إلى النظام الحكومى الموحد .

على أنه تقوم فى وجه هذه النظرية اعتراضات كثيرة أهمها :

١ — أن إدخال حضارة أرقى من حضارة مصر إذ ذاك يستدعى أن يكون القادمون الجدد قوما أرقى من المصريين استطاعوا أن يخلفوا فى المواطن التى قدموا منها حضارة أرقى من حضارة مصر وهو أمر لم يقم عليه دليل حتى الآن .

٢ — كان المصريون يستخدمون النحاس فى صناعة أدواتهم منذ عهد البدارى — وإن كان بنسبة ضئيلة — وليس من شك فى أنهم كانوا يستخرجون النحاس والذهب من بلادهم مما لا يدع مجالا للظن فى أنهم أخذوا عن غيرهم صياغة المعادن .

٣ — تمثل الكتابة المصرية القديمة بما فيها من صور وحيوانات عناصر نيلية ليس بينها ما يشير إلى أصل أسيوى ،

٤ – ترجع مظاهر حضارة مصر فى عهد الأسرات إلى أصول قديمة تمتد جذورها إلى مختلف الحضارات السابقة . وليس أدل على ذلك من أن الصلايات التى تمثل مختلف الوحوش وكذا المناظر التى تمثل أخبار المعارك ترتبط كلها بتقاليد مصرية قديمة (شكلا ١٢ ، ١٣) .

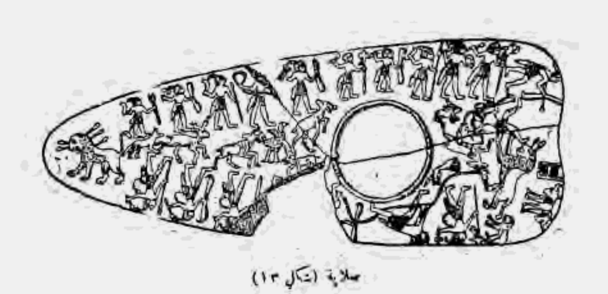
ومع هذا فليس من شك فى أنه مهما يكن من أمر وجود علاقات بين مصر وبلاد الشرق القديم مما يفسر أوجه الشبه بين الآثار المصرية فى ذلك العهد الغابر وبين آثار «عيلام» و«ميزوبوتاميا» ... ورغم وجود عناصر سامية فى اللغة المصرية القديمة يمكن تفسيرها بالتكوين الجنسى للمصريين من عناصر سامية وغيرها فإن ذلك لا يعنى أن مصر خضعت لغزو شامل متسع النطاق من الآسيويين وأن هؤلاء استعمروها كغزاة فرضوا عليها ثقافتهم وأن المصريين مدينون بحضارتهم لهم ، ذلك لأن مصر يمكن أن تشبه ببوتقة انصهرت فيها مختلف العناصر والأجناس وأخرجت شعباً متجانساً له حضارته الخاصة ونشاطه الحيوى الذى يميزه ، شكلها جميعاً طبقاً لما اقتضته ظروف حياته ودرج بها قدما فى طريق الحضارة بأوسع الخطى .

ويرى « دريوتون E. Drioton » أن الحقبة التى أعقبت عصر التوحيد الأول ، وهى التى استطاع الجنوب خلالها أن يخلع عن كاهله نير احتلال الشمال له ، ظهر فيها ملكان فى الجنوب هما « عقرب » و « نعرمر » ، وحجته فى ذلك أن الملك الأول يظهر فى أثر عثر عليه فى حفائر أجريت منذ نصف قرن فى « نخن» وهو عبارة عن رأس دبوس من الحجر الجيرى لذلك الملك « عقرب » لأن اسمه كان يرمز له بتلك الحشرة .

ومما يجدر بالذكر أن المناظر التى ظهرت بالأثر المذكور يمكن استخلاص الحقائق التالية منها :



صلاية (شكل ١٢)



صلاية (شكل ١٣)

١ – حاول ملك ما أن يوحد البلاد . . . ولنسمه الملك « عقرب » مادمنا لانعرف له سوى هذا اللقب .

٢ – تمت المحاولة بنصر جزئى . . . مادام الملك لم يضع فوق رأسه التاج المزدوج .

٣ – عمل الملك بعد النصر على تنظيم البلاد فى جد وجهد .

ولسنا ندرى على وجه التحقيق إن كان لقب عقرب هو اللقب الذى يسبغ على « كاايب » (الذى عثر « پيترى » على إناء حلزونى له فى طرخان مما يشير إلى تقدمه شمالا حتى مصر الوسطى) أم هما شخصان مختلفان استطاع كل منهما أن يحكم الصعيد الحقيقى من أقصى الجنوب إلى شمال مصر الوسطى ، ذلك لأنه عثر فى جبانة طرة كذلك على قطعة فخار تحمل اسم عقرب مكتوبا بالمداد ، ومهما يكن من أمر ، فهذه بوادر وحدة جديدة استطاعت أن تشتمل الصعيد كله مرة أخرى . . . ولئن لم يوفق صاحب اللقب أو صاحب الاسم ، أو صاحبهما معاً ، فى لم شمل مصر جنوباً وشمالا تحت لواء واحد فإن اسماً آخر هو « نعرمر » استطاع أن يحقق هذا الهدف ، وتعد لوحته التى عثر عليها فى هيراقونپوليس أحد الشواهد التاريخية الهامة من مخلفات العالم القديم ، وهو يرى على أحد الوجهين يضع تاج الشمال على رأسه وعلى الوجه الآخر يضع تاج الجنوب . واسمه على الوجهين لا يدع مجالا للشك فى شخصه أو جهوده فى هذه الناحية . . . فاذا لم تكن الوحدة فى الصورة التى نعرفها ونتخيلها قد تمت على يدى « نعرمر » فعلا فانه قد حكم البلاد موحدة على الاقل . ولئن كان يعد أحياناً آخر « أتباع حور » فإنه أول ملوك الأسرات الذين وضعوا الأسس الوطيدة للوحدة المستقلة الدائمة .

الفصل الثالث

تطور فكرة الدين فى مصر القديمة

الآلهة والمعبودات



لم تكن هناك قوة فى حياة الإنسان القديم يسيطر أثرها على نشاطه — كما يقول «برستد» Breasted — كما يسيطر الدين ، ذلك لأن الدين كان منفذا للخيالات ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة بالإنسان ،وهو يصدر دائما عن رغبة أو رهبة ... رغبة فى المنفعة أو رهبة من المجهول والأخطار ... والحياة لا تتأثر بالدين فحسب بل تختلط وتمتزج به امتزاجا يتأثر بالانطباعات الخارجية حتى يخرج من ذلك كله مزاج يتطور مع القوى الكامنة فى الانسان . والدين — ككل شىء — يتبع سنة التطور ما دام صادرا عن الإنسان الذى يخضع بدوره لسنة التطور وما دام متأثرا بالعوامل الخارجيه الخاضعة لنفس النظام .

والدين عامة شىء .. والعقيدة شىء آخر .. كما ان الطقوس شىء .. والعبادة شىء آخر ، فالمثل الأخلاقية مثلا التى يقدمها الدين كقواعد يعتمد عليها وينادى

بها لم تكن فى أول الأمر سوى عادات اجتماعية فرضها مجتمع ما حتى أصبحت لها قوة العقيدة التى تتجلى فى الدين .

ولقد كانت الطبيعة المبشر الأول للدين إذ فسر الانسان مظاهرها حين عجز عن فهمها بأن عزاها إلى قوة خارجة عن نطاق تفكيره .. والآلهة — فى رأى الانسان القديم — كالبشر يمكن أن نترضاهم بالقرابين والتقدمات ... ولهم صفات البشر أحيانا كذلك.

. . .

وكان المصريون ينظرون إلى أنفسهم نظرة كبرياء وتعال ، ولكنا حين ندرس دينهم نجد صعوبة ليس من اليسير التغلب عليها ، ولعل مرجعها إلى أنه لم تجر محاولة للتوفيق بين المعتقدات الشعبية وحكمة الكهنة فاتسعت الهوة بين الفريقين وظللنا نحن نضرب فى مهمه بعيد المدى فيه من المتناقضات ما يدعو للحيرة أحيانا وللشك أحيانا أخرى .. هذا إلى أن فكرة واضحة عن المعتقدات الدينية لم يأت بها مصدر واحد فنحن نعتمد طوراً على الخرافات والأساطير وتارة على أفكار دقيقة تحتاج إلى إعمال الفكر وإن لعب فيها الخيال دورا أكسبها الرهبة حينا والفتانة أحيانا ما دام قد قصها المتأخرون من الرواة مشوهة مبتورة أو مبالغا فيها أو مضافا إليها الكثير من الحواشى تفسيرا منهم لما لم يستطيعوا إدراكه .

. . .

ولم يكن للمصريين دين واحد .. كما لم تكن هناك وحدة زمانية أومكانية للمعتقدات ، فهناك دائما الدين الرسمى وهناك العقائد الشعبية تسير جميعا جنبا إلى جنب .. ولم تكن للأديان المصرية خصائص مميزة لواحد من المذاهب

المعروفة عن عبادة الحياة أو الطبيعة أو الدمى أو مذهب الحلول بل كانت تجمع بين هذه المظاهر جميعا وإن غلبت عليها السرية وتعارضت أحيانا مع بعضها البعض .

* * *

وتاريخ مصر فى الحقبة النيوليتية يشير — كما أسلفنا — إلى تسرب مزمن لشعوب وقبائل كانت تتردد على وادى النيل قادمة من البحر الأحمر عن طريق وادى الحمامات أو من الشمال على طول ضفتى النيل وتستقر فى غرب الدلتا ، وربما جاءت هذه الشعوب من ميزوبوتاميا الجنوبية وهى تشق طريقها عبر بلاد العرب. ويشير أقدم ما عثر عليه من جماجم إلى جنس مختلط تميزه ريشة توضع على الرأس هى شعار أقاليم البحر الأحمر. وكان هذا الجنس على دراية تامة بصناعة الفخار الممتاز والتماثيل والنسيج ، ويطلق على حضارته اسم الحضارة الأولى . ولدينا من طره والمعادى وطرخان وجرزة وأبو صير الملق ما يشير إلى قيام حضارة نشأت فى الدلتا ثم انتشرت بعد ذلك جنوبا وهى حضارة تفوق الحضارة الأولى السابقة ويطلق عليها اسم الحضارة الثانية ويرجع تفوقها إلى غلبة عنصر أجنبى عليها قدم من الشرق ومن الشمال، وكذا إلى أصحاب الريشة الذين قدموا من الشرق عبر البحر الأحمر . وقد دخل أصحاب الحضارة الثانية على الأغلب من شرق الدلتا وشقوا طريقهم نحو « بوصير » وما حولها ثم ارتبطوا بمن سبقوهم فى الدلتا .. وربما لحق بهم دم جديد من جزر البحر المتوسط أو القوقاز ... ونزل هؤلاء الوافدون الجدد عند رأس الدلتا فى هليوبوليس (أيون) ... ويشير القصص المصرى القديم إلى معارك قامت بين أصحاب الحضارة الأولى فى الصعيد وأصحاب الحضارة الثانية فى الدلتا هزم فيها الجنوبيون وجعل الشماليون من « أيون » عاصمة لهم بعد ذلك واحتفظوا بعاصمة محلية أخرى هى « بوصير » ثم شب

الصراع مرة أخرى بين الشمال والجنوب فهدم الوحدة واضطرت الدلتا إلى تقوية نفسها تحت قيادة ملك من خلفاء أصحاب الريشة وهزم ، وأعوانه ، الجنوبيين وأعادوا توحيد مصر . ولعل هؤلاء الملوك الجدد هم الذين يشير إليهم حجر بالرمو فى قطعه المتناثرة .

وتشير القصص إلى مرحلة ثالثة من الصراع فى عهود ما قبل الأسرات بين الصعيد والدلتا تفوق فيه الجنوبيون وظهر فيه للمرة الأولى اسم الملك « عقرب » الذى أشرت إليه فى نهاية الفصل السابق،وقد تحرك لغزو الشمال على مايظهر ولكنه قضى قبل أن يحقق النصر الذى كان من نصيب خلفه « نعرمر » على الأغلب وهو الذى وحد البلاد للمرة الثالثة .

وكما تبدأ المدنية بالزراعة فإن التاريخ يبدأ بالكتابة ، وليست لدينا نقوش من عصر ما قبل الأسرات ، ولعل اسم «عقرب» هو أول نقش نلقاه ، ومنذ ذلك العصر تبدأ النقوش فى التطور مما يجعلنا نطمئن إلى مراجعنا المكتوبة بعض الاطمئنان .

* * *

وتاريخ مصر ... تاريخ لتطور الدين وتطور العقائد وتطور العبادات .

وتاريخ مصر يبدأ عادة بملك موحد هو « منى » .

« ومنى » يعتبر « حور » سلفه البعيد فهو من أتباعه يحكم باسمه ويحق تناسله منه .

ولقد كانت امبوس وبوتو وبوصير وايون وأبجو أماكن عبادة مهمة قبل « منى » ولكنه اختار مدينة ليست ذات شأن فى أول الأمر عاصمة له وهى « ثيس » ، ثم شاد منف لتصبح عاصمة للدولة الموحدة ... وإله منف هو « بتاح » الذى ذكر عنه مانيتو أنه أول حاكم لمصر من أسرة الآلهة ... ورغم

ذلك فقد ظلت ابجو (أبيدوس) طوال العصور التاريخية القديمة المدينة المقدسة لارتباطها « بأوزير » ، كما أصبحت « ايون » المدينة الجامعة التى أسس كهنتها بها أول مجموعة لهيئة الكهانة التى برعت فى الفلك حتى وضعت أسس التقويم .

ولعل أول محاولة للتسجيل بالكتابة بدأت بقيام الأسرات ... ثم تطورت الكتابة واستخدمت فى أغراض دينية بشكل واضح .. فنقشت على الأهــرام والمعابد والمقابر واللوحات ومختلف الآثار ... ورغم ذلك فلم يكن لدى المصريين « دين كتاب » كما هى الحال بالنسبة لليهودية والمسيحية والاسلام ... لم يكن لهم « كتاب مقــدس » وإن كانت لهم « كتابة مقدسة » تحفظ فى « بيت الكتابات المقدسة » .

ولقد كانت مصر تملك نظاما دينيا محكما عند ظهور الكتابة بها ، ورغم وفرة ما تحت أيدينا من أسانيد تاريخية فإن عرض الديانة كوحدة متماسكة عسير وذلك بالنسبة لخصائص الديانة نفسها لأنها تختلف عن الأديان التى نعرفها اليوم . فأدياننا مجموعة محددة من المعتقدات ترتبط ببعضها وتتسق كما قدمت ، والإيمان التام بهـا هو اعتناق لها ... وأما الديانة المصرية فليس الاعتقاد أساسا لها بل العبادة للآلهة الذين يملكون البلاد . ويشرع لهذه العبادة الملوك ، ويهيىء لها الكهنة الأساطير

ولقد كانت مصر مقسمة كما نعلم إلى مقاطعات تأثرت حدودها الوهمية بعاطفة دينية ، وكانت لها أعلام هى رموز لحيوانات أو نباتات تميزها عن بعضها البعض ربما كانت تمثل أقدم الآلهة المصرية . وربما لم تكن المقاطعات تقسيما إداريا فقط بل مناطق نفوذ دينى ، ولكنها لم تستقر على حال ، وقبل اتحاد المقاطعات كان سكان كل مدينة مستقلة يعتبرون معبودهم أعظم الآلهة وإليه ينسبون خلق الكون. ولما حدث الاتحاد أصبح إله العاصمة الإله الرسمى للمقاطعة . ولكن المــدن المغلوبة على أمرها لم ترتح إلى ذلك فارتبطت آلهة المقاطعة برباط عائلى على نمط

رباط الأسرة ثم حدث التوحيد على نطاق أوسع لا بين المدن لتصبح مقاطعة بل بين المقاطعات معا . وكانت نواة التوحيد تغليب معبود على غيره من المعبودات الأخرى بمعنى أن الانتصار الحربي كان ديني المظهر .

ولقد كانت المعبودات المحلية أساسا للديانة القديمة ومع ذلك فإن مظاهر الطبيعة كان لها أثرها في أخيلة المصري المفكر ، ولكنها لم تتطور تطورا مفاجئا بل تدرجت في شيوعها شيئا فشيئا حتى تغلبت وأصبحت لها صفة العالمية . ويبدو أنه لم يكن لها في أول الأمر معابد خاصة ، فالكون كله معبد لها .. ورغم ذلك فانها لم تجذب المصري العادي الذي تشبث بمعبوده . ثم اختلطت المعبودات المحلية ببعضها وقدست الآلهة العالمية في معـــابدها حيث رضيت أن تنزل إلى مستوى الآلهة المحلية حتى تساير الأوضاع التي اصطلح عليها .

وكان لا بد للآلهة العالمية حين تحولت إلى «لهة محلية أن تتأثر بفكرة التقرب من الإنسان شكلا ، فظهرت هذه الآلهة في صورة آدمية تقريبا للأذهان وإن احتفظت برأس الحيوان أو برمز يذكر بأصل المعبود (شكلا ١٤ ، ١٥) ولكن بعض هذه الآلهة أخذت صورة آدمية خالصة وذلك حين كانت ذات شخصية مجردة مثل «أتوم» في أيونو و «آمون» في واسة و «بتاح» في منف . وهذه في الواقع آلهة من اختراع الكهنة . (شكلا ١٤، ١٥) .



(شكل ١٦)

وكما تحولت بعض الآلهة العالمية إلى آلهة محلية حدث العكس فتحولت بعض الآلهة المحلية إلى آلهة عالمية ، ومن أشهر الأمثلة ارتقاع المعبود حور الحيواني الأصـــل إلى مرتبة ملك السماء صاحب العينين العظيمتين : الشمس والقمر ، وكانت مرحلة الانتقال هذه معاصرة لانتصار الحربي مما أدى إلى ظهور «رع حور اختي» فيما بعد في أيونو «هيليوبوليس» (شكل ١٦) .


(ا) حور
(ب) نيت
(ج) حتحور
(د) خنوم
(ه) بتاح
(ا) ايزة ترضع ابنها حور
(ب) أوزير
(ج) سوبك
(د) ستخ
(ه) رع

«شكل ١١»

«شكل ١٠»

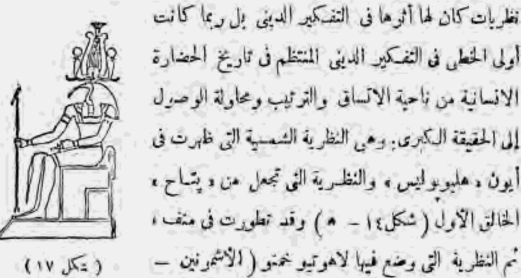
ولكن هناك معبودات لم تستطع الصعود فى سلم الرقى إلى مرتبة الآلهة العالمية فاكتسبت صفات معينة شملت العقيدة فيها أنحاء مصر كلها وهذا ما يطلق عليه « عالمية الوظيفة » وليس من شك أن مختلف كهنة المذاهب المتعددة اصطلحوا على هذه الترضية ، وأمثال هذه الآلهة : « ختنوم » صانع الأوانى الفخارية والصور الآدمية و« تحوت » إله العلم و« پتاح » إله الفن و« سشات » إلهة الكتابة و« حقات » حامية الحوامل .

ولقد حاول « موريه » Moret ومن قبله « لوريه » Loret أنه يربطا بين أعلام المقاطعات وأعلام القبائل الطوطمية وأضاف « موريه » إلى ذلك العلاقة بين الإله حور والملك ثم أسطورة « أوزير » التى يعتبرها تحولا من نظام القبائل الطوطمية والاستقرار أو تحولا من التفرق إلى التركيز ورغم ذلك فإن الرأى لم يستقر بعد على الأخذ بنظريته لأنها ما زالت فجة تحتاج إلى ما يدعمها .

ويعتبر المؤرخون عصر أيونو « هليوبوليس » العصر الذهبى لفجر التاريخ ، ففيه نشأ علم اللاهوت والتاريخ ومقياس النيل ، وفيه حددت سلطات الآلهة وواجباتهم،ويرجع الفضل فى ذلك إلى كهنة هليوبوليس الذين خلقوا إله الشمس وسموه « أتوم » أحيانا و« رع » أحيانا أخرى، وإلى هذا العصر ترجع فكرة « رع حور اختى » بقصد إدماج الإله المنتصر « حور » فى الديانة الشمسية الجديدة . ولقد استعان « زيته » فى تكوين نظريته بمتون الأهرام التى وضع أساسها فى هذه الفترة الهليوبوليتانية ، كما استعان بالتناقض الجلى بين الديانة المحلية كما تظهر فى تماثيل الفترة التاريخية وبين قائمة المقاطعات التى تعتبر أقدم نص عن الديانات المحلية ، ويزداد هذا الفارق وضوحا إن نحن قمنا بدراسة آلهة مقاطعات الصعيد ومعبوداته التى تؤدى فى النهاية إلى القطع بأن استعمار الشمال للجنوب حدث فى هذه الفترة الهليوبوليتانية .

ولقد قدمت أن الديانة المصرية فيها لاهوت وفيها أساطير: الأول أدركه الكهنة ومن إليهم، والثانية انتشرت بين أفراد الشعب بعد أن تضخمت بفضل الحواشي والاضافات على مر العصور وهي ترجع إلى أصول بعيدة. وقد غيرت الكهانة البطلية من صورها وأسلوبها وإن لم تمس جوهرها الذي يمكن تلمسه في عناه... وهذه الأساطير تتضمنها مجموعتان سنتناولها بالحديث هما المجموعة الشمسية والمجموعة الأوزيرية.

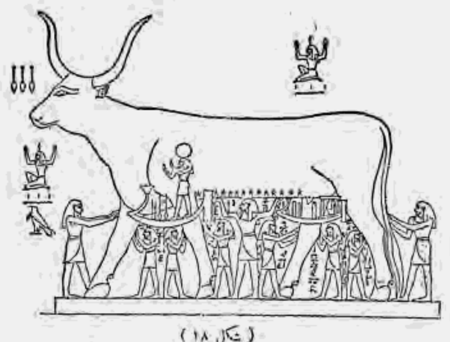
أدرك الكهنة اللاهوت كما قدمنا... لأنه من صنعهم وخلقهم، وقد حاولوا به تفسير مظاهر الكون تبعا لتصورهم، ولقد نشـأت في مصر القديمة ثلاث نظريات كان لها أثرها في التفكير الديني بل ربما كانت أولى الخطى في التفكير الديني المنتظم في تاريخ الحضارة الانسانية من ناحية الاتساق والترتيب ومحاولة الوصول إلى الحقيقة الكبرى. وهي النظرية الشمسية التي ظهرت في أيون «هليوبوليس» والنظرية التي تجعل من «بتاح» الخالق الأول (شكل ١٤ – ه) وقد تطورت في منف، ثم النظرية التي وضع فيها لاهوتيو خمنو (الأشمونين – هيرموبوليس و تحوت» على رأس آلهة المصريين قاطبة وتصوروه الخالق الأول (شكل ١٧).


(شكل ١٧)

ولم ينكر سـكان مصر القدامى عبادة آلهة الفلك، بل إنه من المحتمل أنهم اعتقدوا في وجودها قبل التوحيد بزمن طويل، وقد ترجع الفكرة إلى ما قبل نشأة النظرية الشمسية إذ نلتقي ثلاث شخصيات هي «جب» إله الأرض و «نوت» إلهة السماء وبينهما «رع» الذي قام بخلقه هذا الزوج من الآلهـة فأصبحت «نوت» أما له تستقبله كل مساء لتخبئه طيلة الليل وتطلع به على العالم

فى الصباح . ولقد أطلق على « جب » فى العصور التاريخية « أب » أو « أمير » الآلهة . ولابد أن هذه العقيدة كانت عقيدة شعبية قبل أن يتلقفها لاهوتيو أيون.

كان خيال المصريين خيالا واسعا عريضا ... عميقا أحيانا :



(شكل ١٨)

رأوا فى السماء بقرة كبيرة (شكل ١٨) تعتمد على قوائمها الأربع التى تمثل دعائم السماء وفيها يبحر قارب يحمل شمس الصباح (شكل ١٩) .



(شكل ١٩)

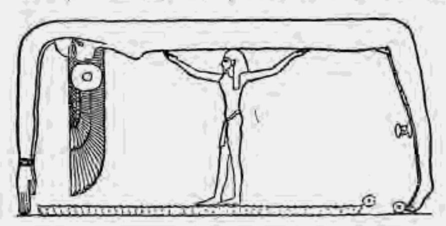
وقد رأوا فى السماء كذلك امرأة تحل محل البقرة أحيانا ، تنحنى بجسمها المديد فــوق الأرض وتعتمد على ذراعيها وساقيها التى تحل محل قوائم البقــرة (شكل ٢٠) .

أما الشمس عندهم فقد رأوا فيها جعلا (الجعران) مرة ورأوا فيها مرة أخرى قرصا مجنحا ... وهو مرة ثالثة قرص يتحرك بين جسدها وأرجلها (شكل ٢١)



(شكل ٢٠)

كانت السماء أنثى والأرض ذكرا ... السماء إلهة هى « نوت » ... ولكن للسماء إلهات أخريات هن : « حتحور » برأس البقرة وذراعى وساقى المرأة أو بالأرجل الأربعة للبقرة التى تمثل دعائم السماء الأربعـــة ، ثم تتحول الدعائم



(شكل ٢١)

فيما بعد إلى جبال . . . وتحت البقرة أو المرأة . . . على وجه السماء خضم تجرى فيه سفن الشمس وتسقط منه الأمطار . أما الأرض فرجل يستلقى عـــلى بطنه أو على ظهـــره وتنمو النباتات على ظهره ويحيط به محيـــط واسع ... وأحد جانبيه أحمر قاحل يعيش فيه المتبربرون والآخر أسود خصب حيث المصريون . والأرض جسد مؤله هو « جب » وبين السماء والأرض يقـــع الفضاء « شو »

وهو إله يسند مع غيره من الآلهة البقرة ولكنه يمتاز عنهم بأن له زوجة ، وهو يقف على الأرض ويسند السماء بذراعيه . أما النيل فمنحة الآلهة للناس ، وهو يخرج من الجندل الأول وهو جسد مؤله كذلك له صدر إلهة . وتحت الأرض العالم السفلي ... عالم الموتى ... تدخله الشمس كل مساء وتقضى به الليل لتخرج منه من الشرق كل صباح . وبالعالم السفلي نهر تبحر فيه الشمس في قارب السماء التي هي سماء ثانية سفلية . . . والعالم السفلي يموج بالموتى الذين يسعدون برؤية الشمس . . . وعند خروج الشمس من العالم السفلي تهلل القردة . .

والشمس عند البعض تدخل فم السماء المرأة وتمر في جسدها في الليل ثم تولد من جديد في الصباح .

والشمس عند البعض تسكن جزيرة في بحر السماء هي الأفق ولها منزل في حقول ياروه... أو هي تعبر السماء في قارب صنعته الآلهة وصاغته من الذهب ، وبحارته النجوم المتجسدة (شكل ٢٢) .



(شكل ٢٢)

والشمس طوراً بيضة جعل كبير يدفع القرص عبر السماء أمامه ، وتارة عجل ذهبي يولد من البقرة السماوية في الصباح ثم يزداد نماء حتى يغدو ثوراً يخصب أمه

حتى يولد من جديد شمساً فى الصباح التالى . . . والثور هنا يطلق عليه « ثور أمه » . . . وهو على هذه الصورة طفل يولد فى الصباح ويشيخ فى المساء .

والشمس من وجهة نظر لاهوتيي أيون « أتوم » المجسد المؤله كشيخ فى المساء و « رع » ساعة الظهيرة و « خبرى » فى الصباح .

وأما تصور الشمس كصقر فلأنه يطير عالياً حتى لا يكاد يعلوه شيء ، وهى على شكل صقر أو هى رجل برأس صقر .

والشمس والقمر عينان لإله الشمس . . . أو الشمس عين لإله الشمس والقمر عين لـ «حور» (وهو إله شمس آخر) . . . وعين الشمس مدمرة فى صورة ثعبان (أو ثعبانين أحياناً) والثعبان إكليل الملك وهو القوى الحامية لإله الشمس والتاجان ثعبانان أو عقاب وثعبان وقد جسدا وألها كإلهتين تحلان محل عينى إله الشمس ، وتستخدم عين إله الشمس كرسول ، وقد أرسل الإله رع عينه «حتحور» يوما رسولا للقضاء على البشر . وعين إله الشمس تستطيع أن تسبغ حمايتها على الملك حياً وترضعه ميتاً .

ولكن إله الشمس رغم قوته أضعف من أن يصمد أمام السحب والعواصف . وأعدى أعدائه « عابب » . ولكن سمكة حارسة أمينة كانت تحميه فى رحلاته للعالم السفلى هى سمكة الـ « ابجو » .

وعين إله الشمس الأخرى هى عين « حور » وهى القمر » وقد امتزجت الأساطير فجعلت من إله الشمس معادلا لإله السماء كما جعلت من « حور » إلها للسماء ، الشمس عينه اليمنى والقمر عينه اليسرى . . . وقد استطاع كائن شرير أن يعتدى على القمر-عين حور فجرحها واستطاع كائن طيب أن يشفيها . أما

الأول فهو « ستخ » (شكل ١٥ — د) وأما الثانى فهو « تحوت » (شكل ١٧) ولكن تحوت نفسه كان الاله القمرى .

وكان لالهة السماء « نوت » أطفال هم النجوم الذين تلدهم فى المساء وتبتلعهم فى الصباح وأكبرها النجوم الخالدة ثم النجوم التى لا تستريح وهى التى تصاحب قارب الشمس ، أما نجم الصبح فيمسح وجه الشمس كل صباح ويقدم لها طعام الافطار . أما النجوم الكسولة فتسقط الى الأرض .

وتسمى النجوم التى لا تختفى بأتباع « أوزير » . أما « سوبد » و « نجم الكلب » فتصلان بـ « إيزه » ، وأما « الجوزاء » (الجبار) فتتصل بـ « أوزير » ويتصل « إبزس » أحد نجوم الجوزاء السبعة بـ « حور » . وقد رأى المصريون فى العصور المتأخرة فى النجوم أرواح الموتى فى السماء يصحبون « رع » مليكهم والههم .

* * *

وكان الناس منذ خلقوا دائمى التفكير فى أمر الخلق ، وقد بدأت عملية الخلق حين ردد الفم الالهى أسماء كل ما هو كائن وصنعها عن طريق « ماعة » (شكل ٢٣) أى الحق والصدق والعدالة والنظام . وكان لابد أن يتم فى مصر على الصورة التى تهبها الطبيعة للبلاد . . . يفيض النيل فيغرق الأرض وعلى ذلك فالخلق الأول من ماء أزلى ... هوة مائية لاقرار لها تبعث الخوف والرعب ولها قداسة ولها رهبة هى الـ « نون » جاء إلى الوجود بترديد اسمه كائن له قوة الوجود المستقبل هو « نب ارجر » سيد العالم المعروف فى أيون كـ « أتوم » . وانبعثت من الـ « نون » الأرض التى برزت ونمت الأشياء عليها وظهرت الحياة ... ومن بيضة طير مائى جاء مخلوق حى . . . خرج برعم لوتس من الماء

شكل ٢٣
(ماعة)

وفيه إله طفل ركب على ظهر البقرة التى تسبح فى الماء : الطفل هو الشمس والبقرة هى السماء . ولكن قصة أخرى تقول أن « أتوم » حين خرج من الـ « نون » لم يجد مايقف عليه فطلب القوة و ماعة « أساساً من « نون » فى شكل « بن » أو حجر « بنبن » على هيئة مسلة رمز الشمس أب الآلهة جميعا ، فوقف عليه وأصبح أعظم من « نون » نفسه . . . وكما يرى الانسان الانسان فى عينه جرت العقيدة بأن البشر خرجوا من عين أتوم . . . وحين خلق العالم لم تكن السماء والأرض قد فصلتا عن بعضها ، ووجد « أتوم رع » نفسه وحيدا فى الفضاء فأخصب نفسه بامتزاجه بظله أو باستمنائه . . . فخرج « شو » وزوجه « تفنوت » (الهواء والرطوبة) . وكانت « نوت » (السماء كامرأة) ترقد فوق « جب » (الأرض كرجل) ورفع « شو » نوت بما تحمل من شمس ونجوم وقوارب (شكل ٢٤) ووقف فوق الأرض يحملها على ذراعيه ويسندها كى لاتنهار ورزقت « نوت » و « جب » بمواليد أربعة هم « أوزير » و « إيزه » ثم « ستخ » و « نبت حت » وحكم « أتوم رع » إله الشمس فى السماء أرض « جب » يعاونه مجمع الآلهة الذين يكونون على هذه الصورة تاسوعا فى العقيدة الهليوبوليتانية (الشمسية) وأصبح سيداً للتاسوع على رأس تلك المجموعة من الأزواج الأربعة (شكل ١٥) وقد اعتبرت المجموعة فى العصور التاريخية شخصية إلهية واحدة لا مجموعة



شكل ٢٤
« شو » يرفع « نوت »

من الآلهة . . . كان الكل فى واحد . . . وكانت هذه المحاولة من الكهنة تستهدف التوفيق بين رأيهم وما درج عليه الشعب من تقاليد وأساطير حتّى تتضمن

المجموعة الأسطورة الأوزيرية التي احتلت مكانها في العقيدة ، ولقد نشأ عن المذهب الهيوپوليتاني مجموعتان من الأساطير : الواحدة فلكية والثانية تعتمد في كيانها على حدث تاريخي على الأغلب .

وأما المجموعة الأولى فتعنى بوصف الأحداث البارزة في الفترة التي كانت تحكم فيها أسرة إلهية العالم هي أسرة تاسوع أيون « هليوبوليس » . إن « رع » نفسه سيد العالم لم يكن بمأمن من هجمات الحاسدين فكان يلقى أكثر من عدو ، لم يكن يستطيع أن يقضي عليه ، بل إن الناس ثاروا عليه رغم قوته وجلاله ، بسبب شدة حرارة الشمس في الصيف ، ولكنه هزم أعداءه وأقر الحق بدلا من الاثم في العالم . وهناك صورة أخرى للقصة تقدمه في هيئة قط ضخم يقضي على الثوار . . . وتروى الأساطير أنه حين تقدمت به السن جمع المبرزين من تاسوعه وهم : « شو » و « تفنوت » و « جب » و « نوت » الذين طلبوا إليه أن يوجه عينه نحو المتآمرين ففعل ، وأسرع هؤلاء بالهرب إلى الصحراء فأمر عينه التي هي ابنته « حتحور » بمتابعتهم فارتوت من دمائهم ولكن الحنان غالبه فأسكر « حتحور » بجعة بلون الدماء حتى ثملت وهكذا أنقذ العصاة من هلاك محقق . ولكن الخيانة حزت في نفسه فهجر العالم . . . رفعته « نوت » البقرة السماوية على ظهرها ثم نظرت إلى الأرض فاعتراها دوار شديد فأنضت بآلامها إلى « رع » فأمر « شو » أن يسندها من تحت بطنها . . . وتشير بعض متون الأهرام إلى أن ابنه « جب » خلفه على عرش العالم ولكنه لقى ما لقى أبوه وانتصر بفضل « رع حورختي » وقام بالتنظيم السلمي للدولة .

وتروى قصة أخرى أن « رع » أرسل العين لاهلاك البشر ولكنها لم تعد فأرسل « شو » و « تفنوت » للبحث عنها وقاومت العين وأنزلت دموعها أثناء المناقشة . . . ومن الدموع جاء البشر .

وتشير متون الأهرام من لآ وقت خر إلى « حور » كإله للسماء له عينان هما الشمس والقمر ، ولكن العقيدة الهليوبوليتانية (الشمسية) التى لا ترضى بالشمس بديلا لم ترض أن تضع غيره فوقه ، وهكذا اندمج « حور » مع « رع » فأصبحا شخصية واحدة وأصبحت عين الإله « الشمس » ملكا لرع لا ملكا لإله السماء الذى احتفظ بعينه القمرية . . .

وتشير بعض الأساطير إلى أن « حور » فقد عينه فى صراعه مع « ستخ » وأن « تحوت » أعادها له ، كما يقال إنها عادت بنفسها إليه . ومهما يكن من أمر فانها أعيدت إلى موضعها بعد تطهيرها ، وليس من شك أن للأسطورة أساساً ذا طابع كوكبى بحت كان له فيما بعد رد فعل شمسى ، إذ يقال إن « رع » وجد نفسه محروما من عينه فى البدء فكلف « شو » و « تفنوت » أن يحضراها له ولما طالت غيبتها استعاض عنها بأخرى . وحين عادا بها ورأت العين أن مكانها قد شغل بغيرها غضبت فحولها رع إلى صل ووضعه فوق جبينه ليدافع به ضد أعدائه ، كما يقال إن « حور » لم يكن يحارب ليسترد عينه بل عين أبيه .

وكان أعدى أعداء « رع » الثعبان « عابب » الزاحف الشيطان الذى كان يدأب على مهاجمة « رع » فى رحلته اليومية عبر السماء ولكن « رع » كان ينتصر دائما لأنه كان يعاود الظهور فى بهائه فى اليوم التالى .

* * *

وأما المجموعة الثانية من الأساطير المتصلة بالشمس فتتناول « أوزير » والمنية العتيقة التى ماتها ، وهى تأخذ مكانها من الناحية التاريخية قبل الحقبة الهليوبوليتانية مباشرة أو فى أوائلها لأن الملوك الذين حكموا الشمال والجنوب

معاً فى العصر الهليوبوليتانى أعلنوا عن أنفسهم بوصفهم أتباعاً لـ « حور » وبذا أصبحوا أعداء لـ « ستخ » مما يدعونا الى التسليم بأن الحقبة الهليوبوليتانية سبقتها مملكة متحدة كان يقوم بالحكم فيها « أوزير » ، ولكن « ستخ » انتصر عليه ثم تبعت هذا النصر هزيمة ساعدت على تكوين مملكة متحده قوية .

ولقد ارتبطت أسطورة « أوزير » بالعقيدة الشمسية ارتباطاً مصطنعاً ، فالعداء الذى بدأ سياسياً بين « أوزير » و « ستخ » أخذ بعد هذا الارتباط هيئة الخصومة الأخوية التى احتفظت بها الأسطورة فيما بعد .

وقد قدم « بلوتارك » Plutarch صورة الأسطورة أكثر نقاء مما قدم غيره وإن كانت تمثل لونها فى العصر اليونانى الرومانى . وهى قصة قديمة من غير شك لأن بمتون الأهرام الكثير مما ورد بها من تفصيلات . ويحدثنا بلوتارك أنه بعد أن لعن رع الالهة نوت أصدر حكمه بأن تظل عاقراً طيلة أيام السنة . . . وهزت الشفقة عاطفة « تحوت » نحوها فخلق لها أيام النسىء الخمسة فوضعت فيها أولادها الخمسة « أوزير » ، « حوروور » ، « ستخ » ، « ايزه » ، « نبت حت » . وعند ولادة « أوزير » صاح صوت فى معبد فى طيبة أن ملكا طيباً صالحا قد ولد ، ثم اعتلى « أوزير » العرش بعد أبيه « جب » وكان ملكا صالحا نشر الثقافة بين الناس وعلمهم احترام القانون وإكرام الآلهة ودربهم « تحوت » على الآداب والفنون وابتكر لهم الكتابة الهيروغليفية ... وكان « أوزير » موسيقيا بارعاً أحبه الناس فحقد عليه أخوه وتآمر مع آخرين حتى صنع صندوقا بحجم « أوزير » زعم فى حفل أقامه له أنه يهديه لمن يتسع له ، ولم يتسع لغير « أوزير » الذى كان طويل القامة جداً . وأغلق « ستخ » الصندوق بمعونة أنصاره وعددهم ٧٢ وألقاه فى النيل بعد أن أحكم اغلاقه . وجدت « إيزة » (شكل ١٥ — ١ مكرر) فى البحث عن جثة زوجها حتى عثرت

عليها داخل شجرة أرز فى « جبيل » « بيلوس » كان الملك قد قطعها وأقامها عموداً ودعامة فى قصره ، وتعرفت هى إلى نساء الحريم الملكى حتى يستخدمها الملك مربية لأولاده . واستطاعت أن تصل إلى هدفها، وفى الليل أشعلت ناراً بجوار جسد أحد الأطفال ورأتها الملكة تحوم على هيئة طائر حول العمود واضطرت « إيزة » عند


(شكل ٥١ ــ ١ مكرر)

سؤالها أن تكشف عن شخصها وتميط اللثام عن سرها وأخرج الصندوق من داخل الدعامة، وكان عويل « إيزه » قد قضى على أصغر أطفال الملك . وحاولت أن تأخذ ابنه الأكبر معها ولكنه رآها تقبل جسد زوجها « أوزير » فخر ميتاً حين نظرت إليه الالهه بعينها الساحرة . وحين عادت إلى مصر أخفت الصندوق فى مستنقعات « شميس » ثم ولدت « حور » وقامت على تنشئته فى « بوتو » . واستطاع « ستخ » بعد جهد أن يعثر على جسد « أوزير » وانتهز فرصة غياب « إيزه » وقطع الجثة إلى أربعة عشر قسما وبعثر أجزاءها ، وجدت « إيزه » فى البحث عنها حتى عثرت عليها جميعاً ودفنت كل جـــزء فى الموضع الذى عثرت عليه به . وصار « أوزير » ملكا للموتى ثم اعتزل هذه المملكة فترة من الزمان ليهيىء ابنه « حور » للكفاح ضد « ستخ » وانتصر الابن وأحضر « ستخ » مكبلا بالأغلال إلى أمه « وأشفقت « إيزه » على أخيها ففكت قيوده وغضب حور فألقى بتاج أمه على الأرض وأعاضها عنه « تحوت » بما يشبه رأس البقرة وحين تحرر « ستخ » من قيده اتهم « حور » بأنه ابن غير شرعى ...

وتحدثنا بردية « شستر بيتى رقم ١ » عن قصة هذا الصراع الذى استمر ثمانين عاما والذى كان الآلهة قضاته وظهر فيه « حور » ابنا غير شرعى ، كما ظهر « ستخ » مخاتلا شريراً و « ايزه » ماهرة ذكية . وكان « رع »

القاضى يجامل « ستخ » ، لأن « ستخ » يحميه ضد أعدائه . . . وكان التاسوعان الأكبر والأصغر يشهدان المحاكمة وكان « تحوت » يعمل كاتبا يسجل ما يقال ، أما « أتوم » فكان ملكا يلاحظ كل مايجرى . وكانت العواصف تسود فترة المحاكمة وحاول « ستخ » أن يحول القضية إلى ساحة مصارعة بدنية واستشيرت أم الآلهة كتابة فنصحت بأن تعطى وظيفة « أوزير » لابنه « حور » وأن يعاقب « ستخ » ، ولكن « رع » لم ير الموافقة على ذلك بحجة أن « حور » ضعيف البنية لا يستطيع أن يحتمل أعباء الوظيفة . وقاوم الآلهة « رع » فاضطر إلى الاعتكاف فى خيمته يوما كاملا وأتتـــه ابنته « حتحور » وهـــدأته . وعادت الجلسة إلى الانعقاد وبدأ يتضح أن التيار تحول إلى جانب « رع » مما أغضب « ايزه » وجعلها تقسم بعرض الأمر على « أتوم » فى « ابون » . وهدأ جمع الآلهة « ايزه » ووعدوها بأن تأخذ العدالة مجراها . . . وغضب « ست » وأقسم ليأخذن صولجه ويقتلن إلها كل يوم . كما قال إنه لن يجلس فى قاعة محاكمة تجلس فيها « ايزه » . وأمر « رع » بنقل البلاط الى جزيرة ويمنـــع أية امرأة من دخولها ، ولكن « إيزه » تخفت فى صورة امرأة عجوز وأغرت صاحب قارب بنقلها إلى الجزيرة وحين وصلت إليها تنكرت فى صورة غادة رائعة الجمال . ولم يعرفها «ستخ» وحاول إغواءها وقصت هى بدورها قصتها بعد أن وضعتها فى إطار جديد يمثل ابنها فى صورة ابن راع اضطهده عمه القاسى والتمست من « ستخ » أن يكون عونا لها فى الانتصار لابنها والدفاع عن حقه . . . ووافق « ستخ » فتحولت « ايزه » إلى طائر وصرخت « يا للعار ! » ثم نقلت القصة الجديدة إلى هيئة المحكمة . . . وانتقلت المحكمة الى جبل الغرب وكان قلب « رع » قد تغير فكتب خطابا مشتركا مع « أتوم » يوصيان فيه بمنح التاج الأبيض إلى « حور » ووضعه فى مكان أبيه . واستشاط « ستخ » غضبا وطالب

بالقاء التاج الأبيض ، الصعيد ، فى الماء حتى يتصارع هو و حور عليه ... ووافقت المحكمة على هذا العرض وللتو تحولا إلى فرسى بحر وتدخلت «ايزه» فى الصراع ودفعت بحربة فى جسد « ستخ » ولكنها عادت فأطلقت سراحه بدافع الشفقة مما أغضب « حور » ودفعه إلى قطع رأسها . وأراد الآلهة معاقبته على فعله ففر هاربا ، ولكن « ستخ » عثر عليه فاقتلع عينه ودفنها ونبتت شجرتان . ولقيته « حتحور » وأمسكت بغزالة حلبتها وشفت العين بلبنها وأنبأت الآلهة بذلك . واستدعى « حور » و « ستخ » ونصحهما « رع » أن يتوقفا عن الصراع . واقترح « ستخ » أن يصنع كل من الطرفين المتنازعين قاربا من الحجر يتسابقان فى النهر بهما ، وخدع « حور » عمه فصنع قاربه من خشب الأرز وغطاه بمادة ضللت عمه حتى ظنه مصنوعا من الحجر . وغرق قارب « ستخ » فحول نفسه إلى عجل بحر وأغرق قارب « حور » فطعنه « حور » بحربة وذهب فى قاربه إلى المعبودة « نيت » فى « سايس » ليلتمس العون من الالهة القوية . . ثم التمس « حور » عون « أوزير » فكتب هذا خطابا إلى الآلهة يحذرهم مغبة إثارة العقبات فى وجه ابنه وأشار إلى أنه يستطيع أن يثير المتاعب بوصفه ربا للقمح ، وسخر رع من التهديد ولكن حين قرىء الخطاب أمام سيد الآلهة والتاسوع وافقوا على ماجاء به ، ثم صدر الحكم فى النهاية لصالح « حور » وأمر باحضار « ستخ » مكبلا بالاغلال والقيود . . واضطر « ستخ » للتنازل عن حقوقه المزعومة وجلس « حور » على عرش أبيه وتوج بالتاج الأبيض وقدمت له « إيزه » التحية كملك . وتساءل « بتاح » عما يصنع « ستخ » فطلب « رع » أن يعتبر « ستخ » ابنا له ثم منحه الأرض الحمراء (الصحراء) .

وقد نقشت على جدار معبد ادفو (من العصر البطلمى) صورة قصة

أخرى تمثل الصراع الجسدى بين « حور » و « ستخ » انتصر « حور » فى نهايتها كذلك مما جعل « رع » — الذى كان « حور » يدافع عنه — يمنحه قرص الشمس المجنح شعارا يوضع فى جميع الهياكل .

° ° °

واقد عرف المصريون « أوزير » واتخذوه رمزا للطبيعة مادام قد عاش ومات وبعث كما تعيش وتموت وتبعث الطبيعة . وكان له إلى جانب هذا المظهر الطبيعى مظهره الفلكى الذى رأيناه والذى أصبح عن طريقه سيدا للسماء . وقد اندمج مع القمر فأصبح ملكا للعالم الليلى فكان ذلك التشابه بين مأساة القمر ومأساة « أوزير » . . . وكل منهما يتلوها بعث إلى الحياة .

° ° °

هذه كلها هى اهم نواحى الخلق والأساطير المتصلة به فى العقيدة الشمسية التى تناولها الكثير من التغيير من الناحيتين الزمانية والمكانية ، وقد قامت أصلا على أسس منطقية ونظريات معقولة وتدور حول فكرة أن الآلهة حكموا البشر فترة من الزمان وأن أولهم كان « رع » كما كان « حور » آخرهم .

ولكن العقائد الشمسية وما اتصل بها من أساطير لم تكن هى وحدها التى سيطرت على تفكير المصريين وأخيلتهم . . . ذلك أن مدائن أخرى أسهمت فى تفكير دينى لايقل روعة عن ذلك إن لم يتفوق عليه ، وسأكتفى هنا بالاشارة إلى ثلاث عقائد أخرى كان لها أثرها البين فى الحياة الفكرية بله السياسية فى مصر الفرعونية .

ولعل أجدرها بالاشارة هى العقيدة الهيرموبوليتانية التى يظهر أنها أنشئت لتناهض ادعاءات لاهوتيى « أيون » ، ولابد أنها عاصرت الثورة

الهيرموبوليتانية فى عهد النفوذ الهليوبوليتانى ... هذه الثورة التى - وإن كانت قد أخمدت — كما تحدثنا متون الأهرام — إلا أن أثرها ظل باقيا فى « خمون» (الاشمونين — هيرموبوليس). وإله الشمس فى هذه العقيدة لم يخلق نفسه بل انحدر من ثامون مكون من أربعة أزواج على ضفادع أو حيات خلقت بيضة وضعتها فوق مرتفع على سطح نون هيرموبوليس، ومن هذه البيضة خرجت الشمس. فهذه العقيدة تنتهى إلى الشمس ولكنها لا تبدأ بها.. والشمس ولدت فى هيرموبوليس وليس فى هليوبوليس وعلى ذلك فان لهيرموبوليس حق السيادة ... والنون فى هذه العقيدة ليس ساكنا ساكنا ولكنه كان عنصرا فعالا فى الخليقة . . . وقد اختلس الهليوبوليتانيون هذه الفكرة بعد إخماد ثورة هيرموبوليس فغيروا من بعض أوضاعهم حتى أصبح « نون » أبا الآلهة « وأتوم»

أما الزوج الأول من الأزواج الأربعة التى تكون ثامون العقيدة الهيرموبوليتانية فهو نون وزوجه نونة ويمثلان المحيط البدائى، وهو — كما يراه « زيته » Sethe — فضاء العالم قبل الخليقة .

وأما الزوج الثانى فهو حوح وزوجه حوحة ويرمزان إلى المياه التى تسيل وتنتشر باحثة عن طريق لها .

وأما الزوج الثالث فهو كوك وكوكة زوجـــه ويمثلان الظلام الذى كان منتشراً فى الفضاء الأول قبل وجود الشمس .

وأما الزوج الرابع فهو الذى لعب الدور الهام فى تكوين وبقاء التعاليم الهيرموبوليتانية . وقد عرفت لهذا الزوج أسماء شتى أهمها تداولا «نياو الذى ينحرف ثم يختفى) وزوجه نياة أو آمون (المختفى) وزوجه أمونة .

ومما يلفت النظر فى تسمية هذا الزوج الأخير معنى النفى الذى يتضمنه وذلك إشارة إلى طبيعته التى تتضمن الخفاء والغموض . ويرى « زيته » أن

هذا الزوج الأخير قد لعب فى النظام الهيرموبوليتانى نفس الدور الذى تنسبه التوراة فى قصة الخليقة إلى « روح الله الذى كان يرفرف على وجه الماء » وقد أعتمد « زيته » فى ذلك على بعض نصوص متأخرة منها أنه كان يسمى بإله الهواء . والأمثلة التى تقدمه بهذه الصفة كأنما هو « ريح » ، عديدة .

ولقد أصبح « أمون » فيما بعد سيداً للآلهة فى طيبة بحجة أنه كان إله الثعبان المدعو « كم ات اف » أى (الذى انتهى زمنه) وهو صورة ا « أمون » وقد مات تاركا لابنه « ايرتا » (أى خالق الأرض) العناية بخلق الثامون وهو فى نفس الوقت صورة من أبيه . وهكذا نرى سلالات ثلاثة : « كم ات اف » الذى يمثل « أمون » الأعظم فى الكرنك ثم « ايرتا » وهو أمون الأقصر . ثم « أمون » عضو الثامون .

وقد ادعى لاهوتيو طيبة فيما بعد — بالاضافة إلى ذلك — أن الثامون نشأ فى طيبة ، وليس فى هيرموبوليس ، ثم سبح الآلهة على الماء إلى هيرموبوليس حيث خلقوا الشمس وعادوا بعد أن أتموا عملهم ليموتوا فى طيبة بالقرب من « مدينة حابو » حيث أقيم لهم معبد ، وكان يأتيهم أمون الأقصر المسمى « ايرتا » كل عشرة أيام ليقدم القربان الجنزى . وعلى ذلك فان أمون مر بمراحل ثلاثة هى :

المرحلة الأولى : وقد عرفته فيه مجموعة ضئيلة من اللاهوتيين .

المرحلة الثانية : وذلك حين أصبح إلها محليا لطيبة .

المرحلة الثالثة : حين ذاع صيته فأصبح إلها عالميا وتحول من إله مبدئى إلى جد للآلهة الأولين ثم أدخل فى مجموعته الإله « حور » كابن له ووريث للثامون .

* * *

أما العقيدة المنفية فترجع فى أصلها إلى ظروف سياسية ، ذلك أنه كان من الضرورى بعد أن أصبحت منف عاصمة سياسية للدولة أن يحاول كهنة إلهها أن يجعلوا من ذلك الإله إلها عاما للدولة جميعا ، وهكذا حاولوا ان يحلوا « بتاح » محل « أتوم » وأن يجعلوه على رأس تاسوع مكون من « تاتنن » (وهو الأرض الظاهرة فوق سطح الماء) ثم « اتوم » ثم « نون » و « نونة » (وهما الزوج الأول من المجموعة الهيرموبوليتانية التى قدمناها ثم أربعة آلهة أخرى يرجح أنها « حور » و « تحوت » و « نفرتيم » و « الثعبان » ويقوم « أتوم » فى هذه المجموعة بدور جديد فى عملية الخلق فهو العقل الذى يعتلى عرش القلب (وشكله الالهى حور) وهو الارادة التى تبين عن طريق اللسان « تحوت » . وهكذا أدرك « بتاح » العالم بعقله قبل أن يخلقه بالكلمة ثم القرائن والمحسوس (القوى التى تعمل على استمرار الحياة) ثم أنشأ العالم المتحضر من مدن ومقاطعات ... فكان بذلك أصلا للعالم والانسان والحياة الاجتماعية ، وهو يختلف عن المذهبين السابقين بطابعه العقلى البحت — أو هو يختلف عن المذهب الأول فى ذلك على الأقل — مما حال دون شعبيته .



(سشات) إلهة الكتابة

الفصل الرابع

العهد الثينى

٣١٩٧ — ٢٧٧٨ ق.م.

الأسرتان الأولى والثانية

الاسرة الأولى : مؤسس الوحدة : نعرمر ، منى ، عحا — چر — ادچو زمتى « ودیمو » — .ربى يبا — سمهپس — قادا .

الأسرة الثانيـة : ثرى مو — نب رع — حوتپآسخوى — سخم ايب — پر ايب سن — خع سخموى .

مقدمة :

قام « كويبل Quibell » منذ نصف قرن بالحفر فى منطقة هيراقونپوليس (نخن — الكاب) وهى التى كانت مقر الحكم قبل التوحيد مباشرة والتى ظلت بعد التوحيد رمزا الوعى الجديد يبعث الملوك إليه بما يشير إلى فضل هذا الاقليم عليهم .

ومن بين ما عثر عليه « كويبل » هناك رأس دبوس (مقمعة) للملك الذى يسبق التوحيد مباشرة وهو المسمى — أو الملقب — بـ « عقرب » ، وحول الجزء العلوى من رأس الدبوس صف من الألوية يمثل مقاطعات الجنوب وتتدلى من الألوية صور لطائر يرمز لشعوب التى استطاع الجنوب أن يقهرها ويخضعها لسلطانه . وتحت هذه المجموعة من الألوية يرى الملك

(شكل ٢٥) يشق قناة وهو يضع فوق رأسه التاج الأبيض رمز الجنوب المتحد وأمامه رجل يحمل سلة يتلقى فيها بعض التراب وآخر يحمل سنابل رمزا للخصب الناجم عن جهود الملك . وإلى أسفل ذلك صورة العقرب التى قد تعنى اسم الملك أو لقبه . وخلف الملك يقف حاملا المروحتين . وتمثل خلفية الصورة أرضا مزهرة وفى الطرف منظر احتفال وبه جماعة من الناس فى هوادج وفى أسفل المنظر راقصات طويلات الشعر وتحت اسم الملك حاملو ألوية الجيش .



(شكل ٢٥ الملك عقرب)



إن المناظر المنقوشة على رأس دبوس الا «عقرب» تشير إلى نظام دقيق عجيب ومرحلة فنية متقدمة . وأما القطعة نفسها فمستند تاريخى بالغ الأهمية يخلد ذكرى الخطوة الأولى نحو التوحيد ويمثل الغزو الحربى ومظاهر التقدم فى الوقت نفسه .

ولم تقدم لنا حفائر «كويبل» فى هيراقونبوليس هذا التراث الرائع وحده ، بل إن هناك أثرا آخر من نفس النوع . . .

هو رأس دبوس آخر يحمل اسم ملك آخر هو «نعرمر» ويمثل الملك وهو يحتفل

بعيد « سد »[1] جالسا تحت كنة وترفرف فوقه الآلهة العقاب حامية الجنوب ورمزه ، وأمامه ألوية وتقدمات وأسرى مادحون ، ومن تحته ظهر حملة المراوح ومن خلفه العلامات التى تشير الى اسمه ، والى أسفل صفان من الموظفين يحمل أحدهم نعلى الملك . . . ويضع الملك فوق رأسه التاج الأحمر (تاج الشمال) مما يشير الى أنه أصبح يحكم الشمال كذلك ، وهنا ما يشير الى أن التوحيد لم يتم فى يسر وسهولة ، ذلك لأن رأس الدبوس يسجل ١٢٠٫٠٠٠ أسير إلى جانب ٤٠٠٫٠٠٠ ثور ، ١٫٤٢٢٫٠٠٠ من الماعز استطاع الملك أن يستولى عليها وهو يسجل انتصاره على « الأقواس التسعة » ، وتعنى الأقوام على الحدود المصرية وعلى الـ « إرخيه » وربما يعنى بهم أهل الشمال ومع ذلك فهو لا يزعم أنه كان ملكا على الوجهين أو ملكا على مصر الموحدة .



صلاية الملك نعرمر — شكل ٢٦

---

١ ـ الاحتفال بعيد « سد » يعد من أقدم الاحتفالات المصرية القديمة ... كان من المفروض أن يذبح الملك فى نهاية العام الثلاثين من حكمه ، وهى تراث وحشى من العصور السحيقة يستهدف قيام ملك له قوته الحيوية على الدوام التى يستطيع بها أن يقود الجيش فى الميدان وهو فى عنفوان القوة ولا بد أن هذه العادة المقيتة كانت قد انقرضت قبل عهد « نعرمر » بزمن طويل وتحول الاحتفال الفعلى لذبح الملك الى احتفال يشير الى ماجرت به العادة من قبل ، وفيه يجدد الملك شبابه .

وليس هذا هو المستند التاريخى الوحيد الذى يقدمه لنا «كوبيل» مما عثر عليه فى هيراقونبوليس بل هناك كذلك الاثر الرائع الذائع الشهرة وهو «صلاية نعرمر الاردوازية» (شكل ٣٦). والصلاية لوحة كانت شائعة الاستعمال فى تلك العصور تستخدم فى صحن الدهنج... ورغم وجود حفرة الصحن فى الصلاية التى نحن بصددها فانه يغلب على الظن أنها لم تصنع لهذا الغرض بل إن نقشها تم لتخليد ذكرى أحداث معينة، وقد نقش وجها اللوحة برسوم هامة تستدعى الملاحظة والعناية:

فأحد الوجهين يعلوه رأسان لحتحور نقش بينهما اسم الملك بالهيروغليفية ويلى ذلك رسم الملك فى حجم كبير وعلى رأسه التاج الأبيض ويمسك بيسراه بناصية أسير راكع يشار إليه كأنما هو من أهالى شمال غرب الدلتا. أمامنا، فتحمل المقمعة تكاد تهوى فوق رأس الأسير التى يعلوها نقش للصقر «حور» واقفا على ستة سيقان من البردى ويمسك رأسا آدمية بحبل يمر من أنفها — وهو رمز شمالى كذلك وخلف الملك يقف — فى حجم صغير رجل يحمل النعل وإناء... وتحت قدميه رجلان يحاولان الهرب بجلدهما وهما يلتفتان إلى الخلف ذعرا... باحثين، كما يشير النص — عن حصن يحتميان به.

أما الوجه الآخر فتتوجه — كالوجه السابق — رأسا حتحور وبينهما الاسم الملكى وتحت ذلك، الملك، ولكن بالتاج الأحمر هذه المرة، يقوم بجولة تفتيشية وأمامه عشرة من الأعداء المذبوحين ورأس كل رجل ملقاة بين ساقيه ويسير أمام «نعرمر» وزيره فى حجم صغير. وأمام الوزير أربعة من حملة الألوية... وإلى الخلف حامل النعل... وتحت ذلك المركب نرى رجلين يمسكان بوحشين خرافيين هما مزيج من الفهد والزرافة، والفجوة الدائرية

التى تقع بين رقبتيهما تمثل دائرة الصحن . . . ويرى فى أسفل المنظر ثور يمثل الملك (وقد ظل الملك يلقب طوال العصور التاريخية بلقب «الثور القوى») يطأ تحت قدميه أحد الشماليين ويقتحم بقرنيه أحد أسوار قلعة . .

وتعد هذه اللوحة أكمل ما عثر عليه من ذلك العصر وأكثره أهمية بل هى أحفل سجلات العهد بالأحداث الممثلة تمثيلا واضحا قويا معبرا . واللوحة تشير إلى أن الوحدة تمت فى عهد « نعرمر » مادام يضع تاج الشمال فى أحد الوجهين فوق رأسه كما يضع تاج الجنوب فى الوجه الآخر . .

* * *

الأسرة الأولى

١ : نعرمر — منى — حور عحا

NARMER, Menes (Meni), Hor - Aha

لم يعرف « نعرمر » لدى القدامى من الرواة الذين ظلوا دهــــوراً طويلة مصدرنا الوحيد عن التاريخ المصرى . . . كان من المعروف أن « منى » هو الذى قام بالوحدة . . . هو الرجل الذى قال عنه « هيرودوت » إنه أسس لمصر قاعدة جديدة جعل منها عاصمة له تتفق ومطالب الادارة لأن العواصم الأصلية كانت نائية ، وقال هيرودوت « حدثنى الكهنة أن مينس كان أول من حكم مصر . . . وحمى ممفيس فى أول الأمر بتل لأن النهر كان يجرى من قبل قريباً من الجبل الرملى ناحية ليبيا ، وبدأ مينا — على مبعدة مائة مرحلة جنوب ممفيس — فملأ الذراع المتجه جنوباً وجفف المجرى القديم وسير مجرى النهر فى قناة حتى يفيض بين الجبلين . . . ولما اطمأن إلى صلابة الارض بنى منيس — أول ملك — على الارض الجديدة المدينة المسماة

الآن ممفيس ، ذلك لأن ممفيس تقع فى ذلك الجزء الضيق من مصر . ثم حفر خارجها بحيرة من النهر الى الشمال والغرب لأن النهر يربطها من الشرق ... وهم يروون (يقصد الكهنة) أنه شيد فيها معبداً ضخما افولكان (يقصد بتاح) ... هذا هو « منى » الذى ينسب إليه تأسيس أول وحدة سياسية لمصر ... مؤسس منف ومعبد بتاح بها ، واسمه (أو لقبه) صفة تعنى المؤسس

• • •

وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم اختلافاً كبيراً فى اسم مؤسس الوحدة أو بمعنى آخر مؤسس الأسرة الأولى ، أهو نعرمر ، أم عحا ، أم منى ... ثم ... هل منى هو « عحا » كما يقترح إمرى Emery أو هو « نعرمر » كما يقترح بيترى Petrie ويؤكده يونكر Junker أوهو شخصية خيالية كما يرى فكنتيف Vikentiev

والواقع أن الانتهاء إلى رأى مؤكد قاطع ليس يسيرا ولعـــل السبب فى هذا أن الشخصيات الثلاثة اختلطت ببعضها البعض فى أذهان المصريين فيما بعد فزجوا بينها أحيانا وفصلوها أحياناً أخرى حتى ضاعت الحقيقة أو كادت — على مر القرون .

ويقـــدم زيته Sethe الملك منى كمؤسس للوحدة ... ومادام لايستطيع أن ينكر الأدلة المادية المفحمة التى تقدم نعرمر فاننا نراه يضع نعرمر خليفة له .. ويرى بيكى Baikie عكس ذلك تماماً فيضع « منى » خليفة ا « نعرمر » ولعله على حق فى ذلك ، فلوحة نعرمر التى أشرت إليها من طراز ما قبيل الأسرات وهى دليل لايحتمل شكا أو تأويلا .

ولعل هذا هو ما دعا بعض المؤرخين إلى أن يروا فى « نعرمر » اسماً آخر للملك « منى » ، وهم يعتمدون فى ذلك على دراسة معينة لما جاء بحجر بالرمو .

ويتزعم هذا الفريق « السير فلندرز بترى» Sir Flinders Petrie (وقد تابعه « أولبرايت » و« هول » وإن كان الأخير يقدم نظرية أضيق نطاقاً ، مقـــرراً أن منى شخصية مركبة أسطورية هى مزاج من نعرمر وعحا كملكين).
وتتلخص نظرية « بيترى » فى أن دراسة حجر بالرمو تثبت أن چر Zer ، وهو الاسم الذى محى محواً جزئياً من الحجر ، يقع ثالث الأسماء . وما دام الأمر كذلك فلا بد أن من يسبقانه هما عحا ومنى كشخصيتين مختلفتين ... ومادام عحا شخصية تختلف عن منى ... ومادام وجود نعرمر وكيانه لايحتمل شكاً ... إذن فليس هناك من حل سوى أن نفترض أن « نعرمر » اسم آخر لـ « منى » .
والرد على ذلك الرأى يقرر أن ذلك الأمر معقول لو أن الكتابة مؤكدة وموثوق بصحتها ووضوحها ... أما والأمر موضع شك ، وهناك محو يحتمل افتراض أكثر من رأى ، فليس مايمنع من أن يكون التتابع على الصورة التالية :
نعرمر — منى — عحا — چر
ويرى نافيل Naville أن « منى » ليس اسما ملكيا — ويتفق معه ڤيكنتيف فى ذلك الأمر — وهما يرجحان معاً أن « منى » اسم لعرش كان يستخدم فى احتفالات « عيد سد » .

ويقترح دريوتون Drioton أنه ليس من المستحيل أن يكون « نعرمر » و « منى » شخصا واحدا وأنه إذا كان هناك وجود حقيقى لـ « منى » فانه يجب أن يكون شخصية مختلفة عن « عحا » كذلك

ولكن بيكى Baikie يطلق على « منى » اسم « عحا منى » ويجعل منه خليفة لـ « نعرمر » والواقع أن اسمه على هذه الصورة ورد على لوحة من العاج عثر عليها فى نقادة عام ١٨٩٦ وإن كانت قراءة الاسم على هذه الصورة لاتزال موضع شك .

وبين أغطية الدنان من أم القعاب واحد يحمل كلمة « منى » دون لقب يسبقها متصلة مباشرة بالاسم الحورى « نعرمر » مما قد يوحى بان الاسمين لشخص واحد (والأمر كذلك بالنسبة للحور « چر » والحور « إدچو » مع الملكين المعروفين باسمى « ايتى » و « ايتا » فى قائمة ابيدوس) . أما « عحا » فقد عثر له من نقادة (من كشوف دى مورجان عام ۱۸۹۷) على بطاقة لاناء عليها الاسم الحورى « عحا » وقرئت عليها كذلك كلمة « منى » مما دعا « بورخارت» إلى الزعم بأن الاثنين واحد ، ووافقه « زيته » على ذلك مؤكدا أن مقبرة نقادة هى مقبرة « منى » ولكن جراد سلوف Gradseloff رأى من دراسة البطاقة أن « عحا » ربما كان فى زيارة مؤسسة من مؤسسات « منى » هناك ومن ثم فان « عحا » ليس « منى » بل ربما كان هذا سلفا له .

وقد جاء ذكر الاسم - منى - فى بردية تورين . . . كما أوردته قائمة الأجداد بابيدوس كأول ملك من ملوك مصر الموحدة . . أما جدول سقارة فقد أغفله : وقد تحدث عنه مانيتو فقال « إنه نشأ فى ثينيس (طينة) » عاصمة المقاطعة الثامنة من مقاطعات الوجه القبلى وأورد ذكره هيرودوت وديودور كمؤسس للعاصمة الجديدة فى منف

وأما ما تواتر عنه من أخبار وروايات فانه لايقوم دليلا على شيء فهى روايات ربما كانت من نسج الخيال ، وربما كانت أعمالا قام بها غيره ونسبت إليه . . . فأمر تأسيسه لمنف مثلا ، الذى أورده مانيتو - ورواه هيرودوت نقلا عن الكهنة - تكاد تجمع الآراء على أنه تم فى عصر لاحق لعصر قيام الوحدة ؛ بل إن دريوتون يذهب إلى أبعد من ذلك فيقرر أن ذلك الأمر لم يكن من الميسور تحقيقه قبل عهد «عدچ إيب» (عزيب)

ولكن رواية توحيده للبلاد أمر سرى كعقيدة فى العصور التاريخية

المصرية حتى نرى تمثاله يتصدر فى عهد الرعامسة جميع تماثيل الملوك فى حفلات التتويج . ونرى «ستخى الأول» من ملوك الأسرة التاسعة عشرة يضعه على رأس ملوك مصر الموحدة الذين يقدم أسماءهم فى جدوله المشهور .

وقد عثر على اسم «عحا» فى إحدى لوحات التوحيد ، والآثار من عهده تخلد ذكرى انتصاره على الجنوب وعلى الغرب . . . على النوبة التى يظن أنه أول من استولى على أراضيها الواقعة بين سلسلة وأسوان حيث كان يسكن أقوام حاميون ذوو صلة قريبة بالمصريين ... وعلى الليبيين حيث أدبهم وحاربهم فى شمال غرب الدلتا ، وقد عثر على لوحات من عصره تمثل الليبيين يقدمون الجزية للدلالة على الولاء والخضوع . وهناك مايثبت تأسيسه لمعبد للمعبودة نيت فى صا (صالحجر) بالدلتا وهى المدينة التى تنتسب اليها «نيت حوتپ» زوجة الموحد الأول التى تزوج منها عقب انتصاراته على الشمال ليدعم الوحدة ويوقف المشاحنات ، وهو مبدأ اتبعه بعض الفراعين فيما بعد . وقد عثر من عهده كذلك على عدد من اللوحات تذكر أعيادا كعيد انپو (انوبيس) وعيد سوكر .

* * *

وهكذا نرى أن هناك أكثر من دليل مادى يستطيع كل صاحب رأى أن يقدمه والرأى عندى أن «عقرب» استطاع أن يوحد الجنوب

وأن «نعرمر» استطاع أن يوحد الجنوب والشمال معا .

وأنا بعد هذا أفترض افتراضين لا أرجح أحدهما :

١ - أن يكون الثلاثة واحدا تحت اسم «نعرمر» ، والاسمان الآخران صفتان علقتا به . فأما «منى» فتعنى المؤسس .. المؤسس للوحدة ، ربما المؤسس للعاصمة (وهو ما يعارضه دريوتون) .

وأما « عحا » فتعنى المقاتل وهى صفة علقت به حين استطاع بعد حروب طويلة أن يضم اليه الشمال قبل أن يدعم وحدته عن طريق الزواج بـ « نيت حوتپ »

٢ — أو أن يكون « نعرمر » خليفة « عقرب » قد جهد فى تكوين الوحدة ولكنه قضى قبل أن يرسى أسسها على دعائم ثابتة فخلفه « منى » – عحا « الذى كان زوجا لـ « نيت حوتپ » ، والذى استطاع أن يحكم مصر الموحدة ويتركها لخلفائه من بعده دولة متماسكة قوية

* * *

ولقد روى « ديودور » أن « منى » سن طريقه عبادة الآلهة ، وأنه علم الناس كيف يزينون مضاجعهم وموائدهم بالقماش والأغطية الفاخرة وأنه أول من عمل على تعميق الحياة ، وأن الآثار من عهده تدل على ترف نسبى وفن يستحق التقدير . . . وليس هذا أمرا عجيبا فاستقرار الاداة الحكومية واستتباب الأمور للتاج الموحد فى الأرض كلها ، ذلك كله يتيح للحاكم أن يمضى فى رعاية الفنون والحرف وأن تزداد عنايته بالصناعات . والآثار التى عثر عليها فعلا تشير إلى ألوان من الترف لم نعهدها من قبل وهى الآثار التى وجدت بالمقابر التى تنسب إلى الأسرة الأولى ... أو إلى الأسرة الأولى والثانية ، وقد أثارت هذه المقابر ومكان وجودها نظريات وآراء ومناقشات لانستطيع التغاضى عنها

* * *

كانت الفكرة السائدة إلى عهد ليس ببعيد أن ملوك العهد الثينى اختـــاروا مقابرهم وجباناتهم بالقرب من أبيدوس (ابجـو) حيث تابع پيترى عام ١٨٩٩ هناك العمل الذى كان قد بدأه أملينو Amélineau عام ١٨٩٥ ثم هجره قائلا « إن الفلاحين قاطبة يعلمون تماما أن هذه المقابر نهبت من قبل ونفدت محتوياتها »

وكان من الطبيعى أن يلجأ ملوك العهد الثينى إلى هذه البقعة فهى موطنهم الأصلى من ناحية (ثيس – ثينيس) كما ذكر مانيتو ، ثم هى موضع التقديس لارتباطها بأسطورة « أوزير » الخاصة بالبعث ، فهناك دفنت رأسه ، مما جعل لهـا قيمة أكبر من النواحى الثلاثة عشرة الأخرى التى دفنت بها بقية الأعضاء ، وكان الدفن على مقربة من رأس أوزير يعنى بركة وسلاما فى العالم الآخر . وقد ظلت هذه الفكرة سائدة على مر العصور حتى غدا المـكان محجاً ومزارا فان تعذر ذلك أرسلت التقدمات النذرية لتوضع عند قبر « أوزير » ، ولعل فى هذا سر التسمية « أم القعاب » حيث المرتفع الذى يزار وتوضع عنده الأوانى الفخارية التى تحوى التقدمات .

ومن الملاحظ أن أسماء الملوك التى قدمها « أملينو » أسماء حورية لا صلة لها بالأسماء التى جاءت فى المصادر التى نقلت عن «مانيتو» أو بقوائم الملوك، مما دفع إلى القول بأنها أسماء للملوك أتباع حور الذين سبقوا قيام الأسرات والذين أشارت إليهم بردية تورين .

وقد كشف السير فلندرز بيترى هناك عما أطلق عليه مقابر الملوك للأسرات الأولى ، ولكنه لم يعثر مثلا على قبر لـ « عقرب » ... وأمر قـبر « نعرمر » موضع شك كبير رغم وجود إناء وأختام تحمل اسمه ... وأما قبره « عحا ـ منى» أو قل قبره الرمزى، فقد عثر عليه هناك وإلى جانبه قبران لأفراد أسرته ثم أربع وثلاثون مقبرة فى ثلاثة صفوف من ناحية الشرق، للحاشية على الأغلب ، حيث لم يذكر على أغطية الجرار سوى اسم « منى » . وكان الدافع إلى تسمية القبر بقبر رمزى ، العثور على مقبرة أخرى تحمل اسم « منى » فى نقادة مما دفع إلى الظن أن الواحدة لجسده والأخرى للـ « بديل » Ka : الأولى بنقادة والثانية بأبيدوس . ولقد وجد اسم « نيت حوتپ » على قطع مختلفة بمقبرة نقادة مما دعا إلى الظن بأنه

قبرها لا قبره وأن الملكة دفنت بنقادة بينما دفن هو في أبيدوس وأن مقبرة نقادة كانت مقبرة الجسد للملكة و«البديل» للملك، أما بأبيدوس فقبرة الجسد للملك.

ولقد ظلت النتائج التي قدمها پيتري Petrie عن أبيدوس وجباناتها المصدر الرئيسي عن العصر الأركي حتى عام ١٩٣٥ ، وقد عثر فيها على أختام أغطية دنان وأواني ولوحات من العاج ولوحات حجرية منقوشة . وكان يصحب اللقب الحوري لقب «ملك مصر العليا والسفلى» أو لقب «المتصل بالمعبودتين» وأما الأسماء الثانوية فتطابق ما جاء في قوائم الملوك وما ورد عن مانيتو .

وقد أتيح لـ «ايرى» Emery منذ عام ١٩٣٥ أن يخلف «كويبل Quibell» ثم «فرث Firth» في منطقة سقارة وأن يكشف هناك عن مقابر من نفس العصر وأن يقرر أن الأبحاث التي تمت في أبيدوس ونقادة وطرخان والجيزة ... الخ لم تمس سوى أطراف الموضوع ولم يستطع أن ينشر الجزء الأول من كتابه عن مقابر الأسرة الأولى إلا في عام ١٩٤٩ بعد سبع سنوات من انتهاء الحرب رغم إجرائه لحفائره عام ١٩٣٧ وقد أضاع عليه توقفه عن العمل خلال الحرب الكثير من عناصر المادة التي كان بصدد ترتيبها . ولم يتناول الجزء الأول سوى ما كشف عنه من ثمان مقابر كبرى من عهد الأسرة الأولى من عهود : حر ، إدجو (جت) ، ودى مو ، عدج أيب (عنزيب) وقاعا سن . وهو يرى أن الكشف عن كل شمال سقارة يجب أن يتم حتى يستطاع الاطمئنان إلى النتائج التي تقدم كنتيجة لتلك الأبحاث .

وفي عام ١٩٥٤ نشر الجزء الثاني من كتابه عن المقابر الكبرى للأسرة الأولى بعد أن وسع نطاق حفائره . وهو يشير في مقدمة كتابه إلى أن الكشف عن المقابر رقم ٣٥٠٠ ، ٣٥٠٣ ، ٣٥٠٤ التي ترجع لعهود : قاعا ، مرنيت ، ادجو على التوالي ، يقدم أدلة أكثر وضوحا تدعم نظريته التي تنادي بأن مقابر ملوك الأسرة الأولى

كائنة بسقارة وليس بأبيدوس ، ولقد نادى « إيمرى » بهـــذه النظرية منذ عام ١٩٣٧ عقب الكشف عن مقبرة « حما كا » وقد عضدها كما عارضها الكثيرون ، ولا يزال باب الجدل مفتوحا ما دام الوصول إلى حجة قاطعة لم يتم حتى الآن .

والنظريتان موضوع الجدل هما :

١ – أن المقابر الملكية الفعلية موجودة فى أبيدوس وليست مقابر سقارة سوى مدافن للأشراف .

٢ – أن المقابر الملكية موجودة فى سقارة وليست مقابر أبيدوس سوى المقابر الرمزية الجنزية .

وأما الافتراض الأول فتدعمه الأدلة التالية :

١ – وجدت لوحات ملكية فى أبيدوس ولم يوجد لها نظائر فى سقارة .

٢ – الحلى التى وجدت على ذراع بمقبرة « جر Zer فى مقبرة بأبيدوس . . . . (وأمر الذراع موضع شك) .

٣ – وجود قبور فرعية إلى جانب مقابر أبيدوس تحيط بها ، أكثر من القبور المحيطة بمقابر سقارة والجيزة وطرخان . فحول مقبرة إدجو Edjo المزعومة فى أبيدوس ١٧٤ قبرا بينما لا يوجد بجوار نظيرتها فى سقارة أكثر من ٦٢ . وقد أثارت هذه النقطة جدلا من لون آخر يتصل بأصحاب هـــذه القبور : أهم يمثلون الحاشية أم العبيد ؟ لقد وجد الأستاذ زكى يوسف سعد فى حلوان جبانة شعبية اتضح أن محتويات مقابرها أهم وأروع وأكثر دلالة على الثراء من أصحاب مقابر ابيدوس . يضاف إلى هذا أن قبور الأسرة الأولى ليست حولها جميعا مقابر للعبيد ، فمقبرة نقادة التى يغلب أنها لـ « نيت حوتپ » لا توجد حولها مقابر فرعية وكذلك مقابر سقارة التى تنسب إلى عهدى حور عحا ، جر ، أفكانت

عادة التضحية بالعبيد قاصرة على الصعيد ولم تنتشر فى الشمال إلا بعد التوحيد؟ إن نحن تابعنا ذلك الافتراض فإن هذا يفسر أن مقـــبرة نيت حوتپة الأميرة الشمالية لا يحيط بها مقابر للخدم الذين يضحى بهم .

٤ — إن ثبت أن مقبرة ٣٥٠٤ فى سقارة هى مقبرة ادجو Edjo فماذا تكون مقبرة جيزة (٥) التى ذكرها پيترى فى كتابه Gizeh & Rifeh وزعم أنها لنفس الملك؟

إن « ايمرى » يعترف أن هذه حجة لا يستطيع أن يرد عليها فهى مفحمة لا يعرف لها إيضاحا اللهم إلا أن تكون مقبرة زوجة أو محظية .

٥ — وهناك أمر مشابه هو مقبرة ٣٤٧١ فى سقاره للملك چر Zor والمقبرة المجاورة لها رقم ٢١٨٥ التى تكاد تماثلها حجما وترجع إلى نفس العهد. و «ايمرى» هنا لا يستطيع مرة أخرى سوى أن يقدم الافتراض الذى قدمه تحت رقم ٤ .

٦ — وأخيرا ما هى المقابر التى أطلق عليها مقابر الحاشية فى ابيدوس؟ إن « ريزنر » Reisner يتفق مع « پيترى » فى وجهة نظره التى تقرر أن المستطيلات الثلاثة هى بقايا معابد الوادى لملوك الأسرة الأولى ، والحق أن مايقرره ريزنر Reisner فى هذه النواحى له قيمته ولكن من العجيب أن نتخيل معبدا للوادى مساحته عشرة أمثال المقبرة التى صنع من أجلها والتى يقوم على خدمتها .

* * *

وأما الافتراض الثانى فتسنده القرائن التالية :

١ — يشير ما عثر عليه من أدوات فى سقارة وحلوان إلى أن منف كانت مكتظة بالسكان فى الجزء الأول من الأسرة الأولى ، وتكاد تجمع الآراء على أن « منى » اختار عاصمته فى هذه الناحية ، وهذا يكاد يوصلنا إلى نتيجة محتومة هى اختيار الملك لجبانته بجوار عاصمته ... وهنـــاك من يزعم أن « نيت حوتپه »

دفنت فى نقادة ولكن ربما كان ذلك يرجع إلى أن مريتها حدث قبل أن يؤسس الملوك قاعدتهم فى الشمال ... وعمارة مقبرتها تكاد تؤكد ذلك ... إن كانت المقبرة لها فعلا .

٢ — يشير هيس Hayes إلى أن العرف جرى بالنسبة لملوك الأسرة الثالثة وأوائل الرابعة ببناء مقبرة شمالية وأخرى جنوبية كحكام للأرضين . ولقد كان من الطبيعى عقب التوحيـــد أن يشيد الملوك مقابرهم فى الصعيد قرب عاصمة أسلافهم ... بل وقد جرت العادة على بناء مقابر رمزية فى ابيدوس فيما بعد إذ تشهد آثارا شادها «سنوسرد الثالث» من الأسرة الثانية عشرة و «ستخى الأول» من الأسرة التاسعة عشرة .

٣ — من العسير أن نتصور أن يرضى الملوك المقيمون فى منف بأن تبنى لحاشيتهم مقابر تفوق من ناحية الحجم مقابرهم فى ابيدوس . ورغم أن الطراز متباين إلا أن حقيقة ثابتة تبق وهى أن مقابر ابيدوس أقل ضخامة من نظائرها فى سقارة .

٤ — يضاف إلى ذلك أننا إذا صرفنا النظر عن الحجم والطراز فان سعة مقابر سقارة تحتمل حشد أثاث جنزى أكثر مما تتسع له مقابر ابيدوس .

٥ — استطاعت حفائر سقارة أن تقدم آثارا لكل ملك من ملوك الأسرة الأولى باستثناء « سميرسس » الذى قد يكشف مستقبلا عن آثاره هناك كذلك وكذا « نعرمر » ... فالمنطقة لم يتم الكشف عنها بأكملها .

* * *

وخلاصة ما تقدم أن ما كشف عنه « ايمرى » هو ١٤ مسطبة فى صف واحد يزعم أنها لملوك الأسرة الأولى فيما عدا « نعرمر » و « سميرسس » (الذى تشير إليه قطعة الحجر بالمتحف المصرى المشابهة لحجر بالرمو؛ بأنه حكم تسع سنوات فقط)

وبعض الأميرات أو الملكات أو العظماء ... وعدة هؤلاء الملوك الذين زعم أنه عثر على مقابرهم ستة ملوك يبدأون بـ « عحا » .

وقد ذكر اسم « چر » فى مقبرتين واسم « دن » فى أربع بل خمس مقابر . أما المقبرة المعروفة بجيزه « ه » فشأنها شأن المقبرة سقاره ٣٥٠٤ وصاحبها هو الملك الثعبان « ادچو » . ومن بين المقابر مقبرتان لملكتين . ومن بينها مقبرة « حاكا » وأخرى لواحد من العظماء يدعى « سابو » (من عهد عنزيب) .

ومما تجدر ملاحظته أنه رغم الاختلاف فى طراز المبانى بين مقابر الشمال والجنوب يوجد تشابه فى الواجهة بين مبانى منف ونقادة لا نلتق به فى ابيدوس ومع ذلك فالأدوات التى عثر عليها فى كل من منف وأبيدوس متشابهة كما تتشابه الزخارف وطرائق الكتابة وأغطية الدنان والأوانى واللوحات ... الخ . وتحيط بالمقابر غرف عديدة متصلة ببعضها ظهر من محتوياتها أنها غرف خدم صحبوا مولاهم لخدمته فى العالم الآخر ... ومن بين المقابر مقبرة تنسب إلى الملكة « مرنيت » عثر فيها على هيا كل عظمية لذكور بالغين وسدوا القرفصاء ورؤوسهم متجهة فى ناحية واحدة مما يقطع بأنهم دفنوا بعد موتهم موتا طبيعيا ولم يدفنوا أحياء . والأدوات التى عثر عليها « ايمرى » فى المقابر الفرعية تشير إلى أن أصحابها كانوا يمارسون حرفا معينة بينما عثر فى مقابر ابيدوس على لوحات تحمل أسماء بعضها لنساء والبعض لأسرى حروب وأقزام وكلاب . ومن أسف أن مقابر منف الأسرة الأولى وجدت محترقة جميعا بينما ليس الأمر كذلك بالنسبة لمقابر الأسرة الثانية ، وهو أمر يدعو للغرابة والتساؤل. كما أن أصحابها لم يوجدوا بها ، ولم يبق سوى أغطية الجرار وما شابهها .

وكان الأمر بالنسبة لمقابر أبيدوس من قبل لايحتمل شكا، فالقبوربها لوحات تحمل الأسماء ، وبعض هذه اللوحات ضخم ومن بينها لوحة بمتحف اللوفر للملك

الثعبان ... وكان المصريون القـــدماء يعتقدون أن فراعين الأسرتين الأوليين يرقدون فى مقابرهم بأبيدوس بل إنهم وضعوا فى مقبرة « جر » فى أبيدوس تابوتا ضخما لـ « أوزير » ... هذا بالاضافة إلى ما رواه الناقلون عن مانيتو من أن ابيدوس هى الجبانة الرئيسية ، وأن ملوك الأسرتين من أصل ثينى . . . .

ولكن ضخامة مقابر منف ، وفخامتها ، دعت إلى إثارة الشكوك حول هذه الحجج وزاد من الشبهات وجود مقابر معاصرة ليست بأقل أهمية فى طرخان والجيزة وأبو رواش ... ولعل مما يزيد البلبلة وجود مقبرة لـ « حماكا » فى سقارة ومقبرة تحمل له بعض الآثار فى ابيدوس ، وفى الأولى ذكر لملك هو « دن » وفى الثانية أغطية دنان لـ « حامل أختام ملك مصر السفلى » كلقب لرجل يحمل فى اسمه اسم المعبودة « نيت » ، وقد عثر على اسم « حماكا » فى ابيدوس كذلك مقترنا مرة أخرى باسم « دن » مما يشير إلى أهميته كموظف كبير ومع ذلك فمقبرة نقاده التى عثر بها على لوحة لـ « منى » أصغر من المقبرة التى تنسب إلى «حماكا» فى منف وهى فى الوقت نفسه أكبر بكثير من مقابر ابيدوس ، وأما مقبرة «عحا» المزعومة فى ابيدوس فغرفة مفردة تشكك حالها فى أن « عحا » هو صاحبها . وعثر فى نقاده على أختام تحمل اسم « حور عحا » وبعضها يحمل اسم « نيت حوتب » ... كما عثر فى ابيدوس وسقارة على اسم لملكة أخرى — أو أميرة — هى «مرنيت» وعثر على أسماء لإماء ربما صحبن أميرة الشمال كحظيات فى انتقالها للجنوب ... وليس ببعيد أن يكون قبر نقادة هو قبر زوجة « عحا » كما سلفت الاشارة ، وهو أمر يحتاج لبعض الايضاح على أية حال ... وأما أن نفترض أن المقبرة تخص « عحا » نفسه فقد يقوم فى وجه ذلك اليوم عثور « ايمرى » فى سقارة على مصطبة ضخمة تشير إلى أنها مقبرة « عحا » وهكذا فنحن فى الواقع أمام ثلاث مقابر لـ « عحا » بكل منها من الآثار ما يشير إليه ... ومع ذلك فهذا أمر قد

يفسره العثور له « سنفرو » على ثلاثة من الأهرام وأن تنازل الملك واحد من الثلاثة ونسب إلى « حونى »، وكان لسنفرو فضل إكماله فقط.

* * *

وعلى أية حال فإن الرأى الغالب بين جمهرة الباحثين أن منطقة الدفن لملوك الأسرة الأولى كانت سقارة وأن أبيدوس كانت تحوى مقابر رمزية ... لقد كان من المعروف من قبل أن مقابر لبعض ملوك الأسرة الأولى وهم جر ، إدجو ، زمتى ، عدج ايب ، سمبسس ، قاعا ... أمكن العثور عليها فى ابيدوس وإن لم يعثر على جثة ملك واحد هناك . وأما مقبرة « عحا » فقد كشف عنها فى سقارة عام ١٩٣٨ ، وكذا كشف عن مقبرة « جر » . وفى الأعوام الأخيرة تم الكشف عن مقابر باقى الملوك باستثناء « سمبسس » فإذا كان الأمر كذلك فإن المشكلة تكاد تكون قد وصلت إلى إبانها وأصبح حلها قريبا ... إن من التهور أن نقرر أننا انتهينا إلى رأى حاسم ولكن الدلائل المختلفة تشير إلى ترجيح الرأى الذى قدمناه . ولا شك أن الحفائر فى السنين الأخيرة بمنطقتى سقارة وحلوان قدمت للباحثين مادة دسمــــة استطاعوا عن طريقها أن يؤرخوا لحضارة هذه الفترة التى ظلت غامضة فترة طويلة .

* * *

بقيت نقطة أو نقطتان فى حكم الملك المؤسس :

يذكر مانيتو أن « عحا منى » حكم البـــلاد مدى اثنين وستين عاما، ولكن بعض المؤرخين يرون أن الرقم مبالغ فيه ويرون أن مدة الحكم ٤٧ عاما فقط والفرق بين الاثنين ليس ذا بال . ويرى مانيتو كذلك أن فرس بحر قتله بينما يرى ديودور أن تمساحا أنقذه من الهلاك . . . وهى روايات لا تقدم ولا تؤخر حين نحاول أن نزن الرجل بما أتم من أعمال دفعت بالبلاد الموحدة دفعة نقلتها من التفكك إلى التكتل .

إن شخصيات عقرب ، نعرمر ، عحا ، منى لم تعد شخصيات أسطورية . إن الواحد منهم يطغى على الآخر فيما تنسب لهم من أعمـــال حتى لا نكاد نميز بين ما أتاه الواحد وما قدمه الآخر ولكنهم يشاركون جميعا فى فضل واحد هو أنهم يسروا لمصر الموحدة فى المرحلة التاريخية الاولى أن تسير بخطى واسعة نحو التقدم والحضارة وأن تضع أسسا لذلك المجد الرائع الذى أجلسها فوق عرش العالم حقبة من الزمان .

خلفاء منى ـ حور عحا من ملوك الاسرة الاولى

٢ — جر Zer — إتيت — إتى

كشف املينو عن قبر زعم أنه للملك جر فى ابيدوس .

وكشف ايمرى عن قبر قرر أنه للملك جر فى سقارة .

وقد رجحت أن مقبرة ابيدوس رمزية وأن مقبرة سقارة حقيقية .

ويحدثنا مانيتو أن منى كان له ابن خلفه على العرش هو اثوتس ، وقد حكم مدى ٥٧ عاما وبنى القصور فى منف . وخلف لنا كتب تشريح لأنه كان طبيبا ، ويعرف هذا الملك باسم « جر » والاسم ينطق أحيانا « خنت » Khent وأما اسمه كحاكم لـ « نبتياس » فهو « إتيت » وهو اسم يتفق مع ما أورده مانيتو . ولكنه لم يكن ابناً للملكة « نيت حوتپ » بل كان ابنـــاً لسيدة الحريم المدعوة « حپت » وهى إحدى الزوجات الثانويات . ورغم أنه لم يكن من الدم الملكى الخالص فإن ثبات العرش ومتعته كانا أقوى من أن يمنعاه من تبوئه .

ويحيط بمقبرة « جر » الرمزية ٣٣٤ قبراً وهى أضخم من مقبرة أبيه ، وقد عثر بها على سبعين لوحة جنزية جل أصحابها من النساء ، ويرى بعض المؤرخين أن كثرة القبور المحيطة بمقبرته تعنى ذبح أفراد حاشيته بقصد خدمته فى العالم

الآخر ، وهى عادة وحشية عاشت طويلا فى مصر القديمة . . . وهذا أمر ليس هناك ما يؤكده على كل حال فليس من دليل قوى يسنده سوى بعض الحالات المماثلة التى تحتمل أكثر من تفسير .

وقد أشرت من قبل إلى ما رواه مانيتو من أن « جـــر » كان طبيباً . . . وهناك بردية مشهورة هى بردية ايبرس الطبية وفيها إحدى الوصفات التى يقال إنه صنعها لزوجته الملكة « شش » وهى وصفة لتقوية الشعر ومفرداتها مخلب كلب وحافر حمار وبلح مخلى .

ولقد سبقت الاشارة إلى العثور على ذراع بمقبرة « جر » حوله سوارات من الذهب والفيروز واللازورد والاماتست يؤكد « بيترى » أنه ذراع للملكة فصل عن جسدها عند تنظيف المقبرة فى عهد « أمنحتب الثالث » لبناء ناووس للمعبود أوزير ، وظل فى مكان خبىء حـــتى عثر عليه « بيترى » وليس هناك ما يؤيد افتراض بيترى على أية حال.

ومن العجيب أن مقبرة « جر » مرت بها أحداث لم تتح لغيرها من المقابر فلقد ظن المصريون يوما أن أوزير دفن فى هــذه البقعة فحجوا إلى قبره وقدموا القرابين وأقاموا الأنصاب حوله وبنوا فى العصر المتأخر سلما يؤدى إلى المقبرة وأودعوا فيها تابوتا من الجرانيت على غطائه صورة الإله لابسا تاج الوجه القبلى يحمل العصا والصولج .

وربمـــا كانت الفكرة التى دعت إلى الخلط بينه وبين أوزير هو التشابه فى الاسم بين الاثنين : ذلك أنه ابتداء من عهد الدولة الوسطى كان اسم « جر » ينطق « خنت » (وهى التسمية التى يفضلها دارسو الآثار المصرية اليوم) ومن هنا حدث اللبس بينه وبين أوزير المعروف بلقب « خنتى امنتى » أى سيد الغربيين و « خنتى امنتى » كان إلها قديما لجبانة ابيدوس اغتصب اوزير مكانه . . . والخلط بين « خنت » (جر) و « خنتى امنتى » نجم عنه خلط بين « خنت » و « اوزير » .

ويشير حجر بالرمو (قطعة القاهرة) إلى أنه قام بحملة ضد الأسيويين .

ولقد كان عهد جر (خنت) الخطوة الأولى فى تقدم الفن واكتسابه مسحة من الرقة فصنعت السوارات من الذهب بعد أن كانت تصنع من غيره من المواد. ومن بين السوارات سوار زينته إفريز واجهة القصر تعلوها مجموعة من الاله البازى حور . وقد طرأ فى عهد « جر » تغيير فى حلاقة الذقن ... كانت اللحى قبل عصره قصيرة أو مرسلة كما كان الشعر مسترسلا على الكتفين أو قصيرا ، أما فى عهده فقد بدأ القوم يحلقون لحاهم ويضعون فى أيام معينة لحى مستعارة أو ضفائر مستعارة طويلة أو قصيرة ، أما السيدات فكن يخرجن بالضفائر ولا يلبسنها داخل المنازل . وقد عثر على ضفائر شعر من عهد الأسرة الأولى فى مقبرة « جر » الرمزية بأبيدوس . ويغلب على الظن أن عادة الحلاقة بدأت بالطبقة العليا من الشعب ثم انتقلت إلى العامة .

٣ — زت Zet الملك الثعبان — إتزتى

ادجو Edjo (ايتا ؟)

يمتاز عهد هذا الملك بالكمال الفنى فى بعض ما عثر عليه بالمقبرة التى تحمل اسمه . ولعل لوحته الجنزية المحفوظة باللوفر ، والتى سبقت الاشارة إليها ، أول تحفة رائعة من الفن المصرى القديم . وبعض اللوحات التى عثر عليها من عهده تسجل أسماء لأعياد وبعض الأحداث .

ومقبرة « ادجو » أصغر من مقبرة سلفه وعدد أفراد حاشيته أقل . وقد تقدمت الكتابة الهيروغليفية فى عهده . ومن بين ما وجد بمقبرته مشط محفوظ بالمتحف المصرى له قيمته من الناحية الدينية إذ مثل به فى حورس يعبر السماء فوق قارب ، والسماء تعتمد على دعامتين .

وقد عثر على اسمه في صحراء إدفو ، نقشه رئيس إحدى بعثاته في أحد الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر . ولهذا الحدث قيمته التاريخية إذ هو دليل مادي يقطع بأن المصريين دربوا على استخدام الطرق الصحراوية وعرفوا مسارب الصحراء واستغلوا المناجم والمحاجر في تلك العصور السحيقة .

وقد عثر كذلك بنزلة البطران على مقبرة وجدت بها أشياء تحمل اسمه وإن كانت نسبتها إليه أمرا يحتمل الشك ولكنها ترجع إلى عصره على الأقل .

وقد يكون «زت» هو إيتا أو إيتي الذي ورد في جدول أبيدوس ولكن ذلك غير مؤكد ما دام الاسمان لم يردا معا في مصدر واحد للملك نفسه :

٤ — ودیمو Udimu — دن Den

زمتی Zemti — اوسافایس Usaphais

يعني اسم هذا الملك « زمتي » الصحراوين وقد حرف لدى البعض إلى « حسبتي » بمعنى القاطعتين الذي حرفه مانيتو إلى « أوسافايس » . أما اسمه الحوري فهو «دن» الذي يقرأ قراءة أخرى هي « وديمو » .

وقد استحدث هذا الملك لقبا جديدا لم يكن معروفا من قبل هو اللقب البوصي والنحلي «انسبيا» الذي يعني انتسابه لرمز الجنوب ورمز الشمال : البوصة والنحلة وهو لقب ظل ينتحله فراعين مصر قاطبة حتى اختفاء الكتابة الهيروغليفية .

ولـ « وديمو » مقبرة كأسلافه في أبيدوس تعتبر — بما عثر عليه فيها — من المصادر الهامة عن عصره وتمتاز عن سابقاتها برصف أرضها بأحجار الجرانيت ... ومن بين ما عثر عليه بها عدة لوحات تمثل إحداها غزوة يقوم بها الملك وهو يقتحم حصنا ثم وهو يستولي على مساكن الليبيين وأخرى وهو يرأس احتفالا دينيا ... وقد تمت له هذه الأمور جميعا خلال عام واحد

وهناك لوحة أخرى فى مجموعة « ماك جريجور » تمثله وهو يهوى بمقمعته على رأس أسير ، وقد نقشت عليها عبارة « أول مرة يضرب فيها الشرق » وربما كان ذلك فى حملة ضد بدو الصحراء الشرقية الذين كانوا يتعرضون للقوافل الذاهبة إلى المناجم والمحاجر ... ولكن اسمه لم يوجد رغم ذلك فى تلك المنطقة بل إن أول الأسماء التى ترد هناك هو اسم أحد خلفائه — سمسم — الملك قبل الأخير من ملوك الأسرة .

ومن أشهر موظفى الملك كبير الموظفين فى الشمال « حماكا » الذى كشف عن مقبرته بسقارة عام ١٩٣٦ ، وقد عثر فى مقبرة ابيدوس على عدد من أختام الجرار تحمل اسمه كذلك .

ومن أطرف ماعثر عليه بمقبرة ابيدوس خاتم ملكى نقش عليه « الخاتم الذهبى لقضاء الملك دن » ويظهر أنه كان يستعمل فى التصديق على الأحكام مما يشير إلى قيام نظام قضائى فى تلك العهود البعيدة .

وهناك مستند من العصر يشير إلى احتفال الملك بعيد الطواف « سد » أى أنه يشير إلى مرور ثلاثين عاما على ولايته العرش (أو على إعلانه وريثا له على الأقل) . وتدل كثرة الموظفين فى عهده واختلاف وظائفهم على استتباب النظام الادارى ، وتدل آثارهم على الرخاء والتقدم اللذين نعمت بهما مصر إذ ذاك .

ويشير حجر بالرمو إلى مجموعة من الأحداث مسجلة بسنى الحكم بعد عيد الطواف منها ظهوره فى عيد يشبه أعياد التتويج وأخرى فى العام التالى تشير إلى التعداد وثالثة تشير إلى تصميم للقصر ثم لعروش الآلهة ... إلى غيرها من الأحداث التى يستطاع من وراء دراستها التكهن بالمستوى الرفيع الذى بلغته الحياة الاجتماعية والحياة العامة فى عصره .

وهناك روايات تشير إلى أن بردية « ايبرس » نقلت فى عصر « أمنحتب الأول » عن عصر وديمو (وهذا يعارض ماجاء عن « جــر » ووصفة تقوية الشعر التى سبقت الاشـــارة إليها) كما يقال إن أحد فصول كتاب الموتى كتب فى عصره .

٥ — عدج ايب (عنزيب) Adje-ib (Enezib) — عزب Azab

مربى بيا Merbiape مربياپى — ميبيس Miebis

يبدأ جدول سقارة باسم هذا الملك... وليس غريبا أن تكون مقبرة ابيدوس التى تحمل اسمه أفقر مقابر الأسرة وأقلها شأنا وقد لفت هذا الأنظار إلى حقيقة تشير إلى تناول اسمه بالكشط أو المحو ويغلب على الظن أن ذلك تم على يد خلفه «سمرپسس». إن ابتداء جدول سقارة باسم هذا الملك يشير إلى أنه شمالى ويدفعنا هذا إلى الظن بأن أمه شمالية استطاع أن يلى العرش بفضل تدخلها ونفوذها . وقد وجدت اللوحة التى تحمل اسميهما معا فى مقبرة خلفه وقد محا منها اسم «عدج ايب» وأثبت اسمه مما يشير إلى وجود نزاع فى الأسرة . ولولا حجر بالرمو الذى حفظ لنا جانبا من حوليات هذا الملك لظل تاريخه مجهولا . وإنه ليغلب على الظن أن «سمرپسس» اعتقد أنه أحق بولاية العرش بعد «وديمو»... ربما لأن أمه كانت أكثر شرعية للعرش من أم «عدج ايب»... ومما يجدر بالملاحظة كذلك أن خلف «سمرپسس» وهو « قاعا سن » انتقم لـ «عدج ايب» بأن محا اسم «سمسم» وليس من تعليل لذلك سوى أن « قاعا » هذا من نسل « عدج ايب » .

والواقع أن أمر محو الأسماء وإثباتها له أهدافه ، لأن الأسماء لم تكن توضع للمباهاة أو المفاخرة بل لتقدم عنها التقدمات والقرابين ، ولا قيمة للتقدمة ما لم

يكن الاسم موجودا ليتقبلها ، ومحو الاسم قضاء على صاحبه فى الآخرة بالجوع والظمأ والتشرد .

ويرجح أن حكم «عدج ايب» امتد إلى أربعة عشر عاما وأنه قام فى العام الثانى من حكمه بحملة ضد «الايونتيو» الذين يرجح أنهم سكان مصر الأوائل الذين طوردوا منذ حكم «أتباع حور» فانقسموا شعبا ثلاثة : واحدة ارتحلت إلى سينا والأخرى إلى الواحات الليبية والثالثة إلى النوبة ، وظلوا يهددون مصر باستمرار ، وقد صد «عدج ايب» إحدى موجات هذا الهجوم كما يشير إلى ذلك حجر بالرمو الذى حفل برواية أحداث أخرى لعهد هذا الملك تتعلق بأعياد دينية كما تشير إلى تأسيس مدن على يد هذا الملك .

٦ — سمرخت Semerkhet

سمپسس Semempses — سمسم Semsem

يرى سمپسس فى جدول ابيدوس فى صورة رجل يرتدى ملابس الكهنة ، ولقد عرف بلقب الضارب لأن اسمه كما سبقت الاشارة أول اسم يرد على صخور سيناء فقد خلد هناك انتصاره على البدو فى وادى مغارة .. وليس من شك أن أسلافه قاموا بمثل حملته من قبل ضد هذه القبائل الضاربة فى الصحراء ، والتى تعتدى على القوافل ، بقصد تأديبها ما دامت تعتدى على البعثات الذاهبة لتعدين النحاس واستخراجه من هناك . وتاريخ الملوك فى مصر الفرعونية حافل بأمثال هذه الحملات التأديبية . ويظهر أن «سمپسس» أول من نظم تعدين النحاس على نطاق واسع وشجع قيام هذه الصناعة وجعل منها إحدى الحرف الهامة وإلا لما رأيناه يقوم بنفسه على رأس حملة التأديب ولما شهدناه يعنى بشخصه بتأمين الطريق إلى المناجم .

وقد احتفل «سميرخت» بعيد الطواف بمعنى أنه حكم ثلاثين عاما فعلا أو أنه اعتبر ولايته العرش تبدأ منذ وفاة «وديمو» ما دام قد محا اسم سلفه ، ومعنى ذلك أن تكون السنة الثلاثون فى رأيه هى السنة السادسة عشرة الفعلية التى يحكم البلاد فيها .

٧ — قاعا Kaa — سنمو ؟ Senmou — قبح Kebeh

ينتهى حكم الأسرة الأولى بحكم « قاعا » وقد ورد اسمه فى ابيدوس « قبح Kebeh » على أنه لم يعثر له على أى أثر يحمل هذا الاسم . وأما اسمه النبتى فهو «قاعا». وقد اتتقم «قاعا» لـ «عدج ايب» فقد فعل بسلفه «سمرخت» مافعله هذا بـ «عدج ايب» مما يدفع إلى الظن بأنه كان ابنا لـ «عدج ايب» وكان يرى أنه أحق بولاية العرش من سلفه «سميرخت». وإن انتهاء الأسرة على هذه الصورة يكاد يوحى بأن هذه الأحداث المتوالية فى عهود هؤلاء الملوك الثلاثة الأخيرين ، وهذا النزاع الدائم بين طرفى الأسرة هو الذى أودى بها وقضى عليها . ومظهر مقبرة ابيدوس الخاصة بالملك «قاعا» يشير إلى انهيار سلطان العرش فحاشيته ضئيلة والمقابر المحيطة بمقبرته أقل عددا من نظائرها فى المقابر الملكية فى الأسرة كلها فليس هناك من حوله سوى ٢٤ من نبلائه بينما نرى حول سلفه ٧٢ وحول «عدج ايب» ٦٤ كما بلغ عددهم حول «زمتى» ١٣٧ وحول «جر» ١٧٤ .

الأسرة الثانية

ذكر مانيتو أن الأسرة الثانية نشأت فى طيبة وأن الملوك الذين توالوا على عرش هذه الأسرة بلغوا التسعة عددا . هم بويثوس Boethos ، كايخوس، Kaiechos ، بينوثرس Binothris ، تلاس Tlas ، سثينس Sethenes خايرس Chaires ، نفركيرس Nephercheres ، سسوخرس Sesochris ، خنيرس heneres) بينما تعد قوائم الملوك أحد عشر ملكا . أما الآثار فلا تورد ذكرا لغير أربعة منهم . ولم يعد ترتيب الخمسة الأوائل موضع شك ، وتتجاهل الآثار مكان الأول والثانى وتضع مكانهما «حوتپسخموى» و«نب رع»، وأما الاسم الأول فمعناه « القوتان تهدآن » وقد يشير هذا إلى لون من الاضطراب ساد البلاد فى نهاية الأسرة السابقة انتهى بقيام هذه الأسرة كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

والواقع أننا لاندرى على وجه التحقيق الظروف التى أودت بالأسرة الأولى ودفعت إلى قيام الأسرة الجديدة وإن كنا رجحنا من قبل أن النزاع بين فرعى الأسرة السابقة ربما كان هو السبب المباشر لذلك .

وبوصولنا إلى ثالث الملوك نلتقى بثلاثة متتابعين هم «بينوثرس» (بانوت چرن، نى نتر ، نترى مو) و«تلاس» (وادج نس) ثم «سثينس» (سند) وتتفق عليهم مع مانيتو قوائم الملوك والآثار . وفيما عدا «نب كا» تبقى الأسماء السبعة فى قوائم الملوك لغزا ، إذ لم يعثر لهم على آثار معاصرة فى أى مكان . وأما «نفركيرس» (نفركارع) فربما كان اسما من عصر لاحق ، وأما « عاكا » فقد ورد فى تورين

– ولسنا نعرف له أصلا فى غيرها – كما تشير تورين إلى « تفركا سوكر » و « حوزفا » و « بى » بعدد حكم بحيث لا يمكن إغفالهم ، وربما كان الاعتراف بهم كشماليين تجاهلهم الجنوبيون .

ورغم ذلك فهناك مجموعة أخرى لا نستطيع إغفالها بسبب ماورد من إشارات عابرة عنهم فى بطون الوثائق أو المصادر حتى لنرى الغموض يحيط بهم من كل جانب وهم : « سخم ايب بر ان ماعه » و « پر ايب سن » و خع سخموى نب وى حوتپ ايم اف » و « خع سخم » ... ولسنا ندرى أيرجع اختلاف الأسماء إلى اختلاف فى الاعتراف بالشرعية على العرش بين الشمال والجنوب كذلك أم إلى أسباب أخرى ، ومع ذلك فيمكن أن نقرن الأول بالثانى ، والثالث والرابع كما سنرى .

* * *

يعنى حوتپ سخموى Hotep - Sekhemui كما قدمنا « القوتان تهدآن » فهل ثار نزاع بين أتباع حور وأتباع ستخ فى أخريات أيام الأسرة السابقة كان من أثره فوضى قضى عليها الملك الجديد ؟ إن الاجابة على السؤال ليست يسيرة فهو افتراض ليس له ما يؤيده سوى الاسم . وأما مقبرة هذا الملك لا نعرف لها مكانا ولم يكشف عنها حتى الآن . وربما كان هذا الملك هو الذى عرفه مانيتو تحت اسم Boëthos وهو تحريف لأحد أسماء الملك باللغة المصرية : بچاو Bèzau وقد ذكر مانيتو أنه حكم مدى ٣٨ عاما وأن زلزالا حدث فى عهده انشقت الأرض على أثر حدوثه ، وكان ذلك فى بوباسته ، وأن كثيرا من الخلق هلكوا كنتيجة لذلك هناك .

وأما « نب رع » Neb-rê فان اسمه يشير إلى ارتباطه بعبادة « رع » الذى

يظهر لأول مرة فى أسماء الملوك . والملك اسم آخر وهو « كاكاو » Kekau ولقبه الانسيبا « نوب نوفر » ويشير إليه مانيتو بأن فى عهده يبدأ تأليه العجول : ابيس فى منف ومنيفس فى هليوبوليس والعنزة المنديسية . . . وربما أراد مانيتو أن يشير الى أن تأليه الحيوانات زاد فى عصره لأن حجر بالرمو يشير إلى أن « تجرية العجل للمرة الأولى » (وهى عملية كانت تتم عند اختيار عجل ابيس جديد بعد موت سلفه) تمت للمرة الأولى فى عهد « زمنى » من ملوك الاسرة الأولى.

وأما « بانرت جرن » فيونى أثر Ninétér أى المنتسب للاله أو نترى مو Neteri-mou (وهى قراءة أخرى للاسم) وهو Binothris لدى مانيتو . وقد وردت عنه بعض التلميحات والاشارات فى حجر بالرمو من أنه اجتاح مدينة « شم رع » ومدينة « بيت الشمال » كما ورد ذكر للضرائب والاحتفال بعيدى حور وسوكر (الأول حامى الملكية والثانى إله منف) كما سجلت عنايته بعملية تعداد الماشية التى أخذت صورة منتظمة وبدىء فى حصرها مرة كل عامين توطئة لجباية الضرائب .

وأما « برايب سن» Perabsen فله مقبرة فى ابيدوس لاتحيط بها قبور لحاشيته وقد عثر بها على لوحتين يعلوهما رمز ستخ ، ومقر عبادته أصلا فى أومبوس (قرب نقاده) ، بدلا من حور التقليدى ، ومقر عبادته الأصلى فى الدلتا ، وهو حدث يكاد يكون منفردا فى تاريخ مصر ، وربما كان هذا نتيجة انقلاب كان له أثره من الاعتراف اعترافا رسميا بالإله ستخ مما يتنافى وتقاليد من سبقه من الملوك الذين كانوا يتخذون حور شعارا لهم . ويظهر أن عبادة ستخ استمرت طويلا بعد موته لأنه وجد ما يفيد ذلك فى إحدى مقابر الأفراد فى سقارة ويدعى « سخرى » وكان يشغل وظيفة كاهن فى عهد « برايب سن » كما كان كاهنا لملك آخر يدعى « سندى » (أى الخائف ؟) الذى لانعرف عنه

سوى اسمه من هذه الوثيقة ... يضاف إلى ذلك ما عثر عليه منقوشا على خاتم أحد موظفي « پرايب سن » ونصه « نقل إله امير الاقليمين إلى ابنه پرايب سن » مما لا يدع مجالا للشك فى أن « پرايب سن » يدين بعرشه للاله ستخ ... وربما كان الاسم الذى اتخذه لنفسه قبل ولاية العرش قبل أن ينبذ ارتباطه بـ « حور » « سخم ايب پر ان ماعة » لأنه حين تعرض لمحو أسماء أسلافه لم يتعرض لهذا الاسم الذى يرجح أنه كان اسما آخر له ما دام لم يحاول أن يسجل اسمه بجواره ، أو يمحوه ، ويظهر لـ « پرايب سن » اسم آخر هو « اش » Ash على بعض الأختام .

* * *

ومن بين الآثار الهامة التى ترجع إلى عهد الأسرة الثانية آثار فى ناحية الكوم الأحمر (نخن — هيراقونبوليس) ترجع إلى عهد الملك «خع سخم» Khasekhem وهو ملك جنوبى اتخذ حور شعارا له . وهذه الآثار تتمثل فى بعض أوانى حجرية ولوحتين مكسورتين وقطع صغيرة من نصب مختلفة ، وقد خلد فوقها ذكرى انتصار الملك على سكان الدلتا ، كما خلد واحد منها انتصاراته على النوبيين. وقد مثلت فوق الأوانى الالهة «نخبة» إلهة الكاب تقدم اسم الملك تحت الشعار الحورى مما يرمز إلى اتحاد القطرين ، وإلى جوار العلامة المذكورة « عام محاربة وانهزام الوجه البحرى » وفى ذلك دلالة واضحة على تفكك وحدة البلاد لسبب ما ثم إعادة توحيدها على يد الملك « خع سخم » .وهناك من آثار نخن الأخرى ما يشير الى نشاط حربى فى الجنوب إذ يظهر منها أنه هزم النوبيين كذلك . ومن بين الآثار التى عثر عليها تمثالان جالسان من الأردواز والحجر الجيرى الصلب وهى أولى التماثيل الملكية التى تكاد هيئتها تطابق الهيئة التقليدية المألوفة ، والتمثالان مشوهان ولكن ما بقى من الواحد يكمل ماينقص من الآخر وهما معا يستطيعان أن يقدما صورة كاملة للملك ، فالتمثال من الحجر الجيرى

الصلب لم يبق منه سوى ساقيه والعرش ، أما الرأس فمفصولة وتكاد تكون تفصيلاتها كاملة فيما عدا الأنف . وأما التمثال الأردوازى فيكاد يكون سليما فيما عدا الرأس التى شوهت تشويها قاسيا ، ووجه الملك يوحى بالقوة والحيوية رغم خشونته . وقد رسم حول القاعدة الأعداء المذبوحون وسجل عددهم بـ ٤٧٢٠٩ من الأعداء الشماليين . . . وتشير النقوش على الأوانى التى سبقت الاشارة إليها إلى حروب مع الشماليين فيسجل أحدها « عام محاربة الأعداء الشماليين . . . تقدم الآلهة نخبة فى مدينة نخب ، الثوار وتوحد مصر أمام حور خع سخم » وإن الأمر يحتمل الشك فى أن الشماليين هنا يقصد بهم الليبيون — كما يقترح ذلك بعض المؤرخين — بل هم سكان الدلتا على الأرجح بدليل أن الملك غير اسمه بعد هذه المرحلة من حياته فأصبح خع سخموى Kha-Sekhemui ومعناه القوتان تتجليان بدلا من اسمه الأول الذى يعنى القوة تتجلى ، وقد حفظت لنا آثار جديدة تحمل الاسم الجديد . . . وقد قرن « ميلر Müller » بين الاسمين كما أدمجها « نافيل » Naville ولكن « زيته » Sethe يعارض هذا الادماج ويفضل أن يجعل من الملكين شخصيتين مختلفتين فـ « خع سخم » فى رأيه له مكانه فى الأسرة الثانية بينما هو يضع « خع سخموى » فى الأسرة الثالثة ويعارض « فيدمان » و « ماير » هذا الرأى . والرأى الارجح أن « خع سخم » كان الخلف المباشر لـ « پرايب سن » الذى لاتظهر آثاره فى هيراقونبوليس ، وأنه استطاع أن يسترجع الدلتا ، ولئن لم يكن هو خع سخموى فهو سلفه المباشر .

ويرى الكثير من المؤرخين أن الظروف أكرهت « پرايب سن » على أن يهجر الدلتا ويعود الى « ابجو » (أبيدوس) حين ثار الشمال فى وجهه وأن « خع

سخم » استطاع — بفضل جهوده الحربية — أن يسترجع الشمال ، وقد خلد خلفه ذكرى ضم الاقليمين متخذا لقب « خع سخموى » ...والقوتان هنا«اقرتا حور وستخ ... تتجليان ».

ولكن دريوتون Drioton يعالج الموضوع من زاوية أخرى :

ذلك أنه يرى أن « خع سخموى » لايمكن أن يكون آخر ملوك الأسرة وهو يستند فى ذلك الى حقائق مادية منها أن زوجة « خع سخموى » هى « حب ان ماعه» Hep-en Maee التى لقبت بـ« أم أبناء الملك » فى عهد «خع سخموى » وبالأم الملكية فى عهد زوسر Zoser فى بيت خلاف وأن «زوسر» هو ابن «خع سخموى» وأنه توفيقاً لمختلف الافتراضات يرى دريوتون أن تمثال «خع سخموى» صنع فى عصر سابق لحكمه ... صنعه ملك من أسلافه . . . والواقع أن هذا الافتراض مستبعد إذ ليس له نظائر من قبل «أو من بعد .

أما « حب ان ماعه » الملكة ، فقد ظل توقيرها ممتدا حتى عهد سنوفرو على الأقل حين كانت عبادتها الجنزية لاتزال قائمة حيث أوقف الملك «سنوفرو» لصالح أحد رجاله وهو « إيمتى » معاشا على أملاك هذه العبادة .

وكان يظن فى مبدأ الأمر أن هذه السيدة هى زوجـــة « خع سخموى » وأنها أم الملك « زوسر » بدليل وجود آثارها فى مقبرته ، ولكن هذا لم يكن دليلا حاسما إذ كثيرا ما يوجد بالمقبرة آثار السابقين الذين لايمتون لصاحبها بصلة القرابة ... ولو أن « حب ان ماعة » كانت فعـــلا زوجة للملك « خع سخموى » وأما للملك « زوسر » فى الوقت نفسه لما كان هناك مايدعو لقيام أسرة جديدة اللهم إلا إذا افترضنا أنه كان لـ« خع سخموى » أكثر من زوجة وأن « حب ان ماعة » لم تكن زوجة شرعية ، وأن خليفة « خع سخموى »

كان ابنا له من زوجة شرعية أخرى لم يمكث طويلا على العرش ، وأن خلفه كان « زوسر » الذى لم يكن من دم ملكى خالص فأسس أسرة جديدة . ولكن هناك أدلة أخرى تثبت أن « حب ان ماعه » هى ابنة للملك «خع سخموى» وأنها كانت تلقب فى عهد « زوسر » بـ : أم الملك ، وعلى ذلك فان الافتراض الذى يستطاع قبوله هو أنها تزوجت من أحد أسلاف « زوسر » وولدت منه « زوسر » . . . ويعزز هذا الافتراض ذكر « نخروفس » الذى يرجح أنه كان أبا للملك « زوسر » وزوجا للملكة « حب ان ماعه » ابنة الملك «خع سخموى»

ويغالى يونكر Junker فكرة وجود أسرات جديدة وتقسيم عهود الحكم إلى أسرات ، إلى تطور أو انقلاب فى نظام الحكم أو إلى وجود أميرة فى آخر الأسرة تزوج من شخص من غير العائلة المالكة ومن نسلها تتكون أسرة جديدة ويكون هذا الزواج حلقة الاتصال بين الأسرتين . . . فاذا كان ذلك كذلك فان الفرض الذى قدمناه يكون أقرب الفروض إلى الصواب وهو الفرض الذى يقترحه Junker

ومقبرة «خع سخموى» قائمة فى ابيدوس . وآثاره منتشرة فى أنحاء كثيرة من البلاد ، ويشير حجر بالرمو الى صياغته لتمثال من النحاس، كما عثر فى ببلوس على قطعة من حجر البرشيا تحمل اسمه . ولقد كان يظن الى عهد قريب أن هذه المقبرة وسعتها ٣٠ × ١٧ قدما ، وعمقها ٧ أقدام هى أقدم مبنى من الحجر الجيرى عثر عليه حتى الآن ، ولكن الحفائر التى أجراها الاستاذ زكى يوسف سعد منذ بضعة أعوام فى حلوان كشفت عن جبانة شعبية بها آلاف المقابر التى ترجع إلى الأسرتين الأولى والثانية . ووجد من بينها مقابر حجرية الأفراد من عامة الشعب أو الطبقة العليا وترجع إلى عهد أبعد من عهد «خع سخموى» ، وهى تشير إلى أن البناء بالحجر بلغ حد الكمال من نواحى كثيرة مما يدعو إلى هدم هذه النظرية

التى ظلت دهرا طويلا أبعد من أن تعارض ومما يدفع الى القول بأن البناء بالحجر استقرت أوضاعه قبل عهد هذا الملك بزمن طويل .

° ° °

بقى أمر ملك لايزال مكانه حائرا هو « نب كا » ورد اسمه فى أبيدوس وتورين سابقا لـ « زوسر » وورد فى قصة السحرة التى سنعرض لها فيما بعد كأنما يقع حكمه بين زوسر وسنفرو : وأنه لمن المستبعد أن يكون سلفا مباشرا لزوسر ومن ثم فان مدة حكمه البالغة تسعة عشر عاما تظل غير محددة المكان .

حضارة مصر فى العهد الثينى

استغرق ذلك العهد حوالى أربعة قرون بدأه بعض المؤرخين بعام ٣١٨٨ ق. م. وانتهى فى رأيهم بانتهاء الأسرة الثانية فى عام ٢٨١٥ ق . م ، فاستمر بذلك ٣٧٣ سنة وبدأه بعضهم بعام ٣١٩٧ ق . م . وأنهاه فى عام ٢٧٧٨ ق.م. تقريبا ، فاستمر بذلك حوالى ٤١٩ عاما وكلا التقديرين قد يكون بعيدا عن الحقيقة ولذا فاننا نفترض أنه استمر حوالى الأربعة قرون وهى فترة استغرقت حكم ملوك الأسرتين الأولى والثانية الذين يبلغ عددهم حوالى ١٨ ملكا . وأما مانيتو فيقدر للأسرة الأولى ٢٥٣ سنة وللثانية ٢١٣ ، وأما حجر بالرمو فيقدم مجموع مدة الحكم للأسرتين ٤٥٠ سنة

وقد عثر فى مقابر ملوك الأسرة الأولى الحقيقية أو الرمزية فى أبيدوس وسقارة ، وعلى قبرين لملكين من ملوك الأسرة الثانية فى أبيدوس ، ويغلب على الظن أن بعض ملوك الأسرة الثانية كانت لهم صلة ما بالشمال وربما دفنوا فى سقارة وليس أدل على هذه الصلة من وجود اسم « نب رع » بين أسماء

وقد حفل تاريخ الأسرة الثانية بكثير من ألوان النزاع السياسي مما كاد يعرض وحدة البلاد للضياع إن لم يكن قد أضاعها فعلا ، ثم أعيد تكوينها في عهد « خع سخموى » ، وإذا لم يكن فى وسعنا الاحاطة بلون هذا النزاع إلا أنه بامكاننا أن نتصور فكرة واضحة عن حضارة ذلك العصر .

أول ماتبين عنه الآثار التى كشفت عنها أن طابع الحضارة المصرية وعناصرها المصرية التى التزمتها دون تغير طوال تاريخها قد اتخذت لدرجة كبيرة أشكالها النهائية وخطوطها الأخيرة فى عهد الملوك الأول من الأسرة الأولى ، ولإيضاح ذلك يمكن أن نقرر أن عهد الملك « جر » يعتبر فى مصر عهدا فاصلا بين التقاليد القديمة وبين ما استحدث من تقاليد فى نواحى الحياة المختلفة ظلت ثابتة طوال تاريخ مصر القديم . فقد اتخذت الملابس والصور المنقوشة وحروف الكتابة الهيروغليفية فى عهد « جر » أشكالها التى بقيت عليها طوال عصور حضارة مصر القديمة . وكان من الطبيعى أن يبتدىء كل نشاط وتقدم من البلاط الملكى بسبب ما كان ينعم به الملك من سلطان وسعة فى الثروة والادراك يقوى بها جميعا على ضم خيرة الصناع والفنانين الذين لم يكونوا يدخرون وسعا فى العمل له وإتقان صناعاتهم . ولذا اكتسبوا خبرة جديدة وارتقى شعورهم الفنى وقدرتهم على الابداع وأخذ عددهم فى الازدياد . ولذا فنحن لا نغالى إذا قلنا إن أساس كل تقدم فى مصر القديمة كان معقودا بحياة الملوك ونشاطهم ، وعنهم كان يأخذ رجال البلاط وكبار الموظفين ، ومن ثم يأخذ سبيله إلى أفراد الشعب . وكان الملوك كلما وجدوا رجال البلاط وعلية القوم قد أخذوا يقلدونهم فيما اتخذوه من تقاليد يعمدون إلى تشجيع الصناع والفنانين لابداع أشكال جديدة ومظاهر مستحدثة ليظل

الفرق بينهم وبين الأفراد ملحوظا بما يتفق ومكانة الملك . ولعل أروع مثال لذلك مقابر ملوك الأسرتين الاولى والثانية . فان ما عثر عليه فيها من آثار يدل على تقدم مطـــرد وتفوق فى الفنون المختلفـــة كما يدل على أن الثروات التى أخذت تفيض بها خزائن الملوك قد ساعدت على ترقية الفنون والصناعات بدرجة كبيرة ، وهذه الثروة فى حد ذاتها كانت أثراً من آثار الحـــكم القوى والادارة الممتازة التى كانت تنعم بها مصر . ويقرر الأستاذ زكى سعد الذى قام بالكشف عن جانب من جبانة واسعة فى منطقة حلوان من هذا العصر واستطاع أن يزيح الرمال عن ٩٣٥١ مقبرة منها فيما بين سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٥١ .. يقرر أن ما كشف عنه من أوانى قد بلغ إتقانها حـــداً يتضاءل أمامه مانراه اليوم من أوان من نفس المادة مع التقدم فى الآلات الحـــديثة ... ومع كبر حجم الاوانى تراهـــا متساوية السمك تساوياً تاماً ، ناعمة الملمس ، وهى من حجر أجيد صقله .

والواقع أن مصرى هـذا العهد استعمل كل أنواع الاحجـــار التى كانت تقع تحت يده وصنـــع منها أدوات تنم عن مهارة ملحوظة كما استعمل النحاس لصنع الأزميل والشص وكذا سن الفيل والودع والأصداف لتطعيم الصناديق

أما الملابس فكانت من نسيج الكتان ومنها نسيج رفيع دق غزل خيوطه حتى ليخالها الانسان من غزل الآلات الحديثة ، والأقمشـــة التى استطاع أن يعثر عليها تتفاوت فى درجة النعومة والرقة مما يدل على أنها كانت تستعمل فى مناسبات مختلفة تبعاً لتقلب الجو .

ويقرر الأستاذ زكى سعد كذلك أنهم عرفوا نسيج الصوف واتنعال الصندل وأن الترف كان ظاهرا فى المقابر التى كشف عنها فقد أمكن تمييز تسعة أنواع من الأطعمة من بينها : السمان والحمام المحشو (على الطريقة المصرية الحديثـــة) والأسماك واللحوم والفطائر الخ ... هذا إلى جانب الجعة والنبيذ وعرق البلح كما أمكن تمييز أنواع من الكحل لم تكن معروفة من قبـل مثل الكحل الرمادى ، وقد عثر كذلك على مجمـــوعة من المراود الأنيقة والمرايا والأمشاط والدمالج والأساور والمعاضد المختلفة الأشكال والأنواع .

أما من ناحية الديانة — وهو أمر سنعالجه كموضوع منفصل — فقد عثر الأستاذ زكى سعد على قطع من الـــقاشانى تمثل عددا من الآلهة من بينهم حور ونخبة ومين وأوزير وإيزة مما يدل على معرفتهم بهؤلاء الآلهة وأن جذور الديانة المصرية تمتد إلى عصور أكثر قدما من هذا العهد .

كما أن العثور على نماذج المراكب بالمقابر توحى بمعرفتهم للأله رع وبأنهم يلتمسون أن ينتقلوا معه فى موكبه حين يرتحل غربا نازلا إلى العـــالم السفلى فى قاربه الإلهى . وهو أمر كان يظن من قبل أنه قاصر على الملوك .

وقد عثر كذلك على عدد من اللوحات الجنزية تمثل صاحب المقبرة وعليهـا اسمه وألقابه ومائدة طعامه وما أعد من قرابين وأقمشة ولـكنه لم يعثر عليها فى مكانها المعتاد بل فى سقف المقبرة فى فتحة عند الجزء الجنوبى الغربى من حجرة الدفن بحيث يكون الرسم الموجود عليها إلى أسفل فوق المكان المعد لدفن الميت . وقد خرج من ذلك بأن أصحاب تلك المقابر كانت لديهم عقيدة معينة من ناحية الروح هى أن الأرواح تصعد إلى السماء . فإذا عادت لزيارة أصحابها نزلت من الفتحة إلى المقبرة فتتعرف بسهولة على صاحبها من صورته على اللوحة الجنزية ،

وبعد ذلك تصعد إلى السماء ثانية ، ومعنى هذا أن القوم فى عهد الأسرة الثانية كانوا يعتقدون أن الروح تصعد إلى السماء . وقد تطورت هذه العقيدة فيما بعد إذ أنهم أصبحوا يعتقدون أن الروح تبقى مع الجثة فى القبر .

وهناك أمر آخر يستلفت النظر فى هذه الجبانة المكتشفة حديثا هو أن علماء الآثار اعتادوا أن يجدوا الباب الوهمى فى ناحية الشرق عـــلى صورة فتحتين كبراهما إلى الشمال وصغراهما إلى الجنوب . أما هنا فكان الباب الوهمى إلى الغرب . ويحاول الأستاذ زكى أن يجد حلا لهذا الخلاف فيقترح أن يكون الدافع إلى ذلك هو الاتجاه نحو النيل : نحو الإله حعبى .

أما دفن الموتى فظل على صورة الجنين داخل تابوت أو داخل حفرة مستطيلة أو بيضاوية بدون بناء ، وكانت المقبرة تخصص لشخص واحد ، ومن النادر أن توضع جثتان أو أكثر فى مقبرة واحـــدة . وكانت تدفن حيواناتهم وطيورهم المحببة إليهم إلى جوار مقابرهم إذ عثر على كثير من جثث الكلاب مدفونة فى توابيت من الخشب وكانت توضع معها أيضا بعض الأوانى من الفخار أو الأحجار الأخرى ظنا منهم أن هذه الحيوانات ستبعث معهم فلا بد من تزويدها بالطعام والشراب ، ومن الثابت أن التحنيط لم يكن قد عرف بعد .

• • •

كانت الملكية فى عهد الثينى عماد الحضارة الثينية جميعا وكان الملك فى الملكية الثينية مطلق السلطة وكانت ملكيته مستقرة على صفته الإلهية فلقد كان هو الصورة الحية للإله على الأرض (حور أحيانا وست أحيانا أخرى أو حور وست معا) ولذا كان أول اسم ملكى يذكر هو الاسم الملكى الحورى يكتب داخل رسم يمثل واجهة القصر ويعلوه صورة الإله حور — ولما اكتملت الوحدة خلدها رمز

دينى فوضع الملك نفسه تحت حماية الالهتين اللتين كانتا فى الضفة المقابلة لحور فى العاصمتين القديمتين الشمال والجنوب وهما العقاب « نخبه » Nekhbe (إلهة الكاب) والصل ادجو Edjo (إلهة بوتو) (شكل ٢٧) .



(شكل ٢٧)

وكان هذا هو الاسم الثانى المسمى بالاسم « الذبتى » - وقد قدمنا أنه فى عصر « ودى مو » استجد اللقب « انسبيا » ، وفيه يضع الملك نفسه تحت حماية الرمزين : البوصة والنحلة للوجهين القبلى والبحرى ؛ وكانت حفلات جلوس الملك تستغرق فصولا ثلاثة ، وقد التزمت هذه التقاليد طوال العصور التاريخية وأما الفصل الأول فكان ظهور ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى ، وأما الفصل الثانى فكان ضم الاقليمين ، وأما الفصل الثالث فكان الطواف حول الحائط تخليدا لذكرى توحيد البلاد رمزا لاستمرار النعم التى جرها التوحيد على البلاد .

وكان الملك يحتفل بعيد « سد » . وكانت الملكية أصلا لا تستغرق أكثر من ثلاثين عاما تنتهى بخلع الملك أو قتله لعدم صلاحيته وكان معنى الاحتفال تجديد شباب الملك ونشاطه وقوته حتى لا تتلاشى قوة الملكية الكامنة فى شخصه وكان يرمى من وراء ذلك إلى استعادة حياته ونشاطه وأهليته للحكم فترة أخرى عن طريق هذا الاحتفال ، وقد احتفل بهذا العيد من ملوك ذلك العهد أكثر من ملك كما قدمنا ولم يلتزم الملوك فيما بعد فترة الثلاثين عاما بل أقام بعضهم الاحتفال بذلك العيد فى غير الميعاد المحدد له تحقيقا لرغبة خاصة فى نفسه .

ولقد كان الملك يعتبر إلها حيا فى شكل انسان وكان يعتبر على قدم المساواة

مع غيره من الآلهة ؛ وهو يتصل بهم كواحد منهم وهو على شاكلتهم له الأمر فى الحياة والموت على جميع أفراد شعبه ، ولذا كان موضع تقديسهم وكانت مهابته تعمر قلوب أفراد الرعية فلا يقتربون منه إلا على وجل ... ورغم أن سلطته كانت تتناول كل الأمور إلا أن الواجبات المفروضة عليه كانت تحد من هذا السلطان إذ كان من واجبه أن يعمل على عبادة الآلهة وذلك ببناء المعابد وإقامة الطقوس لها وتقديم القرابين والاحتفال بأعيادها المختلفة . وكان يقوم بذلك الواجب كواحد من الآلهة ، وغالبا ما كانت هذه الأعياد تستخدم لتسمية السنة التى أقيمت فيها ،كما يلاحظ ذلك من حجر بالرمو ، فيقال مثلا عام ميلاد أبيس وسنة عبادة حور ، وكان أكبر الأعياد أهمية للملك الحورى ، هو عيد حور الذى يقام تمجيدا لهذا الإله وكان يحتفل به فى العهد الثينى كل سنتين ، وقد كان هذا الاحتفال يقتضى بناء مراكب كبيرة يركب فيها الاله والملك لزيارة المعابد الهامة ، ومن بين الأعياد التى كان يحتفل بها كذلك ، أعياد الآلهة العظيمة للقطرين مثل عيد الالهة « نيت » معبودة صا وعيد مولد « سوكر » فى منف ومولد « اينوبو » و « مين » (إله قفط) ، « سد » ، «وب واوة » (إله أسيوط) ، «سشات » إلهة الكتابة ، « جت » وهو عيد ذكره حجر بالرمو واختفى باختفاء ذلك العهد .

وكان الأمر يستدعى أحيانا إنشاء معابد جديدة لبعض الآلهة ، كما كان الملك يقوم بنفسه بزيارة أهم المعابد . ولم تقتصر واجباته نحو شعبه على حياته فى هذه الدنيا ، وإنما كانت تتعداها إلى الحياة الثانية ، فقد كان الملك يعتبر فى الحياة الأخرى أشبه بوسيط بين الآلهة وبين أفراد الشعب يظللهم بحمايته . وكان رجال البلاط وكبار الموظفين يرجون أن يكونوا فى حاشية الملك وفى خدمته فى الحياة الثانية كما كانوا فى هذه الحياة الدنيا . ولذا فإنهم كانوا يحرصون دائما على أن تكون مقبرة الملك بحيث يستطاع أن تحمى جثته . وكانوا يعملون على أن يوضع فيها

الكثير من الأثاث اللازم لحياة الملك فى العالم الثانى كما كانوا يحرصون أيضا على أن تكون قبورهم بالقرب من مقبرته حتى ينعموا بخدمته فى الآخرة كما نعموا بها فى هذه الحياة لأن المصرى القديم تصور الحياة فى العالم الآخر على غرار الحياة على الأرض .

وكانت على الملك عدة واجبات فكان عليه أن يتولى الدفاع عن مصر وحمايتها من القبائل والشعوب المجاورة الطامعة فى خيراتها ، وكان عليه أن يعمل على زيادة رفاهية شعبه وتأمين وسائل حياته وذلك بحفر الترع وإقامة الجسور لتيسير فلاحة الأرض وزراعتها وتوزيع جزء من محصولها على أفراد الشعب كل على حسب حاجته ، وخزن الفائض لوقت الحاجة. وأن يعمل على توطيد أركان العدالة وأن ينشر لواء الحق بين أفراد شعبه . فإن أهمل الملك رعاية هذه الواجبات فقد بذلك قدسيته وحق للآلهة ألا تعترف به كواحد منهم . وبذلك يتضح أن تقديس الملك واعتباره كواحد من الآلهة قد أفاد الملكية سلطانا ونفوذا كما حد من ذلك السلطان فى الوقت نفسه بما فرض عليها من واجبات .

وكانت حياة الملوك تجرى على نسق واحد لا تشذ عنه وذلك بما فرض عليهم من واجبات وأعباء . وكان الملك يعيش فى قصره بين أفراد أسرته وبطانته ، وكان لواجهة القصر بابان كبيران يذكران بمفكرة الازدواج العتيق . وكان كل ملك ينشىء لنفسه مقراً جديداً عند حلول السنة الرابعة من حكمه ثم عند حلول السنة الرابعة بعد عيد سد ، الذى يبدأ به عهداً جديداً كما قدمنا ، إن قدر له أن يعيش حتى يحكم أكثر من ثلاثين عاماً .

المعبودات التى ظهرت فى العصر الثينى

كانت هناك قبل التوحيد مجموعة من العبادات المحلية غير مرتبطة ببعضها ، وكان تطور هذه العبادات نتيجة حتمية للتوحيد السياسى بين الاقاليم المختلفة الذى كان من أثره أن أصبحت هذه المعبودات « آلهة مقاطعات » اعترفت بها الملكية الموحدة وسعت كذلك إلى استرضائها وطلب حمايتها .

ومع ذلك فاننا نلتقى فى بداية التوحيد بعبادة قائمة لرب السماء « حور » ورمزه الصقر (الباشق) . وتبدو من بعيد لدى الأهل الأصليين العريقين عبادة أخرى لـ « ست » الذى عرفه أسلافهم كسيد البلاد جميعا والذى تركزت عبادته حول حول « أومبوس » . ولقد بلغت قوة من عبدوه حدا ارتفع به إلى مقام يساوى مقام « حور » خلال فترة من عصر الأسرة الثانية ، بل إنه استطاع أن يحل محله ردحا من الزمن كرمز رسمى للملك

ولقد ظلت الفكرة قائمة قبل الكشوف الحديثة فى سقاره عن مقابر العصر الاركى (الثينى) تشير إلى أن عبادة الشمس لم تصبح دين الدولة الرسمى إلا فى عصر الاهرام ولكن العثور على مراكب جنزية ملحقة بالمقابر الكبرى فى سقاره ... ثم فى حلوان ... يؤكد أن العقيدة للبدئية فى مصاحبه الموتى للآلهة فى رحلتهم عبر السماء كانت قد رسخت فى النفوس حتى قبل قيام الأسرة الاولى . ولقد قامت عبادة « رع » إله الشمس أصلا فى هليوبوليس التى ظلت مركزا للعبادة حتى قيام المسيحية . ولقد عرف الإله هناك شمسا على هيئة القرص ، وحين أصبحت منف عاصمة عند التوحيد اضطر الملوك الاوائل إلى الاعتراف بهذه العبادة ومن هنا بدأ لون من المنافسة بين اله السماء « حـــور » وإله الشمس « رع » انتهت بلون من التوفيق ظهر فى قيام معبود مركب هو « رع حار اختى » ثم اقترن الملك بـ « حور » وأصبح « ابن رع » . ومع ذلك فان هذا التحول لم

يحدث حتى الاسرة الثانية رغم أن رمز القرص المجنح يظهر فوق الاسم الحورى للملك «ادجو» Edjo على مشط عثر عليه فى أبيدوس .

ولقد ارتفع شأن «بتاح» بقيام منف وجعلها عاصمة للدولة الموحدة وظلت عبادته قائمة قوية طوال العصور التاريخية وبخاصــة لدى المثقفين ، ويشير «مانيتو» إلى أن «منى» بنى معبدا ! «بتاح» فى منف ، كما تشير أحداث الأسرتين الأولى والثانية على حجر بالرمو إلى الاحتفال بعيد «سوكر» رب الجبانة المنفية وهو صورة من صور «بتاح» .

وقد كشفت مقابر حلوان عن قيام عبادة «أوزير» ، وكان ذلك موضع تساؤل من قبل ، ذلك أنه عثر بها على رمز «دد» الخـــاص بالاله وعلى مايمثل «عقدة العصابة» الخاصة بزوجته «ايزه» فى مقابر من عصر الأسرة الأولى ... وهذه العبادة التى ظلت قائمة طوال عصور التاريخ المصرى ، والتى بدأت كعبادة مظهر من مظاهر الطبيعة ، تطورت منذ القدم إلى عبادة ترمز للملك المتوفى ... وربما كانت الاسطورة الاوزيرية صدى لأحداث بعيدة وأساطير تناقلها الرواة عن مغامرات لها أساس من الواقع تمت فى عصور مختلفة وربطها القصاصون ببعضها ليجعلوا منها هيكل قصة محبوكة الأطراف بقدر ما وسعهم ذلك مستهدفين بها تقديم صورة للصراع بين عنصرى الخير والشر منتهين فيها إلى غلبة الخير ونصرته... وربما ترتبط أحداث الاسطورة فى بعض اجزائها بالصراع الذى تم قبل التوحيد بين أهل البلاد الأصليين والوافدين الجدد على مسرح الحياة فى وادى النيل ... وكشوف حلوان التى أشرنا إليها من قبل دليل على وجود «أوزير» و«ايزه» فى عصر الاسرة الأولى يوحى برابطة قوية بين «حور» الاله الملكى و«أوزير» رمز الملك المتوفى .

وكانت « بوصير » مركز عبادة « أوزير » حل فيها هناك محل معبود قديم هو عنجتى ، وأخذ عنه بعض رموزه مثل الريشتين على تاجه وعصا الراعى . . . وأما صورة « أوزير » كما تبدو فى عصر الأسرة الاولى فتظهر فى هيئة الملك « وديمو » كجثة على صورة المومياء فى بطاقة من مقبرة « حما كاه » .

ومن بين المعبودات التى ظهرت فى هذه المرحلة كذلك « اينوبو » (انوبيس) اله الموتى وحامى الجبانة . . وكان له دوره فى الأسطـــورة الأوزيرية ويبدو ممثلا على هيئة ذئب أو كلب جالس . وقد ذكرت اعياد انوبيس منذ الأســـرة الأولى على حجر بالرمو .

وكان « آ كر » معبودا فلكيا صور كمقدمى أسد يتصل أحدهما بالآخر وكل منهما يواجه ناحية عكس الأخرى . وكان يفترض فى « آ كر » أن يحرس الأفقين ، وكان إله الشمس يدخل فم أسد فى المساء ويخرج من فم أسد فى الفجر . . . ويمثل « آ كر » فى نصوص العصور المتأخرة فى صورة أسدين كاملين جالسين وظهر أحدهما لظهر الآخر ويوصفان بأنهما يمثلان « اليوم » والغد » .

وكان « ابيس » ثور منف المقدس . . وقد قامت عبادة الثور قبل التوحيد بزمن طويل وكان هذا الثور يمثل فى الاذهان القوة والصـــراع فى الحرب والخصب فهو مأوى قوى فوق الطبيعة وكان تجسيداً لـ « بتاح » وقد اشار « ايليان » Aelian إلى أن عبادة الثور قامت فى عهد « منى » ، وهناك ما يدعم قوله من المكتشفات الحديثة التى تمثل الملوك على هيئة ثيران قوية .

وكان « حرشف » (حرسافس) كبشا مقدسا ورد ذكره على حجر بالرمو فى أحداث الأسرة الأولى وقد انتشرت عبادته فى هذه الأسرة وربما لنفس الأسباب التى عبد من أجلها « ابيس » .

وكانت « حتحور » بقرة تمثل السماء وقد عرفت فيما بعد كراعيـــة الحب والمرح ، ومثلت على هيئة بقرة أو امرأة برأس بقرة أو برأس أنثى وقرون وأذنى بقرة.. أما فى العصر الاركى (الثينى) فكانت تعرف كزوجة ﻟ « حور » وتظهر بصفة مؤكدة على لوحة « نعرمر » بوجه أنثى وأذنى وقرنى بقرة .

وكان « خنتى امنتى » الها للموتى فى ابيدوس مقترنا بـ « أوزيرو » وقد ظهر فى صورته كـ « أوزير » فى العصـــور المتأخرة .

وكانت « ماتيت » لبؤة هيراقونبوليس وثيس ، ومثلت على أختام الأسرة الأولى كلبؤة قابعة ويبرز من ظهرها ثلاثة أو أربعة قضبان .

وكانت « مفدت » قطة جاء ذكرها فى أحداث الأسرة الأولى على حجر بالرمو ووصفت فى العصور المتأخرة كأنثى ترتدى جلد القطة وكانت تعتبر الحامية ضد عضة الثعبان .

وكان « مين » إله المسافرين ، وموطنه كل الصحراء الشرقية ، وأما مركز عبادته فكان « اخميم » و « قفط » فى النهاية الغربية لطريق وادى الحمامات . وهو يبدو فى صورة رجـــل له قضيب منتصب ملفوف بملابس على هيئة المومياء ويرتفع ذراعه إلى أعلى ممسكا بسوط .. وقد عثر له على تمثالين فى عصر قبيل الأسرات فى قفط ويعتبران أقدم نماذج للنحت فى وادى النيل .

وكانت « نخبة » معبودة «هيراقونبوليس» (نخب ،الكاب) ثم أصبحت حامية للصعيد ، وقد مثلت فيما بعد كأنثى برأس عقاب ومن فوقه التاج الأبيض، ولكنها لا تبدو فى صورها فى العصر الأركى إلا كـ « عقاب » . وهى أولى « السيدتين » الربتين » فى اللقب الملكى المعروف « نبتى » .

وكانت « نيت » معبودة سايس ورمزها درع وسهان متقاطعان ما يشير إلى خصائصها كربة صيد وحرب وقد عرف هذا الرمز من عصور تسبق التوحيد وانتشرت فى العصر الأركى حتى اعترف بها كواحدة من أشهر معبودات مصر السفلى . وأقدم معبد عرف مايؤكد قيامه هو معبدها من عصر « حور عحا » (منى) . وهناك مايدفع الى التأكيد بأن الملوك الثنيين تزوجوا من أميرات

الوجه البحرى ليجعلوا لأنفسهم شرعية لحكم الشمال . ولدينا من هؤلاء الملكات ثلاثة تحملن فى أسمهن اسم المعبودة هن « نيت حوتبة » ، « مرنيت » ، « حرنيت » .

وكاد « سد » إلها للموتى جاء ذكره على حجر بالرمو وربما يقترن بـ « وب واوة » ، لأنه يوصف كابن آوى واقفا على شعار المقاطعة .

وكانت « مشات » ربة للعلم والكتابة ، وقد عرفت فى العصور التالية كأنما تسجل على أوراق « شجرة السماء » كل أعمال الرجال والآلهة وأعمارهم ، ورمز «مشات» نجمة على عمود يعلوها ما يبدو كالقرنين ، وترجع عبادتها إلى عهد الأسرة الأولى كما يشير إلى ذلك حجر بالرمو عند ذكر « مد الخيط » لقياس الأرض بقصد تخطيط رسم معبد وكان هذا العمل يدخل فى اختصاص كهنتها .

وكان « تحوتى » الإله القمرى راعيا للعلوم وقد قامت عبادته منذ الأسرة الأولى إذ ظهر القرد (رمزه الحيوانى) مع « أبيس » على قطعتين من الآثار من عهد « وديمو » . وقد كان لـ « تحوت » هيكل يرجع إلى عهد « نعرمر » كما يظهر لواء تحوت على لوحات من عصور ماقبيل وقبل الأسرات .

وكانت « وادجه » الالهة الصل لـ « بوتو » حامية مصر السفلى ، وهى ثانية « الربتين » أو « السيدتين » فى « نبتى » لقب الملكية .

وكان « وب واوة » (فاتح الطرق) إله حرب فى أول الأمر يوجه الملك فى الحروب ولكنه أصبح فيما بعد إله موتى فاقترن بـ « انوبيس » ووصف كابن آوى يقف فوق لواء المقاطعة .

* * *

ومعظم هذه الآلهة أو المعبودات ظهر فى صورة حيوانات ولكننا نشهدهم فى الأسرة

الثانيه فى تجسيد إنسانى متطور فى صورة بشر برؤوس حيوانات أحيانا ..

وهكذا فإن معظم المعبودات التى نلتقى بها فى التاريخ المصرى فيما بعد نجد لها أصولا فى هذه المرحلة تطورت من غير شك فيما بعد وانتحلت خصائص... قد تكون مغايرة أحيانا ، ولكنها كانت على أية حال عبادات قائمة منذ هذا العصر على الأقل

النظام الادارى فى العهد الثينى

ليست لدينا معلومات كثيرة عن النظام الادارى فى ذلك العهد ولكن ليس من شك أنه كان يعاون الملك جمهرة من الموظفين تركوا ألقابهم على بعض الآثار، من بينها أختام الطين على الجرار، وقد احتفظت العهود التالية بعدد من هذه الألقاب مما يجعلنا نكون فكرة عن واجبات الموظفين وأعمالهم وبالتالى عن جانب من النظام الادارى فى ذلك العهد .

ويرى « ادوارد ماير Edward Meyer » أن وظيفة الوزير كانت قائمة فى ذلك العهد . وقد أثار ذلك اللقب الكثير من الجدل ، ولكن ليس من شك فى أنه كان هناك موظف هو حلقة الاتصال بين الملك وبين باقى الموظفين . وليس من شك كذلك أن توحيد القطرين استدعى ازديادا كبيرا فى أعمال الحكومة مما يعتبر فرصة صالحة لقيام منصب الوزارة . والواقع أن ما لدينا من آثار لا يكفى لاثبات وجود هذه الوظيفة ؛ ولكنه لاينفى قيامها فى الوقت نفسه وخاصة إذا رأينا دريوتون Drioton - وهو أحد المعارضين فى وجود مثل هذه الوظيفة فى ذلك العهد - يسبغ على « حماكا » لقب الوزير الأول أو الموظف الأول للملك « وديمو »

وإذا كان لقب الوزير موضع شك فانه كان هناك على الأقل موظفان يحمل أحدهما لقب حامل أختام ملك الجنوب والآخر لقب حامل أختام ملك الشمال، ويرأسان بيت المال المزدوج . وهذان اللقبان يشيران إلى أنه قد احتفظ فى العهد الثينى بذكرى انقسام البلاد إلى مملكتين : المملكة الجنوبية والمملكة الشمالية أو — بعبارة أخرى — احتفظ فى العهد الثينى بتقاليد كل مملكة منها كما يبدو فى ألقاب الموظفين مما يسمح بالقول إن الحكومة فى العهد الثينى كانت حكومة موحدة تحمل فى ثناياها مظاهر وتقاليد حكومتين معا ، وكان هناك إلى جانب ذلك مكتب خاص تحفظ فيه المستندات الرسمية ، ولولا ذلك لما كان من الميسور كتابة أخبار ملوك ذلك العهد على حجر بالرمو فى عهد الأسرة الخامسة .

ولقد كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات ... حتى قبل ذلك العهد... وكان المصريون يعتمدون على الزراعة وعلى فيضان النيل الذى كان نظام الرى يتوقف عليه ، وكان من الطبيعى أن تبلغ طريقة الرى درجة الكمال بسرعة فائقة ما دامت موضع عنايتهم من قديم . فحفروا الترع والقنوات وأقاموا الجسور . وقد استدعى ذلك وجود موظف يشرف على هذه الأعمال ليقوم بالتفتيش على هذه القنوات والمحافظة عليها وعلى تطورها وربما كان هذا أصل وظيفة حاكم المقاطعة : فمنذ العهد الثينى نرى ظهور لقب « عدج مر Adje-mer» ومعناه « المشرف على حفر القنوات » وهـــو اللقب الرئيسى لحكام المقاطعات عند ابتداء الدولة القديمة ، ويظهر أن أصحاب هذا اللقب فى العهد الثينى كانوا هم أيضا حكاما للمقاطعات ، وكان من أهم اختصاصاتهم أن يحصـــلوا من الأرض بالوسائل المناسبة على أحسن غلة ممكنة وأن يساهموا بذلك فى ثراء

العام وعلى الأخص ثراء الخزينة الملكية . وكان يقع على عاتق حاكم المقاطعة عبء التعداد أو عملية الاحصاء وهـــذا الاجراء ثابت لأول مرة منذ عهد « وديمو » ولقد كانت هذه العملية تتم كل سنتين ابتداء من الأسرة الثانية وكانت تستخدم فى حساب سنى الحكم ، وهى دليل على حسن الادارة كما ان تنظيم فرض الضرائب وقصر الفترة التى يجرى فيها الاحصاء دليل آخر على الرغبة فى العدالة . وكانوا يعنون بتدوين ارتفاع الفيضان بقصد التنبـؤ بحالة رخاء البلد أو بقصد ملاحظة حالة الفيضان لتجنب المجاعة إذا كان النهر ضنينا بمائه

وكانت فى كل مدينة محكمة أو هيئة قضائية مما يشير إلى وجود قانون مكتوب وإجراءات قضائية مرسومة . وكانت الهيئة مؤلفة من كبار الموظفين ، وكانت تسند إليها إدارة المدينة وما حولها من قرى وكذا إجـــراء الاحصاء ومراقبة الفيضان ، وكان يطلق على هذه المحكمة اسم « جاجات Zazat » .

الجيش

لا نعلم شيئا عن نظام الجيش فى هذا العهد أكثر من أنه فى عهـــد الملك « سمبسس » من ملوك الأسرة الأولى ، ظهر لقب قائد الجيش . غير أن وجود اللقب وحده ليس دليلا على وجود جيش ثابت منتظم .

جيران مصر فى العهد الثينى

كان يسكن فى الصحراء الليبية قوم سماهم المصريون « تحنو » وهم من جنس حامى قريب الشبه من المصريين ، وكانت فى الجنوب النوبة التى أطلق عليهـــا المصريون اسم « تاستى » إذ ذاك وسكانها طوال القامة ذوو شعور مجعدة أو مرسلة وهم مجموعة قبائل أهمها واوات وايرثت ويام ومازوى (ربما كانوا أصل

البشارية) ويبدو أن النوبيين فى العهد الثينى ينتمون إلى الليبيين أى أنهم من جنس حامى لايختلف عن المصريين إلا قليلا . وكانت حضارة النوبة فى العصور الأولى قريبة الشبه من حضارة مصر ، وكان النوبيون يسكنون فى بلاد فقيرة على المرتفعات الغربية من النهر ويعيشون على الزراعة وتربية المواشى وصناعة السلال والحصر ، وكانت لهم بعض الصفات الحربية مما دعا المصريين إلى استخدامهم فى الجيش والحراسة وخاصة قبائل المازوى . ومع أن بلادهم كانت فقيرة من ناحية الزراعة إلا أنها كانت مطمع الأنظار لوجود الذهب فى مرتفعاتها الشرقية ولأنها كانت المنفذ الوحيد لبلاد السودان حيث العاج والأبنوس وجلود الحيوانات .

وفى الشرق كانت قبائل « الأيونيتو » وهم الذين أطلق عليهم « متراپو » اسم سكان الكهوف . وكانوا يعيشون على النهب والسلب أو التجارة فى قوافل تقطع صحراء العرب .

وفى شرق برزخ السويس وسيناء كانت تنزل قبائل سامية أطلق عليها المصريون اسم « حريو شع » أى الذين فوق الرمال ومنهم « العامو » و « المنتيو » . وكان برزخ السويس طريقا ينفذون منه إلى مصر كلما ألجأهم شظف العيش إلى الهجرة أو وجدوا فى مصر ظروفا داخلية تشجعهم على الاغارة عليها .

وإلى الشمال الشرقى من سيناء تقع فلسطين وسورية بغاباتهما وموانيها الطبيعية الصالحة للملاحة وكانت ترد إليها منتجات بابل وغيرها من بلاد الشرق .

وإلى الجنوب الشرقى الأقصى كانت تقع بلاد « بونت » التى سماها المصريون بلاد الآلهة ...

هذه الشعوب المختلفة كانت تجمعها بمصر علاقات مختلفة يسودها السلام طالما لا تعتدى على الحدود المصرية . أما إذا دفعهم الطمع فى خيرات مصر إلى غزو

حدودها فإن مصر كانت تضطر إلى الذود عن نفسهـــا ورد غارات الطامعين فيها عنها .

ويمكننا أن نقرر أن السياسة الخارجية للدولة فى العهد الثينى لم تكن تقـوم على أساس الغزو الخارجى ، وربمـــا كان مرجع ذلك إلى انصراف الملوك إلى تثبيت الوحدة وتوطيد أركانها واقتصر نشاط مصر الحربى فى ذلك العصر على رد غارات الطامعين وتأديب البدو وتأمين طرق القوافل .

ومما لا شك فيه أن المصريين أخذوا فى استثمار المناجم فى وادى مغارة فى سينا لاستخراج الدهنج والفيروز . وقد كانت هذه المنطقة عرضة لهجمات البدو فكان الأمر يستدعى تأديبهم من وقت لآخر ... وقد استمر إرسال الحملات والبعثات لاستثمار المناجم حتى الأسرة الثامنة عشرة وقد كان هذا العمل عملا رسميا أى أن الحكومة هى التى كانت تقوم به وليس الأفراد .

وكان الأمر يدعو أحيانا إلى تأديب البدو الذين يغيرون على طرق القوافل بين سورية ومصر وهى القوافل التى كانت تنقل التجارة وخاصة الأخشاب من بيبلوس (جبيل) .

وليس هناك من دليل على علاقة مصر ببلاد بونت سوى مواد البخـــور والعطور المختلفة ، ولكن يظهر أنها كانت تصل إلى مصر فى ذلك العهد بطريق غير مباشر ، إلا أن هذا لا يمنع من القول إن المصريين أرسلوا بعوثا إلى هذه الجهات النائية . وليس من الضرورى أن تكون أول هذه البعوث فى عهـــد الأسرة الخامسة كما تحدثنا النصوص إذ أنه من الثابت أن أحد سكان بونت كان قد خدم لدى أحد عظماء الأسرة الرابعة .



الفصل الخامس

الدولة القديمة

عصر بناة الأهرام

الأسرة الثالثة ـ الملوك : زوسر . نب كا . نفركا . خع با . حو
الأسرة الرابعة ـ الملوك : سنفرو . خوفو . ددف رع . خع اف رع
منكاو رع . شبسكاف . خنت كاو اس

مقدمة

تبدأ الدولة القديمة ببداية الأسرة الثالثة وتنتهى بالأسرة السادسة .

وأهم ما يميز هذا العهد بناء الأهرام ، فلقد جرت العادة أن يشيد الفراعنة (جمع فرعون وهى محرفة عن كلمة باللغة المصرية هى « پرعو » ومعناها البيت الكبير) وهم ملوك مصر القديمة ، أهرامهم بالقرب من قصورهم على حافة الصحراء الغربية فى ميدوم ودهشور وسقارة وإلى حدود الجيزه وابى رواش ، وكانت بيوت الحاشية تحيط بقصورهم ذات البناء المزدرج أو المدخل المزدوج الذى كان يشعر دواما بالوجهين القبلى والبحرى ، بل إن واجهة القصر كانت تسمى بالواجهة المزدوجة . . . ولقد كان بناء هذه الأهرام صفة مميزة لهذا العهد لاتزال لاصقة به .

وتمتاز الدولة القديمة فوق ذلك بأن وحدة البلاد بلغت أتمها فيها ، فلم يعد هناك أثر للنزاع القديم بين الشمال والجنوب ، ولقد أدى ذلك إلى تركز السلطة فى أيدى الملوك الذين ساعدهم ذلك على النهوض بالبلاد وبلوغها مرحلة ناضجة من مراحل التحضر .

ومما هو جدير بالملاحظة أن رخاء مصر وقـــوتها لم ينشأ عن كثرة غنائم وأسلاب جلبتها حروب خارجية بل كانا ثمرة جهود داخلية وثمرة نشاط عاد بالخير العميم على المرافق المختلفة، وثمرة ازدهار فى مختلف نواحى الحياة المصرية فكانت حضارة ذات طابع مصرى صميم قائم على الشعب المصرى وحده . ويرجع ذلك من غير شك إلى وحدة البلاد وتنظيمها تنظيما يثير الاعجاب والتقدير . ولئن كان من العسير أن نقارن مظاهر الحضارة المصرية بين عصر وعصر آخر، لأن لكل عصر ميزته ، فإن عصر الدولة القديمة يمكن أن يعتبر فى صدر العصور جميعاً إذ بلغت فيه قـــوة البلاد فى الخلق والابداع أوجها وفى التنظيم ذروته، وتنطوى الأعمال التى تمت خلاله على قـــوة وعظمة تأسران اللب والشعور، وتتجلى هذه الروح الخالقة المبدعة فى سائر نواحى النشاط .

أما من جهة ناحية العمارة فقد بلغ فن البناء بالحجر غاية كماله فى أقصر مدة ممكنة وبلغ فن النحت ذروة عالية من الاتقان تشهد بها الأمثلة الكثيرة التى بقيت من ذلك العهــد والتى تعتبر بحق من نماذج الفن الخالدة . ولقد كان الأمر كذلك فى النقش والتصوير بل إنه رغم وجود صفـــات مشتركة بين صور الفن فى ذلك العهد ، فانه امتـــاز بانقلابات كبيرة أعقب بعضها البعض بسرعة فائقة : فلقد كانت هناك حركة متصلة تدفـع دائما الى الوصول للكمال الفنى فما يكاد يطالعنا لون من ألوان الفن له صفـــاته الخاصة المميزة حتى يسرع بالانزواء ليفسح المجال للون آخر يأخذ عنه ويرتقى به إلى مرحلة أسمى تتفق وسمو المشاعر الجـــديدة وتتمشى والرغبة فى الوصول إلى القمة فى كل شىء .

ولقد بلغ بلاط الملك فى عهد الدولة القديمـــة مرحلة متقدمة من التنظيم وكثرت الرتب والألقـــاب واختلفت الوظائف وتشعبت ، وكثر عمال

بيت الملك وموظفوه حتى أصبح دولة قائمة بنفسها ، فكان هناك القائم على شئون دهان الملك وغسله أو زينته وترجيل شعره أو نعاله وحملها ، وكان هناك طبيبه الخاص ورئيس فرقته الموسيقية والمشرف على التيجان الملكية .

وكان الملك يشرف على مختلف الشئون أو يعهد بطرف منها إلى أبنائه .

أما أمراء الأقاليم فقد التفوا حول الملك ملتمسين الحظوة والقربى عساه ينعم عليهم ببناء مصطبة إلى جانب هرمه حتى يسعدوا بخدمته فى العالم الآخر ، وكان بين ألقابهم الرفيق الوحيد ، وكبير عشرة الجنوب ، وفم «ب» ، والمشرف على «نخن» . وأما الوزير فكان أكثر الناس أهمية بعد الملك حتى لقد أله أحد الوزراء من هذا العهد فى العهود متأخرة وإن كان من المشكوك فيه أنه هو بالذات كان يحمل لقب الوزير (وإن قام باختصاصه) وكان يعاونه رؤساء الارساليات وكان هو يرأس دور المحفوظات وكان الرئيس الأعلى للعدل يرأس القاعات الست وكان لذلك يلقب بكبير خمسة بيت تحوتى أو كاهن ماعة وكان يرأس الخزينة ويشرف على الزراعة وكان من ألقابه رئيس جميع أشغال الملك ورئيس بيت السلاح وخزانة زينة الملك الخ .

الأسرة الثالثة

٢٧٧٨ — ٢٧٢٣ ق. م. تقريبا

هناك بعض الخلاف فى أسماء ملوك هذه الأسرة بين القوائم المختلفة والجداول التى تحت أيدينا . وهناك أربعة أسماء مشتركة بين تورين وسقارة وابيدوس هى زوسر تترخيه «زوسر الأول» و «زوسر الثانى» و«سنوفرو» . وقد وجد اسم «حونى» بجدولى تورين وسقارة ، ونلتقى فى جدول أبيدوس بملكين مجهولين هما سجس ونفر كارع . وقد وجد « نب كارع » فى سقارة بعد زوسر تتى . أما مانيتو فان الاعتماد عليه من هذه الناحية قد لا يؤدى إلى نتيجة نطمئن إليها ، فهو يذكر أسماء لتسعة ملوك (اقتصر ايراتوستين على ذكر ستة منهم) حكموا ٢١٤ سنة بينما تقدم تورين مثلا خمسة وخمسين سنة كمدة حكم للأسرة .

وأما الآثار المادية المعاصرة فتقدم لنا أسماء خمسة لا يزال ترتيب عهودهم موضع شك لدى العلماء وإن كنا نميل إلى الجـــزم بأن « زوسر » هو على رأس الأسرة وأن «حونى» هو آخر ملوكها الذى تتفق تورين وسقاره على وضعه كسلف مباشر لـ « سنوفرو » .

ولكن يقوم رغم هذا فى وجهنا اعتراض من ناحية أن بردية تورين وجدول أبيدوس يقدمان اسم «نب كا » كمؤسس للأسرة كما يقدم جدول ابيدوس «نفركارع» قبل « سنفرو » مباشرة .

وليس مهم كثيراً أن يرى البعض فى « زانخت » سلفا لـ « زوسر » (پترى) أو خلفا له (هول) وأن « زوسر » يسبق « نب كارع » (ويجال) أو يخلفه (پترى) فان الدلائل والقرائن تكاد تجمع على أن « زانخت » كان خليفة لـ«زوسر»

ويرجح دريوتون أنه كان أخا له (معتمداً فى ذلك على تماثل مقبرتيهما فى بيت خلاف والأختام التى عثر عليها) كما يرجح أنه ربما كان « زانخت » هو المعروف بـ « زوسر الثانى » وذلك لأن إحدى الكتابات تذكر اسم كاهن جنزى للملك « زوسر » وخلفه المدعو « سازوس » ... ولما كانت الكتابة القديمة تسمح بالخلط بين العلامتين « نخت » و « زوسر » فانه ليس ببعيد أن الكاتب أشكل الأمر عليه فخلط بين العلامتين وقد أدى نفس الخلط بكتبة القرائم الملكية إلى أن يضعوا خلفا لـ « زوسر » ملكا يحمل نفس الاسم .

ويميل زيته إلى أن يجعل من « نب كا » اسما آخر لـ « زانخت » معتمدا فى ذلك على بعض الدلائل المادية . وتقدم بردية وستكار هذا الاسم قبلا لـ « زوسر » . وقد قدمنا من قبل أن بعض القوائم تعتبر « نب كا » على رأس الأسرة ولكن مؤرخا آخر هو فيبى يرى تشابها بين مسطبتى « زوسر » و « زانخت » فى بيت خلاف وبين هرم « نفركا » (الذى لم يتم) فى زاوية العريان ويحاول أن يخرج من وراء ذلك بأن « زانخت » هو « نفركا » وأما هرم « زانخت » (إن كان له هرم) فغير معروف حتى الآن وليست له سوى مسطبة بيت خلاف بجوار مسطبة زوسر هناك وقد تكونان قبرين رمزيين . ويقترح « لاور Lauer » أنه مات صغيرا وأن المسطبة التى أصبحت الهرم المدرج كانت له أصلا .

ويرى « دريوتون » أن رأى « زيته » أقرب الى الصواب من رأى « فيبى » وأن موضع « نفركا » هو بعد « زانخت » قبل « حونى » مباشرة وأن « نفركا » هو « نفركارع » سلف « حونى » المباشر .

والواقع أن قائمة أبيدوس تقدم لنا كما أسلفنا اسما هو « نفركارع » قبل « سنوفرو » مباشرة . وبالرجوع الى بردية تورين نجد أنها تذكر « سنوفرو »

تاليا لـ « حونى » وأن ملكا مجهولا لم تذكره يسبق «حونى » . وأما سقارة فتذكر « نب كارع » ثم « سنفرو » على التوالى .

وعلى ذلك فان لم يكن «حونى» هو « نفر كارع» فان « نفر كارع » كان يسبقه لأن خليفة «حونى» هو «سنفرو» .

وحيث ان « سنفرو » هو مرحلة الانتقال بين الأسرتين فان « حونى » يختم عهد الأسرة الثالثة . وتدعم هذا الرأى بردية بريس التى تجعل منه سلفا لمؤسس الاسرة الرابعة : « سنفرو» .

ومع ذلك فانه مما يدعو للتفكير غياب بعض أسماء مؤكدة مثل « سخم خى » Sekhem-Khe و « خع با » من ملوك الأسرة ويرى « جاردنر » أنه ربما يرجع ذلك الى أنهم كانوا يفضلون فى هذه المرحلة الاشارة إلى الملوك بأسمائهم الحورية بدلا من ألقابهم أو أسمائهم الفعلية التى ظلت تشغل مركزا أقل اهمية حتى حكم سنوفرو والتى بدأت منذ عهده تحتل الخانة الملكية . وإذن فمن المحتمل أن أسماء هذين الملكين وغيرهما كانت مخبوءة فى الخزانات الملكية ... والأمر كذلك بالنسبة لـ «زوسر» الذى يوصف فى مسطبة بيت خلاف وفى هرمه بسقارة بالحور «نثرى خيه» وأما اسمه كـ «زوسر» فيظهر لأول مرة على لوحة من العاج كاسم «نبتى» ولم يظهر بصفة مؤكدة أن « نثرى خيه » و « زوسر » و « توزورتوس » إلا فى النص البطلمى فى جزيرة سهيل الذى يحكى قصة السبع سنوات العجاف وسعيه وراء نصح أمحوتب .

١ — زوسر نثرى خه Djoser Nether-khe

رغم أن « زوسر » يعتبر مؤسسا الأسرة الثالثة وأعظم ملوكها بل أول ملك عظيم حكم فى عهد الدولة القديمة وأنه مثبت الحكم المنفى فان مانعرفه عنه قليل

وخاصة عن أعماله الحربية . وكل ما لدينا أنه خلد ذكرى انتصاره على بدو شبه جزيرة سيناء فوق صخور وادى مغاره . كما أن هناك بعض أحجار عثر عليها فى هليوبوليس هى بقايا معبد له هناك .

وقد امتد تقديس « زوسر » فى أذهان المصريين دهورا طويلة وتشير إلى ذلك قصة رددتها مجموعتان متنافستان من الكهنة فقدمنا صورتين لها لتدعم كل فئة وجهة نظرها وحقها فى التملك . والقصة الأصلية منقوشة على صخور جزيرة سهيل عند الجندل الاول من العهد البطلمى وتشير إلى حدوث مجاعة فى عهد «زوسر» وأنه كتب إلى حاكم إقليم الجنوب يستشيره فيما يجب عليه للخلاص من هذا الخطب وأى الآلهة أولى باستدرار العون. وأشار الحاكم بأن الإله « خنوم » هو الذى يأتى بالنيل الطيب والنيل الردىء » .. (والاله خنوم هو واحد من الآلهة المصرية الخالقة يرسل مياه النهر من معبده فى الفنتين) وقدم الملك إلى الجنوب ليشهد « خنوم » الذى قرر أن إهمال شأنه كان سببا لما حاق بالبلاد من مصائب ووعد بالخير إن عنى بأمره .. فأصدر «زوسر» مرسوما يمنح فيه معبد « خنوم» الأراضى الواقعة على جانبى النيل من سهيل إلى جـــزيرة تاكومبسو (قرب دكة فى النوبة) أو — بعبارة أخرى —مرحلة طولها بين ٨٠ ، ٩٠ ميلا إلى جانبى النهر

ويقدم كهنة « ايزة »فى فيله نصا آخر يقررون فيه أن الملك «زوسر» منحهم نفس البقعة . وليس يهمنا أى الفريقين صادق وأيهما الكذوب .. ولكننا نخلص من الأمر كله باشارة إلى امتداد الحكم المصرى إلى بلاد النوبة فى هذه الفترة وإلى أن ذكرى هذا الملك ظلت أكثر من ثلاثين قرنا حية فى أذهان المصريين يذكرونه بالخير ويتنافسون على هباته ورعايته لمعابد الآلهة .

ولو ضربنا صفحا عن أعمال « زوسر » الحربية لوجدناه يشتهر فى التاريخ

بناحية أخرى لها قيمتها : فمن المعروف عن عهده أنه يمتاز بتقدم كبير فى جميع مظاهر الحياة وأخصها البناء مما يجعل مدة حكمه بحق فاتحة عهد جديد فى تاريخ مصر . ولقد عثر على اسمه واسم أمه وأسماء كثيرين من موظفيه على أختام من الطين غطيت بها أوانى النبيذ وغيرها فى مقبرة كبيرة فى بيت خلاف شمال أبيدوس نسب بناؤها إليه وجعل لها فتحة بأحد أطرافها تتصل بسرداب يمتد فى الأرض الرملية أسفل بناء المصطبة وينتهى بطريق منحدر يتصل بعدة حجرات . وقد سد السرداب فى خمسة مواضع بأبواب حجرية ضخمة ويرجح أن هذه المقبرة لم يدفن بها « زوسر » وهى إن لم تكن خاصة به فانها تخص على الأقل أحد الموظفين فى عهده وإلا فهى إلى جانب المسطبة المجاورة التى تحمل اسم « زانخت » مقبرة رمزية .

ول « زوسر » هرم اشتهر فى التاريخ باسم « الهرم المدرج » اختير له مكان فى الصحراء خلف منف ، شيدت به مصطبة حجرية على نمط مصطبة بيت خلاف ارتفاعها ٣٥ قدما وعرضها ٢٣٧ قدما وطولها من الشمال إلى الجنوب أكثر من ذلك . ثم ضخم حجمها بمرور الزمن فكبرت القاعدة وزاد ارتفاعها ببناء خمس مصاطب بعضها فوق بعض كل منها أصغر حجما من التى تحتها فنجم عن ذلك مبنى مدرج يكاد يبلغ ١٩٥ قدما ارتفاعا (حوالى ٦٠ متراً) ومساحته ٣٩٦ × ٣٥٢ قدماً مربعا وهو مرحلة بين المصطبة والهرم بشكله المعروف لدينا . وقد أقيمت حوله مبانى حجرية تمثل معبد اليوبيل « حب سد » ومنزلى الشمال والجنوب بالقرب من الركن الشمالى الشرقى للهرم شمال معبد اليوبيل ، ثم مقبرة الجنوب فى حشو السور الجنوبى من الناحية الغربية ، ويدور حول الجميع سور طوله ٥٤٤ متراً وعرضه ٢٧٠ متراً ، ويعد هذا المبنى أقدم وأضخم بناء حجرى كامل فى عصره والعصور السابقة له فى مصر .

ومما هو جدير بالملاحظة فى هذه المناسبة أن الشىء لا يبلغ عادة مرتبة الكمال فى مرحلته الأولى ولكن هذا المبنى ليست به أخطاء . وقد اتخذ فيه طراز الخشب ولكن من الحجر فأعمدته تمثل حزمة من الأخشاب المغطاة بالطين، وعلى هذا فالطراز قديم ولكن الجديد فى الأمر هو المادة .

ومدخل هرم «زوسر» يقع إلى الجنوب الشرقى. ويؤدى إلى بهو أعمدة من الحجر الجيرى عدتها ٤٠ عمودا ، وطراز البناء شبيه بالطراز الاغريقى بأعمدته الدورية والبروتودورية . وقد عثر فى دهاليز الهـــرم على أوان من المرمر والديوريت والجرانيت والحجر الأرقط والأردواز وغيرها من المواد وعددها ٣٠٫٠٠٠ من الأوانى والجرار والصحون وغيرها، معظمها مهشم . ولسنا ندرى إن كان التهشيم قد نالها عمدا لطقوس جنزية خاصة أو هو قد نالها من الزمن وأحداثه .

وقد اشتهر «زوسر» بأنه رجل علم وبناء ومحب للآداب . وذكر «مانيتو» أن «توزورترض حكم مدى ٢٩ عاما وأن المصريين يسمونه اسكليبوس بالنسبة لمعرفته الطبية . وقد بنى بيتا نحته من الحجر وكان راعيا للكتابة » أما الناحية الطبية فى حياة «زوسر» فنحن لانعرفها ، ومن العجيب أن نلتقى من وقت لآخر بنبأ يشير إلى تقدم فى العلوم الطبية لدى بعض الفراعنة أمثال «جر» و «زوسر» وهى ليست من بنات الخيال بل لابد أن لها أساسا من الحقيقة لانزال نجهله بسبب قصور معلوماتنا ... والأمر فى رعايته للآداب وحبه لها لانكاد نجد مايشير إليه ويؤكده كذلك .

ولسنا ندرى أيرجع الفضل فى أمور كثيرة للملك زوسر أم لرجل آخر وجد الملك فيه أكبر العون وهو المهندس «إيمحوتب» مستشاره ومعماريه الذى بزت شهرته شهرة مولاه ... لقد عبد المصريون فى العصور المتاخرة

« زوسر » ولكنهم ألهوا مستشاره ... ولقد ظلت شهرة هذا الرجل تنتشر على مر القرون كمهندس عظيم وكرجل هام من رجال الدولة حتى لنرى أقواله فى عهد الدولة الوسطى يتناقلها الناس فى أغانيهم مترنمين بها كأروع نماذج الحكمة ... لقد أصبح فى ذلك الوقت رمزا للحكمة والفلسفة والطب ... كان حاميا للكتاب حتى كان الكاتب لا يبدأ عمله إلا بعد أن يقدم السكائب له، وقد بنى له معبد لتكريمه بالقرب من السرابيوم فى سقارة قريبا من المبنى الذى شاده لمولاه . ثم تمت فى نهاية الأمر عملية تحويل الرجل إلى إله حين دخل هو فى العقيدة المنفية كابن الإله بتاح من زوجة من البشر . وأشهر تماثيله الشائعة تمثله جالسا على عرشه يفتح ملفا من البردى على ركبتيه . وحين أراد كهنة إدفو بعد ثلاثين قرنا أن يقدموا وصفا لمعبدهم الضخم سجلوا أنه من إنتاج تفكير « الوحى » الذى حل بـ « إيمحوتب » من السماء فى « منف » فى أيام « زوسر » ... وأما اليونان فتواترت إليهم هذه الروايات جميعاً وأطلقوا عليه اسم « ايموتس » وألهوه وقرنوه — كمولاه — بـ « اسكلبيوس » كإله يحمى العلوم ويرعاها .

ويهرم سقاره تمثال المهندس المعارى الذى شاده ويقال إنه هو « ايمحوتب » الذى عثر له على قاعدة تمثال بسقاره . ولدينا ما يثبت قيام قلعـــة فى الشمال على الحدود عرفت باسمه وهى بوابة « ايمحتب » . وقد كان « ايمحتب » ابنا لمشرف على الأعمال البنائية يدعى « كانفر » وقد عثر على أسماء أفراد اسرته فى بعض نقوش وادى الحمامات الذين ظلوا خمسة وعشرين جيلا يتوارثون هذه المهنة .

٣ — سخم خى Sekhem Khe

فى عام ١٩٥١ تجدد الاهتمام بمنطقه سقارة أثر كشف قام به المرحوم زكريا غنيم كبير مفتشى المنطقة إذ وفق لرفع الرمال عن مصطبة لم تكتمل يحيط بها سور لم يتم العمل به تشبه فى طرازها مصطبة الهرم المدرج مما دعا الى القول بأنها من نفس العصر ، أو هى من عصر لاحق مباشرة لعصر بناء زوسر للهرم المدرج وأنه لم يتح لصاحبها أن يكملها لسبب أو لآخر ... وقد لوحظ عند رفع الرمال عنها وجود مئات المقابر فوق أكوام الرمال المحيطة بها والتى تغطيها مما قد يشير إلى تقديس صاحبها ... وقد عثر بها على عشرات الغرف والممرات المليئة بالأوانى المشابهة للأوانى التى عثر عليها فى ممرات وسراديب هرم سقاره ، وعثر كذلك على أغطية من الطين تحمل اسم حور « سخم خى » ، ويقترح « هيس » Hayes أن ذلك هو نفس الاسم الذى سبق ظهوره على صخور وادى مغاره والذى كان ينسب خطأ ، نتيجة قراءة غير صحيحة ، إلى الملك « سمپسس » من ملوك الأسرة الأولى ... وقد أصبح من المؤكد الآن أنه واحد من عدة نقوش ترجع إلى عهد الأسرة الثالثة سجلت بها أسماء بعض فراعين تلك الأسرة الذين أوفدوا بعثات إلى شبه جزيرة سينا لاستحضار الفيروز ومن بينهم « زوسر » و « زانخت » ...

ومن المؤسف حقا أن التابوت المرمرى الذى عثر عليه فى صحن المسطبة وجد فارغا ، خاليا من معالم الدفن ، رغم أحكام إغلاقه ... وقد اقترح البعض أن هذه مقبرة رمزية ... ولكن المقابر الرمزية لامكان لها هنا ، بل مكانها فى أبيدوس ، ولذا فالرأى عندى أن المقبرة أعيد استخدامها فى عصر متأخر وأن أحد البارزين ارتأى أن يتخذ من هذا الصحن مقرا أخيرا له

جهز به تابوتا لم يتح له أن يدفن به . . . وبقى بعد ذلك أمر صاحب المقبرة . . . التى لم يتم كشفها بعد — لوفاة مكتشفها — والتى نرجو أن يوفق الباحثون لدراستها والبحث عن موضع غرفة الدفن واستخراج محتوياتها

٣ — زانخت Za - Nekht

يزعم البعض أنه خلف « زوسر » ويحتمل أن اسمه الذنبى هو « نب كا » (نبكه) وقد خلد اسمه فوق صخور وادى مغارة كما سلفت الاشارة ، وقد ابتنى لنفسه مقبرة فى بيت خلاف وهى تشبه من نواحى كثيرة المقبرة التى تحدثنا عنها من قبل والتى ينسبها بعض المؤرخين إلى « زوسر » ولسنا نعرف سبباً من الأسباب التى دفعته إلى الانتقال إلى الجنوب . ويرى دريوتون أنها معضلة لاتكاد تحل : ولسنا نستطيع أن نتجاهل ماجاء ببردية تورين وبجدول أبيدوس وهما معا يضعانه فى أول الأسرة سابقا لـ « زوسر » فاذا كان ذلك كذلك فان هذا يحل المشكلة من هذه الناحية ويكون هذا الملك قد بنى مقبرة فى بيت خلاف ويكون « زوسر » خليفته قد بنى لنفسه مقبرة فى نفس المكان ، ولكنه عدل عن ذلك مفضلا أن يستقر فى مكان متوسط هو منف : وأما إذا كان الأمر غير ذلك وكان هو ثانى الملوك أوثالثهم فانه اضطر إلى العودة إلى الجنوب أمام ضغط الجنوبيين ترضية لهم وابتنى لنفسه مقبرة هناك بجوار مقبرة سلفه ، إن كانت لسلفه حقا ، وإن كان زوسر سلفا له كما يؤكد بعض المؤرخين ، وكما تشير بعض القرائن والمصادر . ولقب « زانخت » فى مقبرته هو (سيد الأرضين) وهو لقب يتردد باستمرار من بعده عند الفراعنة جميعاً ، ويشير عدم إتمامه لمقبرته إلى قصر مدة حكمه .

٤ — نفركا Noferka ، ٥ — خع با Khaa - Ba

كشف « بارزانتى » Barsanti عام ١٩٠٠ عن هرم بزاوية العريان بين الجيزة وأبى صير يعرف باسم Layer pyramid أى الهرم ذى الطبقات ينسب إلى « خع با » ، كما عثر على ما يشير إلى محاولة لبناء هرم لم تتم منها سوى الخطوات الأولى وهى الجزء السفلى المنحوت تحت الأرض وبه تجويف يؤدى من أسفله إلى غطاء تابوت دقيق الصنع وينسب إلى « نفرتا » ، ويرى « فيى » أن هناك تشابها بين هذا الهرم وبين مصطبتى بيت خلاف محاولا أن يرى فى « نفركا » شخصية « زانخت » وأن يجعل من الاسمين شخصا واحدا : والواقع أنه ليس هناك ما يثبت ذلك وربما كان « نفركا » هو « نفركارع » الذى تضعه قائمة أبيدوس قبل حونى مباشرة، والهرم المذكور مهدم وينسبه البعض الى فرعون آخر هو « خع با » عثر على اسمه على بعض الأوانى فى المنطقة المجاورة

ومع ذلك فانه يقال إن مدة حكمه لم تتجاوز الستة شهور بل إن موضعه فى الأسرة مشكوك فيه

٦ — حو أو حونى Hu, Huni

ومعنى اسمه (الضارب) وبه تنتهى الأسرة فى الغالب كما قدمنا من قبل وينسب إليه هرم دهشور ، وهو هرم ينفرد بشكل خاص يشبه المصطبة إلى منتصف ارتفاعه ثم يعلوها ما يشبه الهرم وهو مستطيل القاعدة لامربعها : والهرم بهذه الصورة يمكن اعتباره مرحلة انتقال بين الهرم المدرج والهرم الكامل . وتروى بردية من الدولة الوسطى هى برديه (بريس) أنه السلف المباشر للملك « سنوفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة . ويرى البعض أن « حو »

هو « نفر كارع » وأنه ترك نصباً في سيناء وأنه صاحب مصطبة بيت خلاف...
كما ينسب إليه البعض (هرال) هرم زاوية العريان الناقص وهو على ما أرى على
حق حين ينسب اليه آخر الأهرام التي يمكن وضعها في هذه المجموعة وهو هرم
ميدوم الذي يبدو أنه بدأ بناءه ولم يقدر له إتمامه . والهرم يقع على بعد
بضعة أميال من جنوب سقاره ليس بعيدا عن مدخل الفيوم ، وقد سقطت
أحجاره الخارجية وبقى منه ما يشبه البرج بجوانبه المائلة . وتشير كتابة
على معبده الصغير عند قاعدته أنه ظن في الأسرة الثامنة عشرة أن صاحبه
هو سنفرو ، والواقع أنه يبدو أن سنوفرو أكمل البناء ومن ثم فانه نسب إليه
خطأ ، ومن الآثار الأدبية التي تنسب إلى عصره « حو » من عمل وزير له « نصائح
كاجمنى » التي يرجع النص الذي لدينا منها إلى عهد الدولة الوسطى . ويقال إن « كاجمنى »
كان وزيرا لكل من « حو » ، « سنفرو » ، والأمر موضع شك على كل حال
فن الثابت أن وزيرا يحمل هذا الاسم وجد في عصر لاحق لهذا العصر . ومن
التعاليم التي وردت في هذه المجموعة « لا تزه بقوة عضلاتك فضربة الله أقوى
من ضربتك » وكلها تعاليم سرت مسرى الأمثال في العصور التالية . والغالب أن
« كاجمنى » كان وزيرا أميرا ينتسب للأسرة المالكة ، كما تشير إلى ذلك هذه
التعاليم .

الأسرة الرابعة

٢٧٢٣ ق. م. — ٢٥٦٣ ق. م.

تكاد تتفق القوائم ومانيتو والآثار المعاصرة على بعض أسماء ملوك هذه الأسرة فمانيتو يذكر أسماء ثمانية من الملوك حكموا ٢٧٧ سنة ويبدأ مانيتو الأسرة بملك يدعى «سوريس» هو «سنوفرو» فى أغلب الأمر ويشار إليه كخليفة مباشر لـ «حونى». وتقدم بردية تورين أسماء تسعة ملوك (سقطت من بينها أسماء ثلاثة منهم خع اف رع ومنكاو رع) وأما جدول أبيدرس فيقدم ستة أسماء، وأما قائمة سقارة فتقدم أسماء تسعة ملوك لم يبق محفوظا منها غير أربعة، وأما الآثار المعاصرة فلا تقدم سوى ستة أسماء هى:

١ — سنفرو

٢ — خوفو

٣ — رع جدف «ددف رع»

٤ — خع اف رع

٥ — من كاو رع

٦ — شبسس كاف

وأما ترتيب الملوك بهذه الصورة فوضع جدول كذلك فى بعض أجزائه فأما سنفرو كمؤسس للأسرة وأما شبسس كاف كملك تنتهى به الأسرة فيكاد الإجماع يكون تاما على ذلك. وكذا يكاد الإجماع يكون تاما على أن

خوفو خلف سنفرو فلم يبق بعد ذلك سوى الثلاثة الآخرين رع چدف وخع اف رع ومنكاو رع . والقوائم مجمعة على ترتيبهم على هذه الصورة ولكن الوثيقة الوحيدة المعاصرة لاتذكر رع چدف (وهى الوثيقة الخاصة بمريت ات اس) ... وربما كان لهذا سببه الذى سنتعرض له فيما بعد بالشرح. ولقد أغفل أمره قدامى المؤرخين وأما محدثوهم مثل «ماسپرو» و «ماير» و «موريه» فيضعونه قبل خع اف رع ، وأما حجر پالرمو ففيه فراغ قبله وبعده مما يضعه بين خع اف رع ومنكاو رع اللذين سقط اسماهما من الحجر.

ويرى دريوتون «أنه يبدو من ضآلة المناق . . . ونحن لانعتمد إلا على قوائم متأخرة كثيرة جدا أن ندخل فى المجموعة الوثيقـــة التماسك مجموعة بناة أهرام الجيزة الثلاثة العظمى ، ملكا آثاره الجزئية فى أبى رواش خارج الهضبة الشهيرة ولم تذكره الوثيقة المعاصرة الوحيدة التى تقدم بيانا دقيقا عن تتابع الأوائل من ملوك الأسرة ، ولهذا وضعنا رع چدف بعد منكاورع ولانقصد بهذا الرأى أن نؤكد أن هذا الوضع نهائى ومقطوع به وعلى كل حال إذا كان لابد من تأخير موضعه فالأولى أن يوضع بين خع اف رع ومنكاورع لا بين خوفو وخع اف رع».

وهكذا لايجزم دريوتون بأن موضعه بعد منكاورع بل يرجح أنه بين خع اف رع ومنكاورع وهو لايقدم دليلا واحدا يستند إليه فى ذلك سوى فقدان اسمين من حجر پالرمو ... ولكن حجر پالرمو لم يثبت حتى الآن أن قطع القاهرة تكمله وأنها من نفس اللوح كما قدمنا من قبل وربما كان الاعتماد على هذه الناحية مضللا ، ولهذا فنحن نرى رأيا آخر مؤداه أنه كانت لـ «خوفو» إبنة هى «حتپ حرس» وهى «حتپ حرس» أخرى غير أمه

ويظهر أنها تزوجت من رع چدف ابن خوفو كما يغلب على الظن أنها من دم أجنبي فشعرها فاتح وزيها أجنبي ... ولما كان المصريون لا يعترفون بملك به دم أجنبي ، لهذا لم يستمر حكمه أكثر من ثمان سنوات انتزع منه الملك بعدها أخوه خع اف رع وكانت زوجته من دم ملكي خالص ... ولم يبن هرمه فى أبى رواش كما فعل رع چدف بل بناه إلى جوار هرم أبيه خوفو ليثبت أنه ابنه ومن دم ملكي خالص . . . وهذا الرأى ، وإن اعتمد فى معظم أركانه على الحدس ، إلا أنه يتفق على كل حال مع آراء بعض المؤرخين مثل ماسپرو وماير وموريه كما يتفق مع بعض القوائم ، ولعل إغفال الوثيقة المعاصرة الوحيدة له يقوم حجة تدعم هذا الرأى ولا تنهض دليلا ضده فإنها تخص « مرت ايت اس » ذات الحظوة عند خوفو وخع اف رع والموقرة فى عهد منكاورع ، وهى الوثيقة التى قدمها « زيته » ، وإغفال رع چدف فيها يدل على عدم شرعيته للعرش من وجهة نظر معينة وهى وجهة النظر التى تسجل شرعية خع اف رع ثم منكاورع . وقد سجل الكشف عن السفينة التى عثر عليها أخيرا جنوب هرم خوفو اسم رع چدف على بعض كتل الأحجار وحددت إحداها العام الحادى عشر مما يشير إلى أنه خلف خوفو المباشر وخاصة وقد تردد الاسم أكثر من مرة ولم يرد اسم آخر غيره .

وتشير مقابر الجبانة الشرقية فى منطقة الأهرام إلى مراحل من ذلك الصراع الذى شجر فى أعقاب حكم خوفو بين أولاده بما تسجله من محو وإثبات للاسماء وتشويه للصور ...

كان من بين زوجات خوفو « حتپ حرس الثانية » ويبدو - كما يشير « ريزنر » إلى ذلك من دراسة شعرها الأشقر وعيونها الزرقاء - أنه تختلط بدمائها

دماء أجنبية ، أو هي من الليبيين وربما من شعبة منهم مهاجـــرة من الشمال ... وكان لزوجة خوفو هذه ابنة هي « مرس عنخ » زوجت من أخيها ولي العهد « كا — وعب » ، قتله أخوه «رع جد ف» — وهو ابن من زوجة ثانوية — وتزوج من زوجته « مرس عنخ » ولكن لم يرزق منها بنسل ... ثم يختفي عن العرش بعد ثمان سنوات — على رأى جمهرة المؤرخين — ويأخذ العرش عنه « خع اف رع » .

ويشير « جاردنر » إلى أن هناك كذلك حكمين لملكين يفصلان كذلك بين « خع اف رع » و « منكاورع » ، وذلك أن نحن قبلنا مدة حكم قدرها ١٨ سنة (أو ٢٨ ؟) للأخير . . . كما تشير إلى ذلك بردية تورين . . .

ولعل إغفال هذه الأسماء من قوائم الملوك يرجع إلى عدم الاعتراف بشرعيتهم .

وقد عثر منذ عشر سنوات في وادي الحمامات على نقش به بعض أسماء ملوك الأسرة الرابعة رتبـــوا داخل خانات ملكية على الوجه الآتي :

خوفو ، رع جدف ، خع اف رع ، حور جدف ، با اف رع ...

أما « حور جدف » فله مقبرة بالجيزة ، ولدينا من أبناء خوفو كذلك واحد هو « با اف خنوم » ، وآخر هو « با اف حور » ، وثالث ورد اسمه ببردية وستكار هو « باو اف رع » مكانه في القصة بين خع اف رع و « حور جدف » ، وقـــد يكون « باو اف رع » هو « با اف حور » أو

أو « با اف خنوم » ... والأمر على هذه الصورة أو غـــيرها لايغير من الواقع شيئا ... فهؤلاء جميعا ، ولو أن بعضهم أشير إليه بأنه وصل إلى العرش ووضع اسمه فى خانة ملـكية إلا أن جمهرة المؤرخين لايعترف بهم كلوك ... بل أن « رع جدف » نفسه لاينال من الاعتراف نصيبه وسط هذه المجموعة المتماسكة من أصحاب الأهرام الثلاثة المشهورة : خوفو وخع اف رع ومنكاورع .

١ — سنفرو نب ماعة Snofrou-Neb-Maae

هناك سؤال يتردد كثيرا وهو : لم يفضل بعض المؤرخين أن يبدأوا الأسرة الرابعة بسنفرو ؟ الواقع أن عهد سنفرو يبدأ عهدا جديدا فى تاريخ مصر فى الدولة القديمة . فابتداء من عهده نجد مقر الحكم فى الشمال ولا نرى أهراما فى الجنوب ... والجواب على السؤال المذكور هو أن تركيز الحكومة أولا ومكان الدفن فى الشمال ثانيا يبدآن من عهده ... وأما النقطة الأخرى فهى أنه كان ملكا ... ولـكن ليس من الأسرة الثالثة .

وقد عثر « ريزنر » عام ١٩٢٥ فى شرق منطقة الأهرام بالجيزة على مقبرة للملكة « حتپ حرس » أم الملك خوفو ، وليست هذه المقبرة مصطبة وإنما حفرة عمقها ثلاثون مترا وبها أبنية من فوقها وقد عثر بها على أدوات منها محفتها وسريرها وعدد من الحلى ، وهى محفوظة بالمتحف المصرى . ويرى « بوتنكر » أنها دفنت أولا فى دهشور ثم دخل اللصوص إلى مقبرتها الأولى ونهبوا محتوياتها وسرقوا الجثة لأخذ ما عليها وخشى أولو الأمر أن يبلغوا الملك

ذلك فأنبـأوه كذبا أن الجثة سليمة فأمر الملك بنقلها . وهكذا تم نقل التابوت وظل هناك مع الأثاث الجنزى حتى وقت الكشف عنه .

وتلقب « حتبه حرس » بابنة الإله ... أى أنها ابنة حقيقية لملك من الدم الملكى النقى . وهى ابنة آخر ملوك الأسرة الثالثة وهو الملك «حو» المسمى خطأ «حونى» وقد تزوج منها سنوفرو على ما يظهر وأصبح ملكا عن طريق زواجه منها بعد وفاة أبيها .

وقد جعل سنوفرو مقر حكمه فى أول الأمر فى ميدوم بالقرب من مدخل الفيوم حيث بنى على حافة الصحراء مقبرة على شكل هرم له قاعدة مربعة طول ضلعها ١٨٨٫٦ مترا وارتفاعه ١٠١ مترا وجعل فى شرقه معبدا صغيرا. وقد كشف الأستاذ الدكتور فخرى فى عام ١٩٥١ عن مدخل آخر له من ناحية الغرب وبذا يصبح هذا الهرم الهرم الوحيد ذا المدخلين . والهرم يبدو هرما كاملا قائما فوق هرم ناقص ، وقد تغيرت زاوية بنائه على ارتفاع ٤٨ مترا من ٥٤° إلى ٤٣° تقريبا وربما كان مدعاة ذلك الخوف من أن يصل الهرم إلى ارتفاع يهدد بانهياره ، وتعد هذه هى المحاولة الأولى لبناء هرم . وقد بنى على حافة الوادى معبدا يتصل بالمعبد الأول بطريق صاعد معبد يقوم على جانبيه حائطان طويلان وقد كشف فى معبد الهرم المنحنى عن نقوش بالغة الأهمية تمثل نساء يحملن القرابين ويجسدن الضياع الجنزية لسنوفرو فى مقاطعات الصعيد ، أما مقاطعات الشمال فشوهة أو ضائعة. ومع ذلك فهذا الكشف يعد أثرا فريدا ينبىء عن التنظيم الادارى الرائع الذى ظل متبعا حتى العصر اليونانى الرومانى . غير أن «سنوفرو» مالبث أن قام ببناء هرم آخر بالقرب من دهشور جنوبى سقارة بقليل على بعد كيلو مترين إلى شمال الهرم السابق بزاوية ميل تعدل زاوية ميل الهرم العلوى للهرم السابق ، وارتفاعه ٩٩

مترا ويعد أول هرم كامل حقيق، وطول قاعدته ٢٢٠ مترا. ويرى الأستاذ فخرى أن «سنوفرو» دفن فى الهرم الجنوبى. وقد التفت مقابر الأمراء حول هرم ميدوم ومن بينهم مقبرة ابنه «رع حوتب» وزوجه الأميرة«نوفرة» صاحبى التمثالين المشهورين .وكذا مقبرة «نوفر ماعه»[1] وزوجه «اتت» وهى نماذج فنية رائعة لذلك العصر.

ومن المستطاع بفضل حجر بالرمو الذى سجل أحداث ستة أعوام من حكمه البالغ أربعة وعشرين عاما أن نقدم بعض التفاصيل عن حكمه فلقد كان جم النشاط ويقال إنه أرسل حملة إلى بلاد النوبة عاد منها بغنائم طائلة وأسر ٧٠٠٠ أسير وأخذ ٢٠٠,٠٠٠ رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة ونحن لاندرى لم أرسل هذه الحملة، أليخضع ثورة قامت هناك فى المنطقة التى استولى عليها «زوسر» من قبل أو أنه أراد أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه زوسر. ونحن نعلم كذلك أنه قام بحملة ليبية جلب منها ١١٠٠٠ أسير، ١٣١٠٠ رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة. وقد حفظت لنا نقوش وادى مغارة ثلاثة نقوش تسجل حملاته فى سيناء وانتصاره على بدو الصحراء، ويظهر ان اسمه ظل مرهوب الجانب حتى الدولة الوسطى حين كان يعرف كحامى هذه المنطقة بل هو يعتبر واحدا من آلهتها مع سوبد وحتحور فى ذلك العهد، من المرجح أنه مؤسس معبد حتحور فى سرابة الخادم فى شمال سيناء، ولدينا مايثبت أنه أرسل بعثة أحضرت أربعين مركبا محملة بالأخشاب من لبنان لصنع المراكب الكبيرة وأبواب القصر الملكى، ويذكر

---

(١) كان الأمير «نفر ماعة» ثمرة زواج سنفرو من ابنته «نفرة كاو» وهو أمر نلقاه لأول مرة فى تاريخ مصر الفرعونية وان كانت له نظائر فيما بعد.

حجر بالرمو فى كل سنة من الحكم بناء المعابد والقلاع والمنازل (ولعل هذا كان سبب إحضار خشب الأرز) كما قام بصناعة تماثيل من الذهب والمرمر .

وقد عاش « ايمتى » فى عهد زوسر ومات فى عهد سنوفرو ، وحياته المسجلة على مقبرته المحفوظة فى برلين أول سجل حتى الآن لحياة الموظف المصرى القديم الذى تدرج فى وظائف الدولة والذى تمتع بهبات الملك من أرض وعقار .

وكان الحكام الذين يعينهم سنوفرو على رأس المقاطعات يمنحون لقب «الأول بعد الملك » وفى هذا من الدلالة ما يكفى لأن يبين أن هؤلاء الحكام كانوا تحت نفوذ الملك المباشر ، وتحت إمرتهم عدد من الموظفين يقومون بشئون المقاطعة المالية والقضائية والادراية .

٢ — خنم خوفو Khnum Khufu

يذكر « برستد » أن خوفو ليس منفى الأصل بل من بنى حسن مقر عبادة خنوم الخالق، ويرجع ذلك إلى أن المصريين سموا هذه الناحية باسم «منعت خوفو» أى مرضعة خوفو ، هذا علاوة على اسمه الآخر « خنم خوفو » . وهناك عدة افتراضات قد يكون أحدها صحيحا منها أنه ربما كانت « منعت خوفو » مسقطا لرأسه أو أن تكون مرضعة خوفو من بنى حسن ، فان صح ذلك فان ماقرره « مانيتو » من أن أصله من بنى حسن صحيح. وتحدد بردية تورين مدة حكمه بـ ٢٣ سنة بينما يشير مانيتو إلى أنها بلغت ٦٣ سنة وهو تقدير مبالغ فيه شأنه فى ذلك شأن تقديره لحكم « خع اف رع» بـ ٦٦ سنة

وخوفو هو ابن سنفرو من حتبه حرس ابنة حو .

ولم تكن حتبه حرس الزوجة الوحيدة لـ « سنفرو » بل كانت له زوجة أخرى هى « مرت إيت إس » وهى لم تكن الملكة الشرعية . وهناك نص

معاصر أشرنا إليه من قبل عند الكلام فى مقدمة هذه الأسرة ، ويذكر هذا النص أنها كانت تلقب بـ « كبيرة محظيات سنفرو وخوفو والموقرة لدى خع اف رع » .

وقد نقل خوفو مقر إقامته إلى الشمال فى منف بالقرب من الجيزة الحالية . واتخذها من بعده كل من خع اف رع ومنكاورع مقرا لها ، وبنى كل منها هرما بها على حافة الهضبة الغربية تحيط به مقابر أفراد الأسرة وكبار رجال الدولة ؛ ولذا أطلق العلماء على عهد الملوك الثلاثة عهد الجيزة أو عهد بناة الاهرام . وإن ما أقيم حولها من مقابر للأمراء كفيل بأن يعطينا فكرة واضحة عن حضارة ذلك العهد وهى تدل بوضوح على ازدهار الحضارة إذ ذاك وعلى أنها وليدة حكومة قوية مطلقة السلطة على رأسها ملوك ذوو شخصية عظيمة .

وقد وجدت على صخور وادى مغارة لوحتان تحملان اسم خوفو وصورته وهو يهوى بدبوسه (مقمعته) على رأس أحد رؤساء البدو مما يشير إلى بعض أعماله فى هذه المنطقة [1] كما أن هناك فى أنحاء متفرقة من مصر آثار أخرى تحمل اسمه ، فبالقرب من دسوق عثر على بعض أحجار تدل على ما قام به من أعمال بنائية هناك . وكذلك فى تل بسطة وفى محاجر المرمر المصرى فى حتنوب بالقرب من تل العمارنة ما يدل على استثمار لها فى عهده ، كما عثر له فى أبيدوس على تمثال صغير من العاج .

---

(1) يشير بيكى الى احساسه بالمرار من أن احدى اللوحات فى وادى مغارة قد تناولتها احدى شركات الانجليز التى تبحث عن الفيروز بالتهشيم ، وهو يرى أن قيمة اللوحة المهشمة تعدل بل وتفوق ثروات سينا كلها من الفيروز ... ولكنها عقلية المتبربرين المخربين الهمج التى لا تستطيع أن ترتفع الى هذا المستوى .

وقد أعطى المؤرخون فكرة خاطئة فيا كتبوه عن خوفو فذكر « هيرودوت » عنه أنه أمر باغلاق معابد الآلهة وأنه أعلن فى جميع أنحاء المملكة أنه ليس من حق المصريين أن يقدموا القرابين وأنه قصد من وراء ذلك أن يستخدمهم فى الأعمال الخاصة به . كما أضاف «هيرودوت» إلى ذلك أن المصريين كانوا يكرهون هذا الملك ويمقتون ذكر اسمه واسم خع اف رع ويضيف «ديودور» إلى ذلك أن منكاورع تحبب إلى الشعب وأنه استنكر قسوة أسلافه فخصص مبالغ طائلة للكهنة وعبادة الآلهة . كما يضيف « هيرودوت » أنه استهجن أعمال أبيه وفتح المعابد وسمح للناس الذين طحنهم البؤس أن يعودوا إلى أعمالهم القديمة . وليس « مانيتو » المؤرخ المصرى بأقل من اليونانيين فى هذه الناحية فلقد رمى خوفو بالعجرفة مع الآلهة .

ولقد قابل علماء الآثار هذه الاتهامات الشائنة بالكثير من الحذر وأرجعوها إلى اختراع الأدلاء والتراجمة . والواقع أن نفى هذه الاتهامات ليس بالبساطة التى نتصورها فقد ثبت أن ما أورده مانيتو نقله عن أسانيد قديمة لها قيمتها .

مما لا شك فيه أن خوفو حرم على الأفراد إقامة الأبواب الوهمية والتماثيل ونقش غرف القربان بالمناظر المختلفة رغبة منه فى أن تكون إقامة التماثيل وتقديم القرابين لها أمرا قاصرا على الآلهة والملوك — باعتبارهم آلهة — حتى لا تبتذل مخصصات الآلهة وما يعادلها ، ويظل البون شاسعا بين الملوك وأفراد الشعب بما يحفظ للملكية هيبتها ويصون مكانتها ... وقد نهج « خع اف رع » نهج « خوفو » وإن تساهل قليلا مع الأمراء الذين تربطهم بالأسرة المالكة صلة القرابة فسمح لهم باقامة التماثيل فى مقابرهم وسمح لآخرين باقامة رؤوس البديل حتى تؤدى لها الطقوس الدينية ... وتوسع من بعده « منكاو رع » فأباح إقامة تماثيل الأفراد

فى مقابرهم من جديد بل وكلف عماله وموظفيه أن يزودوا مقابر الأفراد باقامة التماثيل والأبواب الوهمية بها .

على ضوء هذه المعلومات يجب أن تنظر إلى الروايات المتأخرة التى جاءت عن كتاب اليونان وعن « مانيتو » . وربما كان ما كتبوه صدر عنهم بسبب ذلك التضييق الذى فرضه خوفو على الأمراء وعلى الشعب ، وربما كان ما اعتمد عليه « مانيتو » وغيره كتابا مختصرا لا يفصح عن حقيقة الأمر كما يشير إلى ما تم فى عهد « منكاورع » ، ما دفع المؤرخين القدامى إلى افتراض الفروض وتقديم النظريات التى لها أساس من الحقيقة ، ولكنها الحقيقة المبتسرة ، فأسىء فهم هدف النص الأول وأمعنوا فى خطئهم بعد أن حرف المعنى الأصلى . وليس من شك فى أن « خوفو » و « خع اف رع » لم يتعرضا لمعابد الآلهة بسوء ، ودليلنا على ذلك وجود جزء من رأس تمثال لخوفو فى معبد أبيدوس وتمثال لخع اف رع فى معبد منف . . . بل إن الذروة التى وصل إليها فن صناعة التماثيل فى عصريهما دليل ناهض على أن القوم لم يكونوا قساة بالصورة التى رسمها لهم الكتاب بل إن هذه الآثار تدل على روح تفان فى الابداع إن دلت على شىء فعلى ما يمكن أن تصل إليه القدرة البشرية من جلائل الأعمال . وليس من الممكن أن يكون شعبا مقهورا على أمره كارها لحكامه ذلك الشعب الذى يخرج أفراده هذا الفن الرفيع الذى يكاد يقرب حد الكمال .

بقيت مسألة أخيرة يحسن إيضاحها بهذه المناسبة وهى الوحشية التى قاساها المصريون فى بناء الأهرام ، وهى وحشية طالما ردد ذكرها المؤرخون فى مختلف العصور . والواقع أن الهرم كان يبنى فى وقت الفيضان حين لم يكن هناك عمل زراعى لدى الفلاحين لأن المياه كانت تغمر الأرض وكانت الأماكن التى يعيشون فيها تشبه الجزر وكان أجرهم إطعامهم وكساؤهم . . . وكان العمال

العاطلون يقطعون الأحجار من منطقة الهرم نفسها وأحجار الكسوة من طرة ويأخذون لقاء ذلك خبزهم وكساءهم ، وليس فى هذا لون من ألوان السخرة أو الاستعباد بل إن مصر هى إحدى البلاد التى لم تعرف السخرة والاستعباد قبل عهد الامبراطورية الوسطى حين كان الأسرى يدفعون إلى العمل فيستعبدون عن هذه الطريق .

وعلى ذلك فان الهرم الأكبر لم يبن عن طريق الاستعباد بل بطريقة منظمة إذ كان العمال يقسمون إلى فرق ثم إلى فصائل، وكانت كل فرقة تحمل اسما معينا وكان الكاتب يعين أسماء أفراد كل فرقة ويحصى عملها ويكتب التاريخ على الكومة التى أتمت الفرقة العمل فيها — وأحيانا اسم الملك — وكان مقدار العمل اليومى يتضح بمقارنة زيادته عن اليوم السابق . وكان هناك مفتشون يمرون يوميا أو أسبوعيا . وكانت أحجار الكسوة يؤتى بها على قوارب مسطحة إلى سطح الهضبة ثم تجر بعد ذلك فوق زحافات عبر الهضبة .

وقد بنى خوفو هرمه — وهو بناء هرمى تام أطلق عليه اسم « أفق خوفو » — فوق مساحة ١٢ فدانا ، وكان ارتفاعه وقت بنائه ١٤٦ مترا تهدم منها تسعة أمتار منذ بضعة قرون . وتواجه أضلاعه الجهات الأصلية تماما ، وعدة حجارته ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ تقريبا ، ومتوسط زنة الكتلة الواحدة طنان ونصف طن وحجرة الدفن من الجرانيت . ويذكر « هيرودوت » أن العمل استمر فى بنائه عشرين عاما وكان عدد العمال مائة الف رجل يحل محلهم غيرهم كل ثلاثة شهور وأن عمل المنحدر الذى مهد للبناء استغرق عشرة أعوام وأنه عمل لا يقل روعة عن بناء الهرم نفسه . وكان عصر بناء الهرم عصر سلام لم تحدث فيه حروب مما ساعد على إتمامه كما ساعد على إقامة أهرام زوجاته إلى شرقه . وقد بنى الهرم

على هضبة عالية حتى يشرف الملك على شئون رعاياه فى الحياة الأخرى ، وكذلك أمرائه الذين تقوم مقابرهم حول هرمه . لابد أن نشير إلى أن نفوذ الملك القوى وحده هو الذى مكنه من إتمام ذلك المشروع الضخم الذى يتطلب من غير شك نظاما واستقرارا لايتوافران إلا لمن ينفرد بالحكم دون مناورات أو مناوشات .

والأهرام تنفتح إلى الشمال وأمامها معابد من هذه الناحية . وإلى الشرق المعبد الجنزى ويتصل بمعبد الوادى عن طريق ممر طويل ضيق مسقوف لايجوز اختراقه عرضا إلا عن طريق أنفاق سفلية . وينقسم المعبد الجنزى عادة إلى قسمين : أحدهما يخصص للوجه القبلى والآخر للوجه البحرى ، وعلى جانبى المعبد يحفر شكل قاربين فى الصخر لرحلة الشمس لأن الملك يمثلها فى الحياة الأخرى . وأحد القاربين لرحلة النهار والآخر لرحلة الليل ولما كانت الشمس لاترى فى رحلة الليل ، كان قارب الليل مسقوفا دائما . وقد كشف أخيرا إلى جنوب الهرم عن سردابين رفعت الألواح الحجرية التى تغطى أحدهما وعددها ٤٢ فكشف عن سفينة كبيرة من الخشب لاتزال موضوع دراسة حتى الآن . وكان ذلك الكشف مما أثار لهفة المهتمين بالدراسات الأثرية وغيرهم فى أنحاء العالم . وقد اختلفت الاراء بشأن هذه السفينة ودلالتها والهدف من صنعها على هذه الصورة ، والأمر كما قدمت لايزال موضع درس وبحث. أما السرداب الثانى فلم ترفع بعد الألواح الحجرية التى تغطيه والتى يبلغ عددها كذلك ٤٢ لوحا

٣ — رع جدف Ra - Djedef

لسنا نعلم الكثير عنه سوى أنه اختار أبورواش مكانا لبناء هرم له

وقد ناقشنا من قبل مختلف آراء المؤرخين عنه ورجحنا أن مكانه فى الأسرة بعد «خوفو» وقبل «خع اف رع» . ومن المعروف أن «رمه» غطى جميعه من الخارج بألواح الجرانيت وهو ما لم يحدث بالنسبة لسلفه .. أما خلفه فقد حاول ذلك ولم يتمكن سوى من وضع (مدماك) واحد سفلى أو اثنين ،وأما ثالث بناة أهرام الجيزة فغطى ١٦ (مدماكا) بألواح الجرانيت .

٤ — خع اف رع Khaa - ef - Ra

لم تكن أمام خع اف رع أرض مستوية يقيم فوقها هرمه المسمى «عظيم هو خع اف رع» ، فمهد مساحة واسعة بنى فوقها الهرم ، ولذا فاننا نجد الآن أرضا ممهدة واسعة تدور حول الهرم إلى الشمال وإلى الغرب .

ولقد كان بناء الأهرام عامة عملا هندسيا رائعا ، وهو يهم المعمارى أكثر مما يهم المؤرخ ولكن ليس من شك أن القيام بمثل هذا العمل المنظم المعقد يستلزم نظاما ودقة بالغين . ولقد جلبت الأحجار التى استعملت فى بنـــاء الأهرام من أقرب المحاجر لها وكانت تقام حول النواة المركزية طبقات من البناء الواحدة فوق الأخرى تزداد عددا بازدياد مدة حكم الملك وبقائه على قيد الحياة . وكان يوضع الكساء الخارجى من الحجـــر الجيرى أو الجرانيت مبتدئا من القمة على الأرجح .

وكان كساء هرم «خع اف رع» يختلف اختلافا يسيرا عن كساء هـــرم «خوفو» فقد صنع فيه الطابقـــان السفليان من الكساء من الجرانيت كما أسلفنا .

ومما هو جدير بالذكر أن القـــبر الملكى فى هذه الفترة لم يكن يحوى الهرم وحده بل كان يتضمن جزءا عاما مفتوحا لعبادة الملك ويتكون من معبد جنزى

وهيكل تحفظ به التماثيل . وفى مجموعة هرم « زوسر » عثر على معبدين جنزيين للملك وقبرين لأميرتين وصحن كبير تحف به عيا كل للعبادة والاحتفالات بعيد « سد » ثم مخازن .

ولعل أكمل مجموعة معمارية عثر عليها هى المجموعة المحيطة بهرم خع اف رع ، وكان معبد الوادى ، ولا يزال ، قائما فى الوادى كما تظهر الآن بقايا المعبد الجنزى والطريق الموصلة بين المعبدين . وقد كشف بجوار المعبد الجنزى عن مراكب الشمس . وعثر بمعبد الوادى على ٢٣ تمثالا للملك (شكل ٢٨) ظهورها مستندة إلى الجدران . وكان يخترق واجهته المقترحة من الناحية الشرقية بابان كبيران على كل منها اسم الملك وممر يؤدى إلى بهو الاستقبال . ولا يزال السقف محمولا على أعمدة ضخمة مربعة كل منها منحوت من كتلة واحدة من الجرانيت والأرض مبلطة ببلاط كبير من المرمر . وفى الزاوية الشمالية الشرقية من الردهة يبدأ منحدر هادىء يصعد إلى المعبد الجنزى المكون من بهوين من ذوات الأعمدة وغرفتين أضيق منها ، كانت توضع بها التماثيل الجنزية .


(شكل ٢٨)

ولم يقم « خع اف رع » ببناء أهرام لزوجاته كما فعل « خوفو » مثلا من قبل وكما فعل « منكاو رع » من بعد . ويلاحـــظ كذلك أن مقابر أولاده وأمراء عصره ليست كاملة — وهو أمر كان الملك يحرص عادة على أدائه — وقد لوحظ أن اسمه لم يسجل بوادى مغارة ، وقد يرجع ذلك كله إلى أحد أمرين فهو إما أن

العمر لم يمتد به حتى يقوم بهذه الأمور جميعا أو أن قلاقل بدأت في آخر عهده فانصرف عن إتمام العائر إلى تهدئة النفوس ، ولعل هذا يفسر محاولة خلفه العودة بالأمور وحقوق الأمراء إلى ما كانت عليه قبل عهد أبيه وجده وإعادة منحهم ما سبق أن انتزع منهم من امتيازات .

وقد ترك خع اف رع أولادا كثيرين عدتهم ستة عشر فردا قبورهم منحوتة في الصخر إلى جنوب وإلى شرق الهرم أو إلى جانب الطريق بين المعبدين : المعبد الجنزى والمعبد الموجود بالوادى . وقد ذكر اسما اثنين منها فى أحد النصوص وهو عبارة عن وصية جاء فيها عن أحدهما أنه ليس به مرض وأنه يمشى على رجليه ... وهذا ما يعبر عنه رجال القانون بأهلية صاحب الوصية أى أنه متمالك لقواه فلا مجال للطعن فى الوصية .

ابو الهول

ليس أبو الهول عملا هندسيا إلا أنه يصعب الفصل بينه وبين الأهرام والأرجح أنه كانت توجد فى هذا الموضع من الهضبة صخرة ضخمة يذكر شكلها بشكل أسد رابض . ويقع هذا التمثال الضخم الذى يبلغ طوله ٤٦ مترا وارتفاعه ٢١ مترا إلى شمال الطريق الممتد بين المعبد الجنزى ومعبد الوادى للملك « خع أف رع » . وقد تناول الترميم هذه الصخرة فى مختلف العصور وخاصة فى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ومن أسمائه « شسب عنخ » التى حرفها اليونان إلى « سفنكس » ، ومعنى الكلمه باللغة المصرية « الصورة الحية » أو « التمثال الحى » ، وقد وجد بالمعبد الكائن إلى شماله (والذى يتبعه) عدد من التماثيل الدقيقة الصنع .

ولقد عجز رجال الآثار حتى اليوم عن معرفة تاريخ نحت هذا التمثال أو سر

إقامته فى هـــذه البقعة أو سهى ما يرمز إليه . ومن عجب ألا يشـــير إليه « هيرودوت » وألا يذكره من الكتاب الكلاسيكيين سوى « بلينى » ومن الثابت والواضح أنه نحتت فيه رأس بشرية هى رأس ملك كما يدل على ذلك غطاء الرأس الذى يزينه الصل . ولو أنه لا يوجد دليل حاسم ، إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن صاحب هذا الوجه هو خع اف رع وأنه يقصد بوضعه فى هذا المكان ـ وهو يحمل صورة الملك ـ أن يحمى مدخل المعبد ... وصورته توحى بعظمة متناهية فيها سحر وفيها خفاء وغموض وإبهام ، وفيها سخرية وتعال وسمو .

ولقد بلغ تقديس هذا الأثر حد العبادة . ولقد ازداد هذا التقديس فى الدولة الحديثة وامتد إلى عهد الرومان بدليل ما وجد حـــوله من لوحات تبين الاهتمام بشأنه ورفع الرمال التى كانت تغطيه . وكانت الأرض حوله فى عصر الدولة الحديثة مراحا للصيد والاستجمام لجأ إليها ملوك كثيرون أوقف بعضهم أرضا لكهنة هذا الذى نعتوه بأنه « حور أم اخت » (أى حور فى الأفق ـ وهو الملك بعد موته) وقد جاء فى أحد النصوص أن التمثال يمثل الاله « أتوم » . ويرى الأستاذ سليم حسن أن عهد « خع اف رع » يمكن اعتباره أول تاريخ ثابت فى عمره .

وربما جاءت تسمية هذا الاله من المقارنة بين اسم « حور ام اخت » وبين اسم إله للحيثيين الذين أقطعهم الملك « آى » ضيعة فى هـــذه البقعة وهو الاله « حورون » فأطلقوا عليه ـــ « برحول » أى بيت حول التى حورت فيما بعد إلى « أبو الهول » . وقد اشترك فى عبـــادته فى ذلك العصر وما تلاه المصريون والسوريون على السواء واعتبروه إلها للموتى وحارسا للجبانة ، وليس من شك فى أنه كان يمثل الشمس الغاربة أى آتوم وأنه كان فى نظر القوم حارسا للجبانة كما تدل

على ذلك الآثار المكتشفة فى السنين الأخيرة والتى تذكر أنه « الاله الذى يحرس الموتى والغرب وأنه مظهر الشمس عند غيابها فى الأفق الغربى » .

وقد ظلت عبادة « بو الهول » قائمة مزدهرة حتى بعد انهيار دولة الرعامسة وظل موضع التوقير فى العصر الباطمى ولم يمكن الرمل يغطيه بل تناولوه بالترميم إثر ما ناله من عوامل التعرية .

وكانت ساحته فى العهد الرومانى مزارا هاما ، وقد سجلت على كفيه نقوش تحمل أسماء بعض الزوار وتعليقاتهم ، ويرى الأستاذ فخرى أن فى ذلك امتهانا لقداسة المنطقة ومع ذلك فهو يلتمس العفو لصاحب هـــذه القصيدة التى نقشها أحدهم باليونانية على واحد من الأصابع :

شادت عرائس الشعر الأسوار !
أسوار طيبة !
ولكن الخطوب أودت بها
أما أسوارى فلا تخشى الحروب
انها لم تعرف الدمار والخراب
انها فى فرح دائم
تدعو الناس من كل البقاع
ليستمعوا الى الغناء وأصوات المزامير
لا الى طبول الحروب
ان الدم الذى يسيل على الارض
هو دم الأضاحى لا دم رقاب الرجال
زينتنا ملابس الأعياد الزاهية وليست
دروع الحرب
أيدينا لا تمسك بالسيوف الباترة
بل بكئوس الشراب المترعة
انا نغنى لهرماخيس طيلة الليل ،
والضحايا تحترق ، ونحن نزين رؤوسنا
با كاليل الزهور

هو ابن « خوع اف رع » ، وقد تزوج من اخته « خوع مرر نبتى » ابنة « خوع مرر نبتى » ، وقد خلف أباه على العرش وبنى لنفسه هرما إلى جانب هرمى أبيه وجده أسماه « إلهى هو من كاو رع » .

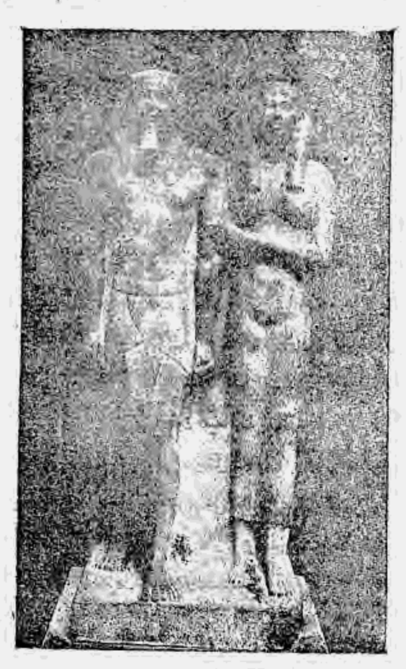
وكما كان هرم أبيه أصغر من هرم جده كان هرمه أصغر من هرم أبيه . وكما حاول أبوه أن يكسو طابقين بالجرانيت حاول هو أن يكسو هرمه بالجرانيت ورغم ذلك كانت تكاليفه أقل بالنسبة لصغر حجمه .

ويغلب على الظن أن « من كاو رع » أتم من مقابر الأسرة ما لم يتمه أبوه ، وكان هرمه عند الكشف عنه مغطى بالرمال فأمر بعض السلاطين بإزالته لأنه اعتبره منقصة دينية ولكن خليفته أوقف الهدم . ولم يعش منكاورع حتى يكمل بناء الهرم فأتمه خلفه شبسسكاف من مادة أرخص هى اللبن بعد أن كان قد كسا منه ١٦ طابقا بالجرانيت وقد أتم شبسسكاف كذلك معبد الوادى الملحق بالهرم.

وقد تعرض الهرم لسرقات اللصوص — شأن الكثير من الآثار — ولكن يظهر أن اللصوص لم يستطيعوا الاهتداء إلى حجرة الدفن الرئيسية لأن الجثة وجدت بها عام ١٨٢٧ ونقلها الانجليز ، ولكن السفينة التى كانت تحمل التابوت غرقت عند ساحل البرتغال فانتشلوا الجثة واحتفظوا بها بالمتحف البريطانى وما زال التابوت رابضا فى أعماق الماء حتى اليوم ، وقد عثر « ريزنر » فى هرمه على مجموعة فاخرة من التماثيل أروعها تمثال له ولزوجه من الأردواز بالحجم الطبيعى محفوظ اليوم بمتحف « بوستون » (شكل ٢١) . وهناك كذلك مجموعة من تماثيل

ثلاثية تمثله بين حتحور و«م بودات الأقاليم، وربما كان عددها ٤٢، ولكن لم يعثر سوى على أربعة فقط .

ويتضح من بعض نقوش المقابر أن « منكاورع » زار منطقة البناء فى الجبانة ليشاهد العمل وأمر بنقل خمسين عاملا ليعملوا فى مقبرة « دبحن » أحد موظفيه الذين أرسلهم لاحضار الأحجار . وكانت هذه لفتة ملكية كريمة استدعت أن يسجلها « دبحن » كما سجل إهداء البابين الوهميين وتمثال بالحجم الطبيعى وكتلتين



شكل ٢٩ (منكاورع وزوجته)

لواجهة المقبرة . وقد وجدت هذه الأشياء جميعا عند الكشف عن مقبرته .

٦ – شبسسكاف Shepseskaf

ورد اسمه على الناحية الخلفية من حجر پالرمو ومعه من الألقاب ما يدل على عبادته للآلهة كما يقول النص : « يتبع الملوك الموحدين الأرض » وقد زوج ابنته « خع ماعة » إلى أحد أفراد الشعب واسمه « پتاح شپسس » وقد ولد هذا الزوج في البلاط الملكي في عهد « منكاورع » وترعرع فيه في عهد شبسسكاف مع أبناء الملك وتقلد وظائف الدولة في عهد الملوك الذين أتوا بعد شبسسكاف ، والذين يذكر پتاح شپسس أسماءهم وهم أوسر كاف – ساحورع – نفر اير كارع – رع نفراف ثم ني أوسر رع . كما يذكر أن أحدهم وهـــو نفر اير كارع منحه شرف تقبيل قدمه بدلا من أن يقبل الأرض أمامه .

ولزواج پتاح شپسس من ابنة شبسسكاف دلالة كبيرة : فهي ابنة إله وفي زواجها من أحد أفراد الشعب خروج على التقاليد التي درجت عليهـــا الأسرة بسبب صلتها بالآلهة وألوهية ملوكها . ولكن يظهر أن الخروج على التقاليد كان صورة من نزعة خاصة لدى شبسسكاف ولعل هناك وراء ذلك ثورة ... لا على الأوضاع المرعية فحسب بل على الدين نفسه أو على سدنة الدين عـــلى الأقل ، فشبسسكاف دون أفراد الأسرة السابقين جميعا لا يبني لنفسه هرما بل مصطبة يعلوها ما يشبه التابوت في سقارة وهي ما يطلق عليها الآن اسم «مصطبة فرعون» وفي ذلك ما يمكن تفسيره بمحاولة الخروج على تقاليد عبادة الشمس وتمجيـــد الـ «كا» وهي الروح المادية أو الجسم الروحاني ، والعدول عن بناء هرم إلى بناء ما يشبه التابوت فيخلد الجسد ما دامت تتردد عليه .

ولنا أن نتساءل : أكان ما دعا شبسسكاف إلى ذلك ازدياد نفوذ كهنة رع

وخوفه من أثر ذلك على عرشه ؟ أكان هذا هو ما دعاه إلى الانتقال إلى سقارة حيث نفوذ بتاح فكان بذلك داعية لفكرة دينية تخــرج به عن سيطرة كهانة الشمس ؟ إن النصوص تقف جامدة ، ولكننا حيال الأسرة الخامسة سنرى تحولا جديدا نحو عبادة رع يجعل من بعض ملوكها أبناء مباشرين له بعد أن تخلى أولهم « أوسر كاف » عن حمل اسم « رع » كذلك .

٧ — خنت كاو اس Khent-kau-es

يلي اسم شبسسكاف عند مانيتو تحت رقم ٨ اسم ملك حكم مصر هو أمحوتب ورد اسمه كذلك فى محاجر وادى الحمامات ، وإن كان الاسم غير واضح فى بردية تورين وفى جدول سقارة ، وهو لا يوجد فى قائمة أبيدوس . ومدة الحكم عند مانيتو تسع سنوات وهوفى تورين وسقارة سنتان .

ويؤكد الأستاذ سليم حسن أن « خنت كاو اس » هى ابنة منكاورع لأن شبسسكاف مات ولم يترك خلفا من الذكور فقامت أخته تطالب بالعرش من بعده . ويظهر أنه كان هنـــاك منافسون تغلبت عليهم ، كما يظهر أنهـا تزوجت من أحد عظماء القوم الذين ليســوا من دم ملكى خالص وأنجبت أوسر كاف الذى كان حلقة الاتصال بين الأسرتين الرابعة والخامسة . ويعتقد « دريوتون » أن زوجها ترك لها سلطة واسعة لأنه كان زوجا للملكة ولم يكن ملكا . أما « يونكر » فيرى أنها تولت مقاليد الحكم وابنها لا يزال حدثا فــكانت أشبه بوصية عليه .

وقد كشف عن مقبرتها عام ١٩٣١ وهى ما أطلق عليها الأستاذ سليم حسن اسم الهرم الرابع . وهى ليست هرما بل هى من طراز قريب الشبه من طراز « مصطبة فرعون » التى ابتناها الملك السابق . وقاعدتها مربعة كقاعدة الهرم

وفوقها تابوت . والمقبرة تقع بالقرب من مقبرة أبيها . (١)أما معبدها الجنزى فنحوت فى الصخر ومغطى بالجرانيت وقد نقشت فوق جدرانه مناظر دينية . وقد غطيت حجرة الدفن بالجرانيت كذلك . وفى جوانبها سبع حجرات صغيرة ، وكان التابوت مصنوعا من المرمر . وليس من شك أن أمور الدولة قد استقامت لها — إن كانت قد حكمت فعلا كما هو مسجل على باب مقبرتها — حتى استطاعت أن تقيم هذا المبنى . والواقع أن العثور على مقبرتها هذه قد يفسر الكثير من القصص الدينى الذى ظل غامض المعنى مبهما دهرا طويلا ... ربما كان زوج « خنت كاو اس » كاهنا من أصحاب النفوذ ، زوجها منه أبوها حين لم يرزق بابن ملكى فكان زوجا للملكة ولم يكن ملكا وبهذه الصورة كان أولادها ملوكا ولكن ... لا ينتسبون انتسابا مباشرا للسلسلة المتصلة المحكمة الحلقات للأسرة الرابعة ... وربما كان الزوج الملكى من عين شمس من بين هيئة الكهانة — أو على رأس هيئة الكهنة — التى سعت جادة لاستعادة نفوذ المعبود « رع » بعد أن ضاق به شبسكاف لتزايد نفوذ كهنته فهجره وهجر مقر عبادته وود التخلص من كل ما يربطه به . فكان ذلك كله مما دعاها إلى إقامة مقبرتها إلى جوار أهرام أبيها وجدها وإن احتفظت بالطراز الجديد الذى استحدثه أخوها ...

ولكن .. إن كانت أختا لشبسكاف فلم لم تزوج منه ما دامت شرعيته للعرش قد سمحت له بأن يليه قبلها ؟

إن ورود اسم أحوتب على بعض الآثار وذكر مانيتو له وتحديد سنى حكمه

---

(١) سجل رسوم هذه المقبرة ليبسيوس قبل أن يزيح سليم حسن الرمال عنها بمائة عام إذ أنها لم تكن مغطاة بالرمال فى ذلك العهد

قد يشير إلى أحداث تمت فى ذلك العهد . . فربما كان أحوتب خلفا مباشرا لشبسكاف نهج نهج أبيه فى محاولة التخلص من نفوذ كهانة رع مما دفع الكهنة إلى التخلص منه بصورة ما ، ونصبوا على العرش واحدة من الأسرة المالكة هى فى الوقت نفسه زوجة كبيرهم — أو أحدهم — وهى ابنة ملكية تستطيع أن تورث أبناءها العرش فى أسرة جديدة ..

هذه كلها افتراضات قد تساعد على إلقاء ضوء على هذه المرحلة ولكن من العسير أمام الغموض الذى يحيط بنا أن نقدم صورة واضحة عن نهاية الأسرة الرابعة. تلك الأسرة التى تركت بمصر من الآثار ما قرن تاريخ مصر بها ... فحين يذكر اسم مصر الفرعونية يتردد على الذهن بناء الأهرام ونحت أبو الهول ... إن خوفو وخع اف رع قد استطاعا أن يفرضا اسميهما على مر العصور وأن يخلدا بفضل الأهرام الخالدة . .

الفصل السادس

الدولة القديمة

عصر الكهانة وبداية الاقطاع

الأسرتان الخامسة والسادسة

الأسرة الخامسة ـ الملوك : وسر كاف . ساحو رع . نفرإر كارع .
شبسكارع ، رع نفراف . نى وسر رع .
من كاو حور . جد كا رع ازوزى ، وناس .
متون الأهرام . الحكومة فى عهد الأسرة .
بين الأسرتين الخامسة والسادسة .

الأسرة السادسة ـ الملوك : تتى . وسر كا رع اتى . ببى مرى رع
مرى ان رع . ببى نفر كارع . مرى ان رع (الثانى)

تمتاز الأسرة الخامسة بأن ملوكها كانوا يدينون بعبادة رع . وقد طبعت عبادة الشمس إذ ذاك كل شىء بطابع قــوى كان له أكبر الأثر طوال عصور تاريخ مصر القديم . على أنه ليس من شك فى أنه كانت لعبادة رع أهمية كبرى قبل قيام الأسرة الخامسة بمدة طويلة مما حدا بكثير من العلماء إلى الاعتقاد بأن عبادتها كانت منتشرة بين المصريين من أقدم العصور . على أن كثيرا من القرائن تشير إلى أن عبادتها كانت فى بداية الأمر قاصرة على هليوبوليس ، وحــتى فى هذه المنطقة لم تكن هى الديانة الأصلية فقد كان يعبد فيها فى أول الأمر الإله أتوم ، ولما أصبحت هليوبوليس عاصمة أول حكومة موحدة قبل عهد الأسرات

ترك ذلك أثرا بالغا فى دياناتها ... فلقد كان ملوكهـــا يعبدون الإله حور الذى امتزج بالإله رع فأصبح يسمى « رع حور » وكان يمثل على صورة طائر الحور أو على صورة رجل فوق رأسه قرص الشمس أو على شكل جناحين مبسوطين بينهما قرص الشمس .

وإذا كانت عبادة رع قد أخذت تنتشر خارج هليوبوليس فان هذا يرجع إلى وجود العاصمة فيها كما يرجع إلى ازدهار التعاليم الدينية التى طبعت ديانة مصر بطابع قوى ... فالى مدرستها الدينية ترجع أول محاولة لاتباع نظام يجمع شتات آلهة مصر المختلفة .

ولقد كان لهذا النظام الدينى وما نسج حوله من أساطير أثر كبير فى الديانة المصرية حتى نهاية تاريخ مصر القديم . ومما يشير إلى انتشار عبادة الشمس قبل الأسرة الخامسة بمدة طويلة ظهور اسم « رع » فى اسم أحد ملوك الأسرة الثانية « نب رع » وكذا فى معظم أسماء ملوك الأسرة الرابعـــة ويلاحظ كذلك أن « منكاو رع » استحدث لقبا جديدا هو « سارع » أى ابن الشمس وبذا أصبح الطريق ممهدا لاتخاذ عبادة الشمس كدين رسمى للبلاد وهو ما قام به مؤسسو الأسرة الخـــامسة التى يغلب على الظن أنها تنتمى إلى كهنـــة رع كما سنبين فيما بعد .

نشأة الأسرة الخامسة

تحدثنا بردية « وستكار » أن أحد السحرة من عهد خـــوفو ويدعى ددى ذكر فى حضرته أنه يوجـــد بهليوبوليس كاهن لإله الشمس يدعى « أوسر رع » وأن زوجته « رددت » ستصبح أما وستنجب ثلاثة أبناء أبوهم هو إله الشمس نفسه وأن الأكبر سيكون كبيرا لكهنة الشمس ، وأنه سيحكم

هو وأخواه كملوك على مصر ... وانزعج خوفو من هذه الأنباء ولكن الساحر طمأنه بقوله إن ابنه وابن ابنه من بعده سيليان عرش مصر ثم يأتى بعدهما هؤلاء الثلاثة .

وعندما حلت ساعة الوضع أرسل « رع » بعض الالهات متنكرات فى زى راقصات وموسيقيات متجولات ليعاون « رددت » . فقمن بما عهد إليهن به وكافأهن « أوسر رع » بمكاييل من القمح وهو جاهل لأقدارهن . ولكنهن عدن سرا بعد انصرافهن ووضعن القمح فى مخازنه . وسرعان ما صدرت عن الغرفة أصوات موسيقية خفية ويقال إن التيجان الملكية وجدت مخبأة فى القمح .

وهناك من يزعم أن لهذه القصة طرفا من الحقيقة ... ولكن الواقع أن الشك يتناولها فى أكثر من موضع ، فالأطفال الثلاثة ولدوا ـ كما تقول القصة ـ فى ساعات متقاربة وهذا يجعلنا نفترض أن « ساحو رع » ثانى ملوك الأسرة الخامسة كان كهلا متقدما فى السن حسين ولى العرش وأن « كاكاى » كان كهلا طاعنا .

ويذكر مانيتو الذى كتب تاريخه بعد هذا الحادث بحوالى ألفى سنة أن الأسرة الخامسة نشأت فى الفنتين ، ولعل مما يعزز هذا الرأى اهتمام أفراد هذه الأسرة بهذه الناحية من مصر (وإن كان دريوتون يقرر أن هذا يكاد يكون مستحيلا) وهو يعطى للأسرة مدة حكم قدرها ٢٤٨ سنة .

أما بردية تورينو فلا تبين انفصالا بين الأسرتين الرابعة والخامسة وتقدر مدة الحكم بـ ١٤٠ سنه تقريبا كما أن أسماء الموظفين الذين عاصروا الأسرتين مثل « پتاح شپسس » تدل على أنهم استمروا يتقلدون وظائفهم خلال حكم

الأسرتين مما يوحى بعدم قيام ثورات عنيفة أو قلاقل ، وتكاد القوائم والآثار المعاصرة تتفق على أسماء ملوك هذه الأسرة وهم على التوالى . أوسر كاف — ساحو رع — نفر ايركارع (كاكاى) — شبسس كارع — رع نفر اف — نى أوسر رع من كاو حور — جد كارع ايزوزى ثم أوناس .

ويقترح بعض المؤرخين أن قيام هذه الأسرة نشأ عن طريق هجرة نبيل هو « أوسر رع » من آبو إلى أون ، وهناك ازدادت ثروته وارتفعت مكانته حتى وصل إلى مركز كبير كهنة رع ثم تزوج من « رددت » وهى أميرة من الدم الملكى وأنسل منها أول أبنائه فى عهد خوفو ومن هنا كان لأولاده منها حق ولاية العرش ، وهكذا أصبح أكبر أبنائها وهو « أوسر كاف » كبيرا لكهنة أون ، ولما مات الملكان الأخيران الضعيفان من ملوك الأسرة تولى « أوسر كاف » العرش دون مقاومة بحسبان أنه من العائلة المالكة ، وساعده على ذلك ما دار على الألسنة بصدد قصة مولده الالهى .

ولكن بعض المؤرخين — يونكر مثلا — يؤكد قيام كفاح مزمن بين الجنوب والشمال ويرى أن هليوبوليس (أون) بدأت تزدهر قبيل الأسرة الخامسة وأن انتقال « شبسس كاف » إلى منف كان مبعثه رغبته فى التخلص من نفوذ أون المتزايد . ويستند يونكر فى ذلك إلى النص الذى عثر عليه وترجمته :

إما : ملكة مصر العليا والسفلى وأم ملك مصر العليا والسفلى خنت كاواس .

أو : أم ملكى مصر العليا والسفلى   خنت كاواس .

والنص يحتمل فعلا إحدى الترجمتين دون تخطىء الترجمة الأخرى ، ويفضل « يونكر » أن يستند إلى الترجمة الأولى ويعزز رأيه بأن وجود اثنين من الملوك

لايمكن أن يتم فى وقت واحد إلا بانقسام البلاد وهذا مالم يقل به أحـــد ممن أرخوا للعهد المذكور . ويستنتج «يونكر» من ذلك أن منكاورع تزوج من أخته وأنها ولدت له شپسس كاف وخنت كاواس ، وأن شپسس كاف كان ولى العهد وأن خنت كاواس - وهى من الدم الملكى - تزوجت من أوسر رع ، ولما لم يكن ملكا شرعيا من دم ملكى صار ابنهما اوسر كاف هو الملك الشرعى الذى عرفته قوائم الملوك وجداولها ولكن ليس من ملوك الأسرة الرابعة ... فصار على رأس الأسرة الجديدة .

ومهما يكن من أمر ، فليس من شك أن الأسرة الخـــامسة أسرة جديدة وأن الأقاصيص المتوارثة عنها قد يكون لها نصيب من الصحة لأن عبادة الشمس ظلت مذهب الدولة الرسمى ، وقد ذهبت الأسرة الخامسة إلى أبوصير جنوبا (وبها كل معابد الأسرة ما عدا هرم أوناس الذى بناه فى سقارة) .

ومن عهد الأسرة الخامسة نرى الملوك ينتسبون إلى رع ، وهكذا نرى أن هذا الإله الذى كان قد بدأ إلها محليا أمكنه أن يعمر كل النواحى ، وقلما كان ينظر اليه كأنمـــا هو قرص الشمس ... ولم يترك المصريون فكرة الإله الأعظم حتى فى هذا العصر ، أو هم لم يكونوا يميلون إلى ذلك لأنهم كانوا يحملون فى أذهانهم فكرة أن الشمس هى العين اليمنى لحور وأن القمر عينه اليسرى وأن هذا الإله العام هو الإله الذى تنتسب اليه الآلهة ... ولكن رغم ذلك نخلص إلى أن الأسرة الخامسة حين اتخذت رع إلها رسميا ضغطت على نقطة معينة فى الديانة المصرية لمدة طويلة ، وحين جاء أمون فيما بعد انتسب إلى رع ثم تخلص من ربقة رع كما استقل رع من قبل ذلك بخروجه على « حور » حين كان ينتسب إلى « حور » ويسمى « رع حور » .

ولقد أدرك ملوك الأسرة الخامسة من أول الأمر أن أول واجب عليهم هو إقامـــة المعابد الكبيرة المكشوفة لعبادة الشمس بجانب مقر

إقامتهم وهى تختلف كثيرا عن سائر المعابد المصرية ، والواقع أنه أصبح للدين فى الأسرة الخامسة المكانة الأولى بين واجبات الملك ، ولقد عثر فى أبيدوس على مرسوم أصدره « رع نفر اف » يحرم فيه فرض أى نوع من السخرة على كهنة المعابد ومن ينتمى إليها . ولم يكتف ملوك الأسرة الخامسة باقامة المعابد للاله رع بل أغدقوا على معابد الآلهة الأخرى الشىء الكثير ومن هنا نشأ الخلاف الواضح بين عبادة رع فى الأسرة الخامسة مثلا وبين دين « اخ ان اتون » الذى تعصب لإلهه على حساب الآلهة الأخرى .

وكانت العبادة فى معابد الشمس تقام للاله « حوراختى » والالهة « خانحور » ، ولما أصبحت ديانة رع ديانة رسمية للبلاد أخذت المعبودات المحلية فى المقاطعات تحاول التشبه بهم واتخاذ صفاتهم . وعمد كهنتها إلى محاولة التوفيق بين آلهتهم وبين رع وإضافة اسمه إلى أسمائها حتى يعلو شأنها على حسابه .

وانتشر كذلك اسم رع بين أفراد الشعب . ولما كانت هليوبوليس (أون) عاصمة الحكومة المتحدة الأولى فانها تأثرت بأساطير وتقاليد الوجه البحرى ومن ثم قوى انتشارها عندما أصبحت ديانتها رسمية . ومن هنا كان انتشار عبادة اوزير التى تتجلى آثارها بوضوح فى المقابر منذ الجزء الثانى من عهد الأسرة الخامسة وهى عبادة — كما قدمنا من قبل — تتصل بالعقيدة الهليوبوليتانية اتصالا وثيقا فى أصلها ومصادرها ومظاهرها .

الأسرة الخامسة

٢٥٦٣ — ٢٤٢٣ ق.م. تقريبا

١ — اوسر كا ف — اير ماعة (Userkaf (Ir -Maat

كان « اوسر كا ف » عند ولايته للعرش يشغل من قبل وظيفة « كبير كهنة ايون (عين شمس) » وهو أول ملوك الأسرة الخامسة التى يمتاز ملوكها ببناء المعابد المكشوفة بجوار منف . وأهم ما بهذه المعابد المسلة ، وقد أوقفت الأملاك على المعابد وكثر عدد الكهنة وانتقلت رئاسة القضاء من أبناء الملوك إلى أيدى أفراد من أسر أخرى من أشهرها فى عهـــد أوسر كا ف أسرة « واش بتاح » وأسرة « من نفر » .

وقد عثر على اسم « أوسر كا ف » فى « القتين » ومن المعروف أنه بنى محرابا فى معبـــد « حور » فى « بوتو » ومعبداً للاله « سبا » (الصقر الناشر جناحيه) وأوقف عليه ضيعة صغيرة . ويذكر حجر بالرمو أنه أقطع إقطاعيات للاله « رع » ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك من أملاكه الخاصة التى أخذت تتقلص نتيجة لذلك مما كان سبباً فى ضعف الملوك الذين يسيرون على هـــذه السياسة ، وإن أسبغ ذلك عليه صفة « التقوى » التى ظلت عالقة به فأصبح يسمى « المحبوب من الآلهة » كما يشير إلى ذلك خاتم اسطوانى بالمتحف البريطانى .

وقد نصب « اوسر كا ف » أحد زعماء طهنا المدعو « نكعنخ » كاهنا لحاتحور بها وعينه مشرفا على أوقاف « خنوكا » ، وقـد أوصى نكعنخ قبل وفاته بتقسيم المنحة الملكية التى منحه إياها « اوسر كا ف » وقدرها ٨٠ فدانا على أولاده الذين يبلغون ١٣ فرداً .

وقـد أقام « أوسر كا ف » لنفسه هرما بسقارة كما بنى معبداً مكشوفا للشمس

أطلق عليه اسم « نحن رع » كما يشير إلى ذلك إناء من الرخام الأبيض عثر عليه في « مريجو » ولهذا دلالته إذ يشير ذلك في وضوح إلى أن نوعا من العلاقة كان قائما في ذلك العهد البعيد بين مصر وجزر بحر ايجه .

ولم تزد مدة حكمه عن سبع سنوات على الأغلب .

٢ — ساحو رع Sahu - Ra

كشف بورخارت عن معبده الشمسى الذى يعتبر نموذجا كاملا للمعابد الشمسية فى ذلك العهد وقد أدخل فيه طرازا من الأعمدة جديداً على العمارة المصرية إذ أن تيجانها من السعف منحوتة من كتلة من الجرانيت الأحمر بارتفاع عشرين قدماً كما انتشر النقش البارزفى وضوح على الجدران وظهر قرص الشمس المجنح للمرة الأولى يحرسه الصلان. وقد عثر للملك ساحو رع على لوحة فى سيناء تمثله وعلى رأسه تاج الوجه القبلى وهو يضرب الأسيويين وقد صورت على جدران معبده لوحات تمثل انتصاره على الليبيين والاسيويين معاً (شكل ٣٠) كما تمثل عودة جيوشه بالأسرى والأسيويين والغنائم وتشير كذلك إلى حملة بحرية إلى فينيقيا . وقد عثر من عهده كذلك على نقش ببلاد النوبة عند توماس مما يدل على وصول الملك إلى هذه الجهة . ويسجل حجر بالرمو أنه أرسل حملة إلى بونت عادت بالعطور والذهب وبعضى ربما كانت من الأبنوس . وإن كان بعض المؤرخين يرجح أن الحملة تمت فى عهد ملك آخر وهو « ايزوزى »



(شكل ٣٠)

وربما ترجع المناظر الحربية على مقبرة «اتنا» فى دشاشة إلى ذلك العهد وفيها يعزو المصريون مكانا فى آسيا هو «نديا» لا نستطيع تحديده . وقد مثلت صور الحرب وتطوراتها مما سيرد عنه الحديث فيما بعد فى فصل تال عند الكلام عن «علاقات مصر بالخارج فى عهد الدولة القديمة» .

ومن الشخصيات التى خلدها ذلك العصر «نى عنخ سخمة» الذى يسجل على مقبرته أن الملك وهبه بابا وهميا ليوضع فى المقبرة مقتطعا من محاجر طرة الملكية وقد سجل هذه الهبة مفاخرا وهو يذكر قول الملك إنه «مادام أنفه سليما والآلهة تحبه فانه يتمنى له «نى عنخ سخمة» أن يذهب إلى الغرب بعد عمر طويل مقربا» وفى النص يدعو «نى عنخ سخمة» للملك لأن الاله وهبه معرفة الخبايا ولأنه مبجل أكثر من أى إله . . . وقد بنى هذا الملك هرمه فى منطقة أبو صير .

٣ نفر اير كارع Nofer - ir - Ka - Ra

اوسر خعو كاكاى (User Khaou, Kakau)

لم يبق من هرمه المسمى «نفر اير كارع ظاهر» ومعبده المسمى «مقر رع المحبب» سوى أنقاض ولكن مابقى عليها من نقوش يكفى للدلالة على ماكان يبذل من هبات على معابد الإله . وقد سجل حجر بالرمو أنه أوقف أملاكا باسم التاسوع وأوقف أخرى لأرواح عين شمس . وقدم للإله رع مذبحا وللآلهة حتحور معبدا آخر وكذا قدم قرابين مقدسة . وقد أصدر الملك المراسيم لحكام الأقاليم بالمحافظة على حقوق المعابد وامتيازاتها كما أمر بعدم تسخير أحد كهنتها فى غير خدمة الإله الذى يتبعه المعبد . ومن بين هذه المراسيم المرسوم الملكى لرئيس الكهنة «حم ور» الذى ينص على ضرورة رعاية هذه

المبادىء ، كما ينص على ألا يسخر فلاحو الاله فى أعمال أخرى . وتدل آثار ذلك الملك على رعاية لرجال البلاط قابلوها بالحب والاجلال ، وعلى عنايته بتراث الأجداد وعلى تكريم للآلهة بجلى فى تعدد المنح للمعابد وكثرة الهبات والقرابين .

والواقع أن هذا المبدأ الخطير كان نواة لما أدى فيما بعد إلى تقاص تفرد فرعون تدريجا والانتقاص من هيبته وبالتالى إلى ضعفه ثم سقوط الدولة القديمة .

ومن أبرز الأسماء التى خلدها التاريخ فى عصره « واش بتاح » ، « رع ور » و « تى » المهندس المعارى الملكى للهرم وصاحب المقبرة المشهورة بسقارة . أما واش بتاح فكان من وظائفه القاضى والوزير والمعارى وله مقبرة بناها ابنه ولكن معظم نقوشها بلى وإن كان ما بقى يبين أن الابن يذكر ماحدث لأبيه من أن الملك ذهب مع عائلته يوماً للتفتيش على بناء كان يقوم واش بتاح بعمارته وأعجب الجميع بالبناء والتفت الملك ليمدح وزيره الأمين ولكنه لاحظ أن الوزير غير ملتفت إليه وغير ملق بالا إلى عطفه الملكى الكريم فنبه الحاشية إلى ذلك وحمل الوزير المريض فــــورا إلى البلاط واستدعى الاطباء والكهنة ولكن الحالة كان ميئوسا منها فقضى الوزير ، وحزن الملك واعتكف فى حجرته يدعو رع . وعملت الاستعدادات لدفن « واش بتاح » وأمر الملك بصنع تابوت له من الابنوس ، وأن يعطر جسده فى حضرة جلالته . وأمر الابن بينشاء قبر أبيه منحة من الملك ، وتسجيل الحادث على جدران المقبرة .

أما « رع ور » فقد كشف الأستاذ سليم حسن عن مقبرته عام ١٩٢٩ وهو يذكر أنه كان يحمل أكثر من ثلاثين لقبا من ألقاب الدولة وأن حجرات الخل تانهو عن مقابر الملوك وبها ١٢٠ تمثالا معظمها قبن سبرته تبلغ

بهشم . وكان مركز « رع ور » كبيرا عند الملك بدليل القصة التى وجدت منقوشة على جدار أحد السراديب التى عثر على التماثيل بها ... وبيان ذلك أن الملك كان يقوم بافتتاح احتفال عيد خاص بجر سفينة الوجه البحرى وكان « رع ور » فى ملابسه الرسمية وتصادف أن كان بجوار مولاه فلطمت عصا فرعون ساق « رع ور » عفوا وعندما لاحظ الملك ذلك ذعر ، فاعتذر عما بدر منه نحو « رع ور » عن غير قصد وقال له « أنت أحب رجل لدى وأخص الناس بعطفى » ولم يكتف الملك بذلك بل أراد أن يعترف أمام الناس والأجيال القادمة بمكانة « رع ور » عنده فأمر بتدوين الحادث على حجر يوضع فى قبر « رع ور » بجبانة الجيزة .

هذه القصص جميعاً عن علاقة فرعون بموظفيه تكشف عن مظاهر جديدة لم تكن معهودة من قبل . وهى تنزل بالملوك الآلهة من علياء سمائهم . ورغم أنها تحمل روح العطف والرعاية ، بل هى أسمى مثل لذلك كله ، فانها تكشف فى الوقت نفسه عن ناحية لها خطورتها مؤداها إحساس داخلى لدى الملوك بالرغبة فى اكتساب قلوب الرعية وحرصهم على مجاملتهم وهذا الاحساس يحمل لونا من ألوان الضعف لم نعرفه من قبل فى عهد الأسرة الرابعة ... وإن كنا نراه يتردد كثيراً فى عهد الأسرة التى نحن بصددها .

٤ — شبسكا رع (ايزى ؟) Shepses - ka Ra

٥ — رع نوفراف Ra Nofer-ef

٦ — نى أوسر رع Ni-User Ra

يرى بعض المؤرخين فى هؤلاء الملوك الثلاثة أبناء للملك السابق تولى كل منهم العرش بعد أخيه كما حدث للملوك الثلاثة الأول للأسرة ولكننا لسنا نعرف

عن الأول والثانى شيئا وأما الثالث وهو « نى اوسر رع » فنعرف انه بنى معبداً للشمس منقوشاً ، وأنه أرسل حملة إلى سيناء سجلتها لوحة بوادى مغارة مثل فيها وهو يضرب الآسيويين كما أرسل حملة لتأديب الأعداء فى سورية وأخرى لتأديب الليبيين .

ومن الأشخاص الذين عاشوا فى عصره پتاح شپسس ، ومقبرته سجل لعهدى الأسرتين الرابعة والخامسة معاً كما قدمنا من قبل ، وأهميتها تقع فى أنها تسجل فترة طويلة تشمل عهداً يمتد من حكم منكاورع إلى عهد نى أوسر رع مما يثبت أن هذه الفترة لا يمكن أن تزيد عن عمر إنسان واحد . ويرجح أن هذا الملك عاش حتى احتفل بعيد سد الذى سجله على جدران معبده . ومن عظماء العصر « حتپ حرى أخت » وكان قاضيا ونائباً للملك فى « نخن » وقد نقلت مقبرته إلى لندن وهو يقول فى نقوشها إنه بنى قبره من أملاكه دون أن يغتصب شيئامن الآخرين ويعد الذين يقدمون له التقدمات بالتوصية عليهم أمام الاله . ويذكر أنه لم يكن عنيفاً مع إنسان وأنه بنى قبره فى مكان طاهر حيث لم تكن هناك مقابر أخرى .. وأن أولئك الذين يدخلون إلى قبره أو يأتون به سوءاً سيحاكمهم أمام الإله الأعظم ... وهو يسجل منحة ملكية هى التابوت الذى دفن به .

٧ — من كاو حر Menkauhor

من المعروف أنه أرسل حملة كسلفه إلى سينا أشير إليها فى نقوش وادى مغارة . وقد أثبت اسم قائد الحملة ولكنه محى بعد ذلك . وهذا تقليد جديد إذ لم يسبق من قبل تسجيل اسم قائد الحملة بجوار اسم الملك . ومع ذلك فان التقليد قضى عليه بمحو اسم صاحبه فى هذه المرحلة (وإن كنا نجده يتكرر فى العهد التالى) .

وقد أقام هذا الملك معبداً لم يبق له أثر وإن عثر على قطعة منه فى السرابيوم يظهر أنها سرقت من أحجار المعبد وانتقلت إلى ذلك المكان لسببما وهى محفوظة باللوفر وتشير نقوشها إلى دقة وجمال بالغين .

٨ — جد كارع ايزوزى — Djed-Ka-Ra (Izozi)

د د خعو Dad-khaou

أرسل هذا الملك حملة إلى سينا ولكن اسم القائد أثبت ولم يمح وهو « نى عنخ خنتى خت » وقد عثر على أربعة نقوش من عهده فى وادى مغارة وعلى واحد من هذه النقوش اسمه مسبوقا بلقب « سارع » أى « ابن الشمس » .

وقد أرسل حملة الى بلاد النوبة سجلت على صخرة عند توماس وله نقوش كذلك سجل فيها اسمه فى وادى الحمامات . ومن المعروف أنه أرسل مستشاره « باوردد » إلى يونت فعاد بقزم أدمج بين أقزام القصر ورقص مع أميراته ونسائه الكاهنات .

ومن عظماء العصر « ايتى » المسمى « سنزم ايب » وكان أقوى رجل فى البلاط وكان كبيراً للقضاة ووزيراً وكبيراً للمهندسين المعماريين ويذكر فى مقبرته علاقته بالملك . كما يذكر أنه تسلم من مولاه خطابين أحدهما بخط جلالته يشكره فيه على عمل البحيرة التى صممها وطولها ١٢٠٠ ذراع ويعبر الملك فى خطابه عن سروره بالتصميم وقد كتب ابن « ايتى » نهاية النص على مقبرة أبيه ويذكر فيها أن الملك تعطف على وزيره باهدائه تابوتا بعد موته .

ومن أشهر ما وصلنا من عصر ايزوزى ما يعرف بتعاليم « بتاح حوتپ » وكان مربيا للملك ويظهر أنه كان من أفراد العائلة المالكة وربما كان عما للملك كما كان رائداً له . ويقول فى أول كتابه :

« سأكرر لك أقوال أولئك الذين عرفوا تاريخ الأيام الماضية وسمعوا الآلهة »
فيجيبه الملك قائلا : « علمنى إذن أقوال الأزمان القديمة » فيقول پتاح حوتپه :

« الشعر الأبيض يكلل هامتى وسنى الشيخوخة تقترب منى وأعوام انهيارى دنت . الذبول حل محل النضارة . وكل يوم يحل سقم جديد . بصرى يضعف وأذنى تكاد تتوقف عن السمع . قوتى تضمحل وذهنى يكل . فمى يخرس ولا يتكلم وذاكرتى تهرب منى ولا تقوى على استذكار الأمس الدابر . عظامى تتوجع والسرور ينقلب فى نفسى إلى غم ورائحة كل شىء تلاشى » .

ثم هو يطالب بعد ذلك ان يعتزل الخدمة . وحين يجاب إلى رغبته يكتب تعاليمه لابنه وتصبح لهذه التعاليم قيمتها فى الآداب المصريه . وقد حفظت لنا لحسن الحظ نسخة منها وفيها يقول : « لاتحاول أن تخدع الناس لأن ذلك لانتيجة له . لأن ماقرره الله سيحدث . اذا كنت فى منصب بحيث يتقرب الناس إليك فكن مؤدباً واصغ إلى شكاة الشاكى ولاتعترض كلماته حتى يخرج كل مافى قلبه وكل ماجاء ليقوله . الرجل المهموم يحب الموظف الذى يتقبل شكاته ويتحدث عن متاعبه كلها له . الكلمة اللطيفة تضىء قلبه ؛ ولكن . . . اذا أوقف الموظف الكلمات فان الناس سوف يقولون عنه : لم لهذا الرجل سلطة حتى يتصرف كذلك ؟ . . . أوصيك بأمك التى حملتك . هى أرسلتك إلى المدرسة حتى تتعلم الكتب وهى التى تشغل نفسها بك طول النهار وهى التى تعطيك الطعام والشراب من البيت . . . والآن وقد كبرت وتزوجت وأصبحت سيد بيتك ــ التفت إلى تلك التى ولدتك وزودتك بكل شىء . . . ، هى أمك . لاتدع لها فرصة لتوبيخك . لاتدعها ترفع يديها غضبا بسببك لأن الله سيستمع إليها من غير شك . . . حين يأتى الموت يفجأ الطفل على ثدى أمه والرجل المسن . . . حين يأتيك الرسول ليحملك . . . دعه يجدك مستعداً لذلك » .

٩ ــ وناس Unas

يمتاز هرم وناس عن باقى أهرام الأسرة بأنه أول هرم معروف نقشت به من الداخل نصوص دينية هى التى أطلق عليها اسم « متون الأهرام » . وقد حاكاه فى ذلك من جاء بعده من ملوك الأسرة السادسة : تتى ، پپى الأول ، مرن رع ، نفر كارع پپى الثانى . وكان ماسپرو أول من عثر على هذه النقوش عام ١٨٨٠ .

ويظهر أن الملوك منذ ذلك العصر تخلوا عن فكرة إقامة معبد للشمس بجوار الهرم كما يظهر أن وناس ابتنى لنفسه هرمين مما يعيد إلى الذاكرة عهد سنفرو حين كانت الفكرة قائمة على بناء هرم للجسد وآخر للـ « كا » أو ربما كان ذلك لارضاء الشمال والجنوب معاً . وكان يظن إلى عهد قريب أن « مصطبة فرعون » ترجع إلى عهد وناس ولكن الكشوف الحديثة أثبتت أنها لـ « شبسس كاف » وعلى ذلك فان هرم وناس الآخر مازال مجهـــولا . وأما الفكرة فى أنه ابتنى هرمين فقد جاءت عن طريق لوحة بمقبرة كاهن من كهنته يدعى « اخت حوتپه » ذكر فيها أنه كان كاهنا لقبر وناس المسمى « نفر إيسوت » وكاهناً لقبر وناس المسمى « ايسى إيسوت » واللقبان مذكوران معاً فى اللوحة المشار إليها .

ويقع هرم وناس المعروف فى جنوب غربى هرم زوسر . وقد عثر أخيراً على معبده الجنزى وعلى معبد الوادى وعلى جانب من الطريق الموصل بين الاثنين وقد وجدت أجزاء من الطريق سليمة فكشفت بذلك عن ناحيـة ظلت غامضة عصراً طويلا . والطريق مبنية بالحجر الأبيض ومسقوفة بكتل من نفس النوع وبها فتحات للاضاءة . والسقف مزين بنجوم ويمثل السماء ، وبالجـــدران مناظر بعضها يمثل الحياة الدنيا بما فيها من حياة البلاط والجيش والحياة اليومية من زرع وحصاد وصيد وقنص وحرب . . وبعضها يمثل الحيـــاة الأخرى بمـا فيها من مناظر تمثل تقديم القربان والآلهة المختلفين الذين يباركون الملك .

والمنظر من أعلى الهرم يرينا إلى الشمال أهرام الجيزة وأبو صـــير وإلى الجنوب أهرام سقـــارة ودهشور وإلى الشرق الهرم المدرج وأحراش النخيل وحقول سقارة وميت رهينة .

وحين كشف ماسبرو عن هذا الهرم اتضح أن اللصوص سبقوه اليـه فعبثوا بمحتويات القبر وحطموا التـابوت . والمدخل ينزلق بعد فتحة البـاب من الشمال

إلى ممر يؤدى إلى غرفة مربعة بعد ثلاث أبواب مصايد ، وهـــذه الغرفة تغطى جدرانها النصوص . وإلى غربها غرفة أخرى مائلة وتكاد تملأ نصفها النقوش كذلك وبها تابوت من البازلت . وإلى الشرق ممر قصير يؤدى إلى ثلاث غرف عثر فى أحد أركان الأخيرة منها على أدوات خشبية .

والنصوص المذكورة تميط اللثام عن أعجب الطقوس والعقائد وبها كثير من الصيغ السحرية التى يمكن عن طريق تلاوتها أن تحمى روح الملك نفسهـــا وتباشر سلطتها فى العالم الآخر . وبها ما يدل على عدم فناء الملك وعلى اتحاده باله الشمس الذى كان الملك ابنا له يمثله على الأرض .

ومتون الأهرام مزيج من نصوص مختلفة فى غـــير نظام أو ترتيب يرجع بعضها إلى عهود موغلة فى القدم كما هو واضح من لغتها وموضوعاتها ومرماها وهى مصدر هام للاحاطة بدين مصر العتيق . ولا شك أنها نقشت داخل الهرم لتفيد الميت على نحو ما . وهى فى أساسها تتعلق بعبادة الشمس ، عـــلى أن لبعضها علاقة بدين أوزير الذى يتمثل فيه عنصران : الواحد من ناحيــة أنه إله الطبيعة بل النيل نفسه الذى يخصب الأرض ويحيى الزرع بعـــد موته وينمى الحب فى جوف الأرض ، والثـانى من ناحيـة أنه ملك مؤله حـــكم مصر قديما وأقـــر العدالة وعلم الزراعة وتربيـة الماشية ثم لقى الغدر فقتل ومات ثم بعث حيا وأقرت الآلهة لابنه حور حقه فى وراثة العرش من بعده بعد صراع طويل مع ست ، فصار اوزير بذلك ملكا فى العالم الآخر .

ولما كانت ديانة الشمس تختلف كـــثيراً عن ديانة اوزير فاننا نلاحظ أن متون الأهرام سعت إلى التقريب بينهما فعدلت بعض النصوص تمهيداً لذلك مما يدل على أن كتابتها استغرقت عصوراً طويلة سابقة حتى وصلت إلى المرحلة التى نراها عليها .

وقد تطورت هذه المتون فيما بعد فتحولت فى عهد الدولة الوسطى إلى متون تكتب على التوابيت ثم تطورت فى الدولة الحديثة إلى متون تكتب على ملفات البردى وتوضع مع الميت فى قبره . وهى المعروفة بـ « كتاب الموتى » . ومتون الأهرام وكتاب الموتى ليس فيهما إلا فصول قليلة مشتركة ولكن متون التوابيت فى عهد الدولة الوسطى تشمل عدداً يكاد يكون متساويا من فصول متون الأهرام ومن كتاب الموتى فهى همزة الوصل بين الاثنين وهى تبين أن المتنين يشتركان فى غرض واحد وأن المتون جميعاً تعاويذ تضمن لمن يعرفها الخلود فى العالم الآخر .

ومتون الأهرام تعتبر الملك حيا لم يمت فهى تقول :

لم يمت الملك ! لقد أصبح واحدا يشرق كشمس الصباح فى الأفق الشرقى ويستريح من الحياة كالشمس الغاربة فى الغرب ولكنه سيعيد إشراقه فى الشرق . هل قال أحد إنه مات ؟ كلا ! هو الشمس ! هو حى إلى الأبد ! أيها العالى بين النجوم التى لا تختفى . . سوف لا تهلك أبدا ، الرجال يسقطون وتنتهى أسماؤهم ولكن رع يمسك بهذا الملك بيديه ويقوده إلى السماء حتى لا يموت على الأرض بين الناس ! إنه ابن سفينة الصباح التى قد ولدته على وجه الأرض ولادة سليمة . . أيها القاتون ! إن الملك يطير من بينكم ، هو ليس من الأرض ؟ هو يطير كسحابة إلى السماء . . إنه ليس من أهل الأرض بل هو من أهل السماء . . إنه قد قبل السماء كصقر وارتفع كباشق بريش كريش الأوز البرى واندفع نحوها كأبى منجل . . إنه يقفز إليها كالجراد ويصعد إليها على الريح . إن سحب السماء رفعته وأنزلت إليه سلالم السماء حتى يرقى فوقها ويبتعد عن الأرض . . . عن المرأة والوظيفة .

أيها الآلهة ! . ضعوا أذرعتكم تحت الملك وارفعوه إلى السماء إلى عرش « رع » العظيم بين الآلهة . أبواب السماء المزدوجة تنفتح على مصاريعها ! أى رع ! هذا هو ابنك يأتى إليك ! ضمه إلى قلبك . احضنه بين ذراعيك ! . . . إن فى السماء هياجا ، إنها أصبحت فى قبضة الملك فقد عرف طريقه إلى الإله « خپرى » ، إن الملك يودعه من الحياة إلى الغرب ليكون فى صحبة سكان العالم الآخر . . إن الملك يشرق ثانية مجددا من الشرق وإليه يأتى الذى يفصل فى الشجار (تحوت) فى خضوع . فاخدموا أيها الآلهة الملك بوصفه أكبركم سنا . أيها الآلهة اخدموا الملك فإن الأمر فى يده والأبدية قيدت إليه والفهم عند قدميه . . هللوا له فقد استولى على الأفق . .

أيها الملك ! أيها الواحد النقى الطاهر . خــذ مــكانك فى قارب الشمس عبر السماء . اسبح بين النجوم التى لا تختفى . . بين النجوم التى لا تمل . . لن الملك سيعيش الى الأبد . . لقد فر من يوم الموت . . سوف لا تهلك أيها العالى بين النجوم المتألقة دواما . . انفض عن جسدك لفائف التحنيط . . . انهــا خصلات « نبت حت » حين كانت تنحنى فوقك لتبــكيك . .
وتجيبه الآلهة قائلة « أى رع ابنك آت اليك ! ضمه الى قلبك واحضنه بين ذراعيك » .
ويظهر أن الآلهة كانت ترتعد فزعاً حين يصل « وناس » فالســموات تتفتح حين يصل اليها كاله ! وذلك لأن قوته مستمدة من افتراسه الآلهة أنفسهم فيقال « لن السماء تحجبها الغيوم والنجوم مبهمة المعالم والقوس (السماء) يهتز وعظام الأرض تزلزل وقد ســكنت الرياح حين رأت الملك قوى البطش فى اشراقه وهو الاله الذى يعيش على آبائه ويغذى نفســه بأمهاته . . هو رب الادراك وأمه لا تعرف اسمه . . هو مثل أتوم الذى خلقه ليــكون أقوى منه سلطانا . هو نور السماء الذى يعيش من كيان كل اله . . هو الذى أكل احشاء الآلهة واجسامهم ملأى بقوة السحر من جزيرة اللهب . لن كل الأرواح استحالت فى جسده فهو يأكل الرجال ويعيش مع الآلهة . . . ان خونسو هو الذى ذبح الأرباب وقطع رقابهم للملك وأخــذ له ما فى بطونهم . لن الاله عاصر الخمــر قطعهم إربا وطها منهم وجبة على موقده المسائى ، وأما الملك فليقف سحرهم ويبتلع أرواحهم . . . المتلئون من بينهم للافطار والمتوسطون لوجبة المساء والصغار للعشاء والمسنون من الرجال والنســاء قد خصصوا لتضحيته ، أما سكان الشمال من السماء فهم الذين أوقدوا النار تحت القدوراتى تحتويهم بأفخاذ أكبرهم سنا ، وسكان السماء يخدمون الملك عندما نصب الموقد له من أقدام زوجاتهم المسنات . . . لن كل من يعترض الملك يأكله الملك قطعة قطعة . . . لنه هو الذى استل قلوب الآلهــة . . . والذى أكل التاج الأحمر وابتلع التاج الأخضر الذى لونه كلون البردى فى خضرته . . . لن الملك يعيش على رئات الحــكماء ويمتع نفسه بغذاء القلوب ويعيش على قوتها السحرية » .

وليس من شك فى أن هــذه الوحشية أثر من آثار الماضى السحيق . والواقع أنه رغم أن هذه النصوص تعطينا فكرة عن معتقدات خيالية فى تعبير شعرى رائع إلا أنها فى الوقت نفسه تمثل حالة من حالات التفكير لا تتفق وما هو معروف من مدنية الدولة القديمة وعقلية حكمائها . وربما كانت هذه المتون تجسيداً للآراء فى فترة سحيقة من تكوين المجتمع حين لم تكن مدارس « أون » قد قامت بعد

الحكومة فى عهد الأسرة الخامسة

كان تأسيس الأسرة الخامسة بإيعاء من كهنة هليوبوليس فرصة كسبوا من ورائها سلطانا . ولم يقو الملوك بعد ذلك على استرجاع سلطتهم الكاملة التى كان يتمتع بها ملوك الأسرة الرابعة . وقد خلع الحكام المحليون ... أو قد أخذوا يخلعون عن رقابهم ، سلطان الملكية ، وحين نجحوا عقب حكم وناس فى خلع الأسرة الخامسة والقضاء عليها أصبحوا حكام اقطاعيات يتسلط كل منهم على مقاطعته ويدعى حق الوراثة فيها ، وقد رأينا بذور ذلك فى الاقطاعيات والهبات التى يمنحها الملك فى عهود بعض الملوك . وقد اختفى على أثر ذلك لقب الحاكم المحلى وبدأ من يحمله يسمى نفسه بالقائد العظيم أو السيد العظيم لهذه المقاطعة أو تلك . وقد استمروا فى ولائهم للحكومة المركزية ولكن ليس كما كانت الحال من قبل بل كأمراء على درجة واسعة من الاستقلال وليسوا كموظفين يتبعون الحكومة المركزية ، وليس لهم من الارتباط بالبلاط ما يدفعهم إلى بناء مقابرهم حول هرمه فأصبح لهم من الاستقلال والذاتية ما يكفل لهم بناء مقابرهم بالقرب من مقر ولاياتهم بل هم ـ أكثر من ذلك ـ يسعون وراء تقدم ولاياتهم بل ويذكر واحد منهم كيف أنه « أحضر مهاجرين من المقاطعات المجاورة ليستقروا فى مدن ضعيفة من مقاطعته لينقل بذلك دما جديداً حياً إلى مناطق قليلة الانتاج فى إقليمه » .

وقد كان بيت المال هو الذى يربط الولايات المختلفة بالحكومة المركزية ولكننا نرى هنا فى نهاية الأسرة الخامسة أنه عين « محافظ الجنوب » ليباشر السلطة على أمراء الجنوب . ولم يكن هناك محافظ للشمال لأنه يظهر أن أهل الشمال أصبحوا أكثر ولاء وخضوعا أو لأن الإدارة المركزية كانت أقرب إلى الشمال .

الانتقال بين الأسرة الخامسة والأسرة السادسة

يذكر مانيتو أن الأسرة الخامسة تنتهى بموت وناس . كما أن بردية تورين تقدم الملخص لسنى الحكم عقب حكمه مباشرة . وليس هناك ، على كل حال ، ما يدل على تقطع فى خط ملوك ذلك العصر . والبقايا المعاصرة تدل على أن حكم وناس أقرب إلى الأسرة السادسة منه إلى الأسرة الخامسة لأن نفوذ كهنة هليوبوليس يقف عند تولى وناس للعرش . وتبدأ عادة كتابة غرف الأهرام الداخلية بتلك النصوص الدينية ابتداء من عهده وتستمر فى عهود من خلفه من ملوك الأسرة السادسة .

ويمكننا بذلك أن نفترض انتهاء الأسرة الخامسة بـ « ددكارع ايروزى » إذا كان اعتمادنا على المظاهر الدينية وحدها .

وليس من المعروف ، لو أن مؤسس الأسرة حقاً كان « حتب تاوى تى » ، إن كان قد وصل إلى العرش بحق الوراثة أو الاغتصاب ، ولكن يظهر أن وناس لم يترك عقبا وعلى هذا كان لابد من أسرة جديدة فى شخص « تى » الذى جعل حكمه شرعياً عن طريق زواجه من إحدى أميرات الأسرة السابقة . وعلى هذا تمكن ملوك الاسرة الجديدة من أن يثبتوا أحقيتهم للعرش معتمدين فى ذلك على نسبهم لملوك الأسرة السابقة وخاصة وأنه يلوح أن الانتقال من الأسرة الخامسة إلى السادسة قد تم من غير اضطراب أو عنف بل من الثابت أن الأمور سارت فى هوادة ورفق وأن الانتقال بدأ طبيعياً . والتتابع بين وناس وتى مؤكد من واقع سير الموظفين الذين خدموا الملكين وإن كان ماسبرو يضع الملك ايمحتب وعدد آخر من ملوك آخرين يظن أنهم كانوا يعتبرون مغتصبين ، ولهذا السبب أسقطت أسماءهم الآثار المعاصرة والمتأخرة

أيضاً ومن بين الملوك الذين ذكروا فى هذه الأسرة وأغفل شأنهم : كا كارع ـ أبى ـ زوسر نب ـ من خبرورع ـ ايمحتپ ـ ايتى . ولكن هذا لا يعدو مجرد ظن وخاصة وأن « پترى » يضع ايمحتپ فى آخر الأسرة الرابعة ويضعه « ماير » بعد الأسرة السادسة ، وهو الرأى الذى يراه دريوتون أقرب للصواب وإن كان يرجح ان « اتى » (اوتى) وايمحتپ ينتميان للأسرة القفطية مما يفسر سكوت القوائم والآثار عنهما وخاصة وأنهما لم يتركا آثاراً غير نقوش وادى الحمامات .

الأسرة السادسة

٢٤٢٣ — ٢٢٨٠ ق.م. تقريبا

١ — تتى سحتپ تاوى (Teti Sehotep-Taoüi)

ربمـا جاء «تتى» من فرع من الأسرة الخامسة لأنه كان يحمل لقب «سارع» كما كان يفعل «جد كارع» و «وناس» . وربما كانت زوجته من أصل ملكى وصل إلى العرش عن طريق زواجه منها . ويظهر أنه لم يحدث خـلاف على ولايته للعرش بل يظهر أن الأمر كان يسير سيراً طبيعياً بدليل ماجاء بمقـبرة «سابو ابيى» من أنه كان يشغل منصب كبير كهنة منف وأنه استمر يشغل هذا المنصب الممتاز فى عهد تتى .

ورقم سنى حكم «تتى» مفقود فى بردية تورين ولكن بقى منه ٦ أشهر و ٢١ يوما ونحن نحتاج فى الواقع إلى ٦ سنوات ليصبح مجموع سنى حكم ملوك الأسرة مطابقا للرقم النهائى الموجود بالبردية . ويذكر مانيتو أنه مات مقتولا بيد حارسه — مما يدل على قصر مدة حكمه — والواقع أن العثور على قناع له من الجبس فى سقارة دليل على أن المثالين لم تكن لديهم فرصة لعمل تمثال له خلال حياته فأخذوا هذا القالب لحاكاته فى عمل تماثيل له مما يكاد يعزز قول مانيتو من أنه لقى ميتة عنيفة أو مفاجئة على الأقل . وهذه النظرية يقدمها «ويجـال» وهى محض افتراض ليس هناك ما يمنع من التفكير فيه بل وترجيحه وخاصة وأن دريوتون يرى أن حكم «تتى» يشوبه شىء من الغموض وأنه ليس معروفا كيف وصل إلى العرش : اغتصابا أم بحق الوراثة . ويظهر أنه كان هناك كاهنان فى منف قبل عصره ولكن عقب وفاة «سابو ابيى» ألغيت وظيفة أحدهما وعين

« ساوثيتى » كاهنا وحيدا لبتاح ، ويظهر أنه كان منفيا لأنه قرب إليه كهنة منف كثيرا إذ ان « سابو ابيى » يقول « لقد سمح لى تى الملك ان أنظم الناس فى أماكنهم كما أريد ، ولم يحدث هذا مع وزير قبلى لأن جـــلالته كان يحبنى أكثر من أى وزير ولأنى كنت أعرف كل أسرار البـــلاط ، وربما يرجع تقريبه لكهنة منف إلى أنه اعتمـــد عليهم فى توليته للعرش كما نراه يضفى على نفسه فى أحـــد تماثيله لقب « المحبوب من بتاح إله منف » ومن ذلك يظهر أن انحطاط شأن كهنة رع تبعه ارتفاع فى نفوذ كهنة بتاح . وهناك نص فى المتحف البريطانى من ذلك العصر يذكر كيف أن بتاح كان الخالق الأول وكيف أن الخليقة جاءت من عقـــله عن طريق الكلام ... عن طريق الفكر أتى العقل وأتى كل اللسان ... وهذا يختلف ، كما نرى ، كثيرا عن تعاليم ايون حيث كان يعبد الاله رع ويعتبر كأنه هو خالق الأشياء جميعاً .

ولما كانت ايون ومنف متقابلتين على شاطىء النيل فلنا أن نتخيل أى لون من ألوان النزاع العنيف قد شجر ، ويظهر أن منف فازت الآن فى هذا الصراع ، وربما كان مقتل تى مما رجح كفة ايون بعض الوقت كما سنرى .

وقد بنى « تى » هرمه بالقرب من هرم وناس وهو يشبهه فى نواحى كثيرة وتغطى حوائطه النقوش وقد ألم به ما ألم بهرم وناس فعبث به اللصوص ولكن مابقى من الجثة يكفى لتبيان أن الدفن وتجهيز الجثة قد تمـــا بسرعة مما يتفق والفكرة القائلة بأنه قد مات ميتة عنيفة .

٢ — (ا) وسر كارع اتى User-Ka-Ra-Aty

ترك الملك المقتول ابنا صغيراً هو « پى مرى رع » ولكن يظهر أنه لم يتول العرش بعد مقتل أبيه مباشرة بل يظهر أن خلف تى كان « وسر كارع اتى »

وهذا الاسم يحمل فى ثناياه مدى نفوذ كهنة ايون وتأثيرهم ... ولذا فليس مستبعداً أن يكون الملك السابق قدسقط صريع نزاع بين قوتى الكهنة المتنافستين بل ربما كان هذا النزاع يمتد إلى ما قبل سقوط الأسرة السابقة بدليل ان وناس لم يكن يحمل فى ثنايا اسمه كلمة رع ، وربما لجأ إلى كهنة منف بدليل أنه بنى هرمه هناك . وظلت الأمور مقلقلة بعده حتى رجحت كفة ايون مرة أخرى فولى العرش « وسر كارع » فترة من الزمان .. ولم تعترف به قائمة سقارة ولم يعترف به مانيتو بل اعتبره مغتصبا للعرش حتى فاز كهنة منف مرة أخرى فى نزاعهم فولوا الوريث الشرعى « پپى مرى رع ».

ول « وسر كارع » هرم لم يبق له أثر ، وله نقوش كذلك فى وادى الحمامات.

٢ (ب) — پپى مرى رع Pepi-Meri-Ra

حين آل اليه الأمر أراد أن يوفق بين كهنة الالهين ، ويظهر أنه حاول ترضية كهنة ايون فوضع اسم رع مضافا إلى ديباجة اسمه . ومن المعروف أن اسمه لم يكن كذلك فى اول الأمر بل كان « نفر ساحور » . ولعل الخلاف بين المؤرخين على مدى سنى حكمه مرجعه إلى أن بعضهم اعتبر ولايته للعرش شرعية منذ وفاة أبيه ، أو مقتله . وهكذا تكون السنة الأولى الفعلية هى السنة السابعة الرسمية ، وبذا أضيف إلى مدة حكمه ستة أعوام هى مدة حكم « وسر كارع » الذى اعتبره المؤرخون ملكا غير شرعى . وقد تزوج من «يامتس» اولا وهى التى اتخذت ضدها بعض إجراءات سنأتى على ذكرها حين التحدث عن أحد موظفى العصر . أما الزوجة الاخرى فهى « مرى رع عنخنس » وكون جزء من اسمها يحمل اسم زوجها دليل على أنها ولدت فى عصره . وكان أبوها الأمير « خوى » من أمراء ابيدوس وأمها السيدة « نبت » . وكان لها اخت توأم تحمل نفس الاسم وكان لهما اخ يدعى «زعو Zau » ولقبه فيما بعد الوزير الاول .

وأما الاولى فكانت أم « مرى ان رع » . وربما كان فى السادسة او السابعة عند موت ابيه ومات بعد أربع سنوات أى فى الحادية عشرة من عمره تقريبا ويظهر أن أمه ماتت بعد الوضع مباشرة فتزوج من أختهما التوأم التى انجبت « يبى الثانى » الذى كان يبلغ من العمر عامين عند موت أبيه وكان فى السادسة عند موت أخيه وقد مات فى حدود المائة ، وكان حكمه ٩٤ عاما وهو أطول مدة حكم فى التاريخ لملك واحد .

وقد عثر « كويبل » فى هيراقونبوليس على تمثال من النحاس (شكل ٣١) يظهر ان ارتفاعه كان ستة أقدام وهو قريب الشبه من قناع الجبس للملك « تتى » وقد وجد معه تمثال آخر صغير الحجم لطفل (ربما كان طفله الأول) فى السادسة أو السابعة من عمره مما يدل على أن التمثالين قد صنعا فى آخر حياة الملك .



(شكل ٣١)

ومن المعروف أن هذا الملك « يبى مرى رع » كان عظيم الهمة وكان بناء بصفة خاصة تشهد على ذلك نقوشه وأطلال معابده التى عثر عليها فى صان وبوبسطة وأبيدوس ودندرة وقفط وهيراقونبوليس « نخن » والفنتين (حيث توجد نقوش تحمل اسمه) وفى حتنوب حيث محاجر المرمر ، وفى وادى الحمامات وفى سينا والكاب وسلسلة وجزيرة سهيل وتوماس فى النوبة السفلى . . . مما قد يدل كذلك ، من ناحية أخرى ، على تطور نفوذ الأمراء المحليين وعملهم على ترقية إقليمهم ، ومما يعزز

الفكرة القائلة أن عصر الأسرة السادسة كان عصر الاقطاع بمصر . وقد نجح هذا الملك فى إخضاع النوبة وسنرى ذلك مفصلا فى نص وزيره « ونى » الذى التحم بالبدو كذلك وكان موفقا فى غزواته .

وقد بنى « پپى » هرمه فى سقارة . وهو يشبه هرم « وناس » وهرم « تتى » من ناحية المتون التى تغطى جدرانه الداخلية ومن ناحية عبث اللصوص بمحتوياته . وقد كشف عن هذا الهرم عام ۱۸۸۱ ولم يعثر بحجرة الدفن على غير تابوت من الجرانيت به الأوانى الكانوبية من المرمر . ومن الشخصيات التى عاشت فى عصره « ونى » الذى ولد فى عصر تتى وعاش كذلك فى عصر خلفه « مران رع » كما يظهر من ترجمة حياته فيما بعد .

٣ — مرى ان رع — عنتى ام سا اف Meri-en-Re (Anti-em-sa-ef)

تولى الملك فى السابعة من عمره وعين « ونى » فى عصره حاكما على الجنوب وقد بدأ فى بناء هرمه بمجرد توليه العرش .... وحياة « ونى » وزيره صورة لحياة العصر . وقبره فى الصحراء خلف أبيدوس . والكتابة المنقوشة فى الصالة الخارجية وضعت كذلك حتى يقرأها زوار القبر . وقد أهدى إليه التابوت والباب الوهمى والمذبح وكل مايلزم للمقبرة .. أهداها له الملك « پپى » رمزاً للعرفان بالجميل والتقدير . وانتهى من بناء مقبرته فى عهد « پپى » . أما الكتابة فقد أتمها من غير شك فى عهد « مران رع » وكان فى الستين من عمره أو حول ذلك . ولسنا ندرى أعاش حتى عاصر خلفه « مرى أن رع » أم مات خلال مدة حكمه القصيرة وإن كنا نميل إلى الرأى الاخير وإلى القول بأن « خوف حر » خلفه فى وظائفه . وهو أحد حكام الجنوب وتقع مقبرته فى أسوان وهى — مثل مقبرة « ونى » — سجل حافل لحياته وللعصر الذى عاش فيه كذلك .

نص ونى :

يبدأ نص ونى بذكر ألقابه ومن بينها : الأمير حاكم الجنوب المتصل به «نخن» سيد «نخب» السمير الوحيد المبرر أمام أوزير، أول الذين فى الغرب ... «ونى» يقول : كنت طفلا أربط الإزار فى عهد «تتى» .

وكنت رئيسا لبيت الزراعة وملأت مخازن فرعون وكنت كبيراً للأمناء فى عهد «ببى» ومنحنى جلالته لقب الرفيق وكاهن مدينة هرمه وقاضى نخن وأحبنى أكثر من أى خادم آخر . وكنت وحدى مع كبير القضاة والوزير فى كل الشئون الخاصة بالملك والحريم ومجالس القضاء الستة لأن الملك كان يحبنى أكثر من أى موظف آخر وأكثر من أى خادم آخر .

والتمست من الملك أن أحضر تابوتا من الحجر الجيرى من طره فسمح بذلك، ووصل التابوت فى مركب كبير للبلاط بغطائه والباب الوهمى ومائدة القرابين .. ولم يفعل ذلك لخادم من قبل لأننى كنت مقـــربا من قلب الملك وكنت أدخل السرور إلى قلبه وكان يحبنى .

وحين كنت قاضيا فى «نخن» عيننى جلالته سميراً وحيداً وناظراً للخاصة فى أملاك جلالته ورئيسا للأربعة نظار هناك . وقمت بعمل ما جعل جلالته يمدحنى من أجله حيث كنت أجهز رحلاته وأقوم بعمل محطات له .

ولما اتخذت إجراءات فى الحريم ضد الملكة «يامتس» أمر الملك أن أدخل لأستمع للقضية وحدى ولم يسمح لرئيس أو قاض أو وزير آخر حتى ولم يكن هناك أمير .. ولكننى كنت وحدى لأننى كنت مقربا إليه وكنت مجربا وكنت محبوبا وقريبا إلى قلبه .. وأنا الذى قمت بالكتابة وحدى مع القاضى حارس نخن بينما لم تكن وظيفتى سوى ناظر الخاصة ؛ ولم يحدث من قبل أن واحدا مثلى سمع

أسرار الحريم الملكى لولا أن الملك سمح أن يكون لى ذلك لأننى كنت محبوبا وقريبا إلى قلبه أكثر من كل نبلائه وموظفيه وخدمه .

وعاقب جلالته أولئك البدو على رمال عامو وكون جلالته جيشا من عشرات الآلاف من كل مصر العليا .: من آبو الى أطفيح : من الجزء الجنوبى إلى الجزء الشمالى : من شمال الأرض فى الجزءين ، من سجر ، من حنوسجر ، من ايرثت بلاد البرابرة ،من مدجا(قبائل بيجا الآن) ، من برابرة يام ومن برابرة واوات ومن كاآو ومن أرض التمح .

وأرسلنى جلالته على رأس جيش البرابرة هذا بينما كان الأمراء حملة أختام ملك مصر السفلى وسمراء القلاع وحكام الاقاليم فى مصر العليا والسفلى ورؤساء التراجمة ورؤساء كهنة مصر العليا والسفلى ورؤساء مصلحـــة المواشى، كان هؤلاء جميعا على رأس جيوش مصر العليا والسفلى للقلاع والمدن التى يحكمونها والبلاد النوبية المذكورة ، كنت أنا الذى أعمل الترتيبات بينما لم أكن سوى ناظر الخاصة الملكية وذلك لأن عملى كان ممتازا حتى أنه لم يهاجم واحد منهم زميله ولم يسرق واحد من الآخر خبزاً ولم يختلس نعلا من المارة ولم يختطف قطعـة قماش من بلدة أو عنزة من إنسان .. ثم أنزلتهم فى الجـــزيرة الشماليـة عند بوابة « أيمحتب » فى ناحية « حـــور — رب الحق — سنفـــرو » رغم أننى كنت فى هذه الوظيفة الصغيرة . وفتحت لهـــذه الجيوش الطريق عما لم يحدث من قبل مع مثلى وعاد هذا الجيش فى سلام بعد أن حطم أرض البدو ووطىء أراضى سكان الرمل ودمر قلاعهم وقطع تينهم وكرومهم وأشعل النار فى كل .. (جيوشهم ؟) وضرب عشرات الآلاف وأحضر المضروبين الأحياء (الأسرى) الكثيرين . وقد مدحنى الملك كثيراً من أجل ذلك .

وأرسلنى جلالته لأقود الجيش خمس مرات فى أرض البدو عند كل عصيان

ومدحني الملك كثيراً من أجل ذلك . ووصل إلى علم جلالته أن هناك ثورات بين الأجانب عند « أنف الرئم » فعبرت البحر في المراكب بهذه الجيوش ونزلت إلى الشاطئ في آخر تلال تلك الأراضي الجبلية في شمال أرض البدو ، وبينما كان نصف الجيش على الطريق البرى أتيت أنا وجمعتهم إلى بعضهم وقتلتهم وقضيت على كل ثورة في نفوسهم ومحوت من بينهم كل ثائر .

وحين كنت مشرفاً على مواطئ أقدام القصر وحاملا للنعل جعل منى ملك الوجهين « مران رع » سيدى الذى يعيش إلى الأبد ، أميراً وحاكما للجنوب : إلى الجنوب من آبو وإلى الشمال من أفروديتوپوليس لأننى كنت أدخل السرور إلى قلب جلالته وكنت محبوبا مقربا إليه . وحين كنت حاملا للنعل كان يمدحني من أجل عنايتى ونشاطى اللذين أظهرتهما أمام الموظفين فوق كل نبيل وخادم . ولم يحدث مثل هذا لخادم من قبل . وقد عملت كحاكم للجنوب ما أرضاه ، وأديت كل الأعمال وقمت بتعداد كل ما يحصى في البلاط الجنوبى مرتين . وقمت بتنظيم الادارة في الجنوب بما لم يفعل من قبل حتى مدحنى الملك من أجل ذلك .

وأرسلنى الملك إلى « ايب حات » لاحضار التابوت المسمى «صندوق الحى» مع غطائه والشكل الهرمى الذى تكلف كثيراً ، لأجل الهرم المسمى « مران رع يضيء وجميل » . وأرسلنى جلالته إلى « آبو » لاحضار البـــاب الوهمى من الجـــرانيت مع مائدة القرابين وعضادتى البـــاب من الجرانيت ولاحضار ألواح وموائد قرابين من الجرانيت للغرفة العلوية للهرم المسمى «مران رع يضيء وجميل » ثم أبحرت شمالا إلى الهرم مع حمولة ستة قوارب ومركب حربية واحدة فقط . ولم يحدث من قبل أن زار « ايب حات » ، « آبو » رجل ومعه مركب حربية واحدة فقـــط . وكل ما كان الملك يطلبه كنت أؤديه تماما طبقا لأوامره .

وأرسلنى جلالته إلى « حتنوب » لاحضار مائدة قرابين ضخمة من الحجر الصلب فأحضرتها فى سبعة عشر يوما فقط من حتنوب وأرسلتها فى قارب النقل وقطعت له حمولة مركب من خشب اللبخ طوله ٦٠ ذراعا وعرضه ٣٠ ذراعا فى سبعة عشر يوما فقط .

وفى الشهر الثالث من الفصل الثالث (الشهر الحادى عشر) رغم أنه لم يكن هناك ماء - رسوت عند الهرم وأنزلت كل ذلك بيدى طبقا لأوامر جلالته لى .

وأرسلنى جلالته لأحفر خمس قنوات فى الجنوب . ولآتى بحمولة ثلاثة قوارب وأربع مراكب من خشب اللبخ من واوات . وقد جمع برابرة ايرتت وواوات ومازوى الأخشاب اللازمة لذلك . وقد أتممت هذا كله فى عام واحد . وأتيت به محملا بكتل كبيرة من الجرانيت للهرم . وقمت بهذا الاقتصاد من أجل القصر . وبفضلى تمت هذه القنوات الخمس لقدرتى ونشاطى وأهمية شأنى . . لأنى كنت محبوبا ولأنى كنت أمدح ملك الوجهين « مران رع » الذى يعيش إلى الأبد أكثر من كل الآلهة ولأنى نفذت كل شىء طبقا لأوامر روحه التى كانت تأمرنى .

أنا الموقر من أبيه الممدوح من أمه أول المولودين الذى يبعث السرور إلى قلب إخوته الأمير ، حاكم الجنوب الحقيقى ، المبرر تحت أوزير ، وني ‹

نص خوف حر (حر خوف) :

نزلت اليوم من مدينتى . . انحدرت من مقاطعتى . . بنيت بيتى . . وصنعت الأبواب . حفرت البحيرة . . زرعت الأشجار . . ومدحنى الملك لأنى كنت محبوبا من أبى ، ممدوحا من أمى ، وإخوتى يحبوننى . . كنت أعطى

الخبز للجائع والملابس للعريان وأعدى من ليس له قارب

أيها الأحياء على الأرض يامن سوف تمرون بقبرى سواء منحدرين أو مرتفعين على النهر ألا فلتقولوا : ١٠٠٠ رغيف ، ١٠٠٠٠ إناء من الجعة لصاحب القبر — وسأوصى بكم خيراً فى العالم الآخر . أنا روح طيبة وكل من يدخل إلى هذا القبر سأقبض عليه كالأوز البرى . وسيحاكم أمام الاله الأعظم . أنا كنت أقول الخير وأكرر ما يرغب فيه ولم أنطق بالشر ولم أغلب القوى على الآخرين لأنى كنت التمس أن أكون سليما فى حضرة الاله الأعظم .. أنا لم أحكم بين أخوين بقصد أن يحرم الواحد من ميراث أبيه ، خوف حر .. الذى يحضر محصولات البلاد كلها لمولاه والذى يحصل الضريبة لأبيه — حاكم إقليم الجنوب الذى يبث رعب حور بين البلاد ويفعل كل ما يمدحه من أجله الاله المحبوب « پتاح سوكر » ... خوف حر يقول :

أرسلنى مولاى الملك « مران رع » مع أبى « ايرى » إلى يام للكشف عن طريق لهذه البلاد وأتممت هذا العمل فى سبعة شهور وأحضرت منها أنواع الهدايا ومدحت من أجل ذلك كثيراً .

وأرسلنى مرة ثانية وحدى فذهبت إلى طريق آبو ونزلت من ايرثت ومعحز وترس فى ثمانية شهور . وحين نزلت أحضرت معى هدايا فى كميات كبيرة لم يسبق إحضار مثلها إلى هذه الأرض ونزلت بعد أن كشفت هذه البلاد ولم يكن معى رفيق أو مدير تراجمة ممن ذهبوا إلى يام من قبلى . وأرسلنى مرة ثالثة إلى يام وذهبت عن طريق « وحات » ووجدت زعيم يام ذاهبا إلى أرض « تمحو » ليضربهم فى ركن السماء الغربى فذهبت وراءه وهدأته حتى شكر الآلهة من أجل الملك . . وعدت ومعى ٣٠٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس والحبوب والتوابل والعاج وجلد الفهد وكافة الهدايا القيمة الجميلة .

ولما رأى زعماء ايرثت وستو وواوات كم هو عظيم وعديد جيش يام الذى نزل معى إلى البلاد أحضر ذلك الرئيس الثيران والماشية إلى وقادنى إلى مرتفعات ايرثت لأنى كنت مجتهداً ونشيطاً أكثر من أى سمير أو رئيس تراجمة ممن أرسلوا إلى يام من قبل .

لما كان الخادم (أنا) نازلا إلى البلاد أوفد السمير الوحيد مخوتى ، ليستقبلنى ومعه قارب محمل بنبيذ البلح والكعك والخبز والجعة .

* * *

وقد أثرت رحلات ، ونى ، و ، حرخوف ، على أهالى النوبة السفلى حتى رؤى أنه من الأفضل أن يزور الملك الصغير ، مران رع ، البلاد حتى آبو ، ، حتى الحدود الجنوبية ، فى بهاء ملكه . وتمت الرحلة واجتمع رؤساء النوبيين على ضفة النيل الشرقية ونحتت على صخور الشلال الأول كتابتان تسجلان الاجتماع ورسمت صورة للملك تمثله متوكئاً على عصاه وهو يستقبل الوزراء ، وترجمة النص ، حضور الملك شخصياً يقف خلف تلال الصحراء بينما قواد المازوى وايرثت وواوات يقدمون الولاء ويرددون الثناء عاليا ، . وترجمة النص الثانى ، حضور الملك بذاته خلف تلال الصحراء ، . حتى يرى كل ما بين هذه التلال ، ويلقب الملك هنا بـ ، المحبوب من خنم سيد التلال ، والتاريخ : ، اليوم الثامن والعشرون من الشهر الثانى للفصل الثالث من السنة الخامسة ، .

وكان الملك فى الحادية عشرة من عمر ضعيفا لم يحتمل مشاق الرحلة ويظهر أن السنة الخامسة من حكمه كانت خاتمة حياته القصيرة وربما مات أثناء عودته . وتسجل له بردية تورين أربع سنوات فقط بينما لدينا دليل على أنه كاد يكمل السنة الخامسة .

وقد فتح هرمه عام ۱۸۸۰ وكان اللصوص قد سبقوا المكتشفين إليه . ووجد

به نفس التابوت الذى سماه « نى ب » صندوق الحى » والذى اقتطعه من « ايب حات » وما بقى من الجثة يثبت أنها لحدث لم يكد ينعم بالحياة .

٤ - ببى الثانى - نفر كارع Pepi (Noferkara)

تولى الملك فى السادسة من عمره ولكن الأمراء سندوه واحترموا الأسرة وربمـــا يرجع ذلك إلى نفوذ خاله الأمير « زعو » شقيق الملكتين التوأمتين « مرى رع عنخ ان اس » لأننا نرى فى نصوص مقبرته أنه كان له مركز ممتاز فى حكم « ببى الأول » الذى تزوج من أختيه ، وفى عهد « مرن رع » ابن أخته، كما أنه فى عهد « ببى الثانى » كان الوزير الأول ورئيس القضاة . ويظهر أنه بذل جهداً عظيما لرعاية مصالح الملكة الوالدة التى لم تكن تبلغ الرابعة والعشرين وكذا مصالح ولدها الملك الطفل . ويظهر أن الملكة الوالدة كانت تتولى السلطة فى أوائل سنى حكم ابنها . وقد عثر فى محاجر سينا على لوحة مؤرخة من السنة الثانية من حكمه وعليها صورته واسمه فقط وتظهر هى فى اللوحة بألقابها : أم الملك المتصلة بهرمه المسمى « نفر كارع » المؤسس كـكائن حى ، زوجة المبرر « ببى مرى رع » .. محبوبته المتصلة بهرمه المسماة « مرى رع عنخ ان اس » التى تحبها كل الآلهة .

وفى لوحة «زعو» الجنزية تمثل صورتها وتسمى «زوجة المبرر ببى» المتصلة بهرمه المحبوبة جداً المفضلة جداً ابنة الاله الممجدة رفيقة الملك الباشق أم الملك المتصلة بهرمه ، «مرى رع عنخ ان اس» . وفى نفس اللوحة صورة أختها تحمل نفس الاسم بنفس الألقـــاب ولكنها تتصل بهرم ابنهـــا « مر ان رع » بدلا من هرم ابن اختها « نفر كارع » وليس من الممكن أن تكون الشخصيتان لامرأة واحدة أنجبت ملكين إذ أنه يدحض هذه الفكرة كون « زعو » يسميها عند الحديث

عنهما ، أخوهما ، لا أخوها . كما أن هناك نصباً من ابيدوس يشار فيه إلى عمل تمثـــال للأمير « زعو » ، وآخر ا « مرى رع عنخ ان اس » المتصلة بهرم « نفر كارع » ، وثالث ا « مرى رع عنخ ان اس » المتصلة بهرم « مران رع » .

* * *

عاد « خوف حر » من النوبة عقب تولية الملك الجديد للعرش ومعه قزم فطلب إليه الملك الحضور إلى منف فوراً ، وقد سجل خوف حر على جـــدار مقبرته نص الخطاب وهو أقدم الوثائق التى تكشف عن ارتياد مجاهل افريقيا وهذا نصه :

ختم بالملك نفسه فى السنة الثالثة — الشهر الثالث من فصل الفيضان — اليوم الخامس عشر :

مرسوم ملكى للسمير الوحيد الكاهن المرتل — مدير القافلة خوف حر : لقد فهمت المقصود من خطـــابك الذى أرسلته إلى الملك فى القصر لتنبئه أنك قد عدت سالماً من « يام » ومعك الجيش ؛ وقد ذكرت لى فى الخطاب أنك أحضرت معك كل المحصولات العظيمة والطيبة التى منحتهـــا حاتحور سيدة يام إلى حضرة ملك الوجه القبلى والبحرى « نفر كارع ببى » الذى يحيا أبدياً ومخلداً . وقد ذكرت فى ذلك الخطاب أنك أحضرت قزماً يرقص رقصاً مقدساً من أرض الأرواح مثل ذلك الذى أحضره « باوردد » من بونت فى عهد الملك « ايزوزى » وقد ذكرت لجلالتى أنه « لم يحدث من قبل أن واحداً مثله قد أحضر مع من زاروا يام » :

حقاً إنك فعلت ما يحبه ويمدحه سيدك ! حقاً إنك تمضى الليل والنهار فى عمل ما يرغب سيدك ويحب ويأمر . وجلالته يرغب فى أن يمنحك كثيراً من الشرف العظيم حتى تصبح فخاراً لابن ابنك إلى الأبد حتى يقول كل واحد

حين يسمع ما فعلته جلالتى ، هل هناك ما يماثل ما عمل للسمير الوحيد خوف حر عندما عاد من يام من أجل اليقظة التى أظهرها لعمل ما يرغب فيه سيده ويحبه ويأمر به؟ » .

عد إذن إلى البلاد فى الحال نازلا فى النهر واترك كل شىء آخر . ولتحضر معك هذا القزم الذى جلبته معك من بلاد الأرواح حياً سليما حتى يقوم بالرقص المقدس وليسرى عن القلب وليدخل السرور إلى فؤاد ملك الوجه القبلى والبحرى « نفر كارع » عاش إلى الأبد .

عندما ينزل معك فى السفينة إعمل على أن يكون رجالك اليقظون من حوله من ناحيتى السفينة واعمل على ألا يسقط فى الماء ، وعندما ينام فى الليل ، ليكن رجالك اليقظون من حوله فى حجرته . فتش عليه عشر مرات كل ليلة لأن جلالتى يريد أن يرى هذا القزم أكثر من كافة محصولات بونت وكنوزها .

وإذا وصلت إلى البلاط وبصحبتك هذا القزم حياً سليما فان جلالتى سيقوم بعمل أشياء عظيمة لك تفوق ما عمل لحامل الخاتم الالهى باور دد فى عهد الملك ايروزى وذلك لرغبة جلالتى فى رؤية القزم .

وقد أعطيت الأوامر لحاكم إقليم البلاد الجديدة السمير مدير الكهنة ليقوم باعداد المأكولات فى كل قصر ببيت المحراث (من الضياع الملكية) وفى كل معبد بدون استثناء .

* * *

ولقد ظلت بلاد « يام » التى وردت الاشارة إليها فى نص خوف حر وغيره ممن جاءوا بعده موضع شك فى مكانها الجغرافى وتحديده حتى غلب الكثيرون

وجهة النظر القائلة بأن هذه البلاد - أو القبائل التي تحمل هذا الاسم - تقع فيما وراء الجندل الأول أو بينه وبين الجندل الثاني على وجه التحديد .

ولكن يقوم فى وجه ذلك عدة اعتراضات :

١ — أن رحلة خوف حر الأولى — التى صحب أباه فيها — للكشف عن البلاد استغرقت سبعة شهور وهى فترة أطول من أن تستغرق فى مرحلة تقع بين الجندلين .

٢ — أن الرحلة الثانية تمت فى ثمانية شهور وأن هدفها كان الكشف عن هذه البلاد وعلى ذلك فهى بلاد مجهولة وليست هى المنطقة الواقعة بين الجندل الأول والثانى على أية حال .

٣ — أن الطريق فى الرحلة الثالثة مر باقليم « وحات » (الواحات الخارجة على الأغلب) وهو الطريق البرى المعروف الذى يخرج بالقرب من نجع حمادى متجها إلى دار فور عن طريق وادى الملك . وقد لقى « خوف حر » فى الطريق زعيم يام ذاهبا إلى أرض تمحو ليضرب سكانها « فى ركن السماء الغربى » أى فى أعماق الصحراء من الغرب .

٤ — عودته فى آخر رحلاته بالقزم من بلاد « يام » وهو - كما يقول - « لم يحدث من قبل أن أحضر واحد ممن زاروا يام مثله من قبل » .

والقزم فى اللغة المصرية « دنج » ولا يزال أحد روافد الكونغو يحمل هذا الاسم حتى اليوم .

* * *

والرأى عندى أن بلاد يام تعنى من الناحية الجغرافية إقليم بحر الغزال الحالى وأن الوصول إليها كان عن أحد طريقين :

١ ـــ وادى الملك بالقرب من الجندل الثالث حتى جبال النوبا (جنوب كردفان) ثم منطقة بحر الغزال التى يقع فيها خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو.

٢ ـــ سكة وادى الأربعـــين عن طريق الفاشر أو إلى شرقها بقليل مارآ بالواحة الخارجة ، ومن الفاشر إلى بحر الغزال عن طريق بلاد النوبا .

ويفسر ذلك لنا الكثير من الأمور :

١ ـــ طول مدة الرحلات .

٢ ـــ النص على أنها رحلات تستهدف الكشف عن بلاد مجهولة .

٣ ـــ نوع المحصولات التى يؤتى بها من هـــذه البلاد وهى محصولات استوائية .

٤ ـــ استحضار القزم الذى ربما انتقل من الكونغو مع التجار ومنح الاسم الذى يطلق على المنطقة التى يعيش فيها : « دنج » أو « دنجى » .

* * *

والواقع أن نوع الحياة القائمة حتى اليوم فى إقليم جبال النوبا لايزال يحمل طابع الحياة المصرية القـــديمة لا فى مظهر السكان فحسب بل فى الأدوات التى يستعملونها حتى اليوم حتى ليكاد المرء يلمح لونا من الحياة لديهم يبدون فيه وكأن عجلة الزمان توقفت بهم عند الدولة القديمة ، بل إن كثيرا مما يستخدمون من أدواتهم شديد الشبه بما يعثر عليه الحفارون من ذلك العصر .

ولعل هذا يفسر لنا نقطة أخرى لا تزال غامضة وهى موقع بلاد پونت ، إن بلاد پونت فى رأى جمهرة المؤرخين تعنى بلاد الصومال الحالية أو إقليم عدن أو اليمن . ولعل ما دفع جمهرة المؤرخين إلى ذلك هو تردد اسم هذه البلادمنذ أقدم العصور ونوع محصولاتها وسلوك البحر الأحمر فى سبيل الوصول إليها .

ولست أرى تحديد الاقليم بالصومال أو عدن أو اليمن بل يغلب على الظن أن بونت كلمة عامة تشتمل الأقاليم الاستوائية فى نظر المصريين ، وأنهم رادوها منذ أقدم العصور لا عن طريق البحر وحده بل استطاعوا منذ الأسرة الخامسة على الأقل أن يقصدوها عن طريق البر . ولم تكن الرحلات التى تمت فى عهد الأسرة السادسة لتستهدف سوى الوصول إلى أقـــرب الطرق إليها وتعبيدها والاتصال بالسكان وربطهم بعلاقات مباشرة بالمصريين .

إن المصريين عرفوا من غير شك مجاهل القارة الافريقية منذ عهد الدولة القديمة واستطاعوا أن يمدوها بألوان الحيـــاة المصرية وثقافتها وأن يعقدوا الصفقات التجارية وأن يرتبطوا بأهلها بمختلف ألوان الروابط التى لا تزال آثارها واضحة هناك حتى اليوم كما سلفت الاشارة .

* *

وهناك مقبرة فى الغرب من القنتين بالقرب من مقبرة « خوف حر » تقص علينا نصوصها جانبا من المخاطرات التى كان يتعرض لها من يرتادون الجنوب . ويجدر بنا أن نذكر هنا أنه رغم أن خوف حر لم يكافح ضد نوب « يام » فانه قاسى الكثير من سكان ايرثت وواوات وأجزاء النوبة السفلى الأخرى أى فيما بين الجندلين الأول والثانى وهو يذكر أن من سبقوه كانوا يتجنبون زيارة هذه المنطقة والمرور داخل هذا الاقليم .

وفى نصوص « سبنى » نراه يذكر ان أباه « مخو » لقى حتفه فى هذه البقعة المعادية وأن الخبر أتاه فى آبو عن طريق ربان إحدى السفن وجندى نوبى ، وكابن بار بأبيه عول على الشخوص للبحث عن جثة أبيه ليواريها القبر الذى جهزه القتيل لنفسه ويقول :

«أخذت عدداً من الرجال من إقليمى ومائة حمار محملة بالعطور والعسل والكتان والزيت والأقمشة لاقدم هدايا لهذه البلاد، وهكذا قمت إلى بلاد الزنوج هذه. ولكننى قبل قيامى أرسلت رسلا عند الحدود بخطابات لأنبىء فرعون أنى ذاهب لاحضار جثة أبى من واوات وايرثت. وعند وصولى هدأت هذه البلاد بعطاياى ووجدت جثة أبى فى البلاد المسماة «مثر» وحملت جثته فوق حمار وصنعت له تابوت مؤقتا — ولم أستخدم نوبياً فى هذا العمل — وقد نالنى من أجل ذلك الثناء — وعدت عن طريق «واوات اوتك» ومن هناك أرسلت موظفا هو «ايرى» مع اثنين من رجالى إلى فرعون يحملون البخور والملابس وأنياب الفيل - وطول الواحد ثلاثة أذرع - وعند ذهابى قابلت «ايرى» عند «وعرة» عائداً من البلاط ومعه جماعة المحنطين وكبير الكهنة الجزيين وباقى الموظفين والندابين وكل أنواع الهدايا من البيت الابيض وأحضر زيتاً من بيت المال وأشياء مقدسة من بيت الطهارة وكتاناً وكل معدات الدفن وهى مماثلة لتلك التى قدمت من قبل الأمير «ميرو» (شخصية ممتازة يظهر أنها ماتت فى نفس العصر) وعند وصول «ايرى» سلمنى رسالة من فرعون يمتدحنى فيها ويثنى على ما قمت به ويقول «سأعمل لك كل خير مكافأة على عملك العظيم لانك أحضرت جثة أبيك ... هذا الذى لم يحدث من قبل» ودفنت أبى فى قبره فى الجبانة دفنة لم يدفن مثله مثلها من قبل. ثم ذهبت إلى منف أحمل هدايا البلاد التى جمعها أبى وقدمتها أمام جيشى والزنوج ونالنى من جراء ذلك ثناء البلاط. وقدمت الشكر للملك لما نالنى من عطف، ومنحنى جلالته صندوقا به زيت وأعطانى أقمشة وذهبا ولحوما ودواجن وعشرين فدانا فى الشمال والجنوب من غرب الهرم المسمى «نفركارع ثابت وحى» وذلك تكريما لى.

وقد عين «سبنى» على اثر ذلك حاكما على الجنوب وربما كان هو خليفة

« خوف حر » بعد موته ، ودفن عند موته بجوار قبر أبيه « نخو » ومازالت هذه المقابر الثلاثة كائنة غرب شاطىء النيل المقابل لاسوان . وبالقرب منها قبر « پپي نخت » وهو أحـــد القبور التي تلقي نصوصها ضوءا على هذه الفترة من تاريخ مصر كذلك فالجزء الاول من النقوش يخص مقاطعات واوات وايرثت أي ما بين الجندلين الاول والثاني ويظهر ان النوبيين الذين رأينا كراهيتهم للمصريين من قبل بدأوا يظهرون العدوان علانية ولذا أرسلت حملات لتأديبهم تحت قيادة « پپي نخت » الذي يقول :

« أرسلني مولاي الملك لأحطم واوات وايرثت فقمت بما عهد إلى به مما هنأني الملك من أجله وقتلت هناك عدداً كبيراً وعدت إلى البلاط بعدد عظيم منهم كأسرى ثم أرسلني مولاي مرة أخرى لأعادن هذه البلاد وقمت بهذه المهمة على الوجه الذي هنأني من أجله كثيراً . وأحضرت معي زعيمين من زعمـــاء هذه البلاد المعادية ووصلا بسلام مع الغنم والمعز إلى البلاط ومع بعض الأطفال وقوادهم والضابطين العظيمين اللذين كانا يصحبانهم » .

وبعد ذلك أراد الملك أن يرسل حملة الى « پونت » ، فوجه الضابط « عن عنخت » إلى أحد موانى البحر الأحمر ليبنى هناك سفينة لهذا الغرض ولكن جماعة من البدو هاجمت الجيش وذبحوه ورجاله . فأرسل الملك رسوله «پپي نخت» ليحضر جثة « عن عنخت » كما فعل « سبنى » مع جثة أبيه « نخو » فهاجم « پپي نخت » البدو وذبح الكثيرين منهم ثم عين على أثر ذلك حاكما للبلاد الأجنبية . ورغم أنه كان يعيش في آبو إلا أنه كانت معقودة له وظائف كثيرة في منف . ولكنه لم يعين رغم ذلك حاكما على الجنوب إذ أن « سبنى » كان يشغل هـــذا المركز وقد شغله من بعده « ايبي » .

وايبي هذا هو ابن الوزير « زعو » أي أنه كان ابناً لخال الملك، ومقبرته بدير

الجبراوى ، وكان شاباً عند موت أبيه . وقد عين فى عهد « مران رع » أميراً على المقاطعة الكائنة شمال أبيدوس مقر آبائه : وفى عهد « ببى نفر كارع » عين حاكما على الجنوب ولما مات أبوه عين حاكما على « ثيس » . ومقبرته حافلة بالتهديدات التى توحى دائما بأنه كان يعرف أسرار العالم الآخر كما يعرف مختلف الرقى والتعاويذ .

* * *

وخلف « ابى » ولده « زعو شمع Zau-Shema » الذى كـــان يحكم نفس المقاطعتين فى أواسط حكم « ببى نفر كارع » .

وخلفه ابنه « زعو » الذى حكم الولايتين خلال النصف الثانى من هذا الحكم الملكى الطويل ، وهو يذكر من بين نصوص مقبرته أنه عنـد موت أبيـه التمس من الملك أن يرث الامارة فأصدر الملك مرسوما يثبت به الوراثة مما يوحى بأنه كان له أخ ينازعه هـــذا الحق وأن الملك انتصر له فهو يقـول : « كنت الابن الأكبر وأحب الأبناء إلى قلب أبى وأفضلهم وأعزهم وقد دفنت أبى بفخامة لا نظير لها فى الجنوب » والتمست من الملك أن يصنع بى جميلا : أن يهدى أبى من بيت المال تابوتا وكتانا وعطراً فأمر باحضـار تابوت من الخشب وعطوراً وزيتاً ومائتى قطعة من أجود الـكتان ـــ من أحسن الـكتان فى الجنوب ـــ مما لم يعمل من قبل لواحد من طبقته . والآن عملت الترتيبـــات على أن أدفن فى القبر مع أبى حتى أكون فى مكان واحـد معه . لا لأننى فى مركز لا يسمح لى بعمل قبر خاص بى بل لأرى أبى كل يوم ولأكون معه فى مكان واحد » .

* * *

وتقدر بردية تورين مدة حكم « ببى » الثانى بأكثر من تسعين سنة لأن البردية مقطوعة بعد هذا الرقم ، وعلى هذا فانه قد مات فى السـادسة والتسعين من عمره على الأقل . ويرى مانيتو أنه حكم ٩٤ سنة أى أنه مات فى المائة من عمره .

وقـد فتح هرمه عام ١٨٨٠ ولوحظ أن المتون التى تغطى جـدرانه أطول

منها فى أهرام أسلافه . وكان التابوت من الجرانيت محفوظاً فى حالة جيدة ولكن لم يبق سوى البعض من اللفائف التى كانت حول الجثة .

٥ — مر ان رع — عنتى ام سا اف (Mer-en-Ra (Anti-em-sa-ef

كان حكم « ببى نفركارع » كارثة على مصر فى العشرين سنة الأخيرة منه ؛ فلابد أنه كان قد بلغ من الشيخوخة حداً جعله لايقوى على حكم البلاد . كما أن رجاله الذين كان يعتمد عليهم كانوا قد ماتوا الواحد بعد الآخر فبقى وحيداً بلا سندأو عضد كما يظهر أنه لم يترك عقبا فليس هنـــاك مايشير إلى اسم ابن مباشر له ؛ وإذا كان هذا الملك الجديد ابنا له فالأغلب أنه كان فى الثمانين من عمره حين ولى العرش . وربما كان حفيداً له أو ولد له فى آخر أيام حياته . وربما لم يكن شيئا من ذلك كله بل كان أحد الأقرباء المباشرين ... ولكنه لم يكن مغتصبا للعرش على كل حال فان اسمه الذى اتخذه لنفسه هو اسم شقيق الملك المتوفى . . . وتسجله قائمة أبيدوس خليفة لـ « ببى نفر كارع » الشرعى وأما جدول سقارة فلا يسجل اسما بعد « نفر كارع ببى » حتى « نب حبت رع منتوحتب » من الأسرة الحادية عشرة بعد أكثر من ٢٥٠ عاما . وأما مانيتو فـيراه كذلك خليفة شرعياً لـ « ببى الثانى » ، ويسجل له مدة الحكم عاما واحداً فقط . وأما بردية تورين فيظهر أنها اعترفت به كذلك لأنه رغم أن اسمه غير موجود فان مدة الحكم — وهى عام واحد — ما زالت باقية ، وبها تنتهى الأسرة .

ويقدم مانيتو اسم « نيتوكريس » فى نهاية الاسرة السادسة ، وقد سجل الاسم فى بردية تورين بعد جمع سنى حكم الأسرة ، ومعنى هذا — لو كان له ظل من الحقيقة — أنها تأتى فى الأسرة السابعة بعد ست سنوات من الفوضى التى بدأت بانتهاء الأسرة السادسة والتى بقيت مصر خلالها بغير حكم ملكى ثابت وبغير ملوك ، كما تذكر بردية تورين .

الفصل السابع

الدولة القديمة

النظم والادارة والحياة الاجتماعية والفنية

مقدمـــة

يرى بعض المؤرخين أن حكم الدولة القديمة استغرق عشرة قرون ، ويرى البعض الآخر أنه امتد حتى بلغ خمسمائة وألف عام وهى مرحلة وإن صغرت فى عمر الزمن إلا أنها فى أعمار الدول تمثل عادة أطواراً متباينة وحضارات متتابعة تسترعى الالتفات . وأغلب الأمر أن حكمها استطال إلى خمسة قرون فقط كما سلفت الاشارة إلى ذلك .

والواقع أن عهد الدولة القديمة فى مصر - بقدر ما استطعنا أن نستقرىء من آثار - يكاد يمثل عهداً متصلا بدأت الحضارة فيه - بعد أن أرسيت فى العهد السابق على أسس ثابتة وطيدة - تسير قدما فى مختلف مناحى الحياة .. ويكاد يكون كل طور منها مرحلة متقدمة مكملة للطور الســـابق .. ولا يكاد يستقر وضع من الأوضاع حتى تدخل عليه إضافات وتعديلات وتحسينات تضفى عليه رونقا جديداً يزيد من بهائه ...

إن الصورة التى تقدمها أخريات الدولة القـــديمة - ولا أقول آخرها - هى صورة للقمة التى وصلت إليها الحياة المصرية بعد هذه المرحلة الطويلة المشرقة من التطور الاجتماعى وهى صورة لم تستطع مصر فى أعلى عصورها حضارة أن تطاولهـا من بعض النواحى ، حتى انرى البلاد فى عهد الأسرة الســادسة والعشرين تفتش فى ماضيها العريق فلا ترى بدأ من أن تلتزم الخطوط التى جرت عليها فى عهد الدولة القديمة وتحاول أن تقلدها علهـــا تنعم بما كانت تنعم به ، هذه ، من رقى وحضارة .

الاقطاع

انهارت الملكية فى أعقاب الأسرة السادسة . وسنرى فى الفصل التالى الظروف التى أحاطت بالبلاد ففتتت السلطة المركزية بغزو أجنبى على الأغلب تضافر مع العوامل الداخلية التى سبقت الاشارة إليها . وقد عم الخراب البلاد وضاعت المثل وتحطمت المقدسات وانهارت المبادىء والأركان الأساسية للأخلاق وأصبحت الأنانية شعاراً محببا مرموقا وتحرر الناس من السلطان : سلطان الدين والدنيا ، واستباحوا الحرمات وضاعت القيم والأقدار .. وتهالك القوم على الدنيا ومتاعها يتزودون منه كأنما يخشون أن تنقضى أعمارهم دون أن ينالوا كفايتهم .. فلم يعد يعنيهم أمر الآخرة التى حاولوا الانصراف عن التفكير فيها .

بدأت طلائع الاقطاع كما رأينا فى أواسط عهد الأسرة الخامسة ثم عمت عهد الأسرة السادسة حين بدأت الأقاليم المحلية الخاضعة لسلطان التاج تتحول إلى إمارات مستقلة أو شبه مستقلة ، ووراثية ، تقوى وتزداد منعة بفضل المنح والعطايا فلم يعد يربطها بالعرش فى أخريات العهد سوى سلطان إسمى .

الملك

ظلت الحكومة فى الدولة القديمة موحدة تحمل فى ثناياها مظاهر حكومتى الشمال والجنوب على ما كان الأمر عليه فى بداية عهد الأسرات . على أن هذه المظاهر كانت فى الواقع مظاهر صورية فقط ، ذلك أننا نرى فى بدء عهد الملكية القديمة نوعا من المركزية القوية التركيز والتسلط فلم تكن هناك حكومات محلية بها الادارة وكل ما يخص طرائق الحكم . ويظهر أن الأمر استمر على ما كان عليه فى العهد الثنى فيما عدا الفكرة التى كونها المصريون عن الملك الذى أخذوا يعتبرونه

إلها أكثر منه إنسانا فأطلقوا عليه لقب « الإله الطيب » وسموا بيته بالبيت الكبير « برعو » وهى الكلمة التى أطلقت فيما بعد على الملك نفسه تحت الصورة التى حرفها اليونان إلى فرعون ، وازدادت ألقاب الملك لقبين هما « حور الذهبى » ولقب « سارع » أو ابن الشمس الذى يوجد بصفة متقطعة فى الأسرة الرابعة ثم بصفة منتظمة منذ عهد « نفرايركارع » ثالث ملوك الأسرة الخامسة . ومنذ عهد « سنفرو » بدأ وضع اسم الملك الـ « إنسبيا » داخل الخانة الملكية المعروفة بالخرطوش كما وضع اسم الـ « سارع » داخله كذلك . ويرجع هذا اللقب الأخير إلى ارتباط العرش بالكهانة ، وهو طريقة للتعبير عن تبعية هؤلاء الملوك الوثيقة للاله رع وكهنة اون مما أضعف فى الواقع من نفوذ الملكية ورقق من هالة التقديس . فلم يعد الملك الإله العظيم بل الإله الطيب «ابن رع» . ولقد أخذ الملوك يتزلون من عليائهم شيئا فشيئا حتى سمحوا لأنفسهم أن يتزوجوا من الشعب فى آخر الأمر فانهار ذلك الحجاب .. إلى الأبد .

وكان موظفو الملك ونصحاؤه ووزراؤه لا يكافأون بالمال بل بالطعام والكساء . وكان « دومين » الملك متسع النطاق يكفل حياة راضية لموظفيه ، وكانت أملاك التاج واسعة . وزاد اتساعها بتوحيد البلاد وانضمام أملاك ملك الشمال إلى أملاك ملك الجنوب . ثم بدأ الملك ينعم باقطاعات كهبات . وهكذا بدأت أملاكه تتقلص تدريجيا . ولكن قانون الوراثة لم يكن معمولا به فى أول الأمر إجمالا وإن كان الابن يرث أباه فى مركزه الاجتماعى أو فى الجبانة . إذ أن الوراثة التامة لم تكن قائمة إلا فى حالات نادرة . . . ورغم ذلك فقد بدأ يظهر ملاك جدد تدريجيا . ومن دلائل تقلص نفوذ الملك أن المصاطب بعد أن كانت تلتف حول هرمه بدأت تنتشر شمالا وجنوبا ، ومعنى هذا المظهر الجديد أن المركزية بدأت تقل فكرتها وتضمحل حتى أصبحت السلطة فى أيدى الحكام فى

المقاطعات وأصبح نفوذ الملك ظاهرياً ، ثم أخذ يظهر فى المقاطعات بعد قرون طويلة مالك كبير هو أحد الأمراء . وكانت للملك فى مبدأ الأمر قلعته الخاصة وخدمه وموظفوه ،يعينهم أو يفصلهم ،وعلى رأسهم موظف كبير يوكل إليه تنفيذ أوامر التاج ورغباته وتحت نفوذه قائد القوة فى المقاطعة . وكان الملك فى مبدأ الأمر صاحب سلطة ونفوذ يعترف بها الجميع ويهابونه ، ولذا لم يكن هناك خوف على المركزية الكاملة لأنه كان يجمع بين يديه كل السلطات ولكن هذه المركزية أخذت تتقطع أوصالها ثم تنحل تدريجيا حتى تراخى الملك فسمح بالتوريث وسمح بنفوذ محلى للأمراء فأضعف هذا من كيانه وقوى غيره على حسابه وهكذا بدأت الدعامة القوية تنهار .

الادارة المركزية

ليس من اليسير أن نعرف على وجه التحقيق الوسيلة التى كان يباشر بها الملك الحكم فان معظم النصوص تتحدث عن رغبات الملك وتنفيذها والمثوبة كثمن لذلك .وفى عهد الاسرة الثالثة لم يكن حق الوراثة فى الوظيفة قائماً بل كانت مباشرة الوظيفة منحة من الملك وكان الموظفون يعينون بمراسيم ملكية طبقا لتقاليد متعارف عليها . ومن النصوص المختلفة ومن نقوش المقابر يمكن تقسيم الألقاب التى خلعت على الموظفين إلى خمس مجموعات :

١ — ألقاب شرف وهى ألقاب قديمة كانت لها وظائف حقيقية ثم بطل استعمالها مثل السمير الوحيد ، فم بوتو ، المشرف على نخن .

٢ — ألقاب الخدمة الشخصية للملك مثل حامل النعل والغسال والمشرف على التيجان .

٣ — ألقاب دينية مثل الكاهن المرتل والكاهن الجنزى .

٤ — لقب الوزير ومهامه .

٥ — لقب حاكم المقاطعة .

وقد زادت الألقاب التى يحملها الموظفون بمرور الزمن حتى لنشهد بعضهم يحمل أكثر من أربعين لقبا أغلبها ألقاب شرف لم تكن تعنى دائما تقلد الموظف شئون الوظيفة التى يشير إليها اللقب .

وكان كاهن الملك الأكبر يمنح لقب « رخ نيسوة » (المعروف لدى الملك)، وكان كاهن آخر هو الـ « خرى حب » ، المرتل ، يحمـــل لقب « إرى بعت » (الأمير) وهو لقب اقتصر استعماله خلال الأسرة الثالثة على الكاهن الأكبر للإله رع - وكان من أبناء الملك دائما - ثم أصبح الكاهن الأكبر للإله تحوت يحمل نفس اللقب وخاصة منذ منتصف الأسرة الرابعة ، وكان يعدل هذا اللقب ويساويه لقب آخر هو « سش نثر » أى الكاتب الإلهى أو الكاتب المقدس . . .

ومن بين ألقاب الشرف ألقاب أخرى من بينها كما قدمنا « السمير الوحيد » و« حاتى عا » (أمير المقاطعة) ولم يكن صاحبه من بين الموظفين دائما بل كان يختار من علية القوم أحيانا .

وحين ننتقل إلى الأسرة الخامسة نشهد تطوراً جديداً أساسه الوضع الإلهى الجديد للملك حيث أصبح هو الصورة الحية للإله ، ابنه الجسدى . . . وبذا لم تعد إقامة الشعائر الدينية قاصرة على أسرته بل أصبحت عامة مادام الشعب يعبده كـ « إله » ، ولم تعد وظيفة « المرتل الأول » قاصرة على أمراء البيت المالك من أبنائه بل بدأ يشغلها بعض البارزين من الأفراد . . . وقد ظهرت إلى جانبها وظيفة أخرى هى « حنك نيسوه » كان صاحبها يشرف على تقديم القرابين للملك بوصفه « إلها » . . . وهى وظيفة أقل شأنا من غير شك من وظيفة المرتل حيث

لم يحمل لقبها واحد من أبناء الملوك . . . وإلى جانب ذلك ظهرت وظيفة الكاهن المطهر « وعب »وكان صاحبها يحمل لقب « وزير » ويشرف على إقامة الشعائر الدينية فى معابد الشمس ، وتحت إمرته طائفة من الموظفين ، كما ظهرت طبقة من الكهنة هم الو حم كا » الذين يقومون على خدمة الروح المادية ويشرفون على إقامة الشعائر الملكية فى المعابد ، والهياكل المركزية ،والمحلية على السواء . . .

ولقد كانت خدمة الملك فى مبدأ الأمر واجبا ينال عليه الموظف حقه فى الطعام والكساء كما قدمنا ، ثم تقدم شأن المنح فشملت الخزينة ،وتبع ذلك ضمان الخدمة الجنزية مما سارع بافقار الملك وساعد على اللامركزية فى الوقت نفسه بل أدى إلى تداعى الملكية المنفية فى نهاية الأمر .

وكان على رأس الادارة المركزية الوزير . ويرى « دريوتون » أن هذه الوظيفة ظهرت فى عهد سنفرو .

وكان الوزير واحدا من أبناء الملك فى الأسرة الرابعة ، وكان من بين ألقابه الهامة لقب «كاهن تحوت » . ومن أشهر وزراء العهد ابنا سنوفرو وهما «كانوفر » و « نوفر ماعة » ثم ابن « نوفر ماعة » وهو « حميون » ، وكذا « نيكاورع » بن «خع اف رع» ، ولسنا هنا بصدد مناقشة أمر متى ظهرت الوظيفة ، وظيفة الوزير ، لأول مرة فهذا الأمر قد ناقشناه من قبل، ولكنه كان على أية حال موظفا تمر به كل الأشغال الهامة وكان يشرف على المحفوظات الملكية حيث تحفظ المراسيم والعقود والوصايا والمستندات الهامة ، وكان يعاونه رؤساء الارساليات الذين ينقلون إليه تقارير الإدارات الإقليمية . وكان الوزير هو رئيس القضاء الأعلى الذى يرأس « محكمة الستة » وكان يلقب بعظيم الخمسة فى بيت تحوت وكاهن ماعة (منذ الأسرة الخامسة) وإلى جانبه كان يوجد قاضى نخن وهو قاضى التحقيق ومراعاة المراسيم، وكان الوزير يشرف على

إدارتين مهمتين هما الخزينة والأعمال الزراعية ويعاونهم رؤساء المأموريات الملقبون بحملة خاتم الإله (ملك الوجه القبلي) وحملة خاتم ملك الوجه البحرى (وهو لقب رمزى)، ومن مهام أصحاب اللقب الأول تنظيم وقيادة البعثات لاستثمار المناجم أو البعثات الخارجية وكانت تحت قيادتهم فرق مسلحة من الجنود أو الأسطول وكانوا يمنحون الرتب العسكرية العالية وكان لهم فضلا عن ذلك الاشراف على المحتكرات الملكية وعلى مايقام من مبان وعلى قطع الأحجار. وكان تحت أيديهم موظفون يحملون لقب رؤساء الأعمال يتولون إدارة أعمال البناء.

وكان الوزير يشرف على «بيت الملك» الذى يشمل أربع إدارات هى «بيت التحريرات الملكية» و «بيت الكاتبات» و «بيت العقود المختومة» و «بيت الضرائب والتوزيع» ويرأس كل منها عضو من مجلس العشرة ويعاون هؤلاء الأعضاء الوزير فى مهام وظيفتــه.

وكانت إدارة الأعمال الزراعية تنقسم إلى مصلحة المواشى ومصلحة الزراعة والحقول وكان يشتغل بالأولى وكلاء يعاونونه (أى الوزير) من مجلس العشرة وبالثانية رؤساء للحقول يعاونهم كتبة الحقول.

وكان يشرف على مصلحة الحقول فى الأسرة الثالثة «مدير الحقـول» الذى تحول فى الأسرة الرابعة إلى «مدير كتـاب الحقـول» ثم انقسمت الادارة فى الأسرة الخامسة إلى «إدارة الحقـول» و «إدارة المستخدمين» تحت إشراف «مدير كتاب الحقول فى البيتين» الذى كان تحت إمرته مديرو الضياع ومديرو الزراع فى الوجهين، كما انقسمت إدارة الضيـاع إلى أربع إدارات هى «بيت المحراث» و «بيت الراعى» و «بيت حيوان الانتاج» و «بيت حيوانات التربية».

النظام الادارى فى الأقاليم

كان الملك يعين على كل إقليم حاكما من قبله يحمل لقب «عدج مر» أو لقب

« مشم تا » يضاف إليه لقب « رئيس المأموريات » . وكان يلقب كذلك « حقاحت » أى « حاكم القصر » كان يشرف على القضـــاء إلى جانب الأعمال الكتابية وجباية الضـــرائب . ولذا كان يحمل كذلك لقب « زاب » واقب « كاهن ماعة » وتحت إمرته عدد من قضاة الحقول وكتابها ولهم الاشراف على الخدمات الاجبارية وجمع الضرائب المستحقة . وكان معظم حكام المقاطعات فى النصف الأول من الدولة القديمة موظفين خاضعين لنظام النقل من مكان لآخر. وليس أدل على ذلك من أن واحداً منهم لم يذكر اسم المقاطعة التى يحكمها بل كان تركزهم عند موتهم حول مقبرة الملك .

وكان الواحد منهم يأمل أن ينتهى به المطاف إلى إحدى وظائف الحكومة المركزية فى العاصمة كمدير لاحدى المصالح الرئيسية ثم قد تمتد آماله فيرنو إلى أن يصبح عضوا فى محكمة الستة العليا أو مستشاراً سرياً أو نائبا لفرعون فى « نخن » أو ... وزيرا ...

وكان هناك إلى جانب حاكم المقاطعة ، المعروف باسم « زاب عدج مر » وهو الذى ينتخب من بين الكتاب الذين تدرجوا فى سلك الوظائف ، طبقة أخرى من الحكام يحملون لقب « حاتى عا » لم يكونوا من الموظفين بل هم من علية القوم يتسلمون حكومة المقاطعة هبة من الملك بوصفهم من كبار رجاله ، ويصدر مرسوم بتعيينهم يطلق أيديهم فى ريع المقاطعة ... ويقسمون مناطق نفوذهم بين أفراد أسرهم كحكام للقلاع أو كنواب له .

أما فى النصف الثانى من الدولة القديمة فانه ، وإن احتفظ الملوك نظريا بحق النقل والعزل، فانهم لم يستعملوه ، فقويت الروابط بين الحكام ومقاطعاتهم وضعفت صلتهم بالبلاط تدريجيا وأخذوا يقيمون المقابر فى مقـــاطعاتهم ، وساعدهم على ذلك أن أصبحت مراكزهم وراثية . وقد أولاهم الملوك هذا المعروف دون أن

يقدروا ما سوف يؤدى إليه من كارثة ، على أن هذا المعروف أصبح فى عهد الأسرة السادسة تقليداً متبعا ثم أصبح فيما بعد حقا مكتسبا . وهكذا نشأت أسرات أمراء الاقطاع فى الأقاليم وأصبح لأكثرهم سلطة واسعة كحكام الفنتين الذين كان لهم بلاط خاص وتحت إمرتهم عدد من الموظفين ولهم السيادة المطلقة فى الشئون الدينية والقضائية والحربية والمالية فى مقاطعاتهم ، وشجعهم على ذلك أن الملوك كانوا يعهدون اليهم بمهام كان يعهد بها عادة لحلة خاتم الاله من قبل - وحاول الملوك أن يتداركوا الأمر قبل استفحاله ، ولكن بعد فوات الأوان ، فعينوا حاكما للجنوب هو أحد موظفى الادارة المركزية ليضمن سير الأمور بما يتفق ورغبة التاج . ولكن حتى هذا اللقب كان يحمله أكثر من شخص واحد فى وقت واحد ، فنحن نجد أنه اشترك مع « ونى » كل من حاكم القوصية وحاكم أدفو . وربما كان اللقب تشريفا لهم ولم يكن لقبا عمليا . ولكنه كان على كل حال سلاحا ذا حدين يستطيع الحاكم القوى عن طريقه أن يستغل مركزه إلى أبعد الحدود .. بل إن هذا اللقب بالذات أصبح بعد ذلك يمنح لحكام الأقاليم ، فألغى من بين وظائف الادارة المركزية وأصبح لقبا لحكام المقاطعات الاقوياء يتوارثه الأبناء عن الآباء . وهكذا لم تعد للملك وسيلة لفرض رقابة على هؤلاء الحكام فأخذت الدولة القديمة تقترب بسرعة من نهايتها المحتومة .

وهكذا يتبين أنه كانت هناك عوامل أخذت تعمل فى النصف الثانى من الدولة القديمة على الحد من سلطان الملوك وإضعاف مراكزهم وتقوية سلطان حكام المقاطعات من ناحية أخرى . وأهم هذه العوامل :

١ - تولى ملوك الأسرة الخامسة على العرش وإغداقهم على المعابد بسخاء .

٢ - منح كبار الموظفين مساحات كبيرة من الأرض معفاة من الضرائب للصرف منها على إقامة طقوسها الجنزية وبذلك قل دخل الحكومة المركزية لدرجة كبيرة .

٣ - ازدياد سلطة حكام الأقاليم ووراثة أبنائهم لمراكزهم .

وعلى ذلك فانه يمكن اعتبار النصف الثانى من الدولة القديمة ، العهـــد الذى انتقلت به الادارة من حكومة ديموقراطية بها الموظفون الخـــاضعون للادارة المركزيه إلى حكومة اقطاعية يستقل كل حاكم فيها بشئون الامارة فى المقاطعة .

الادارة المالية

كانت خزانة الدولة تتألف فى الأصل من بيت المال الأبيض وبيت المال الأحمر واتحد البيتان فى الدولة القديمة تحت إدارة أصبحت تحمل اسم بيت المال المزدوج الأبيض ، فاحتفظ الاسم الجديد بذكرى الازدواج القديم ودل على ما صار للوجه القبلى من مركز ممتاز وقت الازدواج . وكانت خزانة الدولة تشرف على جميع المنتجات التى كان على البلاد تقديمها لـ « بيت العظيم » « پر - عو » الذى حول فيما بعد إلى فرعون كما قدمنا ، وكان يقصد به أولا القصر الملكى لا الملك نفسه . فمحصولات الحقول والبساتين تجمع فى الشونة المزدوجة التى كانت تتبع الخزانة المزدوجة والتى كـــان يشرف عليها موظف خاص هو رئيس الشونة المزدوجة وهو عضو فى مجلس العشرة وحكام الجنوب ،... وكانت توجد بالقرب من الصحراء أراض لا تصل اليها مياه الفيضان إلا فى القليل النادر وبكميـــات ضئيلة وكانت من أملاك التاج وأطلق عليهـا اسم « خنتيو - ش » وكان يشرف عليها موظف هـام يبدو أنه كـان لوظيفته بعض الخطر فى الدولة القديمة حيث أنه تقع ضمن حدود هذه الأراضى ، المقابر الملكية ومناطق الأهرام . وكان يوقف للصرف عليها من إيراد محصولها ، وكانت معفـاة من الضرائب وكـانت تستغل - بالنسبة لظروفها الزراعية التى قدمناها - كمراعى أو حدائق للخضر لأن ميـاه الرى لم تكن تصل إليها دواما .

السلطة القضائية :

كان الوزير كما قدمنا ، بحكم مركزه الرئيسي ، الرئيس الأعلى للقضاء بوصفه « القاضي الملكي » وكان حكام المقاطعات يمثلون سلطانه في الأقاليم فهم رؤساء الشرطة ورؤساء أقلام القضايا ورؤساء الإدارة في المقاطعة (وينيبون عنهم في هذا الميدان موظفين قضائيين يحمل الواحد منهم لقب « زاب سش » أي «كاتب قضاء») ويحمل الواحد منهم لقب « زاب عدج مر » أي القاضي حاكم الإقليم .

وكانت بالإدارة الرئيسية في العاصمة « إدارة العدل » وتدير محاكم البلاد جميعاً وتشتمل عدة إدارات من بينها إدارة خاصة للشكاوى وإدارة قضايا (للفصل في المنازعات الخاصة بحجج العقار) ثم إدارة ثالثة للفصل في شئون الضرائب ... ويحمل موظفو هذه الإدارات عدة ألقاب من بينها لقب « زاب » (قاضي) ، « زاب سحدج » « قاضي ممتاز » و « زاب سش » (كاتب قضاء) و « زاب سحدج سش » (كاتب قضاء ممتاز) ثم « زاب ايمي رسش » وهو مدير الإدارة القضائية . . هذا إلى جانب طبقة أخرى تشرف على إدارة المحفوظات حيث تنسخ الأحكام تحت إشراف قاضي يشغل وظيفة « القاضي المشرف على السجلات » .

وكان حاكم المقاطعة كما سلفت الإشارة يحمل لقب « زاب » (قاضي) بالإضافة إلى عمله ووظيفته كحاكم . وقد أدى ظهور هذا اللقب إلى اختفاء لقب آخر هو « حقاحت عا » (حاكم القصر الكبير) الذي كان يطلق من قبل على نائب الملك في المقاطعة من قبل في الأسرتين الثالثة والرابعة والذي كانت تتمثل فيه السلطات التنفيذية والقضائية معاً والذي حل محله لقب «حاكم المقاطعة العظيم»

منذ الأسرة الخامسة بوصفه رئيساً لمحكمة المقاطعة .

وكانت محكمة المقاطعة تشكل من مجموعة من الاشراف الذين يجلسون للحكم كقضاة فى المسائل المتصلة بالعقار والأراضى ، وترتكز الإجراءات على أساس مكتوب يحوى وثائق لها أصل بالسجلات ... ولكن كان يمكن تجنب اللجوء إلى هذه المحكمة إن نص فى العقد من قبل على ذلك ، على أن يفصل فى الخصامات عن طريق لجنة تحكيم من الكهنة الذين يمثلون الوقف ... ويصبح حكمهم نهائياً بمجرد صدوره .

وكان حاكم المقاطعة يحمل كذلك لقب « مدو رخيت » أى قاضى المدنيين . ومنذ الأسرة الخامسة أصبح يحمل هذا اللقب كذلك رجال المحكمة العليا الستة الذين كانوا يباشرون عملهم تحت إشراف الوزير الذى يحمل لقب « مدير محكمة الستة » أو « مدير كل المحاكمات » . وكان أعضاء هذه المحكمة يختارون من بين أعضاء مجلس العشرة وقد يحمل بعضهم ألقاب أخرى مثل « رؤساء الأسرار » أو « رؤساء الكلام السرى » الخاص بمحكمة الستة . وأهمهم جميعاً هو « القاضى فم نخن » الذى يحمل لقب « رئيس الأسرار الذى ينطق بأحكام محكمة الستة » . . . ولقب « رئيس الأسرار الذى يجلس وحده فى محكمة الستة » ، وربما كانت تنقسم هذه المحكمة الى ست دوائر يرأس كل منهم « قاضى فم نخن » كما يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارون « حرى سشتا » (القائمون على الأسرار) وهم من طبقتين : مستشارو التحقيق (من أعضاء مجلس العشرة) ومستشارو الجلسات (من أعضاء مجلس العشرة كذلك أو من القضاة رؤساء الكتاب) .

وقد اتبع هذا اللون من تقسيم المستشارين فى تقسيم القضاة فهناك قضاة تحقيق وقضاة تحضير الاحكام التى ينطق بها الرئيس (أو قضاة جلسة) .

والواقع أن توزيع الاختصاصات وتنوع الإجراءات والإشراف على العدالة على هذه الصورة يكشف عن تنظيم رائع ينم عن مرحلة حضارية لا نستطيع إلا أن نعجب بدقتها وحسن تنظيمها .

الموظفون

وفيما عدا الأعمال الادارية كانت هناك أعمال دينية يقوم أصحابها بأداء الخدمات فى معابد الآلهة أو فى المعابد الجنزية للملوك أو فى مقابر الأفراد . وكانوا يحملون ألقابا مختلفة . وقد قسمنا هذه الألقاب من قبل إلى مجموعات خمسة ، ويتضح منها أن النظام الادارى فى الدولة القديمة كان بصفة عامة استمراراً للنظام الثينى مع بعض تعديلات دعت إليها الضرورة والتطور مما أدى الى زيادة الموظفين وبخاصة الكتاب . وكان المصريون ينظرون إلى الكاتب نظرة تنطوى على الكثير من التقدير . وليس أدل على ذلك من أن المدرسة التى كان يتخرج منها الكتاب كانت تسمى « پر — عنخ » أى « دار الحياة » .

وكان الموظفون أيام الملكية فى الأسرة الرابعة عمالا للملك ، يعملون لحسابه الخاص ولا يطمعون فيما هو أبعد من ذلك ، وكانوا يتصرفون طبقا لأوامره ونواهيه وكانت تدفع لهم أعطياتهم إما من منتجات الأملاك الملكية أو من الضرائب . وكان من بين عمال الملك عدد كبير من الخبازين وصانعى الجعة والنساجين والصناع وكانوا لا يعملون للبلاط فقط بل للموظفين (الذين كانوا يأكلون من مائدة الملك) وكلما أظهر الموظف كفاءة خاصة عهد إليه بأعمال أهم حتى يكون ذلك مشجعا له على التفانى فى إظهار كفاءته . وكانت مكافأة كبار الموظفين التى تصبو نفوسهم إليها ويتوقون إلى تحقيقها هبة ملكية بتكليف العمال لاعداد مقابرهم بما تتطلبه

من توابيت وموائد قرابين وأبواب وهمية وتماثيل ، وهكذا بدأت أولى علائم السخاء للممتازين من طبقة الموظفين . ولما كانت الطقوس الجنزية تحتاج إلى نفقات بعد الموت كان لابد من تخصيص إيراد ثابت للصرف منه على الطقوس والكهنة الذين يقومون بمباشرتها . فعمد الملوك إلى منحهم الأراضى التى يكفل دخلها الانفاق على مقابرهم بعد الموت على نحو ما كان يتم مع أمراء وأميرات البيت المالك . وكانت هذه المنح تبلغ أحياناً حداً كبيراً . وكانت هذه الأراضى تعفى عادة من الضرائب المستحقة أو على الأقل من معظم الضرائب المستحقة . ولم يقتصر الأمر على الموظفين بل تعداه إلى عدد من الأفراد الذين نالوا الحظوة لدى الملك دون أن يقوموا للدولة بعمل ما . ومما يدل على ذلك تلك الألقاب التشريفية . وبهذا زادت المصروفات على خزانة الدولة والملك حتى لم يستطع بعض الملوك بناء معابد الشمس . ولم يستطع البعض الآخر إقامة مقابر ضخمة رائعة مثل من سبقوهم . وكان لهذه المنح أثرها فى ازدهار الصناعة والزراعة فى البلاد ، فظهرت الصناعة فى ضياع كبار الملاك وازدهرت فى ضياع الملك كما تشير إلى ذلك الرسوم على جدران المقابر ولم يقف الأمر عند هذا الحد وإنما أخذ الملوك ـ وخاصة فى الأسرة الخامسة ـ يغدقون المنح على المعابد المختلفة ، وهى كثيرة جداً ، وهكذا يمكننا أن نتصور العبء الذى كانت تنوء به مالية الملك .

الشعب

كان المصريون فى عهد الدولة القديمة يؤلفون طبقتين : الطبقة الحاكمة وطبقة عامة الشعب . وكان عدد أفراد الطبقة الحاكمة أقل بكثير طبعا من أفراد طبقة العامة . وكانت الطبقة الحاكمة مكونة من موظفى الادارة والكتبة ، أما طبقة العامة فمن الفلاحين والتجار والصناع . وكان الشعب

عبارة عن :

١ - فلاحين مرتبطين بالأرض وعددهم كبير ويشتغلون بالفلاحة وبالخدمة فى الأراضى الملكية وضياع الأمراء وعظماء الدولة .

٢ - صناع وتجار وسكان المدن الاحرار (وكان فى الامكان تشغيل الأخيرين فى أعمال السخرة) والواقع أن ما تحت أيدينا من مستندات نعتمد عليها فى معرفة العلاقات بين هذه الطبقات ضئيل . وإننا لنجد فى بعض المقابر صاحب المقبرة يتحدث عن حسن معاملته لأتباعه وأن أحداً لم يتقول عليه بسوء وأن أحداً لم يقض الليل ساهراً حقداً عليه ... على أنه ، وإن كان علينا ألا نعتمد على هذه العبارات برمتها ، فليس من شك فى أنها تعبر عن المثل الأعلى فى إدراك أولى الأمر معنى معاملة الأتباع بالحسنى والعدل . ويبدو فى كثير من مناظر الحقول والمصانع المصورة على جدران المقابر أن ذلك كان عملا ساراً بهجاً ، كثيراً ما تصحبه النكتات المتبادلة .. وكثيراً ما يقترن بالأنغام الموسيقية إذ أن أولى الأمر كانوا بطبيعتهم يميلون إلى المرح والسرور والتنعم بأكبر قسط من متع الحياة ، وكانوا يحبون أن يروا بيئتهم سارة بهجة وليس هناك على كل حال مجال للقول بأن هؤلاء الأتباع كانوا يستغلون استغلالا سيئاً خالياً من الرحمة . كما أنه لامجال للقول كذلك بأن المصريين كانوا فريقين : أغنياء ينغمسون فى متع الحياة وعامة الشعب الذين أضر بهم شظف العيش وقسوة الحياة ، فإنه لا أساس لما يذهب إليه الكثيرون من أن عهد الدولة القديمة كان عهد ظلم واستبداد لمصلحة الملك ومصلحة الدولة استعبد فيه مئات الآلاف من أفراد الشعب فى بناء الأهرام والمبانى الضخمة ، إذ أنه ليس هناك من دليل واحد يمكن الاعتماد عليه للأخذ بهذا الرأى .

على أن هذه المبانى الضخمة وما تدل عليه من حسن تنظيم وإدارة ، يمكن أن

تشير إلى نقيض ذلك . ويدعم هذا ما تمثله سائر فنون وصناعات ذلك العصر من حضارة راقية تكفى للتدليل على انتفاء أى ظلم واستعباد وقع على أبناء هذه الطبقة . أما كيف استطاع المصريون إقامة هذه الأهرام الضخمة دون تعسف أو استبداد فإن ذلك يمكن تفسيره بأن وقت الفراغ عرف استغلاله على الوجه الصحيح ، وكان ذلك الوقت طويلا يمتد من غمر الأرض بالمياه حتى تبدأ فى الجفاف ثم عملية البذر التى تستغرق وقتاً طويلا ثم فراغ آخر يمتد حتى جنى المحصول . فعرف الملوك كيف يستغلون ذلك الفراغ الطويل للشعب وكيف يستثمرون هذه الأيدى العاملة طوال فترة البطـــالة وخاصة ووقت الفيضان أنسب الأوقات لنقل الأحجار من محاجر طرة إلى حافة الصحراء الغربية حيث أقيمت الأهرام . وليس من شك فى أن النظام الدقيق الذى اتبع فى تنظيم العمال وترتيب العمل ومراقبته بدقة كان من شأنه كذلك أن يعنى بالعمال والسهر على مصلحتهم . يضاف إلى ذلك أن العمال كانوا يحصلـــون من وراء ذلك الأعطية المختلفـــة من مأكل وكساء فى وقت لا يستطيعون الكسب من وراء العمل فى الحقول . وقد أفادوا كذلك خبرة فنيـة ودربة على النظام فى اشتغالهم ببناء الأهرام . ولمثل هذا العمل نظائر مما كان يكلف به العمال العاطلون فى أغلب الحروب ولم يقل أحد أنهم كانوا يجدون فى ذلك ظلماً أو استعباداً .

الحيـاة الفنية فى الدولة القديمـة

كان الفن فى عهد الدولة القديمة ينبض بالحياة ، ولقد تطور المدفن الملكى ، كما رأينا من قبل ، فبين مقابر العهد الثينى وبين الهرم المدرج فرق واضح ولولا ما كشف عنه فى بيت خلاف والرقاقنة من جبانات تمهد إلى العهد الجديد وتمثل مرحلة التطور لوقفنا حائرين أمام هذا الانتقال ولما أمكننا تفسير هذا التطور .

ولقد رأينا مراحل التطور يتلو الواحد منها الآخر ، فإن الانتقال بدا سريعاً

نحو محاولة البلوغ إلى الكمال ، فنرى تصميم الهرم المدرج ينتقل بعد أعوام قليلة إلى صورة جديدة تتمثل فى الهرم الكامل الذى هو فى الواقع صورة تامة لما كان ينتظر أن يكون ثمرة التطور السابق . . وإذا كان المظهر الخارجى للهرم وقف لا يتغير فان التطور بدا فى صورة أخرى، بدا مستمراً فى وضع الغرف الجنزية مثلا حيث تغير مكانها فلم تعد توضع تحت الأرض بل أعد لها مكان فى كتلة المبنى نفسه ،وبداخل الهرم بدت ممرات هابطة وصاعدة ،واسعة وضيقة ، ووضع فى تصميم المبنى عدد من الغرف لتحمى الضغط وتخفف الثقل . وكانت كتل الأحجار تجلب من المحاجر المجاورة وكانوا يقيمون حول النواة المركزية طبقات متتالية من الفناء يزداد عددها بازدياد سنى حكم الملك ويوضع فى النهاية الكساء الخارجى من طرة أو جرانيت أسوان ، وكانوا يبدأون الكساء من القمة على الأغلب .

وكان يلحق بالهرم معبد لعبادة الملك يتكون من معبد جنزى وهيكل تحفظ به تماثيل العبادة وقد ألحقت بهرم سقارة مجموعة داخل سور يضم معبدين جنزيين للملك وقبرين للأميرتين وصحن كبير تحف به مصليات كبيرة لاحتفالات عيد سد ، ثم مخازن لايداع ما يلزم لعبادة الملك الجنزية .

وقد وجدت هذه المجموعة المعارية فى صورة أخرى حول الأهرام الأخرى ولعل خير ما حفظ منها حتى الآن المجموعة المحيطة بالهرم الذى بناه « خع اف رع » .

وأما فى الأسرة الخامسة فقد نشأ لون جديد من المعابد هو معابد الشمس كنتيجة لتغلغل نفوذ كهنة أون ولأن الملوك كانوا يعتبرون أنفسهم ، راضين أو مكرهين ، أبناء مباشرين للإله رع نفسه كما قدمنا . ولم تكن العبادة تقوم فى هذه المعابد تحت سقف ،لأن السماء كانت هى السقف. وكان المعبد الشمسى يتكون

من مرتفع على شكل هرم ناقص تعلوه مسلة أمامها مذبح للقرابين ، وكل ذلك داخل سور يقطعه باب من الوسط فى الجناح الشرقى ينتهى عنده المنحدر الذى يوصل فيما بين المدينة الملكية والمعبد، وإلى خارج السور سفن ترمز للسفرة الليلية للشمس .

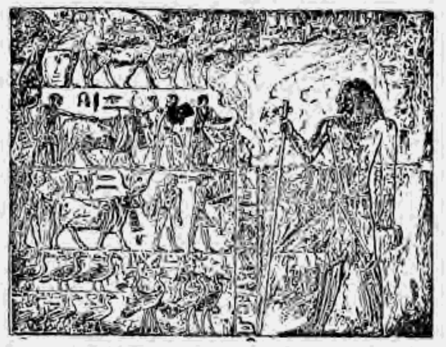
وكانت حول كل هرم مدينة للأحياء وأخرى للأموات يقطن الأولى الخدم الملحقون بالعبادات المختلفة وتحوى الثانية مقابر أقارب الملك وموظفيه ، وكان أقرب الأقارب يدفنون فى أقبية فوقها أهرام صغيرة حول الهرم الملكى ، أما الحاشية فكانت تدفن فى مصاطب تحيط بهرم الملك . وقد تطور بناء المصطبة فاندمجت اللوحة ومائدة القربان فى مبنى المصطبة وأصبحت توضع مستندة إلى الجدار الغربى فى نهاية ممر ضيق أخذ يتسع حتى أصبح بحجم غرفة تحولت فيما بعد إلى مصلى . ثم أخذ فى تزيين جدران المصاطب بمناظر متنوعة وعدد من المشكاوات لوضع تماثيل العبادة بداخلها ، ثم جهزت غرفة لوضع الاحتياطى من التماثيل فى الجدار الجنوبى للمبنى وبنى عليها حائط فلا تتصل بالمصلى إلا عن طريق منفذ ضيق على ارتفاع عين الانسان .

وتروى المصاطب حياة المصريين ، وهى معين لاينضب من صور هذه الحياة التى قدمت لنا ضوءاً كنا نتلمسه وضح جلياً عن طريق هذه النقوش المصورة على جدرانها ، وهذه المناظر تمثل لنا الحياة اليومية حتى ينعم الميت فى الآخرة بما كان ينعم به فى هذه الحياة الدنيا (شكلا ٣٢ ، ٣٣) .

وقد بلغ النقش البارز حوالى أواسط الاسرة الخامسة كمالا ملحوظاً ،ولم تكن مهارة المصريين فى الرسم على الجص بأقل شأناً . كما بلغت صناعة التماثيل شأواً كبيراً من الدقة ولجأوا فى صناعتها إلى مختلف المواد التى تحت أيديهم . وهى دائماً أصغر من الحجم الطبيعى إلا فيما يخص التماثيل الملكية ،وكان هناك نوع من التماثيل هو التماثيل الوهمية التى تمثل الميت فى مراحل مختلفة من حياته .



الرعاة والماشية — عصر الأهرام (شكل ٣٢)



من مقبرة تيي — في عصر الأهرام (شكل ٣٣)

وكانت تماثيل الأفراد أقل جلالا من تماثيل الملوك وإن كانت أكثر حيوية وتعبيراً ، ولدينا منها عشرات بل مئات النماذج فى المتحف المصرى وغيره من متاحف العالم وكلها تكشف عن دقة وبراعة تتحدث عن السمو الفنى الذى بلغه فن النحت فى عهد الدولة القديمة (شكل ٣٤) .

والواقع أننا نكاد نحس حين نعالج دراسة الفنون أننا نقف على أرض صلبة ثابتة أو هى ، على الأقل ، أثبت من النواحى الأخرى عند دراستها ، ذلك أنه رغم ضياع جانب كبير من المخلفات ، أو عدم العثور عليها ـ كما هى الحال بالنسبة

للتراث الأدبى - فان ما بقى يكفى ليقدم لنا صورة تكاد تكون واضحة المعالم . ولئن لم يسعدنا الحظ كثيراً بالنسبة للفنون الصغرى أو الصناعات الفنية ، فان ما بقى يقدم مايكفى لإيضاح معالم الصورة التى نستطيع أن نتخيلها فى أكمل مظاهرها .



شكل ٣٤ — تمثالا رع حوتپه والأميرة نوفرة

وتقع قصة الفن فى مصر القـــديمة فى فصول أربعة : الفصل الأول ويتعلق بالدولة القديمة ، والفصل الثانى ويمثل الدولة الوسطى ، والفصل الثالث ويتناول الدولة الحديثة . وأما الفصل الرابع فيتصل باحياء التراث القديم الذى تمثله الحياة فى العصر الساوى عند الأسرة السادسة والعشرين ، وهو إحياء وعودة للفصل الأول . وبين هذه الفصول الأربعة جميعا نجد الفصل الأول أشدها تشويقـــاً وإمتاعاً وأكثرها قوة ، وفيه نرى المصرى ينتقل من التردد إلى التركز ويبتعد عن الأعمال البدائية متقدماً فى خطى واسعة نحو الإبداع حتى لنستطيع أن نقرر

أن فن المرحلة من « سنفرو » إلى نهاية الأسرة الرابعة ليس فيه شيء من البدائية ، فالفنان يدرك تماما ما يريده وله ثقة وإيمان بمقدرته وكفاءته . وكان من أثر ذلك وصوله إلى هدفه فى كمال قلما تحقق على هذه الصورة فى تاريخ الفنون .

وأول بشائر هذه الصفات الفنية كان جزءاً من التراث الوطنى فى عصر ما قبل الأسرات نستطيع أن نشهده فى معالجة أدوات الظران والأسلحة التى تنم عن ذوق وجمال أخاذين . وكذا فى تلوين ونقش الفخار ، ويقول الأستاذ « پيت Peet » إنه رغم جهله بعجلة الفخار فانه استطاع أن يشكل قطعا بلغ من كمالها أننا لا نكاد ندرك حين مشاهدتها عدم استعماله لعجلة الفخار ، وأخيراً وليس آخراً فانه ينتسب إلى واحدة من هذه الفترات النادرة السعيدة التى قلما يرتكب فيها الفنان خطأ بل هو يسجل فى كل ما يتركه ناحية جديدة تعبر عن الجمال » . . . وهذا الاحساس بالجمال والتناسق نستطيع أن نشهده فى معالجة الأوانى من الأحجار الصلبة التى تتطلب صبراً ودقة بالغين . وعلينا أن نتذكر دواما أن الفنان المصرى حرص فى النحت مثلا أن يكون « نحات صور » فهو لم يستهدف خلق الجمال ، كما فعل اليونان فيما بعد ، بل كان واقعيا بحكم رغبته فى تحقيق الضرورات الدينية ، فالتمثال عنده يجب أن يمثل صاحبه أصدق تمثيل ليستطاع استخدامه للحياة الأخرى بعد الموت ، وهو يلاحظ ذلك بصفة خاصة فى الوجه والرأس اللذين تتعرف عليهما الـ « كا » . والقطع التى تزخر بها متاحف العالم نماذج للنحت الرائع الذى تم على أيدى نحاتى الدولة القديمة . ويقول الدكتور هول Dr. H. R. Hall « إن المصريين يتصدرون نحاتى التصوير فى العالم القديم فى تاريخ الفن كله » .

وهم لم يبلغوا القمة فى النحت وحده بل إن النقش تطور كذلك تطوراً ملحوظاً حتى ليبلغ درجة من الرقة والتناسب يقف المرء أمامها مذهولا . وتقدم نقوش

المقابر نماذج مثيرة من ذلك اللون من ألوان الفن على الحجر أو الخشب على السواء.

وبلغت الصياغة المعدنية كذلك مرحلة متقدمة من الكمال الفنى ، وتبدأ النماذج التى عثر عليها منذ العصر العتيق ... منذ السوارات التى عثر عليها بمقبرة « جر » حتى آخر عهد الدولة القديمة ، وكلها تشير إلى دقة وقدرة على معالجة المعادن بصورة تبعث على الاعجاب .

فن النحت

تكاد النماذج التى عثر عليها تؤكد الفكرة القائلة بأن التماثيل ساكنة لا تتسم بطابع الحركة وهى فى هذا تختلف عن التماثيل اليونانية ، ولعل السر فى ذلك يرجع إلى الاهتمام بالرأس وحدها . أما باقى الجسم فيكاد يكون متشابها فى أوضاع التماثيل كلها . والتماثيل تماثيل تصويرية كما أن الصور صور تمثالية فالتشابه فى تمثيل الصورة الانسانية سواء فى النحت والنقش يستهدفان غرضاً واحداً دينياً على الأغلب . ولقد جرت العادة على تلوين التماثيل : فأجسام الرجال والأطفال تلون باللون البنى وأجسام النساء والبنات باللون الأصفر الباهت . وأما الشعر والحواجب والشوارب فباللون الأسود وأما ما فى العيون فباللون الأحمر، وفتحات الأنف باللون الأسود ، وأظافر اليد بلون أبيض أو أحمر أو بنى ، مما يشير إلى استخدام الخضاب .

ولم تكن التماثيل فردية دائما بل كانت هناك تماثيل مجموعات تمثل الزوجة مع الزوج ومعها الأطفال أحياناً . وليست كل التماثيل واقفة أو جالسة على كرسى بل هناك عدد من التماثيل تمثل الكتاب جالسين على الأرض وبين يدى كل منهم ملف من البردى يسجل فيه شيئاً أو يتلو ما سطر عليه .

وتعتبر تماثيل الملك « خع اف رع » (راجع شكل ٢٨) المثل الأعلى

تماثيل الدولة القديمة من ناحية الدقة والصناعة . وقد عثر على تماثيل ملكية من الأسرة الرابعة ، ولكن تماثيل الأفراد قليلة أو نادرة ... أما فى الأسرة الخامسة فاننا نلاحظ أن الامر ينعكس فتكثر تماثيل الأفراد وتقل تماثيل الملوك ... تقل عدداً وجودة كذلك ، وربما كان مرجع ذلك إلى ضعف الملكية كما قدمنا . واستطاعت مقابر الأفراد أن تقدم لنا نماذج رائعة من النحت والنقش هى التى أحلت فن ذلك العصر فى القمة . ولقد شاعت فى النصف الثانى من الأسرة الخامسة تماثيل المجموعات وقد مثل الرجـــل جالساً أو واقفا بينما مثلت الزوجة جالسة أو واقفة أو راكعة . أما البنـــات فواقفات أو راكعات وأما الأبناء فواقفون دائما . وقلما توجد مجموعة بغير الرجل الذى يمثل فى المجموعة تمثيلا يبرزه كصاحب الصورة الرئيسية أوأهم شخصية بها وتليه فى الأهمية الزوجة التى تمثل جالسة أو واقفة إلى جانبه تطوقه بأحد ذراعيها من خلف وتلمس أحياناً ذراعه الأخرى بيدها الثانية أو هى تركع فى حجم أصغر بكثير من حجمه إلى جانب أحد ساقيه مطوقة إياه بأحد ذراعيها . أما البنات فكن يمثلن فى حجم صغير راكعات إلى جانب أحد ساق الاب يطوقنه بالذراع ، كما يمثل الاطفال واقفين إلى جانب السيقان للأب أو للأم .

ولقد تطور فن صناعة التماثيل فى الأسرة السادسة فلم تعد تمثل الصورة الأصلية بقدر ما حرصت على جعل الملامح جميلة المظهر ، وتبع ذلك تشابه بينها كما تبع تلك الحرية ابتداع فى أوضاع جديدة منها مثلا الجلوس على الأرض ورفع أحد الساقين فى وضع رأسى وثنى الأخرى من تحتها أو جلسة القرفصاء أحياناً أخرى .

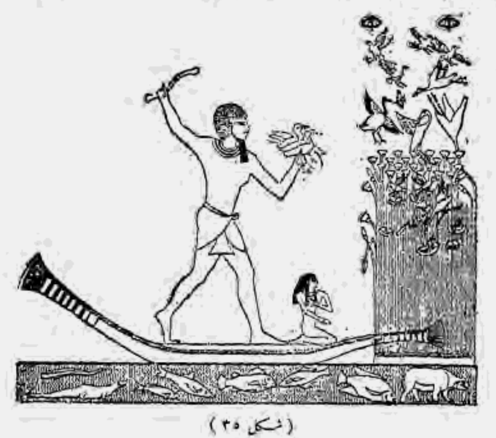
ولقد كان التمثال دائما يستهدف أمرين : أولهما أن يكون دليل الروح لمقبرة صاحبها وثانيهما تمثيل الصورة التى يرجى أن يبدو الميت فيها فى الحياة الأخرى . ولقد نجح المصرى فى ذلك إلى أبعد الحدود .

تناول الفنان المصرى النقش بنفس المقاييس التى تناول بها النحت فصاغ الصورة فى الشكل الذى يلائم معتقداته والذى يرجوه للميت فى الحياة الثانية مستبعداً منها ما يربطه بالدنيا ، فالصورة هنا تجمع بين مظهر صاحبها الدنيوى وما يرجى أن يكون عليه فى العالم الآخر بحيث لا تطغى إحدى الفكرتين على الأخرى . والصور المنقوشة قريبة فى أغلب الأمر إلى الواقع ، وأن كان الكثيرون من الفنانين لم يهتموا بذلك بل عنوا بتجميل الصورة وحرصوا على تمثيل إمارات الشرف .

وقد حفظت إلى جانب صور الأشخاص مناظر للحياة اليومية ، فنظر الصيد مثلا فى مقبرة « متن » تبدو فيه الحيوانات ثابتة ، وكان هذا بداية فن النقش فى الأسرة الثالثة ، ولكن مناظر بعض غرف القربان فى مصطبة « رع حتپ » لا تكاد نشهد ما عاثلها إلا فى الأسرتين الخامسة والسادسة ففيها ما يمثل حرث الأرض وبذرها وذبح الحيوانات وصيدها فى الصحراء واصطياد الأسماك والطيور وصناعة القوارب كما أن بها صوراً حية وهو أمر نشهده بكثرة فى الأسرات التالية حيث عولجت نقوش الجدران فى دقة ومهارة

ولقد ظهر نوعان من النقش هما النقش الغائر والنقش البارز وقد صحب التصوير النقشين معاً ، ومن أجمل نماذج النقش الغائر المملوء بعجينة لونية ماظهر على جدران مقبرة « نفر ماعة » ، وكان سقوط العجينة مما دفع فيما بعد إلى التخلى عن هذا النوع من النقش . وهناك مثال مشهور للتصوير هو المعروف بـ « أوزميدوم » الذى وجد بغرفة زوجة « نفر ماعة » .

وقد هجر النقش فى الأسرة الرابعة ـ أو فى النصف الأول منها على الأقل ـ لاعتبارات سبقت الاشارة إليها . . . على أنه ما كادت مقابر الأفراد فى النصف الثانى من الأسرة الرابعة تستأنف تقاليدها القديمة حتى أخذ فن النقش يلعب دوراً جديداً هاماً .. فبدأت تظهر فى جدران المقابر مناظر الحياة اليومية فانتشرت مناظر الصيد (شكل ٣٥) والصناعات المختلفة كالنجارة مثلا (شكل ٣٦) كما ظهرت صور المراكب والقوارب والرحلات والأسفار والتنقلات.



(شكل ٣٥)



(شكل ٣٦)

أما النقوش المكتوبة فاقتصرت على صيغة تعويذة القربان التى كانت

تنقش على الجدار الغربى فوق الباب الوهمى ومعها أسماء وألقاب الميت وأفراد أسرته وخدمه . . ثم حواشى قصيرة على مختلف المناظر .

وقد كثر عدد الغرف بالمقبرة منذ النصف الثـــانى من الأسرة الخامسة مما استدعى اختلاف توزيع المناظر المنقوشة وزيادة عددها بدرجة ملحوظة . وقد دخلت عليها بعض المناظر المتصلة بالطقوس الجنزية وغيرها من التعديلات والاضافات . كما دخلت منـاظر تمثل أفراد الأسرة ينعمون بالرقص والغناء والموسيقى فى مأدبة حافلة . وهى صورة تختلف عن الصور التى عهدناها من قبل من الإقتصـار على تصوير مائدة القربان أمام الميت . وبدأ التحرر يظهر فى بعض المنـاظر فلم يعد منظر الموظفين بمثلهم متجهين إلى صـــاحب المقبرة جامدين فى حركاتهم بل دخلت الحيـاة إلى هذه الحركات حتى لنلحظ الواحد منهم يتحدث إلى الآخر أحيانا أو يناوله شيئاً ما فى يده .

ولقد بلغ فن النقش الذروة فى الدولة القديمة وأصبحت النقوش المـكتوبة بمثابة حواشى للصور التى ظلت تنبض بالحيـــاة ، والتى استطعنـا عن طريقها أن نجد ضوءاً يهدينا إلى معلومات قيمة عن لون الحيـاة التى كانوا يمارسونهـا فى هذه العهود البعيدة .

علاقات مصر بالخارج في الدولة القديمة

لعل من أهم الأشياء التى تميز الدولة القديمة هو اقتصارها على حدود البلاد دون محاولة لتوسيع تلك الحدود خارج النطاق المعروف. ولعل هذا هو السبب فى أنها لم تشترك فى حروب طويلة تصرفها إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية وبذا استطاعت أن تضرب فى مضمار التقدم بسهم وافر، وأن تنظم شئونها فى الداخل وتتطور تطوراً سريعاً ما كان يتأتى لها لو وزعت جهودها بين مصر وما جاورها وأمكنها بذلك أيضاً أن تخطو خطى واسعة نحو الحضارة التى طبعت مصر بطابع خاص.

وليس مؤدى ذلك أن مصر كانت فى سلام دائم مع جيرانها وأنها لم تجرد حملة ولم تشن حربا وأن أحداً لم يناوشها وأن قتالا لم يتم عند حدودها .. إذ أن ذلك كله حدث ... ولكن ما نقصده فعلا هو أن مصر لم تطمع فى فرض سيادتها على بلاد خارج حدودها .فإن قامت بغزو أو شنت حرباً أو أرسلت حملة لتأديب القبائل الظاعنة أو المرتحلة حول الحدود فإن ذلك كان مرماه ضمان حدود البلاد وتأمين سبل المواصلات مع البلاد الأخرى . والواقع أن هذه العلاقة مفهومة فى الشرق والغرب غامضة فى الجنوب... أكان المصريون يرونه حتى فى هذه العصور السحيقة جزءاً متمماً لمصر أم رأوا هذه الأجزاء من النوبة غنية فأحبوا استثمارها ؟ إن القبائل النوبية كانت ذات عواطف متباينة فهم مرة ينشدون صداقة مصر حتى تستخدمهم مصر فى غزواتها ، كما حدث مع «ونى» ... وتارة كانوا يدفعون مصر إلى تسكينهم بشتى الوسائل لأنهم كانوا يثورون فى وجه الحكام ، بل يقتلون بعضهم ، أو يتعرضون للحملات التى كانت ترسل بقصد التجارة .

وفى عهد الأسرة السادسة استقر حكم المقاطعة الأولى من مقاطعات

الصعيد فى يد أسرة من الحكام كان مقرها « آبو » فأخذ الحكام من هذه الأسرة يولون التجارة فى الأراضى الجنوبية اهتمامهم وقاموا برحلات جريئة فى السودان والصحارى حتى ليمكن اعتبارهم أول من رادوا أفريقيا المجهولة . وقد سجلوا أخبار هذه الرحلات على جدران مقابرهم المنحوتة فى الصخر . ونحن نجهل على الأغلب مواضع البلاد التى يتحدثون عنها فى النقوش على وجه التحقيق فـ « خوف حر » يحدثنا أنه وصل حتى بلاد يام ولكنه لم يستطع المكث طويلا لأنه أسهم بصورة ما فى تأديب الليبيين النازلين فى أقصى البلاد من الغرب ومن ذلك ندرك أن الليبيين لم ينتشروا فى شمال أفريقيا فحسب ولكنهم نزلوا فى الواحات الغربية وانتشروا حتى السودان .

وعلاوة على ذلك فقد عثر فى كرما جنوب الشلال الثالث فى الشمال الأقصى من مقاطعة دنقلة على قطع من الأوانى والأحجار عليها أسماء بعض ملوك الأسرة السادسة مما يسمح لنا بالقول إن رحلات حكام الفنتين قد بلغت هذه المنطقة التى تبعد حوالى ١٠٠٠ كيلو متر إلى الجنوب من أسوان .

ويلاحظ إلى جانب هذا أن من بين نقوش ملوك الأسرة الخامسة صوراً لبعض الأسرى من بلاد بونت مما يشير إلى أن علاقات مصر قد امتدت إلى هذه البلاد ومما يشير إلى استمرار ذلك الاتصال أن أحد الملاحين المصريين قد سجل ارتحاله إحدى عشرة مرة إلى بونت وجبيل .

أما علاقة مصر بالليبيين النازلين فى الغرب فقد استمرت على ما كانت عليه فى عهد ما قبل الأسرات . واستمرت بذلك المصادمات وخاصة فى عهد الأسرة الخامسة إذ بلغت الغنائم التى غنمها المصريون من ليبيا قدراً كبيراً .. وإذا كانت كمية الغنائم قد بولغ فيها إلا أنها تدل مع ذلك على أن ليبيا كانت إذ ذاك عامرة بالحيوانات والنباتات أكثر منها اليوم ، وأن الواحات

الحالية كانت أكثر اتساعاً . وليس أدل على ذلك من أن زيت ليبيا كان موضع تقدير المصريين ، والمقصود من غير شك زيت الزيتون .

وكان يطلق على الليبيين اسم « تحنو » على أنه فى أواخر الدولة القديمة ظهر على حدود مصر الغربية أقوام آخرون سماهم المصريون « تمحو » وكانوا ذوى بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر أشقر مائل للحمرة يتدلى فى ضفائر على العارضين وكانت لرجالهم لحى مدببة الأطراف . وكان المحاربون يثبتون فوق رؤوسهم ريشتين كعلامة مميزة . أما أصل هذا الجنس فغير معروف تماماً ، ويظن أن البربر الحاليين من نسلهم .

أما فى شرق الدلتا فقد أقام المصريون الحصون ليأمنوا شر البدو الساكنين شرق برزخ السويس . وقد بنى فى عهد «زوسر» الحصن المعروف ببوابة « ايحوتب » وكان الأمر يدعو كثيراً إلى تجهيز الحملات لتأديب سكان الصحراء وكان ذلك يتكرر حتى أن «ونى» يحدثنا أنه قام بخمس حملات متوالية .

وليس من شك فى أنه كانت هناك حركة تجارية واسعة بين مصر وفينيقيا فى عهد الدولة القديمة وأنه كانت هناك جاليات مصرية فى تلك الجهات وأن الأمر كان يدعو فى كثير من الأحيان إلى تأمين التجارة وحماية الجاليات كذلك .

وقد صور على جدران المقابر فى دشاشة منظر يمثل الاستيلاء على قلعة أسيوية ، وقد ذكرنا عند التحدث عن « ساحورع » أن ذلك المنظر يرجع إلى عهده . وأهمية هذا المنظر تقع فى تصوير أطوار القتال المتتابعة فى صور ساذجة حين يغزو المصريون مكاناً فى آسيا يدعى نديا (وموقعه غير معروف) ونرى المصريين فى المنظر يلتحمون مع الأسيويين رجلا ضد رجل فى أرض خلاء . وما يكاد الأسيويون يحسون وطأة المصريين حتى يعمدون إلى الفرار

والتحصن فى قلعتهم ، غير أن المصريين يحاصرونها فى دقة تسترعى الاعجاب ثم ينقبون أسوارها بخوابير مدببة من الخشب ويقيمون السلالم لاعتلائها لاتمام عملية الاستيلاء على القلعة ، ويسمع الذين لجأوا إلى القلعة أصوات أدوات المصريين التى تستعمل فى نقب الجدران فى هلع شديد ويسرع بعضهم إلى إعلان ذلك إلى زعيمهم الذى يأخذ فى شد شعر رأسه يأسا ، وتأخذ النساء فى نقل الجرحى وإسعافهم ثم ما يلبث النصر أن يعقد لواؤه للمصريين فيأسرون عدداً كبيرا من الرجال والنساء والأطفال .

على أننا لانعرف على وجه التحقيق اسم الملك صاحب هذه الغزوة وإن رجحنا أن يكون « ساحو رع » الذى مثلت على جدران معبده الجنزى صورة حملة تشبه تلك الحملة من مصر وعودتها محملة بالغنائم والأسلاب .

ورغم ذلك فان هذه الحملة لم تفسد العلاقات الودية التجارية بين مصر وبلاد آسيا وخاصة فينيقيا التى كانت تربطها بمصر علاقات قوية طوال عهود الدولة القديمة وليس أدل على ذلك من أنه كان فى « ميلوس » فى أيام الأسرة الرابعة معبد مصرى وأنه عثر هناك على أجزاء كثيرة من أوانى حجرية مصرية عليها أسماء الكثيرين من ملوك الدولة القديمة .

ويمكن التعرف على جيران مصر فى عهد الدولة القديمة على الوجه التالى :

(ا) النوبيون فى الجنوب ويضعون شعراً مستعاراً طويلا على شكل ضفائر مرسلة على الكتفين وكانت مدنيتهم متأخرة عن مدنية المصريين، وقد أطلق عليهم المصريون اسم « الاخوان » أو « الأصدقاء » فى الأسرتين الأولى والثانية ، وكان المصريون يستخدمونهم فى الحروب وكانوا يستعملون الحمار فى رحلاتهم إلى بلادهم .

وأما علاقتهم بمصر فكانت متباينة العواطف . فهم ينشدون صداقتها فاذا أضر بهم شظف العيش أغاروا على ما أصطلح عليه من حدود ليبحثوا وراء حياة أرغد فى مصر ، وهم مرة أخرى يهاجمون قوافلها التجارية ويقتلون رجالها .

(ب) الليبيون وهم جنسان : التحنو والتمحو .

(ج) الأسيويون المعروفون إذ ذاك وهم الماتوى والعامو (قبائل جنوب سورية وفلسطين) وهم ليسوا بساميين ، لأن هؤلاء لم يظهروا إلا فى الدولة الوسطى . ومن المهم أن تدرك أننا لم نسمع فى ذلك العصر عن روح استعارية من جانب مصر بل إن هذه الروح لم تظهر إلا مع الامبراطورية الحديثة وإن لم يمنع ذلك من استخدام الأسرى الذين يشرف مصر أنهم لم يتحدثوا يوما عن إذلال أو عبودية .

الفصل الثامن

المحنة الاولى

عهد الانحلال الاول .

عصر الفوضى الاول .

الاسرتان السابعة والثامنة .

الحالة الداخلية فى العهد المظلم وأثر الاقطاع .

مقدمة

انهارت الأسرة السادسة بعد حكم ببى الثانى وتقوض ذلك الصرح العالى الذى افتن الفراعين فى بنائه فتفككت وحدة البلاد ، ولا عجب ، فقد كانت بذور التفكك قد وضعها من حاولوا توطيد أركان الوحـــدة يوم حاولوا أن يتخلوا مختارين عن جانب من نفوذهم وجانب من ممتلكاتهم . . وقد كان هـذا التخلى أمراً لاخطر منه ماداموا أقوياء ولكن الملوك الضعاف يغنيهم ذلك كثيرا ، إذا كان هذا يدفع حكام الأقاليم البعيدة على الأخص إلى أن يحاولوا الاستقلال بأقاليمهم وهم بمنأى عن العاصمة التى لم تعد تعنى بما وراءها . وهكذا تلاشت القوة المركزية وحاول كل حـــاكم إقليم أن يحتفظ باقليمه الذى كان يعده مملكته الخـاصة .

وقد انتهز الشعب هذه الفرصة فقام بثورة جامحة كانت ككل الثورات فى كافة العهود لا رابط لها ولا زمام ، كالنار تأكل ما تلقاه فان لم تجد شيئا أكلت نفسها . . . ولكن كان أمام هذه النار أشياء وأشياء . . كانت أمامها حضارة

وكانت أمامها قدسية ملوك وكان أمامها دين وكانت أمامها أخـــلاق وتقاليد فأكلت من ذلك كله حتى أكتظت وحتى رزحت البلاد تحت عبء ثقيل من الفوضى والخراب فزالت قدسية الفراعين وانتهبت قبور من مات منهم وانهارت عمد الحضارة وزالت خشية الدين ودك صرح التقاليد وســـاد الاضطراب وعم البؤس والفقر والجوع واستشرت الفوضى .

وليست لدينا معلومات مفصلة عن أحداث ذلك العصر الذى امتد إلى قرنين من الزمان أو ثلاثة ، ولكن قبساً من الضوء تلقيه علينا تحذيرات متنبيء تحدث فيها عما حل بالبلاد من فوضى داخليـة وتهديد لحدود البلاد وعن خوف الناس وغضب الآلهة وضياع ثروات الأغنياء وتبذل الفقراء وكرههم جميعاً للحياة بعد أن عافوا الابتسام حتى تحولت أغنيات العـــازفين إلى أناشيد حزن وحتى شك الناس فى وجود الآلهة وتخلوا عما درجوا عليه من فضائل فأ كل القوى الضعيف وقتل الرجل أخاه وسلب اللصوص المارة وصار الفقراء يروحون ويغـدون فى البيوت العظيمة دون خجل أو استحياء ؛ وذلك بعد أن ذبحوا الموظفـــين . . . وهكذا تشرد الأغنيـاء وساد الفقراء وأصبح الناس كالقطيع المذعور من غير راع . وهـكذا يتحدث « ايبو — ور Ipw-wr » إلى الملك فيقول :

« إن القيادة والفطنة والصدق معك ولـكنك لاتنتفع بها فالفوضى ضاربة أطنـابها فى كل مكان فى طول البلاد وعرضها ولـكنك مع ذلك تتغذى بالأكاذيب التى تتلى عليك فالبلاد قش ملتهب والانسانية منحلة ... ليتك تتذوق بعض هذا البؤس بنفسك ! » .

وهناك غير تحذيرات « ايبو ـ ور » نبوءة « نفر تى » وكذا ما جـــاء على لسان الفلاح الفصيح الذى يصف حالتى النعمى والبؤس ، والواقـــع أن كتابته لاتمتاز بفصاحتها ولـكنها تمس ناحية من الآداب المصرية وقواعد السلوك وهى ليست مادة غزيرة أو متعمقة وإن كانت قطعة من الحياة .

ولكن ... لكل ثورة رد فعل . وقد لوحظ أن الثورة تحدث فى أعقابها أزمة فى التفكير وتخلق نقاداً .. وذلك يوم تأكل نفسها بعد أن يعييها الأمر ، بعد أن لا تجد شيئا آخر تقضى عليه .. وقد حدث مثل ذلك هنا .

كانت هناك فكرة عن « أوزير » ومجيئه ليصلح كل شىء . ونرى فى أقوال « الكاره للحياة » حواراً يرحب فيه بالموت ويرى فيه الخلاص . وقد بقيت هذه الروح قوية حتى أننا نرى فى أشد فترات الثورة الجامحة عنفواناً أن الآداب وبعض العقائد المناسبة أثبت منها فى أى وقت آخر . ومعنى هذا أن الآداب لا تقيم وزناً للأمن أو السلام بل هى قد تسير فى طريق مضادة له .

كان المصريون يعتقدون من قبل أن أوزير قد اغتاله أخوه ظلماً وعدواناً وأن ابنه حور قد انتقم له وأن الأب البرىء كوفىء من أجل استقامته وأمانته فى العالم الآخر . وكان الملك الميت يصبح أوزير بعد موته . ولكن الملكية قد زالت ، ولم يعد الملك أفضل من الرعية ... فلم لا يصبح أفراد الرعية مثل أوزير كذلك ؟ ولم لا يصبحون جميعهم كذلك ؟ ولم لا يكافأون إذا احسنوا العمل كما كوفىء أوزير ؟ وبماذا يزيد عنهم الملك حتى ينال النعمى فى الحياتين؟ هكذا سيطر التفكير فى أوزير فى هذه الفترة على النفوس وود كل أن يصبح مثله إذا انتهى أجله وانتقل مع الشمس إلى مجلس أوزير . ولكن الواحد منهم كان يعرف جرائمه ومساوئه وذنوبه وكان يعرف أنه ليس أهلا ليصبح أوزير فنشأت فئة المرائين الذين كانوا يوصون قلوبهم قائلين « أى قلبى لا تخدعنى يوم نقف هناك ! » .

ومن عجب أن خير شعر وأجود فن معمارى نشأ فى أعقاب الثورة . . . أفكانت الثورة ناراً مطهرة نسخت من التقاليد البالية ما لم يعد ملائماً للعصر وأحلت محلها روحاً جديدة متيقظة؟ أم كانت حقاً ثورة لا تعرف غير التخريب والتدمير ؟

عصر الفوضى الأول

رأينا من قبل أن هبات الملك كانت وبالا عليه ... كانت فى مبدأ الأمر منحة يهديها أتباعه تقديراً لخدماتهم وتفانيهم ، وكان ذلك أمراً لا خوف منه

ولاضير ما دام الملك يستمتع بسلطانه ونفوذه ... ولكن الملوك الضعاف بدأوا يستشعرون الآثار المريرة لهذه المنح الواسعة وبدأ الممنوحون يستغلون المنح لمصلحتهم . بدأت النواة تنمو فى أعقاب الأسرة السادسة فقوى حكام الأقاليم على حساب التـاج مستندين إلى أراضيهم الموروثة ، وكان معظمهم من الموظفين الذين لا يمتون بصلة القرابة إلى البيت المـالك فلم تكن تهمهم سوى رعاية مصالحهم الشخصية . وبازدياد نفوذ الكهانة وظهور طبقة الملاك الجدد ذوى الألقاب الموروثة والضياع الواسعة الذين يمثلون الاقطاعيين فى أجلى مظـاهر الاقطاع ، بدأت سلطة التـاج تتقلص وموارده تضعف بسبب إعفاء الاقطاعيات من كل الضرائب أو بعضها ... وبدأ العرش يهتز تحت أصحابه وأصبح الأمر أمر زمن يطيح بأضعفهم شأناً ، فيقضى بذلك على نفوذ تطاول حتى رفع ذويه من قبل إلى مرتبة الآلهة أو كاد .

وكان دور الشعب فى هـذه المرحلة دوراً له قيمته من غير شك ... كان بپى الثـانى قد سلخ ما يقرب القرن من الزمان ، وكان يحس أن العرش لم يعد وحده صاحب السلطـان بل كان له فيه أكثر من شريك ... كاهن أو اقطاعى ... يبتزون ماله ولا يكاد يستمسك إلا بالنفاية . . وزاد أصحاب النفوذ الجدد من إرهاق الشعب واستغلاله وخربت ضمائرهم فاضطربت الأمور وفسدت واختل الأمن ... كان هذا الانحلال السياسى واضطراب نظام الحكم مما دفع إلى فوضى شاملة انهارت بسببها المثل وراح الأفراد يقلدون الحكام .. كل يسعى إلى مصلحته الذاتية غير مكترث بالدولة إن رأى تعارضاً بين ما يناله من نفع ومايعود عليها من فائدة . . . وكانت هـذه النزعة الانانيـة الجديدة المستحدثة دافعاً إلى فقدان المحكومين ثقتهم فى الحاكمين وتشككهم فى نواياهم ويوم يفقد المحكوم ثقته فى الحاكم لا تجنى البلاد سوى البوار .

وإذن فدور الشعب هنا ليس مما يمكن أن نتغاضى عنه ، فليست تقوم الثورة من الحكام وحدهم ، وليس يستطيع حاكم طامع فى العرش أن يصل إلى هدفه إن لم تسنده قوة شعبية ... وليس هناك شعب ينتصر لطاغية ليحل محله طاغية آخر ، فهو لا يتدخل فى المعركة إلا حين يحس أن خدامه من الحكام لا يقومون على خدمته وإلا حين يحس أنه يشقى فتمتلىء بطونهم وخزائنهم دون أن يعملوا على راحته وإسعاده ... فالشعب يثور عادة لأنه يحس الغبن وهو لا يصل إلى هذه المرحلة إلا حين يرتفع لديه الوعى والادراك ، فالشعوب الجاهلة لا تثور وإنما تقوم الثورات بين قوم يستطيعون أن يقدروا مدى ما يحيط بهم ويدركوا من الأمور خيرها وشرها . وليس من شك أن الشعب المصرى كان قد بلغ إذ ذاك هذه المرحلة فأحس بوجوب تغيير الأوضاع التى درج عليها لأنها لم تعد تتفق ومطالبه الجديدة فى الحرية والحياة ولم تعد تتسق وما ينشده من عزة وكرامة يرى أنها جميعاً أضحت عناصر لازمة لمقومات كيانه .

* * *

والعصر الذى نحن بصدده طال حتى بلغ ثلاثة قرون على الأرجح . ويرى « پترى Petrie » أن المدة التى انقضت مابين الأسرة السابعة وقيام أسرة الأنيوتف Inyotef تبلغ ٣٤٤ عاماً .

ويرى «برستد Breasted » أن مابين الأسرة السابعة والعاشرة ٣١٥ عاماً .

ويرى « هول Hall » أن المرحلة من سقوط الأسرة السادسة إلى سقوط الأسرة العاشرة تصل إلى ٣٣١ عاماً .

يرى « ويجال Weigall » أن ما بين قيام الأسرة السابعة وسقوط العاشرة يصل إلى ٢٥٥ عاماً . والفروق بينهم طفيفة كما نرى ، والمرحلة تبلغ الثلاثة

قرون على الأرجح كما قدمت .

والعصر الذى نحن بصدده عصر مظلم كما أجمع المؤرخون قاطبة . . . بل لعله أشد عصور مصر التاريخية حلكة وأقساها دكنة لا نكاد نعثر منه على أثر قوى واضح ينير لنا السبيل ، فآثاره المادية شحيحة ، نادرة ، بل إن الأسرتين السابعة والثامنة تكاد تمر الواحدة منها تلو الأخرى دون أن تخلد أثراً يشير إلى إحداها اللهم إلا بعض الجعول التى تحمل اسم « نفر كارع » الذى يزعمون أنه من ملوك الأسرة السابعة وأثر اسطوانى من اليشم الأخضر فيه رسم سورى على الطراز المصرى ويحمل اسم « خندو » الذى يزعمون أنه من ملوك الأسرة الثامنة ، وخاتم باسم ملك هو « نفر كارع تررو » يصف نفسه بأنه « سيد الشمال » ، ومرسوم لـ « نفر كاو حور » يقدم فيه شكره لموظف يدعى « شيمع Shema » (مما يشير إلى صلات سورية) عن رعايته لبعض الأوقاف فى الصعيد ، وبعض آثار ضئيلة تافهة لملك يدعى « نفر ساحور » وجعل يحمل اسم حاكم يدعى اسم « نى كارع » يشير كذلك إلى صلات سورية .

هذه هى كل الآثار المادية المعاصرة وهى تافهة كما نرى لا تشير إلى شىء يستطاع أن يؤخذ كسند قوى يعتمد عليه ... اللهم إذا أردنا أن نخرج منها بمظهر معين نرجح به كفة أمر أشار اليه بترى Petrie وتميل جمهرة المؤرخين إلى الموافقة عليه :

يقترح « بترى Petrie » - بعد استقرائه بعض هذه المظاهر المادية الضئيلة - أن غزو الدلتا وجزء من شمال مصر الوسطى تم فى أعقاب الأسرة السادسة على يد جماعة من الشرق (قد يكونون هم الموجة الأولى من الموجات التى تدافعت بعد الأسرة الثانية عشرة المعروفة بـ « الهكسوس ») من الساميين وهو يستند فى رأيه هذا إلى وجود « أزرار » بالآثار منذ نهاية الأسرتين التاسعة

والعاشرة ... وهو طراز وجد كذلك فى ميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وكيلكيا وحلب كما وجد فى مصر . والنماذج المصرية له ليست صناعة محلية بل إن العلامات المصرية المميزة التى يفترض ظهورها أحياناً وهى « عنخ » حور » لا تظهر ، كما أن تنفيذ التصميم ليس مصرياً . هذا بالإضافة إلى أن القطعة الأسطوانية من اليشم الأخضر لـ « خندو » من طراز أجنبى وبها التفصيلات المصرية. يضاف إلى هذا ظهور أسماء من أصل أو اشتقاق سامى مثل « شيمع » ، « نبى » ، « تررو » ، «عنو» كما أن جعل « نى كارع » الذى سبقت الإشارة إليه به عناصر أسيوية تشابه العناصر التى شهدناها فى اسطوانة « خندو » .

هذه الإشارات جميعـــاً تدفع جمهرة المؤرخين إلى القول بأن مصر يسرت ـ بسبب الفوضى التى سادتها فى أعقاب الأسرة السادسة وعدم سيطرتها على حدودها الشرقية ـ لجماعة من الغزاة أن يدخلوا أرضها من ناحية الشرق ما دامت السلطة الحاكمة قد ضعفت حتى تلاشت ، ولم يعد هناك ملك يستمتع بسلطان يستطيع أن يفرضه على الأرضين .

وتعرضت مصر ــ على الأرجح ــ فى الوقت نفسه إلى غزوة أخرى من الجنوب كان من أثرها إحلال جنس جديد فى طبية استطاع أن يصل إلى العرش فى عهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة . ويرى بعض المؤرخين أن الدم الذى يجرى فى عروق أسرات « منتو حتپ » ، « سنوسرة » ، « امنمحية » يشير إلى أصله النوبى الجنوبى كما تشير إليه سحنة أولئك الملوك الذين يحملون هذه الأسماء...

ولئن صدق أحد الأمرين، أو الأمران معا، فإن معنى ذلك أن الفوضى التى عمت البلاد بسبب سوء الادارة والانحلال كان من أثرها انهيار نظام الحكم مما استتبع طمع الغزاة فى هذه الأرض الطاهرة .

ولعل هذا يفسر فى كثير من النصوص إغفال أسماء الملوك فهناك مقابر من

ذلك العهد عثر عليها فى منف ودندرة وأسيوط تتحدث عن الأفراد ولاتشير إلى الملوك ، والأفراد هنا حكام أحياناً لا يغفلون أسماء الملوك إلا كنتيجة للاستهتار ، أو عدم الاكتراث على الأقل . أو هم يغفلونهم لأن العروش غير مستقرة تحتهم ولأن الأيام كانت تطالعهم بانقلابات متوالية لا تجعلهم يطمئنون لحكم واحد منهم . وتكاد بعض النصوص تتحدث عن هؤلاء الأمراء وتشير إليهم إشارة النصوص التى تتناول الملوك ... فهم أصحاب الامارة وحكامها بما يقدمون لمقاطعاتهم كما يشيرون إلى تعمير الخرائب ورعاية الناس ويدعون الرفق أحياناً والتقوى أحيانا أخرى ، وهم يترضون الشعب دائماً حتى لا يخلعهم أو يثور عليهم . ولم يخل الأمر أحيانا من مظهر من مظاهر الحكومة المركزية ، فهناك إشارات عابرة من وقت لآخر عن بعثات للتفتيش وأخرى عن مراسيم تتصل بالمعابد والاوقاف ، وغيرها عن حروب يحاول فيهاالملك أن يحد من نفوذ أحد حكام الأقاليم ويمنعه من أن يطغى فيبتلع إقليما آخر .

* * *

بقى أمر آخر يجب أن يوضع موضع الاعتبار وهو أمر المنطقة الواقعة عند مدخل الفيوم وهى المنطقة التى قدر لها أن تلعب دوراً هاماً فى هذا العصر المظلم .. كان مقر وعاصمة هذه المنطقةمدينة اهناسية وهى التى يرى البعض أنها كانت مستقراً لهجرة ثالثة من الغرب من العناصر الليبية (وإن لم تكن هناك أدلة حاسمة تؤكد ذلك الأمر) . وتقع اهناسية الحالية جنوب شرق الفيوم وحولها الآن ٣٦٠ فدانا من الخرائب وتسمى « أم الكيان » . وكان إلهها « حورشف » هو الذى قرنه اليونان بـ « هرقل » ومن هنا كانت تسميتها بـ « هرقليوبوليس » وأهميتها فى العصر الذى نحن بصدده تقع فى مركزها الدينى الممتاز .. لم يستطع الغزاة القادمون من الشمال الشرقى أو من الجنوب أن يسيطروا عليها فظلت مستقلة تحت إمرة حكامها المحليين وظلت تحافظ على قواعدها الدينية التى يضمها

الاقليم فلم تمتد يد الغزاة إلى مراكز المملكة العتيقة سوى فترة قصيرة استطاع من بعدها الحكام أن يجعلوا من هذه البقعة مركزا يطهرون منه البلاد فيما بعد من العناصر الأجنبية التى دنست الأرض .

كانت اهناسية المركز العتيق لملوك الصعيد قبل التوحيد كما كانت مركزا له قداسته الدينية الممعنة فى القدم ففيها أشرقت الشمس للمرة الأولى فى اليوم الذى خلقت فيه السماء والارض ، وفيها رفع « شو » دائرة السماء عن الأرض ففصلهما وجعـــل الأرض يابسة . . . ومنها بعث « رع » يد « سخمة » لتهلك البشر جزاء عصيانهم وثورتهم ضده حين تقدمت به السن . . . وبها توج « أوزير » ملكا ونودى من بعده بابنه « حور » خليفة له ، وهناك كان يقيم « محطم العظام » باعث الرعب لكل روح شريرة فى يوم الحساب.. وهو أحد القضاة الاثنين والأربعين الذين يجلسون فى قاعة العدل المزدوجة كما يشير الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى . وكانت تقيم فى قلب المدينة «نحب كاو» إلهة الثعبان التى قطرت رحيق الآلهة..

وأسرة الحـكام — أو الملوك — الذين ينتسبون إلى هذا الاقليم هى التى يحمل أصحابها اسم « ختى » وهى المعروفة بالأسرة التاسعة ...

أما الأسرة التالية — الأسرة العاشرة — فأمر مصادرها أسوأ من أمر مصادر الأسرتين السابعة والثامنـــة ، فالغموض يحيط بها من كل جانب ولا نكاد نجد سوى جعول تحمل اسم ملك هو « شنس Shenes » لا نعرف عنه شيئاً .. وأما الأسماء الأخرى فلحكام وموالى لا يكاد الواحد منهم يشرئب بعنقه حتى يحتويه الغمر ويختفى ...

ولئن كانت سير الملوك وأحوال البلاد السياسية تـكاد تكون مجهولة لدينا بالنسبة لغياب المصـادر الأثرية المعـاصرة ، فإن مظهر الحياة العامة خلال تلك

القرون الثلاثة تكاد تكشف عنه النصوص الأدبية التى تقدم صورة أوضح من الصورة التى تعرضها الأحداث السياسية ، ذلك لأن حياة الملايين من المصريين خلال هذه الحقبة المظلمة الطويلة ونظرتهم للحياة وتطورهم الفكرى فى هذه الفترة التعسة نستطيع أن نطالعها فى أكثر من تراث أدبى ـ أو شبه أدبى ـ خلفته تلك العصور ...

فلدينا من تراث الملوك مثلا التعاليم المعروفة بتعاليم الملك « مرى كارع » (خيتى) ، ومن آراء المفكرين تحذيرات حكيم هو « ايبو ـ ور Ipw-wer » ، أما نبوءة « نفر ـ تى » فترجع إلى فجر العهد الجديد وتشير إلى أخريات العصر الذى نحن بصدده .. وأما « صراع المتعب من الحياة مع روحه » فتقدم وجهة النظر التى يعتنقها « الرجل الشريف » الذى شهد « نهاية الكمال » وأراد أن يخلص من الكوارث والمتاعب إن هو لقى أمانا لروحه مما تتوقعه فى الناحية الأخرى ... فى الآخرة ...

ومن العجيب أن هذه المصادر الأدبية ليست غنية من ناحية الكم فحسب بل هى كذلك من ناحية الكيف .. ذلك لأن هذه الحقبة القاحلة التى تكاد تخلو من المخلفات الأثرية التاريخية لاتكاد تعدلها فى تراثها الأدبى حقبة أخرى تعالج ظروف الحياة فى العصور القديمة كما تعالج هذه النصوص الفترة المظلمة التى نمر بها فى عهد الانتقال الأول. والعصور المظلمة بكماء عادة ولكننا نسمع هنا أصواتاً كثيرة تهمهم خلال الظلمات فتؤنس وحشتنا وتنير لنا السبيل وتعيننا على السرى فى هذه الغياهب التى تحتوينا مدى ثلاثة قرون طوال . ولعل فى هذا الكثير من العزاء فلئن فاتتنا سير الملوك التافهين فإن حياة الشعب تكاد تتضح وتبرز حتى لتمكننا النصوص من رسم الصورة التى سنقدمها فيما بعد ...

الأسرة السابعة

إن معلوماتنا عن الاسرة السابعة ضئيلة ، إن لم تكن معدومة فانيتو يذكر بها سبعين ملكا حكموا سبعين عاما وقد نقل عنه ذلك يوسيبيوس محرفا إلى خمسة ملوك حكموا سبعين عاما وصححت فى الترجمة الأرمنية إلى خمسة ملوك حكموا خمسة وسبعين عاما . وتقدم بردية تورين مدة حكم قدرها ٩٥٥ سنة من « منى » إلى « مر ان رع عنتى ام سا اف » ثم تقدم أربعة أسماء (فى الاصل خمسة) فى القطعة رقم ٤٣ (أول الاسماء مفقود) ويليها اسم نيتوكريس ، نفركا ، نفراس ، ايب . وفى أول القطعة رقم ٤٨ يوجد مجموع كلى لسنى حكمهم جميعا (ملوك هذه الاسرة) ومؤدى هذا أن بردية تورين تتفق والترجمة الارمنية عن مانيتو فى وجود خمسة ملوك حكموا خمسة وسبعين عاما ، كما أن قائمة أبيدوس تقدم خمسة أسماء كذلك .

والواقع أن ليس بين هؤلاء الخمسة من ترك أثراً معاصراً . ولدينا أقصوصة متأخرة عن « نيتو كريس » يرويها هيرودوت الذى كتب مؤلفه فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ومؤداها أن الكهنة كانوا يقرأون له من بردية قائمة لملوكهم من عهد « منى » وأن بينهم امرأة تدعى نيتوكريس يذكرون أنها خلفت أخاها الذى قتله أتباعه ونصبوها بدلا منه وأنها احتالت حتى حبستهم فى غرفة تسربت إليها المياه حتى ماتوا غرقا ثم انتحرت بعد ذلك اختناقا بغاز الفحم .

وربما كان أخوها هذا هو أول ملك الأسرة . أما مانيتو الذى كتب تاريخه فى القرن الثالث قبل الميلاد فيذكر أنها هى التى شيدت الهرم الثالث بالجيزة وربما جاء هذا من اختلاط بين الاسمين « منكارع » و« منكاورع » ولكن « بورخاردت » يظن ان الهرم الثالث رمم فى عهد الاسرة السادسة والعشرين ، ولما كانت هناك ملكة فى الاسرة المذكورة تحمل ذلك الاسم فربما كانت لها علاقة بهذا العمل ، ومن هنا جاء الخلط بين الاسماء أو العصور .

الأسرة الثامنة

تلا الخمسة وسبعين عاما العاصفة للأسرة السابعة ١٠٦ سنوات للأسرة الثامنة . وقد أمكن إيجاد هذا الرقم من حاصل طرح ٧٥ من ١٨١ وهو مجموع سنى الحكم الواردة فى بردية تورين بعد الأسرة الثامنة ، وربما كان ذلك المجموع (١٨١) هو مدة حكم الأسرة الثامنة وحدها ...

وتسجل قائمة أبيدوس من أسماء الأسرة سبعة عشر اسما تقع بين أسماء « جد كارع شيمع » آخر ملوك الأسرة السابعة و « نب حيت رع » من ملوك الأسرة الحادية عشرة تسمى أكثرهم بأسماء فراعنة الأسرة السادسة . وهذه القائمة لا تعترف بملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة لأنهم شماليون فهم من وجهة نظر القائمة ملوك مغتصبون وعلى ذلك فإن الأسماء السبعة عشرة المذكورة تخص الأسرة الثامنة على الأرجح . أما بردية تورين فهشمة على كل حال فى هذا الجزء تهشيما لا يسمح بكثير من الأمل فى إنارة الطريق أمام الباحث ولكنها تقدم على كل حال سبعة أسماء كما تعطى القطعتان ٤٤ ، ٦١ طول مدة حكم أربعة ملوك يتلوهم مجموع حكم الأسرة وقدره ١٨١ سنة . أما قائمة سقارة فتصمت بعد مقتل ببى الثانى حتى الأسرة الحادية عشرة مما يشير إلى عدم اعترافها بشرعية الأسماء التى أوردتها القوائم الأخرى . وأما الآثار المعاصرة فصماء تقريباً . وقد احتفظ الملوك بجانب من أسماء أسلافهم فهناك فى قائمة أبيدوس خمسة من بينهم يحملون اسم « نفر كارع » وواحد يحمل اسم « جد اف رع » وواحد يحمل اسم « نفرابر كارع » .

ويذكر مانيتو أن ملوك هذه الأسرة حكموا فى منف ، وهو يعد من ملوكها ثمانية عشر ملكا حكموا فى رأيه ١٤٦ عاما . ولكن يغلب على الظن أنهم من عنصر

أجنبي ورغـــم حالة البلاد المضطربة فى عصرهم إلا أنه يظهر أن اثنين منهم على الأقل أرسـلا بعثات إلى النوبة الشمالية بينما استغل آخرون المحاجر . ومعنى هذا أن رحى المدنية لم تتوقف وأن موكب الحياة قـد استمر فى سراه وأن الحالة لم تكن بالغة السوء كما يصورها لنا « ايبوور » . ويرجح دريوتون أن مدة حـــكم الأسرة الثامنة المنفية انتهت عام ٢٢٤٠ ق . م .

بين الأسرتين الثامنة والتاسعة

فى العصر الذى كانت تقوم الأسرة الثامنة فى منف كانت هناك أسرة أخرى فى قفط ، وقد انتهت حركة استقلال أمراء الصعيد بتأسيس مملكة مستقلة تشمل المقاطعات السبعة الجنوبية من الصعيد وكان أول ملوكها من قفط وقـد استمرت هذه الأسرة الملكية القفطية التى لم يعترف بها مانيتو مدى أربعين سنة على الأكثر وحفظت لنا الآثار المعاصرة اسمين أو ثلاثة فى قفط يحمل أصحابها لقب ملوك مصر العليا والسفلى وتحمل هـــذه الآثار الدليل على تركز جل النفوذ فى أيدى الوزراء ، ويظهر أن محاولة استقلال الملوك لاقت الـكثير من الصراع بين أمراء القفتين وادفو وهير اقونبوليس وانتهى النزاع بانتصار طيبة وقفط .

ويظهر أن هناك شبه صلة بين الأسرة الثامنة التى حكمت فى منف والأسرة التاسعة التى حكمت فى هرقليوبوليس (اهناسية) إذ أنه كان هناك ملك كتب إلى وزيره الأول عند تعيينه يقول له : « هناك قول اعتاد المـلك أن يذكره عند تعيين الوزير الأول فى منف يحثه فيه على الاعتدال فيقول له : خذ العبرة مما قيل عن الوزير الأول « ختى » إذ يقال إنه حابى بعض الأغراب ضد معارفه خوفا من أن يقال إنه حابى أقاربه بغير وجه حق . . ولما شـــكا بعضهم استمر فى عناده ... إن هذه أكثر من عدالة » .

واسم « خيتى » من الأسماء التى عرفت فى قائمة ملوك الأسرة التاسعة كما سنرى فيما بعد . ولم يذكر من قبل فى أى نص أو وثيقة . ونستطيع أن ندرك من وراء الفقرة المتقدمة أنه كان هناك وزير يدعى « خيتى » يخدم أحد الفراعين فى منف .. أكان ذلك فى عهد الأسرة الثامنة ؟ أكان خيتى أحد الوزراء الذين أخذ شأنهم يرتفع حتى آذنت دولة منف بالزوال وحلت محلها « اهناسية » واستطاع الاهناسيون أن يستولوا على السلطان ؟ أم أن خيتى هو واحد من أفراد أسرة أخذت تقوى حتى استطاعت الوصول إلى العرش مؤسسة الأسرة المعروفة بالأسرة التاسعة ؟ أم هو شخص آخر غير هذا وذاك ؟

الحالة الداخلية فى العهد المظلم وأعقابه

لم يكن ملوك هذه الفترة من تاريخ مصر ذوى نفوذ قوى كما كان ملوك النصف الأول من الدولة القديمة ، ففى النصف الثانى من الدولة القديمة أخذ سلطان الملكية يضعف تدريجيا كما رأينا ، وانتقل شكل الحكومة من حكومة مركزية — أى حكومة تتركز السلطة فى يدها — إلى حكومات محلية أخذ سلطانها يزداد اتساعاً مع مرور الزمن حتى أصبحت أشبه ماتكون بالحكومات المستقلة ، وكان من أظهر الأمور التى أدت الى ذلك :

١ — كثرة وشيوع المنح التى يغدقها الملوك على كبار الموظفين من أراضى واسعة وغيرها ، يستغلونها لمصلحتهم .

٢ — شيوع التوريث فى المناصب والاقطاعات الممنوحة .

٣ — عدم ممارسة حق النقل والعزل بالنسبة للحكام مما ساعدهم على توطيد مراكزهم فى أقاليمهم ، يضاف إلى ذلك انهيار السلطة المركزية ، وانتشار الفوضى فى البلاد ، وما صاحب ذلك من حروب وغارات خارجية وفتن داخلية دفعت جميع أصحاب المقاطعات إلى الاعتماد على أنفسهم فى العناية بمقاطعاتهم وحمايتها من

الاعتداء عليها ، وتعمير ما ناله الخراب منها ، والعناية بإصلاح وسائل الري دون توقع مساعدة من الحكومة المركزية . وقد استتبع ذلك العنــاية بتنظيم الادارة المحلية فى المقاطعات ، والاشراف المحلى على القضاء كما دفع حكام الاقاليم إلى تجنيد فرق محلية من أبناء المقاطعات ومن الجند المرتزقة للذود عن مقاطعاتهم والاسهام فى الدفاع عنها ومساعدتهم فى تحقيق أغراضهم .

وهكذا أصبحوا مستقلين تماما فى تصريف شئون مقاطعاتهم ولم يحاول الملوك فى الأسرتين السابعة أو الثامنة الحد من سلطان حكام الأقاليم - أو هم لم يستطيعوا ذلك إن أرادوه - لحاجتهم إلى عونهم وتأييدهم فى نضالهم ضد خصومهم

آثار الاقطاع

انقسمت مصر كما رأينا من قبل فى الصعيد ، إلى بيتين يتصارعان ، استقر أولهما فى اهناسية واستقر الآخر فى طيبة ... وانضمت أسيوط إلى البيت الأول فى الصراع الذى نشب بين البيتين كما قدمنا .. وكانت الأرض المقدسة لـ « أوزيره » موطن الصراع .

ولئن كنا رأينا فى الفصل السابق الظروف التى مهدت لقيام الاقطاع وساعدت على قيامه فاننا نرى هنا أثره السياسى فى تفتيت وحدة البلاد والقضاء عليها ...

ولكن الاقطاع لم يكن شراً كله .. فلئن قاد البلاد إلى التفكك ، إلا أنه دفع بأقاليمها فى نهاية الأمر إلى التنافس ... إن الاقطاع الذى حمل فى ثناياه بذور التفتيت كان داعية للوحدة فى الوقت نفسه ... فصاحب المقاطعة يسعى لرفع شأن مقاطعته وهو لا يدخر فى سبيل ذلك جهــداً ولا مالا ... وهو يسعى لتوسيع رقعتها ... وهو يسعى لضم غيرها من المقاطعات لها ... هذه صور

جديدة للوحدة تنبت من بذور الانقسام، ولعلنا رأينا بواكيرها فى أخريات العهد السابق .

ولم يكن هذا أثر الاقطاع وحده بل كانت هناك آثار أخرى نستطيع أن نقـدرها ونلمسها . كان كل حاكم إقليم يستطيع أن يستمتع فى إقليمه بسلطانه المطلق ، فله جيشه الخاص وأسطوله أحيـانا ، وله ضياعه وأراضيه وله من الادارات الحكومية صورة مصغرة لإدارات الدولة ... وهو يسير فى إدارة ولايته أو إقليمه كما يسير فرعون فى إدارة شئون مصر كلها ، وهو يصطنع نفس الهيبة والوقار أحيانا بل وينتحل نفس الألقاب والأسماء ... ولقد رأينا واحداً منهم يتيه بفضله على إقليمه ويسجل على جدران مقبرته رفقه بالرعية والعمل على إدخال السعادة إلى قلوب الشعب وتجنيب الناس الاضطهاد والشرور والمظالم .

أما حياتهم فى قصورهم فتمثل على جدران المقابر كذلك وفيها من البذخ ومظاهر السعة ودلائل الترف والنعمة مايزرى أحياناً بما سجله بعض الفراعنة مما يشير إلى أنهم كانوا يستمتعون - إلى جانب استقلالهم السياسى - باستقلال مادى وباستغلال لموارد الاقليم الذى ورثوه عن آبائهم ويورثونه لأبنائهم ...

ومن النقوش التى خلفها الحكام والأمراء فى مقاطعاتهم نستطيع أن ندرك مدى ما قام به هؤلاء الحكام لسكان المقاطعات .

ومما يلفت النظر تأريخهم للحوادث طبقا لسنى حكمهم لا طبقا لسنى حـكم الملوك ، كما أخذوا يضيفون إلى أسمائهم دعوات تقليـدية هى التى كانت تقرن بأسماء الملوك ومنها الصيغة التى كانت توضع بعد أسماء الملوك عادة. « عنخ - أودجا - سنب : Ankh - oudja - seneb ، وهو لون من التمنيات بالحياة

والرفعة والعافية . والواقع أنهم كانوا بمثابة ملوك صغار تحيط بهم حاشية خاصة لكل منهم وأتباع عديدون ، وأنهم — وإن ظلوا يشيدون بولائهم للملك — إلا أنهم كانوا يفخرون فى نفس الوقت بأنهم أحسنوا إدارة مقاطعاتهم ، وأنهم لم يسيئوا معاملة رعاياهم ، وأنهم عملوا على رفاهية أقاليمهم . . وغير ذلك مما يشير إلى استقلالهم فى مقاطعاتهم استقلالا يتضح فى جلاء من وراء مطالعة مخلفات ذلك العصر . . كما يشير إلى إدارتها لحسابهم الخاص .

وكان حكام المقاطعات يعتمدون على حماية الآلهة المحلية تشبهاً بالملوك وكانوا يسندون إلى أنفسهم رياسة الكهانة ـ كما كان يفعل عواهل الدولة القديمة ـ وقد اتخذوا صفات الملوك فى كثير من نواحى حياتهم .

على أنه يجب ألا نخدع فى فحوى ما وصلنا من نقوش على جدران حكام المقاطعات بل أن نتقبل فى حذر ماجاء بها ، مما يؤكد النظام والأمن ورفاهية السكان ، لأن مصر قاست الأمرين من غير شك من جراء اضطراب الأمور والفوضى الضاربة فى أرجائها بسبب ضعف السلطة المركزية مما أدى إلى انتشار الفتن .

ومن الطبيعى ألا تتحدث النقوش التى تركها الأمراء عن الحالة الداخلية فى البلاد فى صراحة ووضوح . . . على أن مبالغة تأكيد هذه النقوش والضغط على أمر إعادة الأمن والنظام واستتبابها يحمل فى طياته إشارة خفية لما قاسته البلاد من فوضى وما رزحت تحت عبئه من مساوىء . فان نحن دققنا فيما كتبه « خيتى بن تف ايب » أحد أمراء أسيوط من نقوش على جدران مقبرته من أن كل موظف كان فى عمله وأن أحداً لم يقتل ولم يرم عن قوسه ، وأن الأطفال لم تقتل إلى جانب أمهاتها ولا الفلاحين إلى جانب زوجاتهم ، لايسعنا إلا أن نتصور أن الأشياء المبالغ فى تأكيد نفيها ، لابد وأن لها ظلا من الحقيقة أو على الأقل ، إذا أحسنا الظن بكلامه ووثقنا به ،

كانت شائعة فى فترة ما فى مصر . والواقع أنه لوكان الأمن مستتباً فى ذلك العصر لما كان الأمر يدعو « وادج كارع » من الأسرة السابعة إلى اصدار مرسوم يهدد فيه قائلا : « كل من يجرؤ على تحطيم التماثيل وموائد ومقاصير المقابر والنقوش من أى نوع يعاقب بأقصى العقوبات وذلك بحرمانه من إرث آبائه وعدم دفنه مع المبجلين وطرده من بين الأحياء » ؛ كما نص على حماية القائمين بخدمة المعابد ضد الاعتداءات الظالمة التى كانت تقع عليهم ، وفى ذلك إشارة قوية إلى حالة الأمن وما كان يحدث للمقابر ورجال الدين من أذى فى ذلك الحين .

وقد تركت هذه الحالة الاجتماعية المحزنة صداها فى نصائح « ايبو - ور Ipw-wer » وإننا وإن كنا لانعرف تماماً العصر الذى يصفه إلا أنه يبدو على كل حال أنه يقع فى أعقاب الدولة القديمة وقبيل الدولة الوسطى . وهذه النصائح نورد بعضها هنا لنكون صورة عنها :

« تدور البلاد كما تدور رحى الفخار . حقا إن النيل لايزال يفيض ومع ذلك لايقوم بحراثة الأرض أحد من الفلاحين لأن كل شخص يقول « إننا لا نعلم ماسوف يحل بالبلاد » . حقا لقد خربت البلاد وخيم عليها الحزن مقرونا بالعويل والبكاء .

إن النيلاء ليزيد بؤسهم وإن الادنياء لتفيض نفوسهم بهجة وسروراً . إن شعار كل مدينة أصبح « لنطرد الأغنياء من بيننا » . حقا لقد أصبح الذهب والفضة والأحجار الكريمة فى رقاب الاماء فى حين أصبحت الحرائر تسرى فى البلاد وتقول السيدات المترفهات « آه لو وجدنا ما نأكله ! » هاك لم يعد يعد موظف يشغل الوظيفة اللائقة به ، وأصبح الناس كقطيع من غير راع قد استبد به الروع ! هاك من كان يرتدى الملابس الجميلة من قبل أصبح يغدو فى أسمال بالية فى حين أن من لم يكن يستطيع الحصول على ملبس له أصبح يرتدى الكتان الفاخر !.. هاك من لم يكن يجد بالأمس خبزاً أصبح اليوم يمتلك ثروة غير أنه يملأ أهراءه بممتلكات غيره ! ... لقد غدا الفقراء أغنياء أما ذلك الذى كان ذا أملاك فقد أصبح معدما ... لقد انتشر الأسيويون فى البلاد ودخل مصر الأجانب ... حقاً لقد غدا كل قلب شجاع حزيناً بسبب ما أصاب البلاد ، وأصبح الأجانب هم المواطنين فى كل البلاد ... حقاً لقد قل الناس ومع

ذلك يرى فى كل مكان كيف يقتل الأخ أخاه حتى لقد ضج الجميع وصاح الأطفال : « ليتنا لم نولد !! » .

ومن نفس طراز تحذيرات « ايبو ور » نستطيع أن نطالع فقرات أخرى من نبوءة « نفر تى » ورغم أنها تشير إلى قيام الأسرة الثانية عشرة فى بعض فقراتها، كما يظن أنها ترجع إلى عهد لاحق للعهد الذى نحن بصدده ، إلا أن الوحى الذى صدرت عنه هو من نفس الظروف التى أحاطت بـ « ايبوور » حين يقدم مرثيته وتحذيراته . . . وتشير النبوءة إلى أنها منقولة عن أحد قدماء الحكماء ويدعى « نفر تى » الذى استدعاه الملك « سنفرو » ليسليه ويذهب عنه السأم فانتهز الفرصة ليقص على جلالته ما سوف تعانيه البلاد . . . وهو أمر لم يكن يتوقعه « سنوفرو » على أية حال .. والقصة أسطورة من غير شك فهى تعنى أكثر ما تعنى بالإشارة إلى مجىء « امنمحبة » كمخلص ، ولكن هذا لا يعنينا هنا فله موضعه فيما بعد .. أما الكوارث التى يتحدث عنها « نفر تى » فهى صورة للعصر الذى جاء فى أعقاب الأسرة السادسة ، وهى تشبه من نواحى كثيرة ما يقدمه « ايبو ور » :

« انصت يا قلبى وابك تلك الأرض التى منها نشأت ! لا تركن إلى الراحـــة ، تأمل إنها أمام ناظريك ! لقد أصبحت البلاد خراباً وليس من يذرف الدمع عليها . . . لقد حجبت الشمس فلا تضىء حتى يبصر الناس ! إنى أشهدك الأرض فى عويل وشقاء ! لقد حدث مالم يحدث من قبل . . . سيشهد الناس أسلحة الحرب حتى تعيش الأرض على الذعر . . . لقد جف النيل حتى ليسير المرء فيه . . . لأن الطريق صار شاطئاً كما صار الشاطىء ماء . . . كل خير قد ولى والبلاد طريحة الشقاء بسبب البدو والغزاة . الأعداء بين ظهرانينا والأسيويون ينحدرون إلى مصر . سأريك البلاد مغزوة تتألم . . . الرجل يجلس فى عقر داره مولياً ظهره حين يذبح الآخر إلى جانبه . . . صار الابن خصما لأبيه والأخ عدواً لأخيه والناس يصنعون أسلحة النحاس حتى يلتمسوا الخبز بالدم . . . الفتى يذبح أباه والمرء لايكترث بغير ذاته . . . ضحكة الرجال مغتصبة والناس لاتبكى خوفاً من الموت . أملاك الرجل تغتصب وتعطى الأجنبى . . . المالك أصبح محتاجاً يسأل الناس والأجنبى أضحى غنياً . . . نقصت الأرض وتضاعف حكامها . . . الحياة غدت شحيحة

مع أن المكيال صار كبيراً وجباة الضرائب يكيلون حتى يطفح الكيل . سأريك البلاد تئن من الغزو ... لأن « ايون » لن تصبح بعد اليوم مكان ولادة كل إله ! » .

وتؤيد هذه الحالة المحزنة الآثار نفسها ويتجلى ذلك فى نهب مقابر العظماء والملوك وتهشيم التماثيل الفخمة للأمراء وأبوابهم الوهمية . وكان من الطبيعى أن تترك تلك التغيرات العميقة أثراً فى أوضاع المجتمع (التى قلبتها الثورة بما انطوت عليه من فوضى) وأثراً عميقاً فى الحياة الدينية والفكرية فى ذلك العهد . ولقد كانت الحكومة فى عهد الدولة القديمة تقوم على أساس دينى قوى حتى ليمكن اعتبار الحكومة والدين إذ ذاك وحدة لا تتجزأ ، فقد كانت تتمثل فى شخص الملك ذروة المعتقدات الدينية فهو الذى كان يمثل إله السماء على الأرض كما كان يعتبر الراعى الوحيد المقدس للنظام الحكومى فى مصر . وهو الشخص الوحيد الذى كان على صلة وطيدة بالآلهة، وهو وحده كان يمثل الحق الالهى على وجه البسيطة. وتتجلى هذه العقائد كلها فى النصف الأول من الدولة القديمة ، على أنه كان قد اعترى هذه العقائد بعض التعديل والتغيير فى الأسرة الخامسة فأصبح الملك ابناً لإله الشمس وأخذ سلطانه يقل تدريجياً إلا أنه مع ذلك ظلت الملكية الينبوع الأساسى للحياة فى مظاهرها المختلفة . من هذا كله يتضح لنا الأساس الذى كانت ترتكز عليه الحياة السياسية والعقلية والدينية والاجتماعية فى الدولة القديمة وارتباط هذا كله بالملكية .

وليس من العسير أن نتصور ما ينتاب الحياة الاجتماعية أو الفكرية من آثار حينما ينهار ذلك الأساس دفعة واحدة ، ففى عهد الأسرة السابعة نشهد صورة واضحة للانهيار على يد ملك يدير شئون البلاد على نظام الدولة القديمة ، وكثر أدعياء الدين الذين قالوا عن أنفسهم إنهم أبناء الشمس وإن سلطان الاله وحقه يتمثلان فيهم ، مما يساعد على نشر روح الفوضى فى البلاد ، فاعتدوا على

الأهرام الشاهقة التى كانت تضمن لأصحابها الخلود فى الآخرة ، وسلبت محتوياتها الثمينة وهشمت التماثيل الخ . . . دون أن يعاقب المعتدون . كل هذه العــوامل والظروف ـ وقد زلزلت القواعد التى كانت تقوم عليها الحياة فى الدولة القديمة ـ تجعل القلق والاضطراب يحلان محل الاستقرار والطمأنينة اللتين ميزتا الدولة القـديمة فكان ذلك مما أشاع روح الشك فى النفوس بما لايوجد له مثيل فى تاريخ مصر القديمة ، وقد وجد ذلك صدى فيما حفظ لنا من آثار .

ومما لايخلو من مغزى أن من بين ماحفظ من آثار أدبية ، حديثا بين شخص مل الحياة وبين نفسه . ويدور هذا الحديث حول السؤال الخالد عن معنى الحياة، وهذا السؤال يتردد المرة الأولى ، على ما نعلم ، فى تاريخ الآداب . وحديث الرجل قطعة أدبية من خير القطع التى حفظت لنا من عهد مصر القديمة . ويتلخص موضوعه فى أن صاحب هذا الأثر الخالد ويدعى « نسو » أخذ يراود نفسه على الموت تخلصا مما رأى حوله من نكبات من بينها هجر إخوانه له ، على أن روحه ـ أو نفسه ـ تحاول أن تثنيه عن عزمه هذا ، وبذلك يدور بين الرجل وبين نفسه حوار يستعرض فيه تعاسته وبؤسه ومصائبه ومشكلة الحياة وحنينه إلى الموت ، فى حين لاتدخر نفسه جهدا فى تبغيض الموت إليه ، ومع ذلك يجب ألا نتوهم أن مادفع « نسو » إلى كره الحياة هو آلامه الشخصية وما لاقاه فى حياته من إغفال فانه قد استطاع أن يسمو على آلامه الشخصية ويلم بأطراف المجتمع إذ ذاك ويحيط بأحواله ، وبذا لم تكن آلامه الشخصية إلا نموذجا لما يلاقيه المجتمع الذى يعيش فيه ، ويقابل ذلك ما جاء على لسانه من أن البلاد تركت للطغاة الظالمــين الذين أجرموا فى حق كل مقدس والذين داسوا بأقدامهم القانون ووطئوا مجد وتاريخ مصر ، وأنه لايود أن يعيش فى هذا الجو .

ويتفق هذا مع ما جاء من تحذيرات « ايبو ـ ور » التى جاء فيها :

« آه لو يفنى الناس ولا يعود هناك حمل ولا ولادة وتصمت الأرض ولا يكون كفاح » .

ومن المهم أن نلاحظ أن الحوار بين « نسو » وبين نفسه يتناول السؤال عن معنى الحياة من ناحيتين تتعلق إحداهما بما إذا كان هناك معنى للحياة إذا اختفى كل ما كان من شأنه أن يجعل الحياة سعيدة . أما الناحية الثانية وهى أكثر عمقا وأوسع مدى فلم يكتف الكاتب فيهـــا باستعراض ذلك العراك بين الأفكار والرغبات ، وإنما عمد إلى موازنة بين وجهتى النظر المختلفتين اللتين سادتا الحيـاة فى ذلك العصر . بينما نجد روح « نسو » تلتزم الدفاع عن متع الحياة الرخيصة وتدعوه ألا يفكر كثيرا فى الآخرة وأن يتقبل برضى كل ما تقدمه الحياة . ويمثل الكاتب ذلك الفريق من المصريين الذين احتفظوا بجأشهم والذين محصتهم الآلام والنكبات وطهرتهم من أدرانها فأكسبتهم بصيرة وزادتهم إيمـــانا بالآخرة وبقيمة أعمالهم الصالحة فى الحياة الدنيا ، ومن ذلك يتضح أن ما حدث ، يتكرر حدوثه فى الانسانية ، وأن فرط النكبات والمساوىء الاجتماعية المنتشرة وازدياد البلاء يحدث أثراً مزدوجاً ، ففريق ممن تصيبهم النكبات – وهم أكثرية – يجرفهم تيار الأحداث ، بينما يفترض أن تدعو تلك الأحداث إلى التبصر ، وأحيانا إلى التشكك .

ولعل من أطرف القطع التى بقيت من ذلك الأثر الأدبى الرائع هى التى تتحدث فيها روحه قائلة :

« عندئذ فتحت روحى فمها إلى تجيبنى : لن تعود ثانية لتشهد الشمس . . . لأن من شادوا المبانى الفخمة من أحجار الجرانيت الصلبة ، وخصصوا لأنفسهم قاعة فى الهرم ، وقدمت لهم كل الخدمات الجيدة . . . أصبحت موائد قرابينهم خالية بعد أن صاروا آلهة (أى ماتوا) وأصبحوا سواء والمتعبين الذين قضوا على شفاف القنوات . . نال الفيض مقصده منهم وكذا حرارة الشمس . . أما الأسماك على ضفة النهر فتجلس إليهم تفقد منهم الأحاديث » .

وفى هذا تعريض واضح كما نرى بفكرة الخلود التى كانت تسيطر على الأذهان ، . . . وهو يرحب بالموت ويتخيله قائماً أمامه فيقول :

«مرحباً بالموت !.. إننى أحس فى لقائه بما يحس المريض حين يكون على أبواب الشفاء من مرضه، كما يخرج من بيته بعد إبلاله.

مرحباً بالموت !.. إننى أشتم رائحته الزكية كرائحة المر، وأسعد به كما يسعد المرء بريح الشمال حين يجلس تحت الشراع.

مرحباً بالموت !.. إن رائحة زهور اللوتس.. تخدرنى كما لو كنت جالسا على شاطىء الإدمان.

مرحباً بالموت !.. ذلك الطريق المبسوط الممهد الذى يسعد المرء بأن يطأه حين يكون فى طريق العودة إلى بيته وذويه.

مرحباً بالموت !.. إننى فى شوق للقياه ؟ كشوق الرجل إلى بيته بعد أن يقضى سنينا طوالا فى الأسر والعناء...»

وهذه الفقرات كما نرى سلسلة متصلة من الشكوى من ضيقه بالحياة وتبرمه وإشادته بالراحة التى يحسها حين يلقى الموت «كأنما هو نسمات الشمال العليلة» التى تخفف من وطأة الجحيم الذى يعيش فيه... وهى تعبر عن راحته وأمله المرتقبين فى التخلص من آلام الحياة وأعبائها ومتاعبها... فالموت عنده راحة كبرى أعدت للمتعبين وواحة يحط عندها أولئك الذين أرهقهم السرى فى بيداء الحياة.

ومما له علاقة بذلك العصر الذى كتب فيه «نسو» قصيدته يمتدح فيها الحياة الأخرى نرى كتابة أخرى حفظت لنا وهى تسجل أدعية تشيد بمتع الحياة الدنيا، وقد وجدت فى مقبرة «انيوتف» أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة (وربما ظهرت قبل عصره) وإلى جانبها صورة ضارب على العود يغنيها أمام المدعوين فى الحفلة الجنزية وقد جاء فيها:

تفنى الأجساد ويبقى ماعداها منذ أزمنة الأجداد، فالآلهة (الموتى) الذين عاشوا من قبل يستقرون فى أهراماتهم وكذلك يستقر الأشراف الأمجاد فى مقابرهم. لقد شادوا الدور التى لا أثر لها اليوم فماذا حل بهم ؟ لقد استمعت إلى كلمات «امحتيه» ، «حور دد اف» الذين يتغنى الناس بأقوالهما فى كل مكان... أين مكان كل منها الآن ؟ لقد تهدمت جدرانها ولا أثر لمكانها بعد، كأنها لم يبنيا على هذه الأرض على الاطلاق ! لا أحد يعود من هناك (من عند الموتى) حتى يقص علينا ماذا فى الآخرة ! وحتى يقص لنا ماهم فى حاجة إليه لتطمئن قلوبنا حتى تلك اللحظة التى نرحل فيها نحن أيضاً... إلى حيث ذهبوا !

ألا فلتبتهج ولتشبع رغباتك طالما أنت حي . إعمل ماأنت فى حاجة إليه على الأرض ولاتضجر قلبك إلى أن يدركك وقت الندب . . . ان القلب الساكن « أوزير » لايسمع عويلا ، والبكاء لايوقظ أحداً من عالم الموت ، لذلك فابتهج لليوم السعيد . ابتهج دائماً ولا تشعر بكلل من ابتهاجك ! لاأحد من الراحلين يعود ثانية ! » .

من ذلك تتبين لدينا وجهتا النظر فى الحياة فى ذلك العصر ، وقد ظلتا جنباً الى جنب حتى نهاية العصر المصرى القديم . والحقيقة أنه فى كل عصر توجد هاتان الفكرتان جنباً الى جنب ولكنهما لم تتمثلا قويتين كما ظهرتا فى عهد الانتقال الأول .

أما فى عهد الدولة القديمة فقد لاءم بين النظريتين نظام الحياة الرتيبة ، ولم يظهر أثرهما إلى عندما تغير وجه الحياة المستقرة ، وقد كان ذلك أمراً طبيعيا إذ أن المصريين إعتقدوا أن الانسان سيحيا حياة ثانية تشبه حياته على الأرض ولذلك يجب حفظ جثته من الدمار ويجب أن تتلى الأدعية وتقدم القرابين فى المقبرة . وقد تحملت الدولة القديمة فى سبيل ذلك الشىء الكثير مما يضمن للموتى حياة سعيدة . فماذا عساه يحدث إذا انتهكت حرمة القبور وأهمل الكهنة أعمالهم ، وهو ما قد حدث بالفعل عندما انهار صرح الدولة القديمة . ؟

ليس من شك أن عقائد المصريين فى الحياة والموت وتصادمها بسبب ما اقترفته الثورة الجامحة هى التى أثارت تفكيرهم بالذات فى معنى الحياة فذهب الكثيرون منهم إلى أنه لافائدة ترجى فى العالم الآخر . وحديث نفس « نسو » والعازف على العود يذهبان إلى تدعيم وجهة النظر الدنيوية من عدم خلود المقابر والطقوس الدينية وأنه لذلك لا أمل فى أن يطمع الانسان فى حياة خالدة بعد الموت . وذهب فريق آخر - وهو الأقلية - ويمثلهم « نسو » شخصيا - إلى أبعد من هذا فنادى

بأنه ليس فى تقديم القرابين وتلاوة التعاويذ ما يوصل إلى حياة طاهرة تشبه حياة الآلهة وإنما السبيل إلى الحياة هو الفضيلة وعمل الخير، وأن الفقير إن أراد الحياة السعيدة فى الآخرة فعليه أن يعمل الفضيلة فيصل إلى السعادة فى الآخرة ولو لم يدفن فى مقبرة أو تقدم له الطقوس الجنزية .

ومن الغريب أن ذلك العصر الذى انتشرت فيه أسس العقائد الجنزية أخذت تنتشر فيه كذلك ديانة « أوزير » بدرجة كبيرة مما جعل لها أكبر الأثر فى الطقوس الجنزية حتى نهاية العصر المصرى القديم ، فقد كان يتمثل فى بادىء الأمر فى الملك، مصير الاله « أوزير » إذ قتل بغير ذنب وعاد إلى الحياة وقضت الآلهة ببراءته وترك عرشه فى عالم الأحياء لابنه « حور » وأخذ مكانه على عرشه فى عالم الموتى . وكما أن الملك فى حياته يمثل حور على الأرض بين الأحياء فانه كان عند موته يصبح « أوزير » ويتولى السيادة فى عالم الموتى .

وقد امتزجت هذه المعتقدات « حور ، أوزير » بالملكية حتى أنه كان يبدو من المستحيل إسناد هذه المعتقدات لأحد أفراد الشعب لأن طبيعتها لا تتفق ولا ينسجم لها معنى إلا للملك المتوفى. غير أنه فى عهد الانتقال الأول انتشر الاعتقاد بين عامة أفراد الشعب بأن كل ملك يتخذ شخصية الاله « أوزير » فى الآخرة، وأن الاله « انبو » يتولى حفظ جثته وحمايتها ، وأن إلهة السماء « نوت » أم « أوزير » تحنو عليه، وأن « ايزة » (المسماة بالساحرة العظيمة) تبكيه، وأن ابنه « حور » يدافع عنه ضد أعدائه ، وأنه هو الذى يقوده إلى المكان الممتاز — مكان الشرف فى السماء — ولذلك كانوا يضيفون كلمة أو لقب « المبرر » إلى لقب الميت . ولقد أصبحت هذه المساواة أو المشابهة بين الميت و « أوزير » أمراً معروفاً بين أفراد الشعب فى أوائل الدولة الوسطى كما تدل على ذلك النقوش والتعاويذ التى كانت تكتب على التوابيت إذ ذاك . وهذا ما حدث

نتيجة للانقلاب الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطى ، فقد تأثر مركز الملكية بدرجة كبيرة فى عهد الانتقال الأول وقلت سطوتها ومهابتها واتخذ أمراء الأقاليم لأنفسهم نفس ألقابهم ونسبوا لأشخاصهم كل ما للملوك وأرخوا الحوادث كما قدمنا حسب سنى حكمهم . وألحقوا بأسمائهم التمنيات التى كانت تميز الملوك من قبل . وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى أن ادعوا لأنفسهم الحقوق والامتيازات التى كانت للملك خاصة فى الحياة الآخرة وبذلك خطوا أول خطوة فى سبيل إشاعة الحقوق والامتيازات التى كانت من حق الملوك وحدهم . ولما لم يعد للملكية حول ولا قوة وزالت سطوتها وتضاءلت الفوارق فى الهيئة الاجتماعية وأصبح الاشراف لا يستطيعون بناء مقابر لأنفسهم فى حين تمكن العامة من تشييد المقابر الفخمة ، أدى ذلك بطبيعة الحال إلى وجود الطقوس والعادات الجنزية وانتشارها بين أفراد الشعب بعد أن كانت قاصرة على الملوك فقط ؛ ولذلك شاعت هذه الطقوس الدينية بين العامة، وهكذا حلت محل الارستقراطية الدينية فى الدولة القديمة ديمقراطية بل شيوعية عامة دينية فى الآراء والمعتقدات .

ولقد ذهب كثير من العلماء إلى أن عبادة « أوزير » تمثل تقدما هاماً فى الديانة المصرية وأنه كانت لها آثار خلقية عظيمة . على أنه يلاحظ أن أسطورة أوزير ليست هى وحدها التى ابتدعت الاعتقاد فى محاسبة الانسان بعد مماته على أعماله فى حياته الدنيا، إذ أننا نجد هذه العقيدة ممثلة فى أقدم نصوص الأهرام كما نجد أنها كانت منتشرة إلى درجة كبيرة فى الدولة القديمة، وحتى لو سلمنا بأنه قد نشأت دوافع خلقية كثيرة من المثال الذى قدمه أوزير عن الحياة الفاضلة البريئة ، فان هذا المثال لا يلبث أن نجد ما ينقضه بسرعة، فلم يعد أوزير مثلا يحتذى وإنما كان الميت يتخذ شخصيته بأن يصبح هو نفسه « أوزير » كما ذكرنا .

وإذا كان امتزاج شخصية الملك بعد مماته بشخصية « أوزير » له ما يبرره إذ

كان الملك فى حياته إلها كما كان « أوزير » فى حياته ملكا ، فان امتزاج فرد من أفراد الشعب بعد موته بـ« أوزير » من شأنه أن ينتج أسوأ الآثار، إذ أصبح مجرد هذا الامتزاج كفيلا بأن يحقق براءة الميت وأصبح كل ميت يلقب بالمبرر، ولم يكن هناك مجال للاعتراف بأى ذنب اقترفه فى حياته إذ كان عليه أن يعلن براءته من كل ذنب وخطيئة وأن يدعى لنفسه سلسلة طويلة من الفضائل والأعمال الحسنة، وهكذا أدت مساواة كل ميت بـ« أوزير » وامتزاجه به إلى براءة صورية ضيعت الغرض من المحـــاكمة وأصبح الاهتمام بالشكليات والسحر شائعا . أما العادات والطقوس الجنزية نفسها فقد أخذت تتطور فى عهد الانتقال الأول من نفس الاتجاه الذى بدأت تتخذه فى أواخر الدولة القديمة ، فقـــد أصبحت تكتب على التوابيت، عدا قوائم القرابين ، نصوص دينية طويلة بعضها من « متون الأهرام » وأخرى ترجع إلى نصوص قديمة ، ومنها ماهو حديث التأليف . ومن مجموع تلك النصوص المعروفة بنصوص التوابيت نشأ فيما بعد « كتاب الصعود من القبر نهارا » فى عهد الدولة الحديثة وهو ما يعرف باسم « كتاب الموتى » وهى تسمية حديثة لم يعرفها المصرى القديم .

وفى عهد الأسرة السادسة بدأت عادة إقامة نماذج من الخشب فى غرفة الدفن لتقوم مقام التماثيل التى كانت توضع فى السراديب فوق سطح الأرض يمثل بعضها صاحب المقبرة وأفراد الأسرة وبعضها الآخر يمثل بعض خدمه وأتباعه، ولتقوم أيضا مقام الصور التى كانت على جدران المقصورة فوق سطح الأرض ، بعدأن أصبحت تلك المقصورة عرضة للصوص والمعتدين . وفى عهد الانتقال الأول بلغت تلك العادة غايتها من الانتشار فقد كانت توضع فوق تابوت الميت وبجواره نماذج خشبية للفلاحات حاملات القرابين وطاحنات الحبوب والخبازين والطباخين وصانعى الجعة . وإلى جانبها نماذج الثيران وزرائب العجول ودور النسيج وغير

ذلك ، وكثيراً ما كانت تشتمل هذه النماذج على نموذج أو أكثر لقارب شراعى يمثل فيه الميت جالسا وأمامه خدمه يتلقون أوامره .

وقد انتشرت إلى جانب عبادة « أوزير » عبادة أخرى هى عبادة « رع » التى كانت جذورها قد تأصلت وأخذ كهنة الآلهة المحلية يشبهونهم بـ « رع » كالاله « خنوم » و « سوبك » كما يتضح من أسمائها المعروفة إذ ذاك « خنوم رع » الخالق و « سوبك رع » ، إذ يتخذ إله باتحاده مع إله آخر صفات الاله الذى اتحد معه . وأصبحت الالهات العظيمة أمهات لـ « رع » . وقد أدى ذلك بكثير من العلماء إلى الاعتقاد بأن المصريين فى ذلك الوقت أصبحوا يعتقدون بالوحدانية على أن هذه العقيدة التى نشأت فى « هليوبوليس » لم تنتشر بين أفراد الشعب وإنما صارت سرا بين أفراد المصريين المثقفين يدين بها الكهنة والطبقة الممتازة من الشعب . كما أن الآراء والمعتقدات الدينية أصبحت خليطا مضطربا يجمع بين المعتقدات الخاصة بالشمس والمعتقدات الخاصة بالآلهة المحلية . أما شعور المصرى الدينى فى ذلك العصر — أو ما نسميه بقوة تدينهم — فليس من شك أنه أخذ يشتد ويعمق على الأقل بين أفراد الطبقة المستنيرة منهم فأخذوا ينقدون بشدة الاخلاق الشائعة ويندون بالمساوىء الاجتماعية الفاشية فى حين تتكشف لهم المعانى الدينية العميقة ويقوى شعورهم الدينى إزاء المساوىء الشائعة . وإننا لنجد صدى ذلك فى الاثر الادبى المعروف الذى أسلفنا الاشارة إليه وهو شكايات الفلاح (أو قصة الفلاح الفصيح) كما نجد صدى ذلك فى حديث الرجل الذى مل الحياة « نسوء » وفى نصائح « خيتى » إلى ابنه « مرى كارع » الذى ينبهه فيها إلى أهمية الدين فى حياة الملك الشخصية وفى إرشاد رعيته مما يكشف عن شعور دينى عميق لا يفوقه شىء آخر .

ويتضح مما سبق أنه قد نشأ فى عهد الانقلاب الأول ، وهو عهد انحطاط سياسى واجتماعى . . نشأ أدب جديد لا يمت بصلة إلى الأساطير الدينية وإنما كان وليد الظروف السائدة فى ذلك الوقت ويمتاز بطابع خاص هو طابع العصر الذى نشأ فيه . فـ « ايبو - ور » يصور بصراحة حالة البلاد الاجتماعية ويحاول

أن يحرك الحاكم من سكونه بأن يقول له :

« لديك الحكمة والبصيرة والعدل ... ومع ذلك تترك الاضطراب وضوضاء المتعاركين تنتشر فى البلاد . انظر إليهم ، إن كل واحد يضرب الآخر ولا يعبأ بالأوامر فهل تلق راعيا يحب الغناء ؟ » .

وبينما يشكو مر الشكوى من الأحوال السائدة ويحاول أن يرشد الملك إلى طرق الاصلاح نرى أن حديث « نسو » مع نفسه يصور لنا كذلك صورة واضحة للعصر فيستعرضه بأفكاره ومشاعره محاولا فهم معنى الحياة ومشاكلها على الوجه الصحيح . كما أن شكايات الفلاح الفصيح تشير إلى المساوىء الاجتماعية والاضطراب فى الأمن وتفشى السرقة والغش والخداع وانحطاط القضاء ، وأنه لاعلاج لهذه المساوىء إلا إذا حل القانون محل الظلم والاستعباد والفوضى ، وإلا إذا امتنع الموظفون عن الرشوة ، وإلا إذا ساد العدل شئون القضاء .

الفصل التاسع

الاقطاع فى أزهى عصوره

«حكام الأقاليم الملوك»

٢٢٤٢ - ٢٠٦٥ ق. م.

الأسرة التاسعة : حكام اهناسية الملوك :

أسرة ختى : واح كا رع - مرى ايب رع - نب كاو رع - مرى كا رع .

الأسرة العاشرة

الأسرة الحادية عشرة: حكام طيبة الملوك :

أسرة أنيوتف: أنيوتف - سهر تاوى - واح عنخ - نخب نب تپ نفر .

أسرة منتوحتپ : سعنخ ايب تاوى .

٢٠٦٥ - ٢٠٠٠ ق. م. - طلائع الوحدة الجديدة : نب حپت رع - نب خرو رع ، سعنخ كا رع - نب تاوى رع .

مقدمة

بعد الشكوك والظلمات التى تنتاب الأسرة الثامنة نتقدم إلى فترة أقل ظلمة لأن لدينا من الأسرة التاسعة بعض الشواهد التى تمكننا من إقامة هيكل عام لهذه الأسرة . وقد اختلفت المصادر التى نقلت عن مانيتو فى عدد ملوك الأسرة ومدة حكمهم . ف «يوسيبيوس» يذكر أنهم أربعة حكموا مائة عام و «باربار وس»

يذكر أنهم ٢٠ حكموا مائة عام ، و « أفريكانوس » يذكر أنهم ١٨ حكموا ٤٠٩ سنة ، وتكاد مظاهر الأمور تجمع على أنهم كانوا أربعة فقط ولكن ليس من المحتمل أن يكونوا قد حكموا طوال هذه المدة الكبيرة . ويرى « اراتوستينوس » أن الأول حكم سبع سنوات والثانى ١٢ سنة والثالث جيلا كاملا أى ٢٥ سنة ، وكانت مدة حكم الرابع قصيرة . وعلى ذلك لو قدرنا مدة ٦٠ سنة لما عدونا الحقيقة على الأغلب . وخلفت هذه الأسرة، الأسرة العاشرة وانتهى العهد بتـــولى سابع ملوك الأسرة الحادية عشرة الجنوبية المعاصرة للأسرة التاسعة الاهناسية عرش البلاد جميعاً ، ذلك لأنه أول ملوك الاسرة الحادية عشرة الذين انتحلوا عن حق لقب فرعون مصر جميعاً . وكان اعتلاؤه العرش بعد مرور ٧٥ سنة من بدء حكم الأسرة ومعنى هذا أن الأسرة العاشرة استمرت فى الحكم حوالى ٢٥ سنة . وإذا قارنا بين حكم الأسرتين التاسعة والعاشرة من ناحية، وحكم الأسرة الحادية عشرة من ناحية أخرى (وكانت تحكم الجنوب فى نفس الوقت) حـــتى سابع ملوكها فانه يتضح لنا أن أول ملوك الأسرة التاسعة نصب نفسه ملكا على اهناسية عقب سقوط الأسرة الثامنة وأن نفس الظروف أدت إلى ظهـــور « واح عنخ انيو تف» الذى عرف فيما بعد كمؤسس للأسرة الحادية فى طيبة. وتعزز قائمة أبيدوس ذلك فتنتقل فوراً من الأسرة الثامنة إلى الأسرة الحادية عشرة دون أن تورد اسما من أسماء ملوك الاسرتين التاسعة والعاشرة لاعتبارهم ملوكا غير شرعيين من وجهة نظر هذا المصدر الجنوبى

وأسماء أربعة من ملوك الاسرة التاسعة معروفة لدينا من آثار معاصرة وهم « واح كارع » ، « مرى ايب رع » ، « نب كاو رع » ، « مرى كا رع » وكل منهم له اسمه العام ، ويمكن معرفة تتابعهم على الوجه الآتى : كتب واحد منهم (نجهل اسمه مبدئياً) خطاب نصح وتعليم لابنه المدعو « مرى كا رع » ، ويشير فى

الخطاب إلى الملك المبرر « مر .. رع » (الذى يغلب على الظن أنه « مرى ايب رع ») وهو « مويرس » الذى ذكره « ايراتوستنيس » كثانى ملوك الأسرة ، فاذا كان ذلك كذلك ، فان الترتيب يكون على الوجه الآتى : كاتب الخطاب ثالثهم و« مرى ايب رع» هو الثانى ، وأما رابعهم فهو « مرى كارع» ولما لم يبق سوى « واح كارع» فيغلب على الظن أنه مؤسس الأسرة ، ويرجح ذلك تشابه اسمه مع الملك الجنوبى التابع له المسمى « انيوتف» الذى أطلق على نفسه اسم « واح عنخ» تقليدا للملك الاهناسى « الهيرقليوپوليتانى » . ولكن بعض المؤرخـــين ومن بينهم دريوتون وشارف وماير رتبوهم على الوجه التالى :

الاهناسيون (اسرة ختى)	الطيبيون (أسرتا انيوتف ، منتوحتپ)
٢٢٤٢ - ٢٢٠٠ مرى ايب رع	
٢٢٠٠ - ٢١٥٠ خمسة ملوك مجهولون « طبقا لمانيتو »	
	انيوتف الاول «سهرتاوى» ٢١٦٠-٢١٥٠
٢١٥٠ - ٢١٠٠ واح كارع	انيوتف الثانى «واح عنخ» ٢١٥٠-٢٠٩٠
٢١٠٠ - ٢٠٨٠ مرى كارع	انيوتف الثالث « نخت نب تپ نفر » ٢٠٩٠ - ٢٠٨٥
٢٠٨٠ - ٢٠٦٠ نب كاو رع	منتوحوتپ الأول « سعنخ ايب تاوى » ٢٠٨٥ - ٢٠٦٥

وإن نحن تغاضينا عما أورده إراتوستنيس ، فان كاتب الخطاب يكون فى رأى جمهرة المؤرخين السابقين (تطبيقاً للترتيب السابق) « واح كارع » كتبه لابنه « مرى كارع » وأشار فيه إلى الملك المبرر « مرى ايب رع » سلفه البعيد . ويبقى بعد ذلك « نب كاو رع » الذى يرى فيه پترى Petrie الملك الذى جاء ذكره فى شكوى الفلاح الفصيح ، ويجعل منه مؤسساً للأسرة الأهناسية لا آخر ملوكها .

وأشهر مصادر هذا العصر هى مقابر أسيوط وبها ثلاثة أمراء من هذه الناحية خدموا هؤلاء الفراعنة . وكذا قصة الفلاح الفصيح . ويمكن القول بأن مصر عقب الأسرة الثامنة كانت مقسمة إلى ثلاثة أجزاء :

١ - الدلتا فى أيدى الأسيويين .

٢ - مصر الوسطى تحت حكم الاهناسيين « الهيرقليوبوليتانيين » .

٣ - الصعيد تحت إمرة حكام طيبة (لاقفط - وتفسير ذلك ضعف ملوك قفط) وحدوده الشمالية أبيدوس .

وكل ماتحت أيدينا يوحى بأن الاهناسيين هم الخلفاء الشرعيون لملوك منف ، وقد شغلوا بالدلتا أكثر من انشغالهم بالصعيد ويظهر أنهم رضوا - كما سنرى - عن وجود ملكية صغيرة مستقلة فى طيبة . ولقد انتصر خيتى الثانى على إسيويى الدلتا وطردهم من البلاد وقسم الدلتا إلى مقاطعات ترتبط بالادارة المركزية فى منف .

الأسرة التاسعة

حكام اهناسية الملوك الهيرقليوبوليتانيون

أسرة خيتى Khety

خيتى — واح كارع Uah - Ka - Ra (Khety)

فى اهناسية، الإقليم المقدس، نصب أول ملك من ملوك الأسرة التاسعة نفسه ملكا بعد أن قوضت دعامة الأسرة الثامنة فى منف. ولسنا ندرى أهو من سلالة أسرة نبيلة أم هو أجنبى. ويتحدث عنه مانيتو واراتوستنيس كأنما هو «أبعث للرعب من كل من تقدموه وأنه كان يفعل الشر فى مصر كلها»، وأنه «سام الشعب العذاب حتى أصابهم فى عهده ما لم يصبهم من قبل فى عهد غيره..» وأنه «أصابه الخبل وجن وانتهت حياته بأن افترسه تمساح». ويذكر مانيتو كذلك أن من بين تسعة عشر ملكا هرقليوبوليتانياً حكموا ٤٠٩ سنة كان «اختيوس» أسوأ من خلفائه قاطبة». وأما اراتوستنيس فيقول: «إن الطاغية الطيبى السابع والعشرين وهو «خوثورتاوروس» حكم مدى سبع سنوات»... ولسنا ندرى سر هذه الدعوى التى لا نعرف لها أصلا اللهم إلا أن يكون الرجل بصدد تأسيس ملك جديد يبذل فى سبيل تدعيمه جهده، لا يكترث بالعواطف الإنسانية بل يمعن فى القسوة ليحقق أهدافه البعيدة، وليس يعبأ بعد هذا أن يخوض بحراً من الدماء ما دام ذلك يؤدى به إلى ملك ثابت وطيد.

خيتى - مرى ايب رع Mery - ib - Ra (Khety)

إن لم يكن «واح كارع» هو مؤسس الأسرة فان «مرى ايب رع» هو

أول الملوك الهرقليوبوليتانيين فى رأى جماعة من المؤرخين (دريوتون ، شارف ، ماير) وهو بهذا الوضع الملك الذى تلتصق به الصفـــات التى لا تشرف صاحبها والتى أسبغها مانيتوعلى مؤسس الأسرة وأول ملوكها. ولكن جماعة أخرى من المؤرخين ترى فى « مرى ايب رع » ثانى ملوك الأسرة فهو « خيتى الثـــانى» على الأرجح . وقد حكم فى رأى « پترى » Petrie ٢٥ عاما ، وفى رأى « ويجال » Weigall أحد عشر عاما ، وكان عصره عصر سلام فى دولته الصغيرة التى شملت مصر الوسطى . وأما باقى مصر فكان فى ضيق وقلاقل كما يشير كتاب خلفه « خيتى الثالث » لابنه « خيتى الرابع » فالمنطقة الواقعة شمال أبيدوس حتى الجندل الأول لم تكن خاضعـــة لنفوذه ، وأما إقليم أسيوط فكان بيد أمراء محليين موالين للملك الهرقليوبوليتانى ولكنهم يستمتعون فى الوقت نفسه باستقلال ذاتى كبير ، بل إنهم كانوا أقوى من الناحية الفعلية ، من البيت المالك نفسه ؛ وبفضل ما خلف أمراء بيت أسيوط من نقوش صخرية استطاع المؤرخون أن يميطوا اللثام عن الكثير من ألوان الحياة العامة فى ذلك العهد البعيد . ويشير أحدهم فى نقـــوشه ـ وهو يحمل اسم خيتى كذلك ـ إلى أنه ربى فى القصر الملكى وأنه تعلم السباحة هناك ، وهو يشير إلى جيش تحت إمرته وإلى أسطول خاضع له يضعه تحت تصرف الملك حين يريد ذلك ؛ كما يتحدث عن الأعمال الإنشائية التى قام بها فى إقليمه وعن تقدم الحياة هناك « سعدت أسيوط بإدارتى لزمام شئونها وشكرت هرقليوبوليس الاله بسببى » .

ولقد عثر للملك « مرى ايب رع » على مجموعة من النصائح منها قوله « على من يريد أن يعيش آمناً أن يكون مستعداً للحرب» وهى جملة نقلها «نب كاو رع» لابنه من بعده . ويظهر أن « مرى ايب رع » كان يباشر سلطانه فى الجنوب ـ إن كان سلطانه قد امتد إلى هناك فعلا ـ بقوة السلاح .

وكان البيت الذى يحكم الجنوب هو بيت « انيوتف Inyotef واح عنخ » « انيوتف عا » . وكان هذا البيت يدين بالولاء لطيبة ... وكان يحكم جماعة تسودها الفوضى هم أقرب للجنوبيين منهم إلى أواسط الصعيد أو شماله . وكان « واح عنخ » ابناً لأمير طيبة المدعو « انيوتف » الذى كان يحمل لقب « حامى الحدود الجنوبية » فى عهد الأسرة الثامنة ... وأما أصل هذا البيت فمجهول وإن كان يغلب على الظن أنه من الإقطاعيين الذين استطاعوا أن يدعموا مركزهم فى الجنوب وأن يكتسبوا ثقة التاج فى منف فى آخريات الأسرة الثامنة

خيتى — نب كاو رع Neb - Kau - Ra (Khety)

جاء فى خطاب من « نب كاو رع » لابنه أنه عادى بغير حق أحد موظفيه وهو « واح عنخ » (وهو « انيوتف » الذى سبقت الاشارة اليه فى عهد الملك السابق) ولم يرض « واح عنخ » بهذه المعاملة فأظهر عصيانه وتمرده واشتبك مع أمير أسيوط « تف ايب » الذى ظل مواليا للملك .

ويعترف « خيتى الثالث » اعترافا صريحا بأن المعارك التى دارت كانت بسبب تحرشه بأمير الجنوب وأنه هو — أى خيتى — البادىء بالعدوان وأنه لم يقدر مدى الاضرار التى تنجم عن تحرشه بالجنوبيين ومهاجمتهم .

وأما مصدر هذه المعلومات فبردية تعرف باسم « بردية بطرسبرج » وعنوانها « ارشادات إلى الملك مرى كارع » وقد نقلت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة وفيها تعاليم من « خيتى » إلى ابنه « خيتى مرى كارع » آخر الملوك الهرقليوبوليتانيين يقدم له فيها خلاصة تجاربه ليسلك عند اعتلائه العرش مسلكا يخالف مسلك أبيه . والبردية تمثل ألوان الصراع بين « خيتى » ومولاه (الاسمى) « انيوتف عا » ، وخطاب فرعون قطعة أدبية نسخت بعد موته بمئات السنين كما

نرى ، وتعطينا صورة رجل قلق متعب أنهكته الشيخوخة والمداورات التي لم تعد سنه تحتملها وهو يلوم نفسه دائما من جراء تهوره ودخوله في حرب ضد الجنوبيين لم يقدر نتائجها ... وهو يحض ابنه في الوقت نفسه على عدم الاشتباك معهم . ويظهر أن كلا من « خيتي » و « انيوتف » كان يتطلع إلى ثينيس « أبيدوس » كأنما هي من أمـــلاكه الخاصة ... فهي بالنسبة لـ « خيتي » أو بالنسبة لمولاه « تف ايب » (صاحب سيوط) على الأقل قلعة باب الجنوب وهي بالنسبة لـ « انيوتف عا » « بوابة الشمال » .. وربما نشأ النزاع من خلاف على جباية الضرائب وربما نشأ عن بعض التصرفات المتصلة بحراسة الحدود . . والمنطقة حساسة .. هي مركز القداسة لدى الجميع ، وإثارة الحرب على أرضها تدنيس يحمل وزره من يسعى إليها .. ولعل هذا هو ما دعا خيتي إلى إظهار ندمه .. وخاصة بعد نهب المقابر وانتهاك حرمتها .

وتدل نصوص مقبرة « تف ايب » كما سنرى على أنه انتصر في المعركة الأولى وأنه دفع الجنوبيين إلى الجنوب وحارب في شرق النيل وغربه واستولى على إحدى المقاطعات الجنوبية ، وحطم جزءاً من الأسطول .. ثم تقف النصوص عند هذا الحد . . ويظهر أن الدائرة دارت عليه ، يعزز ذلك ما ذكره فرعون خيتي نفسه من أن الجنوبيين استطاعوا أن يستولوا على ثينيس وإن لم يتخطوها شمالا لأنه هادنهم على الأغلب .. ومهما يكن من أمر فاننا نرى « انيوتف عا » يتخذ لنفسه الاسم الحوري لفرعون ويسمى نفسه « حور ـ واح عنخ ـ انيوتف عا » ثم هو يتقدم خطوة أخرى فيرتحل إلى الشمال بأسطول لينتقم لنفسه بسبب ما لحقه من إهانة وليأخذ بثأر أرض الاله المقدسة » . ويقول « تف ايب » إن « انيوتف عا » رد مخذولا مهزوما « حين التقى جنده بجنود الأقاليم الجنوبية اســـتطاعوا أن يدفعوهم إلى التقهقر حتى الحدود الجنوبية وحين أتيت إلى المدينة هزمت العدو وتابعته حتى قلعة بوابة الجنوب » .. ولم تكلل المحاولة التالية كذلك بالنجاح وسقط

فيها قائد جيش انيوتف وجاء آخر - كابن آوى - مع جيش من حلفائه ، وتقدمت نحوه ، ولم أتوقف عن القتال حتى النهاية ... واستطعت أن أستعين بريح الجنوب وريح الشمال وريح الشرق وريح الغرب ... وسقط فى الماء وغرقت سـفن أسطوله . وكان رجال جيشه كالثيران حين تلتقى بوحوش الغاب. فروا هاربين »

كانت هذه هى نهاية المرحلة الأولى من المعركة .. وهى المعركة البحرية التى يفخر أمير أسيوط بتسجيلها .. ولكن « انيوتف عا » عاود الهجوم وهو - وليس تف ايب — يقص هنا علينا أنباء المعركة الجديدة فيقول فى نص لوحته الجنزية « لقد جعلت حدودها الشمالية (أى مملكته) الاقليم العاشر (أبو تيج) (مقاطعة افروديتوپوليس ، شمال ثينيس) .. واستوليت على المقاطعة الثينية كلها وفتحت كل قلاعها وجعلت منها بوابة الشمال ... » ولم يتقدم « انيوتف عا » على الأغلب كثيراً إلى الشمال مما يشـير إلى إدراك وبصر بالأمور .. بل مد يده إلى خصمه المهزوم فخطا خطوة أخرى رضى فيها أن يسمح له بأخذ الجرانيت من إقليمه لعمل التماثيل — وإن توقف عن دفع الضريبة المعتادة التى تشير إلى ولائه وخضوعه — ونرى خيتى يحاول أن يستر موقفه فيعلل ذلك بفقر الجنوبيين . وهو ينصح ابنه أن يحسن معاملة الجنوبيين حتى يأتيه الجباة بالهدايا « اقنع بخبزك وجعتك ، و « يكفيك أن تراهم يخفضون الجناح وإن لم يقدموا لك حاصلاتهم من القمح » (أى لا تثرهم حين لا يؤدون الجزية من الحبوب) .

وهو يتحدث عن سكان الشمال الغربى فيذكر أنه أسكتهم وهدأهم حتى حدود الفيوم ، أما عن شرق الدلتا وموجات الأسيويين الرحل فهو يذكرهم فى احتقار كقوم لا يستقرون فى مكان « أولئك التعساء دائمو العراك ، ماؤهم غير مستساغ وبلادهم يصعب الوصول اليها بسبب كثرة الأشجار والجبال » . ولكنه يصفهم بأنهم قوم ليس من السهل هزيمتهم وينصح ابنه بألا يزعج نفسه بهم ويصفهم بأنهم

يذهبون قافلة منفردة ولـكنهم لا يستطيعون أن يهاجموا بلدة آهلة . . منذ عهد حور (أى من القدم) يحاربون ولا يغلبون ولـكنهم كذلك لا يغلبون .. وهم يفاجئون دائما بالحروب » . ورغم ذلك نراه ينصحه بأن يكون على أهبة الاستعداد دائما مقدما له المثل القـديم « من رغب فى الأمن وطمع فى السلامة استعد للحرب » .

ومن نصائحه :

كن سياسيا فى أحاديثك لأن اللسان سيف الملك والـكلام أفعل من الحرب . والمتكلم الممتاز لايغلبه أحد . انسج على منوال أسلافك واقتفِ ما كتبوا واقرأ خلاصة تجاربهم . اجعل لنفسك تمثالا أبديا فى قلوب رعاياك من حبهم لك . لن ثار الجنوب فان الأجانب فى الشمال يبدأون الحرب . شيد مدنا فى الدلتا من أجل ذلك . تشبث بحياة النشاط لأن الدعة والاستسلام والكسل تجعل منك مخلوقا تعسا . الشخص الذى يتطلع للمتعلقات غيره معتوه . حياه الدنيا تمر وليست طويلة وسعيد هو الرجل الذى تخلد ذكراه وامتلاك مليون من الرجال لاينفع ملكا ، ولكن ذكرى الرجل الطيب تدوم إلى الأبد . لاتثق فى طول السنين لأن آلهة يوم الحساب يعتبرون العمر كساعة . الانسان يبقى بعد أن يصل إلى مرفأ الموت وأعماله توضع بجانبه ككنزه الوحيد . البقاء هناك أبدى . اجعل نبلاءك أقوياء حتى ينفذوا رغباتك . عظيم هو العظيم الذى يكون عظماؤه عظماء . وقوى هو الملك الذى يحكم رجالا أقوياء ، وغنى ذلك الذى يكون اتباعه أغنياء . تكلم بالحق حتى يهابك النبلاء فان قول الحق يناسب الملوك . كن عادلا حتى يخلد اسمك إلى الأبد .

واس الحزين ولاتضطهد الأرملة ولاتطرد إنسانا من أملاك أبيه . ولاتجرد القضاة من مناصبهم ولاتعاقب خطأ ولاتقتل لأن هذا لايجدى بل عاقب بالضرب والحبس إلا فى حالة الخيانه . لاتميز بين ابن النبيل والوضيع النشأة (فى المعاملة) ولـكن قرب الرجل من أجل كفاءته . لاتكن كسولا بل أد عملك بسرور واحكم الناس كقطيع لله لأنه عمل لهم السماء والارض وهو الذى خلق الهواء ليعطى حياة لخياشيمهم . الناس صور الله جاءوا من أعضائه وحين يكون يستمع إلى بكائهم . ومن أجلهم خلق الأنعام والحشائش والدواجن والسمك لغذائهم ، ذبح أعداءه وحطم أطفالهم بسبب عصيانهم . يعرف كل إنسان باسمه جعل لهم السحر كسلاح ليزيل الأحداث السيئه . طارد مثيرى الشغب وأقفل عليهم حتى لايضللوا الناس ويخلقوا بينهم العداوة والأحن .

حدثت كارثة فى عصرى ، غزى إقليم ثيث من جراء خطأى ، أدركت هذا بعد فوات الاوان . وعلمت أننى أدفع ثمن خطأى . الضربة تداوى الضربة ، مضى جيل من الناس والله الذى يعرف القلوب اختبأ (لم يصنع) تمس هو الرجل الذى يطلب الحرب لأن العدو وسط مصر ونحن نريد جنداً لاخضاع

المحاربين لكى تصدق النبوءة : هذه هى مصر تحارب وسط قبورها . لاتؤذ المقابر بالحرب لاننى فعلت ذلك ولهذا أستحق ما حل بى من عقاب الله . لاتحطم تماثيل الآخرين . ولكن خذ أحجارك من محاجر طرة ، المحاجر العظيمة فى شرق النيل التى صنعت منها الاهرام . لاتعامل الجنوبيين بقسوة لانك تعرف النبوءة عن ذلك لئلا يحدث كما حدث . لم يكونوا هم السبب بل ، كما قالوا ، كانت الفلطة غلطتى . ليتك تصل الى العالم الآخر دون منهم . لاتدع قريباً لك لأن الله الذى يحميه سيشكوك هو له . لتغرس حبك فى قلوب أهل الارض . الرجل ذو الخلق الحسن يذكر دائماً . انتهت أيام الضعيف . لقد ذكرت لك خيرة أفكارى . ضعها أمامك دائماً : : :

ومن الآداب الخالدة فى ذلك العصر « شكوى الفلاح الفصيح » وهو فلاح من وادى النطرون سافر إلى العاصمة « اهناسية » ليشترى بعض المؤن لزوجه وأولاده ولم يترك لهم سوى ما يكفى لمدة قصيرة ولكن فلاحا شريرا اعترضه وأراد أن يسخر منه ويداعبه مداعبة ثقيلة لم يرتح لها الفلاح فادعى أن حميره وطئت المزروعات فأتلفتها .

وتقدم الفلاح بشكواه إلى ناظر الخاصة وأعجب الموظف بسذاجة الفلاح وحرارة دفاعه وفصاحته التى تنم عن شعور دافق وسذاجة محببة فتأنى فى تحقيق العدالة حتى يستمتع برصانة حديثه ولغته الفياضة ... وأمر بارسال المؤن لعائلة الشاكى فى الصحراء - دون علمه - وقد تردد عليه الفلاح تسع مرات . وتقدم القصة فى أسلوب رائع دفاع الفلاح عن العدالة التى يلتمسها .. ولما بدأ يستيئس وتألم لما قد تقاسيه أسرته بسبب غيابه تحول إلى السباب ، فأمر ناظر الخاصة بضربه فتخلى عن كل أمل فى الحصول على حقه وفكر فى الانتحار ... وعندئذ رأى الناظر أن المزاح قد بلغ مداه فأمر باعادة الحمير له وأخبر الملك بمضمون القصة وسجلت كلمات الرجل جميعاً وأرسلت إلى القصر . وتقول القصة إن الملك لم يسر بشىء سروره من هذا الأسلوب الساذج القوى ... ومن بين ما جاء فيه :

« أقم العدل أيها الممدوح . اقض على فقرى ، انظر ! انى مثقل بالحمل ، انى فى حيرة . . . »

« أنت ياسكان السماء ومثقال ميزان الارض ، ياخيط الميزان لاتتذبذب ملتويا . أليس من

الخطأ - ميزان يميل وثقالة تنحرف ورجل مستقيم يصير معوجا ؟ تأمل ! إن العدل يفلت من تحتك لأنه أبعد من مكانه . إن كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحة نفسه . . لقد أصبح صاحب الحكم آمراً بالسرقة فمن يكبح الباطل إذن ؟ إن الانصاف قصير ولكن الضرر يمكث طويلا، والعمل الطيب يعود إلى مكانه فى الأمس .. إنأت لحظة عليك بالخراب فتحمل كرمك رأسا على عقب ؛ وتفتك بطيورك وتودى بدواجنك المائية ! فالبصر قد عمى بصره والمستمع صم والحاكم قد أصبح متمرداً . . أنت قوى وشديد البأس وقد تخطتك الرحمة . .مثلك كرسول من لدن الإله التمساح ! إنك تفوق ربة الوباء .. قل الحق ولا تضل فلسان الرجل قد يكون مهلكة له . . »

« لا تكذب وأنت عظيم ! لا تكن خفيفا وأنت رزين ولا تنطق بالكذب فإنك الميزان لا تنكمش فإنك الاستقامة ؛ لا تغضب بل اعمل ضد المغتصب . . . »

« إنك صياد يشفى غليله وإنسان منغمس فى إرضاء ملاذه . على أنه لا يوجد انسان متسرع فى كلامه يخلو من العثار . . . اصبر حتى تصل إلى العدالة . . . تأمل بعينك وعلم قلبك ولا تقس لأنك قوى »

« لقد نصبت لتسمع الشكاوى وتكبح جماح اللص . . ولن ما تفعله الآن أنك تساند اللص . . الانسان يضع ثقته فيك ولكنك أصبحت معتديا . لقد نصبت سداً للفقير فحاذر لكلا يغرق . . تأمل إنك تيار سريع بالنسبة له » . « ان كل محاكمة حقة تدحض الباطل وتقضى على الشر . تأمل ان المغتصب يحط من قدر العدالة » .

« لا تجعل قلبك يجمح بل كن حليما : : : إن خولك سيضلك وشراهتك ستودى بك » .

« أقم العدل لرب العدل ، والذى عدل عدالته كائن . . الأصم عن العدل لا صديق له . ، والاستثناء فى إنفاذ العدالة ظلم . . لا تكونن ثقيلا ولا تتوان ولا تكن متحيزا ولا تصغين لقلبك ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه ولا تتعام عن إنســان قد رأيته ولا ترد شاكيا إليك وافعل الخير لمن يقدمه لك حتى يلجأ إليك الناس فى أمورهم . إن الخامل لا أمس له » .

خيتى - مرى كارع Mery-Ka-Ra (Khety)

تولى الملك بعد أبيه ، وفى عهده خلف « خيتى » كذلك أباه « تف ايب » فى أسيوط وكان « واح عنخ انيوتف » على قيد الحياة

وبمجرد توليه الحكم قامت ثورة فى مصر الوسطى فى مقر الحكم . ويحدثنا « خيتى بن تف ايب » أمير أسيوط » الذى ظــل على ولائه وكان يشغل منصب القائد الحربى لكل البلاد ، فى نصوص مقبرته ، أنه أخمد الثورة وأعاد النظام وأبحر

مع سيده الملك إلى أعالى البلاد وكانت السحب تنقشع أمامها وسارا فى أسطول عظيم وكان الناس يخافونهم ويرتعدون ، وكانت القرى مذعورة وداخل الرعب كل نفس واستقر الهدوء والنظام وسادت الطمأنينة . وعادا الى العاصمة - فسعدت وسرت بمقدم مولاهم واختلطت النساء بالرجال والشيوخ بالأطفال . وبنى معبداً فى أسيوط للاله « وبواوة » فاتح الطرق وبدأ الملك فى بناء هرم له فى سقارة بالقرب من هرم تتى . وأقام تمثالا ، ما زال باقيا (وهو محفوظ بالمتحف المصرى) ثم مات ولم يعقب خلفا فانتهت الأسرة بموته .

وجاء فى ختام نصوص « خيتى بن تف ايب » :

« الله مدينتك يحبك ياخيتى بن تف ايب ! ما أجمل ما يحدث فى عصرك ! المدينة سعيدة بك .. المخبوء عن الناس تعمله علانية حتى تقدم المنح « لسيوط » بخططك وحدك . كل موظف فى وظيفته وليس هناك معارك أو رمى بالسهام . الطفل لا يضرب وهو فى حضن أمه ولا المواطن وهو الى جوار زوجته ! ليس هناك أشرار ولا محتصبون ! الله مدينتك أبوك الذى يحبك وهو الذى يقودك !! » .

الأسرة العاشرة

لم تعمر على الأغلب أكثر من ٢٥ عاماً لأن « واح عنخ انيوتف » مات فى الجنوب فى نفس الوقت وتلاه «نخت نب تپ نفر انيوتف» وحكم مدة ١٠ سنوات ثم تلاه « سعنخ ايب تاوى منتو حتپ » وحكم حوالى ١٤ عاماً وحدث فى آخر عهده عصيان أو ثورة اكتسحت الأسرة العاشرة وأحلت ملوك طيبة محلهم على عرش الفراعنة لأن الملك التالى كان « نب حپت رع منتو حتپ » وقد توج ملكا على مصر جميعا إذ جاء فى نصوص جبلين أنه « قيد رؤساء الأرضين واستولى على الجنوب والشمال ،على المرتفعات والاقليمين والأقواس التسعة والأرضين».

و « مانيتو » كثير الخلط فى تاريخ هذه الأسرة إذ يذكر ١٩ ملكا هرقليوپوليتانيا حكموا ١٨٥ عاماً . أما قائمتا سقارة وأبيدوس فلا توردان لها ذكرا . وليس بين القرائن المعاصرة سوى اسم ملكى واحد يحتمل الكثير من الشك هو « شنس واح عنخ » عثر له على ثلاثة من الجدول . ونحن من غير شك حيال فترة تفتتت فيها البلاد وربما أرهقتها الحروب الداخلية حتى قيض لها الله من يلم شملها ويرأب صدعها ويعيد إليها وحدتها .

الأسرة الحادية عشرة
حكام طيبة الملوك

أسرة انيوتف Inyotef

مقدمة

رأينا من قبل كيف أن الأسرة الحادية عشرة نشأت فى طيبة فى الوقت الذى جعلت الأسرة التاسعة من اهناسية مقراً لها تحكم منه مصر حتى أبيدوس جنوباً، وقد ساعد على ذلك أن « خيتى الثالث » من ملوك الأسرة التاسعة فقد سلطانه على على طيبة فى أوائل حكمه .. أخذه منه « واح عنخ » الطيبى الذى يعتبر مؤسساً للأسرة الحادية عشرة المعاصرة فى قسمها الأول للأسرة التاسعة ، والتى حكمت فى رأى فريق كبير من المؤرخين مدى ١٦٠ سنة .

وتقدم لنا بردية تورين من أسماء ملوك الأسرة الحادية عشرة اسمى « نب حبت رع » ، « سعنخ كا رع » ثم اسماً ثالثاً مفقوداً .

وليس بقائمة سقارة أو جدول أبيدوس سوى الاسمين المتقدمين كذلك تليهما مباشرة أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة .

أما أسماء حكام الأقاليم الملوك مؤسسى الأسرة الحادية عشرة الذين استطاعوا أن يرسوا أسس الحكم لها فى طيبة فهم على التوالى : واح عنخ ، نخت نب تپ نفر ، من فرع الأسرة الملقب « انيوتف » ثم « سعنخ ايب تاوى » الملقب « منتوحوتپ » وتشير إليهم على هذا الترتيب كتابتان بالمتحف البريطانى .

* * *

لو رجعنا إلى أخريات الأسرة الثامنة لوجدنا مرسوماً ملكياً من قفط يرجع إلى عهد ملك يدعى « نفركاو حور » (وهو عاشر الأسماء فى قائمة أبيدوس) ذكر فيه اسم موظف يدعى « انيوتف » .

وكان « أنيوتف » هذا حاكما للاقليم كما يتضح من ألقابه التى وجدت فى نص عثر عليه بطيبة « الامير بالوراثة ، سيد إقليم طيبة العظيم ، الحائز على رضى الملك لانه يصون حدود الجنوب ويحرس بواباتها ، السند العظيم ، الذى يحيى الارضين من أجله ... انيوتف » بما يشير إلى أنه كان ينظر إليه فى منف (عاصمة الملك إذ إذذاك) كأهم شخصية فى الجنوب.

ويظهر أن محل إقامته كان « ارمنت » ، ولا يعرف عن حياته وجهوده شىء ، إلا أننا نرى أحد ملوك الاسرة الثانية عشرة فيما بعد وهو « سنوسرة خبر كارع » يقيم لـ « انيوتف » ابن السيدة « اكوى » تمثالا فى الكرنك وينتسب له ويدعوه سلفه الاول . . . كما يظهر فى قائمة ملوك الكرنك تحت لقب أمير كوسس للأسرة الحادية عشرة .

ويظهر كذلك أنه مات حوالى نهاية عهد الاسرة الثامنة ، ودفن فى غرب طيبة والالقاب السابقة التى جاءت بلوحته الجنزية تشير إلى أنه لم يحدث تصدع حتى وفاته فى العلاقات بين الأمراء الطيبيين وفرع الأسرة الاهناسية من الحكام والملوك .

واح عنخ « أنيوتف » Uah-Ankh (Inyotef)

خلف « انيوتف عا » أى انيوتف الكبير أبـاه انيوتف وكان أكثر طموحا منه . . . أو لعل الظروف ساقته إلى هذا الطموح . . . ونكاد نلمس ذلك أول ما نلمسه فى اللقب الذى انتحله لنفسه ، ذلك أنه لما نصب خيتى نفسه فرعوناً على اهناسية تحت اسم « واح كارع » أطلق « انيوتف عا » هو الآخر على نفسه لقب

فرعون طيبة متخذاً نفس الاسم « واح » فلقب نفسه « حور واح عنخ » ، واتخذ لنفسه اللقب البوصى والنحلى . وكما أطلق خيتى عـلى نفسه لقب ابن الشمس انتحل « انيوتف » نفس اللقب . . . ولكن يظهر أن اتفاقاتم بين الاثنين فتراضيا على أن يعترف « انيوتف » بـ « خيتى » كسيد يدفع له الضريبة من القمح ويبيح له قطع الأحجار من أسوان .

واستمرت الحال على ذلك مدى سبع سنوات من حكم « خيتى الاول » وكذا اثنى عشر عاماً من حكم « خيتى الثانى » أى تسعة عشر عاماً من ولاية « واح عنخ انيوتف » على طيبة.

وولى الحكم « خيتى الثالث » فى أهناسية وبادأ بالعدوان (كما أشرنا إلى ذلك من قبل فى نصائحه لابنه) وأشهر عليه العداء من غير وجه حق كما اعترف بذلك فقامت الحرب وسجل حاكم أسيوط الموالى لملك اهناسية نصراً إلى جانب مليكه ولكن يظهر أن وجه المعركة تغير بعد ذلك فتم الصلح بعد أن وطىء المتحاربون الأرض المقدسة فى أبيدوس ومقابرها الطاهرة ، ولم يسع « واح عنخ انيوتف » بعد ذلك إلى مد نفوذه . . . وتشير إحدى اللوحات التى خلفها أحد ضباطه ، إلى المعركة التى قامت وما بذل فيها من شدة وعنف « يقول زارا Zara الامير . . الصديق الصدوق . . . حاكم العاصمة ، المشرف على الاهراء : أبعث إلى « حور واح عنخ ملك مصر العليا والسفلى ابن رع انيوتف خالق الاشياء الجميلة » برسالة بعد أن حاربت بيت خيتى فى إقليم ثينيس . . . وجاءت الانبـــاء والرسل بأن الامير منحنى سفينة لحماية أولئك الجنوبيين إلى أبعد الحدود إلى الجنوب من الفنتين وإلى الشمال حتى افروديتوبوليس لانه كان يقدر لى كفاءتى . . . ورقيت حتى أصبحت بين المقدمين . . . وكم كان قلبى جسوراً فى يوم الصراع ! » .

وهناك أثر لموظف آخر من عصره عاش كذلك فى عصر خلفه وهو « ثيثى »

وهو يقول « قضيت سنين عدة تحت حكم مولاى « حرر واح عنخ » ملك مصر العليا السفلى ابن رع انيوتف . . . كانت هذه البلاد كلها تحت إمرته حتى ثيس فى أعلى النهر وثنيس فى الشمال . . . لقد كنت حقاً من المقربين لمولاه وكنت موظفاً كبيراً ومحبوباً . . . كنت الانعاش والدفء لبيت مولاه وكانت تؤدى لى التحية فى حضرة العظماء » .

ويشير قبر « انيوتف عاء فى القرنة (طيبة الغربية) إلى أنه بنى فى العام الخمسين من حكمه وهناك لوحة به تشير إلى هواية الكلاب فقد رسم ومعه خمسة منها . . . وإننا لنرى بعد حوالى أحد عشر قرناً - فى عهد رعمسس التاسع - مفتش الجبانة المعين لفحص القبور الملكية التى تغتصب يعلق على مقبرة « انيوتف عاء بقوله « مقبرة الملك سارع » ان - عا » الواقعة إلى الشمال من معبد امنحتپ . . . مصابة بتشويه من الخارج مقابل الناحية التى توضع عليها اللوحة . . . وعلى اللوحة صورة الملك واقفا وبين قدميه كلبه المسمى « بهوكع » . . . قمت بفحص المقبرة اليوم ، وهى سليمة » . وقد كشف ماريت عن هذه اللوحة عام ١٨٦٠ وتركها فى مكانها فأخذها أحد الفلاحين ووضعها فى دعامة ساقية . . . واستطاع ماسپرو أن يجمع الأجزاء الباقية منها ، وهى محفوظة اليوم بالمتحف المصرى، وقد بقى منها مايمثل الملك انيوتف ومعه أربعة من كلابه الخمسة ، ثم بعض النقوش التى تشير إلى غزوته فى ثينيس كما تشير إلى ما قام به من أعمال فى طيبة « ملأت معبد امون بالأوانى الضخمة لتقدمة السكائب . . . بنيت المعابد وصنعت لها السلالم وأصلحت بواباتها ورتبت أمر القرابين المقدمة لها إلى الأبد » .

ومن الآثار الخالدة من عصره تلك الأغنية الجنزية التى نسخت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة على بردية نقلا عن مقصورة قبره على الأغلب وعنوانها « الأغنية فى بيت الملك انيوتف المبرر التى هى أمام المغنى العازف على القيثارة » :

ما أكبر نجاح هذا الأمير الصالح .
إنه لمن حسن المصير أن يبلى الجسد ،
إننا نذهب ويبقى غيرنا . . .
ولكن الموتى الذين ذهبوا لم يعد واحد منهم ،
من الأبدية لم يعد أحد ليحدثنا بما جرى لهم .
حتى يسعد قلوبنا فنرتحل نحن كذلك .
إلى حيث ذهبوا . . .
دع عقلك ينسى هذا واتبع رغبات قلبك مادمت حيا ،
وتمتع بمسرات الحياة ولذائذها ،
إنها عطايا الإله الحقة .
لاتحطم قلبك . . . اتبع هواك وسير حياتك ،
وفق رغبات قلبك .
إنني استمعت إلى كلمات امحتب ، حرددف . . . أين هما اليوم ؟
لقد هدمت جدران مدافنها ولم يبق منها شيء كما لم
يبق أثر لمقابر العظماء الذين راحوا ووسدوا الأهرام الشاهقة .

ثم يختتمها بقوله :

« كن سعيداً بأفراح اليوم ولاتحزن فالمرء لايأخذ متاعه ، والذاهب لايعود » ».

نخت نب تپ نوفر « أنيوتف » ,Nekht-neb-tep-nofer (Inyotef)

خلف أباه على ولاية طيبة ومعنى لقبه الطويل « قوى هو المولى فى علو طالعه الحسن » ولقد تابع « ثيتى » الخدمة تحت لواء هذا الأمير الجديد لطيبة كما كانت الحال مع أبيه . وهو يشير فى لوحته إلى الولاية الجديدة بقوله « ارتحل « حور واح عنخ » إلى أفقه وحين أخذ مكانه ابنه « حور - نخت نب تپ نفر ملك مصر العليا والسفلى ابن رع أنيوتف » كنت رفيقه فى كل مواطن السرور » وقد تسلم « ثيتى » وظيفته كخازن أول فى عهده .

ولابد أن « نخت نب تپ نفر » كان فى سن متقدمة حين ولى العرش بعد

وفاة أبيه ومن المعروف أن اقليم أبيدوس ظل تحت إمرته ولكن يغلب على الظن أن حكمه كان قصيراً لم يزد عن الخمس سنوات .

ولسنا نعرف شيئا عن مناوشات تمت فى هذه المرحلة . . . فتقدم سن الوالى الجديد وقصر مدة حكمه كانا دافعين من غير شك إلى تأجيل الرغبة فى الشحناء

أسرة منتوحتپة Montouhotpe

سعنخ ايب تاوى Sankh-ib-taoui - منتوحتپة الأول Montouhotpe I

يلاحظ فى لقب هذا الحاكم الجديد كلمة « منتو حتپة » بدلا من « انيوتف » . ويحمل اللقب فى نصفه الأول اسم « مونتو » إله الحرب المحلى فى « أرمنت » ويرجح أن الحاكم الجديد كان شقيقاً - وليس ابنا - للحاكم السابق . وربما لم يكن من الأسرة كذلك بل كان قائداً حربياً من أسرة أخرى استطاع أن يخلع سلفه الضعيف « انيوتف » لأنه لم يقو على مجابهة الموقف الجديد .

وأما ترتيبه كخليفة لـ « نخت نب تپ نفر انيوتف » فلا يحتمل شكا ، ذلك لأن موظفاً يدعى « انيوتف » عمل تحت إدارته يسجل تتابع الملوك الثلاثة الذين عاش فى عصرهم وخدمهم على التوالى وهم « واح عنخ انيوتف » « نخت نب تپ نفر انيوتف » ثم « سعنخ ايب تاوى منتو حتپة » ... ولا يسجل هذا الأثر للموظف « أنيوتف » الأسماء فقط بل يشير كذلك بين صورتين لزوجتيه الثانية والثالثة إلى السنة الرابعة عشرة من حكم « سعنخ ايب تاوى منتو حتپة » وهى السنة التالية للسنة التى أشهرت فيها ثينيس ثورة جديدة ربما كانت تتصل بمحاولة الأسرة العاشرة فى اهناسية مد نفوذها مرة أخرى على الجنوب بعد المهـادنة السابقة . ويظهر أن هذه المحاولة أدت إلى معارك جديدة أودت بالملكية الاهناسية واكتسحتهـا وقضت عليها . ولكن « سعنخ ايب تاوى منتوحتپة » لم يكتب له أن يختم الصراع

على يده وأن يتوج بهذه الخـاتمة الرائعة لطيبة فى عهده ، بل كان ذلك المجد من نصيب خلف له هو « نب حبت رع منتو حوتبة ».

وقد عنى هذا الحاكم بتسجيل المظاهر التى تشير إلى الملك فوضع اسمه فى خانة ملكية ، وان كان من المؤكد أنه لم يكتب له ان يحكم مصر الموحدة فى حدودها التى نعرفها .

وهناك موظف آخر من هذا العهد هو « حق ون » سجل كذلك على لوحة خاصة به أمر ثورة ثينيس « . ولما كانت هذه الثورة قد حدثت فى العام الخامس عشر من ولاية « سعنخ ايب تاوى » فإننى أميل إلى الموافقة على الرأى الذى يشير إلى أنه بقى حاكما على ولاية طيبة مدى ثمانية عشر عاماً .

طلائع الوحدة الجديدة ٢٠٦٥ - ٢٠٠٠ ق.م.

نب حبت رع Neb-Hapt-Ra ، منتو حتبة الثانى Montouhotpe II

لعل « نب حبت رع منتوحتبة » أول حاكم نلقى قوائم الملوك تجمع على تسجيل اسمه فيها فقد ذكر فى بردية تورين وفى جدول سقارة وفى قائمة أبيدوس. وإجماع المصادر الثلاثة على ذكر اسمه دليل واضح على أنه كان ملكا حقيقيا .. بعد انقطاع خط الملوك الحقيقيين منذ نهاية الأسرة السادسة .

ومن عصره لوحات وقطع حجرية من هيا كل عثر عليها فى دندرة وجبلين .. تمثله وهو يضرب المصريين والليبيين والنوبيين والآسيويين الرحل فى شرق الدلتا. فنحن إذن أمام ملك يسعى جاهداً للتوحيد ، ولطرد الغزاة الأجانب فى الجنوب والشرق والغرب ولتحرير البلاد. وتشير النصوص إليه كأنما هو « موحد رؤساء الأرضين القابض على الشمال والجنوب » فهو قد نجح من غير شك فى إخماد ثورة

ثينيس وفى القضاء نهائياً على المملكة الاهناسية وفى التغلغل فى مصر الوسطى ، ثم الدلتا ، وفى اعتلاء عرش مصر المتحدة الموحدة على أنقاض الأسرة العاشرة .

ولهذا الأمر خطورته .. فهذا ملك من الجنوب .. ربما كانت تجرى فى عروقه دماء نوبية ، يسعى — وينجح فى مسعاه — ليتوج ملكا على مصر العليا ومصر السفلى معاً .. وكان هذا تغييراً مفاجئاً بالنسبة لمصر الوسطى التى نظرت إليه كشخص فيه وحشية وليس على قسط ولو ضئيل من المدنية ، بربرى الطبع خشن المعاملة .

وأما لقبه كـ « حور موحد الأرضين » فتشير إليه أطلال مقبرته التى سنتناولها بالوصف فيما بعد ، وهو اللقب الأخير الذى يشير إلى نهاية أعماله فى هذا الميدان .. ولكن غيره من الألقاب تشير إلى أنه أخذ يستكمل مظاهر الملك مستأنياً ، الواحد بعد الآخر ، فألقابه تشير إلى أنه كان فى أول الأمر « رب التاج الأبيض » أى حاكم الصعيد ، وهو أمر حققه من غير شك بعد أن قيض له النصر على الاهناسيين ، ثم انتحل لقب « حور موحد الأرضين » بعد أن أخضع الشمال وطهره من الغزاة ، ويشير إلى ذلك تمثاله المعروف الموجود بمتحف القاهرة والذى يظهر فيه مرتديا تاج الشمال . وانتهى به الأمر إلى وضع اسمه داخل الخانة الملكية حتى تستكمل المظاهر الملكية . وأردف بالاسم ألقابه الكاملة « مقيد رؤساء الأرضين ، القابض على أراضى الجنوب والشمال ، المرتفعات والاقليمين ، الأقواس التسعة والأرضين » كما تشير إلى ذلك أطلال معبده الذى أقامه بالقرب من أرمنت احتفالا بذكرى النصر ، ونقلت أنقاضه إلى المتحف المصرى بالقاهرة .

وأما أخبار حروبه مع الاهناسيين واكتساح مملكتهم والقضاء عليها نهائيا فليست هناك إشارات أخرى تتحدث عنه سوى نقش بمقبرة « خيتى » ابن « تفابى »

الذى خلف أباه على ولاية سيوط ـ وكان من أشياع الاهناسيين وهو يمدلأعوانه حبال الأمل ويطعمهم ألفاظاً حلوة لاتكاد ترد عن نفوسهم مرارة ما يحسون من خذلان وهزيمة .. وهو يشير إلى تكتل الصعيد فى صف الأهناسيين .. وهو أمر يكذبه واقع الحال .. فالصعيد انضوى تحت لواء حاكم طيبة .. بل إن الأشمونين كانت قد انسلخت من زمن عن الاهناسيين بعد أن ضاقت بهم وتمردت عليهم .

والآثار من عصر هذا الملك وجدت فى « جبل الشيخ موسى » بالقرب من أرمنت وفى دندرة ، وقد عثر له على لوحة فى « كنوسو » كما أنه شيد معبده الضخم ومقبرته فى صخور منطقة الدير البحرى .

وأما آثاره فى أرمنت فأمر طبيعى لأنها مقر « مونتو » الاله الذى تنتسب أسرة الملك له. وأما دندرة فمقر عبادة «حتحور» التى يظهر أن الملك كان يكن لها احتراما خاصاً بدليل أن آثاره الأخرى فى جبلين تتصل بعبادة « حتحور » وتقديسها وهو يسمى نفسه هناك « ابن حتحور سيدة دندرة : منتوحتپة » .

ومعبده فى إقليم الدير البحرى يضم إلى جانب مقبرته مقابر ومحاريب لستة من زوجاته ـ أو محظياته ـ هن على التوالى : عشايت ، حنحنت ، كسيت ، كويت ، سدحة ، ماييت . وقد كشف عن المعبد والهياكل والمقابر « نافيل » و « هول » كما كشف « وناوك » فيما بعد عن تابوت واحدة من الزوجات الستة هو أروعها جميعاً . وكانت الزوجات الستة كاهنات لـ « حتحور » تحمل كل منهن لقب « الزوجة الملكية الوحيدة المحبوبة » . وكثرة حريم الملك جديدة على الحياة المصرية وهو أمر أثار اشمئزاز المصريين فى مصر الوسطى إذ لم يعهدوه من قبل ... و «مايبت» صغراهن كانت لا يزيد عمرها عن خمس سنوات مما دفع البعض إلى القول بأن الزوجات قتلن عند وفاة الملك ليؤنسن وحشته بعد موته وهى عادة بربرية ظلت

قائمة حتى عهد الأسرة الثانية عشرة كما تشير إلى ذلك مقبرة «حب زفى» بما تحوى من جثث لعبيد ضحى بهم من أجل مولاهم. ولكن ليست هناك على أية حال أدلة قوية تدعم هذا الرأى.

وقد نحتت مقابر الملكات جميعا فى الصخر، وأمام كل واحدة منها هيكل به تمثال الملكة صاحبة المقبرة، وأما التوابيت فمن الحجر الجيرى نحتت عليها نقوش تمثل الملكات فى مختلف المظاهر معطرات مزينات قائمات حولهن خادماتهن يحملن المراوح ويساعدن فى إتمام زينتهن وهن يقربن من أنوفهن زهور اللوتس ويشربن من لبن دافىء حلب لتوه من بقرة مثلت فى المنظر.

ومن أطرف ما عثر عليه من عصر ذلك الملك، لوحة جنزية تحمل اسم «خنم اردو» كان أميناً للمكتبة لدى سيدة تدعى «نفروكايت» ربما كانت ملكة كذلك.. زوجة أخرى للملك؛ وكانت من بيت نبيل فهى «ابنة ملك وزوجة ملك يحبها» وكانت ابنة إحدى النبيلات وهى «نبت» التى ادعت تملكها البلاد من الفنتين إلى افروديتوبوليس... كانت «نفروكايت» من غير شك راعية للعلوم كأمها، وقد أثار «خنم اردو» انتباهها بحسن خطه «فوضعتنى فى دندرة وعينتنى فى بيت كنوز أمها الملىء بالمخطوطات والغنى بالعلوم... فى قاعة الاجتماعات الكبرى للجنوب، وزادت على يدى المجموعات وأضفت إليها الكثير من الأشياء الثمينة حتى لم يعد ينقصها شىء بقدر ما أعلم، لقد رتبتها وجملتها وأصلحت ما كان قد ناله العطب منها وربطت ما كان محلولا ونظمت ما كان مرتبكا».

ولقد اتهم «منتوحتپ» بالبربرية والتأخر والهمجية. ولكننا نرى أنفسنا هنا حيال مرحلة متقدمة من الحياة الفكرية وعناية أميرتين الواحدة بعد الأخرى بالآداب ورعايتها للعلوم... إن هناك ما يشير فى أكثر من ناحية إلى أن «نب حپت رع منتوحتپ» استطاع أن يفيد من جولاته الكثيرة فاستعان بفنانى

مصر السفلى وبالمهرة من الصناع حتى دفع بفن الجنوب دفعـــة قوية إلى الأمام ونقله بذلك من حالة أشبه بالبربرية إلى مرحلة لاتقل عما كان عليه فى أخريات الدولة القديمة .

ومدة حكم هذا الملك قد اختلفت فيها الآراء وتباينت ، فبينما نجد بيترى Petrie يقدر له خمس سنوات إذا بـ « ويجال » Weigall يقدر ٢٥ سنة ... وهما تقديران لايقومان على أساس ... ولو أننا وضعنا فى الميزان ماقام به من جهود حربية ومبانى لما عدونا الحقيقة إن نحن تقبلنا الرأى الأخير وما دام ليس هناك ما يرجح غيره فهو الأرجح فى نظرنا .

نب خرو رع Neb-Kherou-Ra ، منتوحتپة الثالث Montouhotpe III

يعتبر حكم هذا الملك المظهر القوى لثبات قدم الأسرة الحادية عشرة واستقرار الأمور بالنسبة لأسرة ال « منتوحتپة » ، ففى عهده بلغت الأسرة ذروة مجدها وقوتها ونجاحها ، وقد امتد حكمه إلى قرابة نصف القرن (حوالى ٤٦ سنة) إذ تسجل لوحة فى تورين اسماً لـ « ميرو » يشير فيه إلى السنة السادسة والأربعين من حكم هذا الملك ، وهناك شك فى أنه تسلم مقاليد الحكم مستقرة وطيدة ، فلوحة « شط الرجال » (على مبعدة أربعة أميال جنوبى سلسلة) تمثـــله واقفا مع أمه السيدة « يعح » (القمر) التى تقف خلفه ، وأما أمامه فصورة صغيرة لملك يدعى «ابن الشمس انيوتف» يصحبه خازن منتوحتپة المدعو « خيتى » .. وقد يوحى اسم « انيوتف » هنا بوجود نوع من النزاع عند تولى « منتوحتپة » كثالث ملك للأسرة كان من أثره انسحاب الوريث الشرعى «انيوتف» إلى النوبة الشمالية .. ومع ذلك فنحن لانسمع بعد ذلك عن هذا المولى الصغير رغم سماعنا عن رحلات إلى النوبة الشمالية يقوم بها خازن الدولة « خيتى » فى السنة الحادية والأربعين للحكم ، كما تسجل ذلك نقوش أسوان .

و ا . اتى ، مساعد خازن الدولة لوحة فى أبيدوس من الجرانيت من أنقاض معبد من عصر منتو حتپ ويقول « اتى » فيها « كنت أمول جبلين خلال سنى المجاعة وكان أكثر من أربعمائة متعطل من الرجال فى بؤس . . . ورغم ذلك لم استغل ابنة رجل ولم استول على حق لانسان ، وقد جهزت لهم عشرة قطعان من المعز ، ويصحب عدد من الرجال كل قطيع ، كما قدمت قطيعـــين من الماشية وقطيعاً من الحمير ، وبنيت ثلاثين مركبا ثم ثلاثين أخرى ولما انتهيت من تموين جبلين زودت المنطقة حول اسنا بالغلال ، وكان أهل اقليم طيبة يصعدون إلى أعالى النهر للتموين ، ولكن لم يحدث أن واحداً حول جبلين كان يتجر مع ناحية أخرى . . وقد تبعت مولاى العظيم ومولاى الصغير ولم يفقد شيء » .

فهنا إشارة اخرى إلى « سيد عظيم ومولى صغير » لعلها منتو حتپ ، انيو تف اللذان ظهرت صورتها فى لوحة « شط الرجال » .

وللملك معبد جنزى مشهور فى ناحية الدير البحرى، وقد أقام هرمه أمام صف مقابر زوجات الفرعون السابق جنوب معبد حاشپسوة . وقد كشف عن هذه الانقاض منذ أكثر من نصف قرن « نافيل » ، « هول » ، وثبت بعد الكشف عنها أن الطراز الذى استحدثه «سننموت» لبناء معبد حاشپسوة المجاور لهذا المعبد نقله عن الفكرة التى قدمها معارى هذا الملك وهو « مرتى سن » وقد كشفت بعثة پولندية هذا العام عن أنقاض معبد آخر يرجع لعهد وتحتمس الثالث » من نفس الطراز ، يتوسط المعبدين ، ويحيط بالمعبد سور طول ضلعه ١٩٠ متراً وعرضه ٩٥ متراً كان يضم أشجار الجميز بداخله وتتوسطه ثلاثة صفوف متتالية من الأعمدة فى ثلاثة من أضلاع مربع يؤدى إلى منتصفه ممر صاعد وصفان فى الضلع الخلفى ، وفى الوسط كان يقوم مبنى هرمى مربع مساحته ٦٠ قدما مربعاً ، ولم يعثر على موميا الملك ويظهر أنها سرقت من قبل .

وقد ترك « مرتى سن » المهندس المعارى للملك نصاً يشير إلى براعته وعظمته

كفنان لايبارى فيه زهو وغرور ، إنى أعرف سر الكلام المقدس ، أنا فنان متمكن من مهنتى .. أنا أعرف كل ما يتصل بالمياه الساقطة كما أعرف الاشكال الناجمة عن حصر هذه المقاييس ، وأعرف كيف أصور الذهاب والاياب حتى تعود الاعضاء إلى مكانها . أنا أعرف صورة خطوة الرجل وعربة المرأة وانتشار جناح الصقر وساعات الليل الاثنى عشرة وتأملات العين التى ترى بغير رفيق ، ومد الذراع لاتزال مستوى ارتفاع عجل البحر وعدو العداء ، أنا أعرف صنع التمائم التى تمكننا من الذهاب دون أن يأتى لهيب النار علينا أو جرف الفيضان لنا . لا أحد ينجح فى هذه الأمور جميعا سواى وسوى أكبر ابنائى من جسدى . إن الاله قد وهبه التفوق فيها وقد شهدت أنا كمال يديه فى العمل كفنان ممتاز فى مختلف أنواع الأحجار الثمينة وفى الذهب والفضة والعاج والأبنوس » .

ولو صرفنا النظر عما فى النص من زهو وغرور فانه يشير إلى ان دراسة الفن كانت تتطلب مراحل معينة تنتقل بالفنان من السواكن إلى المتحركات البطيئة ثم التفرقة بين حركات الذكر والأنثى ثم الموضوعات الأسطورية ، فالحركة السريعة ، وأخيراً أسرار صولة التمائم وتأثيرها :. وربما كان الأمر غير ذلك .. ربما استهدف « مرتى سن » من هذا النص الاشارة إلى أنه كان فناناً ممتازاً فى عصر وإقليم كان الفن فيه متأخراً فهو يزهى على أقرانه بتقدمه ودراساته التى نرى آثارها فى المعبد الذى قام بتشييده لمليكه .

وقد امتد تقديس منتو حتپ — أو احترامه — قروناً طويلة بعد موته فنراه يمثل على « الرمسيوم » مثلا وهو ينال من التوقير والتقدير ما يناله « منى » و « عحموزة الاول » وأما عن نشاطه الخارجى فنكاد لا نعرف أكثر مما قدمنا ولكن من الواضح أنه مهد السبيل لخلفائه فى الأسرة التالية .

سعنخ كارع Sankh-Ka-Ra ، منتو حتپة الرابع Montouhotpe IV

ترك الملك السابق عند موته دولة استتب فيها النظام والادارة : فالعائلات متحالفة فى الدلتا والجنوب ، والمدن ازدادت عمراناً ، والعاصمة - طيبة - كثرت معابدها ومبانيها ، والناس يعيشون فى دعة وسلام .

وزاد الملك الجديد من العمران فشاد المعابد فى أرمنت وأبيدوس والفنتين ، وأرسل البعوث عن طريق وادى الحمامات الى پونت فى العام الثانى من حكمه — الذى ربما كان العام الأخير كذلك — وكانت البعثة تحت قيادة « حنو » وهزمت بدو الصحراء وعملت فى الصحراء فحفرت بها الآبار وأنبتت المزروعات ، ووزعت الطعام والنعال فى الطريق من قفط إلى البحر الأحمر . . وعند عودتها جاءت بأحجار البرشيا الجميلة لصنع تماثيل المعابد .

و « حنو » قائد البعثة يلقب بـ « المشرف على المعابد والمشرف على مخازن حبوب البيت الأبيض والمشرف على القرن والحافر ورئيس ستة محاكم العدل » وهو يروى قصة بعثته فيقول « أرسلنى جلالته - ليرزق الحياة والقوة والعافية - لأبعث بسفينة الى پونت لتستجلب المر من وراء الأرض الحمراء ، وذهبت ومعى جيش من ٣٠٠٠ رجل . . . وجعلت من الطريق نهراً ومن الأرض الحمراء حقلا وكنت أزود كل رجل من رجالى يومياً باناءين من الماء وعشرين رغيفاً ... وكانت الحمير محملة بالنعال . . . وحفرت بئرين فى « أوحات » فوهة الواحدة ٢٩ ذراعاً مربعاً والأخرى ٣١ وحفرت بئراً ثالثة فى « ايختب » طول ضلع فوهتها المربعة عشرون ذراعاً ، هذا بخلاف ١٢ بئراً أخرى ثم وصلت إلى البحر الاحمر وصنعت هذه السفينة وأرسلتها بعد أن قدمت القرابين من الماشية والثيران ... وعدت من وادى الحمامات ومعى كتل ضخمة لتماثيل المعبد لم يسبق أن جيء بمثلها لبلاط الملك ولم يسبق أن قام أحد

خلصاء ملك يمثل ذلك منذ زمن الاله ... صنعت ذلك من أجل جلالة مولاى لانه أحبنى كثيراً » .

ويظهر أن الملك لم يطل به العمر حتى يستطيع إكمال مقبرته أو معبده الجنزى القائمين بجوار هرم أبيه إلى الجنوب ... وليس هناك مايشير إلى أنه دفن بمقبرته بل جهزت له حجرة دفن فيها وأوصدت بألواح من الحجر الجيرى ، ومن المعروف أنه اقام هيكلا على الضفة اليمنى للنيل أحاطه بسور من اللبن عثر فيه على بقايا تابوت يحمل اسمه وألقابه .

نب تاوى رع Neb-taoui-Ra ، منتوحتپة الخامس Montouhotpe V

كما كانت بعثة « حنو » فى عهد الملك السابق مميزة لعهده ... فاننا نرى رجلا آخر على رأس بعثة جديدة إلى وادى الحمامات فى عهد الملك الجديد ... عدة رجالها عشرة آلاف رجل أى أكثر من ثلاثة أمثال الرجال الذين صحبوا « حنو » . وقائدهم هنا أمير بالوراثة ... ربما كان من أفراد العائلة المالكة ، وقد قامت هذه البعثة - كما سنرى عند مطالعة النص - فى السنة الثانية من حكم « نب تاوى رع » لاحضار كتلتين ضخمتين من حجر البرشيا لصنع تابوت للملك وغطاء للتابوت ، وكان امنمحية - كما سيتضح من النص - القوة الكامنة خلف العرش وهو يذكر أن مولاه نشىء منذ نعومه أظفاره ليكون وريثا لعرش وأنه احتفل بيوبيله فى السنة الثالثة من حكمه ... فحقه الشرعى للعرش إذن يبدأ قبل وفاة جده .

وقد يفسر هذا بوجود خلاف على وراثة العرش استطاع أن يحسمه « نب حپت رع » ، ولعل هذا يلقى ضوءاً على أمر « السيد العظيم والمولى الصغير » فى عهد « نب خرورع » . ولعله يفسر كذلك أمر الأثر الذى عثر عليه بين أنقاص

الكرنك ويحمل اسم شخص يدعى « سنوسرة » يلى اسم « سعنخ كارع » مباشرة ، وإن لم يوضع الاسم داخل خانة ملكية مما يشير إلى أن ظروفا معينة منعته من ولاية العرش ولكن دارسى جدول الكرنك أرادوا من وراء تسجيل اسمه الاشارة إلى حقه فى العرش . . . إننا لانستطيع أن نقدم رأياً حاسماً . . فقد يكون « سنوسرة » هو الخلف الشرعى لـ « سعنخ كارع » بل ربما كان هو الخلف الشرعى لـ « نب حپت رع » لم يستطع أن يعتلى العرش حين كان يستحقه وظل فرع أسرته بعيداً فى الجنوب بعد أن أخذ العرش من لم يكونوا أصحاب حق فيه .. حتى أتيحت الفرصة لواحد منهم - ربما من نسل «سنوسرة» المذكور - أن يليه بعد « نب تاوى رع » مباشرة .

ولكن هذا لايفسر على أية حال أمر احتفال « نب تاوى رع » بيوبيله فى السنة الثالثة فقد يكون هو كذلك صاحب حق عن طريق فرع آخرمن فروع الأسرة

إن القوائم لاتتعرض لاسمه بالمحو على أية حال، ولكن الاسلوب الذى يستعمله « امنمحية » قائد بعثة وادى الحمامات يشير إلى اعتداد بالنفس لم تلحظه من قبل فى نصوص من تقدموه مما يدل على استهتاره بالملك وإحساسه بضعف شخصيته .

ولم يعمر «نب تاوى رع» طويلا ، وبموته - بعد أربع سنوات على الأغلب - انتهت الاسرة إذ أن من تلاه اعتبره مغتصبا للعرش ، وكان يحمل اسم « امنمحية » فهل هو « امنمحية » الوزير رئيس بعثة وادى الحمامات ؟

* * *

وقصة « امنمحية » عن قطع أحجار البرشيا قصة تشير إلى تدخل معجزة

من السماء وحدثت هذه المعجزة لجلالته : جاءت إليه وحوش الصحراء ، تقدمت الوعول كبارها مع صغارها وجاءت واحدة منها ووجهها للناس وعيناها إلى الوراء ولم تستدبر حتى وصلت إلى هذا الجبل العظيم . . . وعند هذه الكتلة من الصخر ظلت واقفة فى مكانها كأنما تعنى اختيار إغطاء للتابوت . وأسقطت صغارها عليه وكان الجيش ينظـــر إليها فقطعوا رقبتها أمام الكتلة وجاءوا بنار المحرقة ونزلت الصخرة سليمة . . . إن من قدم قربان المحرقة إذن هو الإله العظيم سيد الصحراء ... قدمه لابنه «نب تاوىرع» الذى يعيش إلى الابد حتى يسعد قلبه وحتى يظل فوق عرشه إلى الابد مخلداً وحتى يحتفل بملايين أعياد اليوبيل «حب سد» ...

«الامير بالوراثة ، حاكم المدينة والوزير ، كبير نبلاء قاعة القضاء المشرف على كل ماتمنحه السماء وماتخلقه الارض ومايأتى به النهر ؛ المشرف على كل شىء فى الأرض كلها .. الوزير «امنمحية» .

وليست هذه هى ألقابه كلها بل إن «برستد Breasted» عنى بتسجيلها حتى شغلت ثمانية عشر سطراً من كتابه Ancient Records وهى تشير إلى قوة هذا الرجل الرابض خلف العرش مترقبا سقوط الثمرة .

ولكن قصة الرحلة وأحداثها لم تكن قد بدأت بعد بتقديم المحرقة ، ويشير «امنمحية» فى لوحة صخرية إلى ذلك بقوله «أمر جلالته باقامة هذه اللوحة لأبيه «مين Min» سيد الصحراء فى هذا الجبل الرائع» ، ويلى ذلك نص يشير إلى حديث الملك نفسه «أرسل جلالتى الأمير بالوراثة ، محافظ المدينة ، الوزير ، رئيس الأعمال المحبوب من الملك .. امنمحية على رأس جيش من ١٠,٠٠٠ رجل من المقاطعات الجنوبية ومصر الوسطى ومقاطعة الوعـــل ليأتى لى بكتلة ضخمة من أغلى الأحجار فى الجبال من خلق «مين» الرائع لتابوت يكون

ذكرى أبدية لى ... ولآثار تقام فى معابد مصر الوسطى يشيدها ملك الأرضين ويرسل فى إحضارها ليشبع رغبة قلبه من صحروات أبيه « مين » . وهو يشيد اللوحة لأبيه « مين » إله فقط حتى يستطيع الملك أن يحتفل بيوبيلات كثيرة جداً ويعيش مثل رع إلى الأبد » ...

ويلى هذا النص نص آخر يبدأ بألقاب امنمحية التى لا أرى بأساً من إيرادها إذ تشير إلى لون من الغرور والزهو الذى تسجله لوحة شيدت بأمر الملك ، ونصيب قائدها أكبر من نصيب الملك نفسه فيها :

« السنة الثانية ، الشهر الثانى من الفصل الأول ، اليوم الخامس عشر : بعثة ملكية يقوم بها الأمير بالوراثة حاكم المدينة ، القاضى الأكبر ، المحبوب من الملك رئيس الاشغال ، الممتاز فى وظيفته ، العظيم فى مرتبته ، المقدم فى بيت مولاه ، قائد الحرس الرسمى ، رئيس قاعات القضاء الستة ، الذى يقاضى الناس ويسمع إلى دعاواهم ، ذلك الذى يأتيه العظماء وهم ينحنون وتنكفىء الارض كلها على بطونها أمامه ، ذلك الذى يدفع مولاه بوظائفه إلى السمو : هو الذى يقود له ملايين السكان ليلبوا رغبة قلبه لصنع تماثيله ... الخالد فوق الارض ، الكبير لدى ملك مصر العليا ، العظيم لدى ملك مصر السفلى ، أول من يمد خط القياس ، هذا الذى يحكم بغير تحيز ، حاكم الجنوب بأكمله . ذلك الذى يبلغ إليه كل ما هو كائن .. وما لم يكن ... الذى يسير إرادة سيد الارضين ... المتحمس القلب فى المهام الملكية ، قائد القواد ومرشد الحكام ... وزير الملك فى مجامعه ... امنمحية يقول :

« أرسلنى مولاى ملك مصر العليا والسفلى « نب تاوى رع » كما يرسل المرء شخصا به صفات إلهية لاقامة هذا الاثر فى هذه الارض . اختارنى أمام مدينته وكنت مفضلا أمام بلاطه ! وأمر جلالته أن يصحبنى فى هذه الصحراء جيش

من رجاله اختيروا من خيرة الارض كلها من معدنين وصناع وفنيين وعمال محاجر ورسامين وقاطعي أحجار وصائغي ذهب وخازني فرعون من كل مصالح البيت الابيض ومن كل إدارة في بيت الملك . إنني جعلت من الصحراء نهراً ومن الوديان العليا مجاري مائية ... وأحضرت له تابوتا .. ذكرى أبدية خالدة ... لم يؤت بمثله من قبل من هذه الصحراء منذ زمن الاله ! وعاد رجالى دون أن يفقد واحدمنهم ولم يمت حمار ولم ينل الضعف عاملا . وقد تم ذلك بفضل تفوق جلالة مولاى وأسدى هذا الجميل إلى الاله « مين » لانه كان يحبنى كثيراً حتى تخلد « كا » الملك على العرش الكبير فى مملكة اقليمى حور ... أنا خادمه المحبب إليه الذى يفعل كل يوم ما يمدحه مولاه من أجله » .

وفى لوحة أخرى يشير إلى معجزة أخرى كان من أثرها سقوط الأمطار فى غزارة وظهور بحيرة فى وسط الصحراء والكشف عن بئر فى بطن الوادى . وكانت البحيرة قائمة منذ الازل ولكن واحداً ممن رادوا المكان لم تقع عينه عليها ... خبأها الاله من أجل خادمه .. وفى النهاية يختم النص بقوله :

« جيء بغطاء التابوت فى اليوم الثامن والعشرين وهو كتلة طولها ثمـــانية أذرع وعرضهـا أربعة وارتفاعهـا ذراعان . وذبحت الانعـام وأحرق البخور وسار خلفه ... ٣٠٠٠ من بحارة الشمال سالمين فى عودتهم إلى مصر » .

ولم تكن رحلة « امنمحيه » هى الرحلة الوحيدة التى أوفدت إلى الصحراء فهناك نص آخر طريف كتبه موظف آخر يدعى « سنسخ » يقول فيه : « نب تاوى رع » ... ليعش إلى الأبد قائد الجيوش فى الصحراء من رجال البلاط فى مصر .. قائد الاسطول النهرى ... « سنخ » يقول :

كنت قائد جيوش الارض كلها فى الصحراء مجهزاً بقرب الماء والسلال والخبز

والجعة وخضروات الجنوب الغضة . لقد جعلت وديانها خضراء ومرتفعاتها برك ماء ، وجعل المكان هناك مستقرا لى مع نسلى ... إلى الجنوب من « زعو » وإلى الشمال حتى « منعت خوفو » . وتوجهت إلى البحر الاحمر وصدت الأنعام والماشية ذهبت إلى هذه الصحراء رغم بلوغى الستين من عمرى مع سبعين من أحفادى من أولادى من زوجة واحدة . . وفعلت ذلك كله على أتم وجه من أجـــل « نب تاوى رع » الذى يعيش إلى الأبد مخلدا » .

* * *

وإلى عهد « نب تاوى رع منتوحتب » ترجع تلك النبوءة المعـــروفة بنبوءة « نفرتى » التى سبقت الاشارة إليها فى الفصل السابق . . وقيل إنها ترجع إلى عهد « سنوفرو » وورد بها ـ بعد أن تحدث عن أيام شقاء مستمر بالبلاد ـــ « أن الخلاص سيأتى ، سيكون هناك ملك يأتى من الجنوب يدعى « امينى » وهــو ابن امرأة من تاستى . . . طفل من خن نخن سيتسلم التاج الابيـض (الصعـيد) ويلبس التاج الأحمر (الدلتا) وسيوحد القوتين (الالهتين اللتين تحميان الارض ألا فلتسعدوا يامن ستعيشون فى عهده ! سيكون من نسل نبلاء وسيبقى اسمـــه إلى الابد ! أما أولئك الذين يميلون إلى إتيان المعاصى والشرور ويرسمون خطط المؤامرات فستخمد أنفاسهم ذعراً منه وسيعيد الحق إلى نصابه ، وأما الذين يخدمون الاله فسيفرحون » .

* * *

ولعله حدث خلاف على العرش ـــ كما سبقت الاشارة ـــ وعضد « امنمحية » الوزير مولاه الاسمى « نب تاوى رع » حتى قضى ـــ بعد عامين أو أربعة ـــ وتجدد بعد موته الخلاف على العرش فاستنقذه « امنمحيه » الأمير بالوراثة لنفسه .

وتصف النبوءة حالة مصر وصفاً مؤلما فهى تقول « النيـــل جاف والناس

يخوضونه سيراً على الاقدام، الرياح الجنوبية شديدة والمقابر لايعنى بها أحد، الناس تأكل طعام القرابين من شدة جوعهم ، البلاد فى بؤس وضنك .. الضحكات مبعثها البؤس وليس من يبكى من ذكر الموت ، الرجل لايتحرك من مكانه حين يرى رجلا يقتل آخر : الابن عدو لأبيه ، الاخ لأخيه : الرجل يقتل أباه والمرء تغتصب أملاكه وتعطى للغريب »

* * *

ونستطيع أن نشم من وراء ذلك رائحة حروب أهلية واضطرابات وفوضى من جديد كما أننا نستطيع أن نضع أيدينا على مايشير إلى غزو أسيوى ، أفرخ طير أجنبى فى مستنقعات الدلتا وصنع له وكراً هناك. الناس فى بؤس لأن هؤلاء البدو يحتاجون إلى الطعام ... الأعداء فى شرق الدلتا ... الأسيويون ينزلون إلى مصر ... وحوش الصحراء تشرب من ماء النهر !

ولكن المخلص . . . امينى . . . يتقدم فيرد الأسيويين بالسيف . . .

فيتراجع الليبيون أمام نيرانه والأسيويون أمام سورة غضبه . . . والعنيد أمام سلطانه . . . إن الثعبان فى مقدم جبهته يهدئ عصيانهم ، إنه سيبنى الحائط ليمنع عن مصر شر الأسيويين حتى لايعاودوا كراتهم ولايسألون الماء لقطعانهم . .

الفصل العاشر

العصـــر الذهبى

عودة الى الاستقرار ٢٠٠٠ - ١٧٨٧ ق . م .

الأسرة الثانية عشرة :

الملوك : امنمحيه الأول ، سنوسره الأول ، امنمحيه الثانى ، سنوسره الثانى ، سنوسره الثالث ، امنمحيه الثالث ، امنمحيه الرابع ، سبك نفرو ر ع .

النظام الادارى

سياسة مصر الخارجية

الآداب والفنون .

مقـــدمة

ضعفت قوة الملوك فى أواخر الدولة القديمة ثم انقسمت البلاد إلى إقطاعيات ثم استقل الأمراء بعد الثورة . ولم يتمكن ملوك الفترة بـــين الأسرة السادسة والأسرة الثانية عشرة من أن يبسطوا نفوذاً كاملا شاملا على أمراء الأقطاعيات بل كان الأمراء المحليون يقوون على حساب الملكية . ويستمر نفـوذ الأمـراء حتى عهد « سنوسرة الثالث » إذ يكاد نفوذه يشبه نفـوذ الفراعـين فى الدولة القديمة وإن اختلف عنهم فى نظر الشعب فلم يعد الملك كائناً يمتاز عن البشر ، لأن الثورة محت فـكرة الالوهية وانهار الاساس الدينى العميـــق فى قدسية الملوك . ويمكن ملاحظة ذلك بجلاء عند مقارنة تماثيل مـلوك الاسرة الرابعـة مثلا بتماثيل ملوك الأسرة الثانية عشرة ، فالاولى توحى بقداسة وروعة ونفوذ

وأمن واستقرار والأخرى تميل إلى الناحية الانسانية وتنزل بالملك إلى مستوى البشر وتمثله أحياناً حزيناً كأنما يتمثل أمام عينيه تحذيرات ايبو- ور .. !

وسلطة الحكام المحليين واضحة تماما فى عهد الأسرة الثانية عشرة ؛ وذلك لأن ملوك طيبة كانوا فى حاجة إلى مساعدتهم لمحاربة ملوك هرقليوبوليس ولذا نرى أن قبورهم فى النصف الاول من عهد الاسرة الثانية عشرة من أحسن المقابر ، ولكننا نلاحظ أن شوكتهم كذلك انكسرت فجأة وأن نفوذهم امحى ، وذلك لأن الملوك كانوا مضطرين فى النصف الأول إلى الاستعانة بهم ليقووا مركزهم الشخصى ولكنهم أدركوا خطورة الاقطاع وخطورة نفوذ حكام الأقاليم وسلطانهم . وكما حدث فى العصر الحديث بين محمد على والمماليك قضى « سنوسره » عليهم مرة واحدة فلم يعد لهم النفوذ القديم ولم يكترث بهم بل حكم البلاد حكما مطلقا .

وقد تعلم ملوك الأسرة الثانية عشرة من أسلافهم لا ما يجب عليهم عمله بل ما يجب تلافيه فنرى فى عهد هذه الأسرة الملك وأتباعه من رجال الحرس يكونون قوة تذود عنه وتحميه ونراه يزود نفسه بجيش خاص ولم يضطر للاستعانة بقوة من الأمراء المحليين . بل إننا نرى فى النصف الثانى من حكم الأسرة أن كل القوات الفرعية تنحل ويفقد الأمراء نفوذهم بينما يكون الملك لنفسه جيشاً كاملا لا حرساً خاصاً فقط . كما نلاحظ أن السكينة والسلام يسودان النصف الثانى من عهد الأسرة إذ أن الحروب ضد النوبيين توقفت عند نهاية النصف الاول من عهد الاسرة .

وقد أجمعت المصادر المختلفة على تقدير مدة حكم الاسرة بحوالى ٢١٣ سنة من عام ٢٠٠٠ ق . م . الى عام ١٧٨٧ ق . م . بل إن بردية تورين حددت مدة الحكم بـ « ١٧ يوم ١ شهر ٢١٣ سنة » كما اتفقت القوائم جميعا

على أسماء ملوك الأسرة وقد وردت جميعاً فى قائمة أبيدوس ما عـــدا الاسم الأخير « سبك نفرو رع » .

ويلاحظ فى ملوك هذه الأسرة أنهم اتبعوا خطة الإشتراك فى الحكم مع أبنائهم .

١ ــ امنمحيه (الأول) « سحتپ ايب رع »

Amenemhe I - Sehotep - ib - Ra

ولى امنمحيه عرش مصر عام ٢٠٠٠ ق . م . على الأرجح ، ولسنا نستطيع أن نؤكد ـــ وإن كنا نرجح ـــ أنه « امينى » الذى جاء ذكره فى نبوءة « نفر تى » كما يغلب على الظن أنه هو « امنمحيه » صاحب قائمة الألقاب التى عرفناها لوزير « نب تاوى رع منتو حتپه » آخر ملوك الأسرة السابقة . أما كيف وصل إلى العرش فأمر لا نعرفه حتى اليوم ، ولسنا نستطيع أن نقرر إن كان قد خلع سلفه وأحل نفسه على العرش مكانه أو هو انتهز فرصة موته ليعتلى العرش كأقوى رجل فى الدولة بالإضافة إلى كونه « أمير بالوراثة » ... ولكن أمراً واحداً يبقى لا يحتمل الشك أو التأويل هو أن « سحتپ ايب رع » يؤسس أسرة جديدة هى الأسرة الثانية عشرة التى تمثل مصر فى عصرها الذهبى الجديد .. مصر الموحدة التى أخذت تمتد حدودها إلى أبعد مما وصلت إليه فى عهد الدولة القديمة . . مصر التى تمثل فى هذه المرحلة من عمرها مجداً مجدداً وتقدماً رفيعاً فى مختلف نواحى الحياة .

ولد « امنمحيه » على الأغلب فى « نخن » من أم نوبية ، وتشير ملامح وجهه إلى أن الدم النوبى يجرى فى عروقه مما يشير إلى أنه من ثمار الزحف الجنوبى فى عهد المحنة السابقة . وقد استقرت أسرته فى طيبة حيث كان يعبد الاله « أمون »

والالهة «أوسره» التى لم يكن لعبادتها شأن كبير قبل أمون وقد انتسب إلى أمون فى لقبه الذى انتحله فسمى نفسه «أمون ام حيه» كما نرى. ومنذ ذلك العصر بدأ أمون يظهر كإلك للآلهة... ذلك الاله الذى ظـل محلياً حتى ذلك الوقت والذى كان ينتسب من قبل إلى «رع» حتى عرف باسم «أمون رع» أخـذ مركزه يزداد قوة ومنعة ويحجب بقية الآلهة المعروفة — فيما عدا أوزير — بل وأخذ يدخل فى مجاميع الآلهة القديمة وتضفى عليه من الصفات والأهمية ما تزج به لا فى دائرة الآلهة العامة فحسب بل بين الآلهـة الخالقة كذلك حتى يتصدرها ويصبح المقدم بينها جميعاً. ولقد كان «مونتو» من قبل معبوداً لاقليم طيبة ولكن بقيام الأسرة الجديدة برزت أهمية «امون» مقترنا بـ«رع»، وكان مصدر امون كما يشير «زيته» إقليم هرموپوليس ولكنه اقترن كذلك بـ«مين» معبود قفط.

* * *

وقد أدرك «امنمحيه» أن طيبة لا تصلح للحكم، ولم يسع إلى أن يجعل من إحدى العواصم القديمة مركزاً له... كأهناسية أو منف، بل اختار مركزاً آخر بالقرب من «اللشت» إلى شمـال الفيوم وبنى هناك قلعة وأطلق عليهما اسم «ايثة تاوى» وتعنى «التى تسيطر على الأرضين» ولعله كان يعنى المسمى من وراء التسمية فهو يحس أنه غريب هنا.. وأنه إن كان معروفاً من الجنوبيين فان الشماليين لا يرحبون به كثيراً ولذا فانه اختار هذا المكان ليتمكن من الاشراف الفعلى وليدير شئون الحكومة فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها. وقد بدأ «امنمحى» عصرا جديدا، ويتضح هذا من لقب «وحم ميسوى» الذى اصطنعه إلى جانب اسمه الحورى ويعنى «معيد الولادات» وهو استعارة مشتقة من إعادة ولادة القمر الشهرية ويشير إلى قيام عصر جديد، وهو أمر نراه يتجدد فى الدولة الحديثة.

ويتضح من لوحة أحد قواده ويدعى «نسو منتو»، وهى التى سنشير إليها فيما

بعد ، أنه حارب الآسيويين (وهو أمر يتفق مع ما جاء فى نبوءة « نفر تى » التى تشير إلى بناء حائط الأمير لمنع الآسيويين من النزول إلى مصر) وربما وصل فى حملته إلى جنوب فلسطين (ولو أن سياسة الأسرة الثانية عشرة بالنسبة لآسيا كانت سياسة دفاعية بصفة عامة) ، وأما بناء حائط الأمير فكان يستهدف فعلا وقف اعتداءات البدو الذين ثبت أنهم كانوا مصدر خطر مزمن مستمر على الحدود الشمالية الشرقية .

* * *

ويميل بعض المؤرخين إلى القول بأن أحداث هذا العصر فيما يتصل بالحدود الشرقية تتفق وخروج « ابراهيم » من مصر (كما جاء فى سفر التكوين ١٢ : ١٣) ولكن إن كان « امرافل » الذى جاء بالتوراة هو « حمورابى » البابلى (ملك شنعار) الذى هزمه « ابراهيم » عند محاولته انقاذ « لوط » ابن أخيه « هاران » فان فرعون الذى جاء بالتوراة فى هذه المناسبة ليس « امنمحيه » بل ربما كان ابنه « سنوسره » ؛ ذلك لأن المؤرخين يكادون يجمعون على أن « حمورابى » كان يعيش حوالى ١٩٤٠ ق . م . وهو تاريخ لا يتفق وعصر امنمحيه الذى حكم حوالى ٣٠ سنة ومات حوالى ١٩٧٠ ق . م . وعلى ذلك فان « ابراهيم » و « حمورابى » لم يكونا معاصرين لـ « امنمحية » بل لابنه أو لحفيده . . .

* * *

وقد حفظت لنا بعض أخبار « امنمحيه » من نقوش خلفها أحد أنصاره وهو « خنم حتپه الأول » الذى كافأه الملك على ولائه بأن نصبه حاكما على « منعت خوفو » (بنى حسن التى ذكرنا من قبل أن خوفو قد ربى فيها) ، وهو يشير إلى ذلك بقوله « لقد عيننى أميرا وراثيا وحاكما على الصحراوات الشرقية من « منعت خوفو » وثبت حدوده الجنوبية وأمن حدوده الشمالية كالسماء وقسم النهر الكبير على ظهره . . . نصفه الشرقى تابع إلى هـــذه الناحية : أفق حور حتى الصحراء

الشرقية . حين جاء جلالته ليقضى على الاضطراب قام مثل اتوم نفسه حتى يصلح ما خرب ويعيد ما ساب من المدائن إليها وليضع الحدود بينها وليؤمن ويثبت أحجار الحدود كالسماء حتى تعرف مياهها طبقا لما هو معروف من القدم ... ذلك كله متابعة لعظمة حبه للعدالة »

* * *

كما أن « خنم حتبه الثانى » (حفيد الأول) يشير فى نقوش مقبرته فى « بنى حسن » كذلك إلى أن الملك كافأ جده عندما قضى على الشر ورمم ما وجده مهدما من المعابد

ولكن ولاء « خنم حتبه الأول » اصطبغ كما نعلم بصبغة عملية ، فقد أشار فى نصوص مقبرته إلى أنه أسهم مع الملك فى الحروب التى كانت تستهدف طرد الأعداء من مصر : الأسيويين فى الشمال الشرقى والنوبيين فى الجنوب و « أنه خرج مع الملك فى أسطول مكون من عشرين سفينة مصنوعة من خشب الأرز ، وسقط الزنوج والأسيويون واستولى امنمحيـــه على الأراضى المنخفضة والأراضى المرتفعة فى الاقليمين بما فيها من سكان ظلوا فى هذه الأماكن » . والأسطول كما نرى صغير الحجم مما يشير إلى أنها كانت حملة صغيرة ربما كان الغرض منها قهر أولئك الذين يناصرون بعض الطامعين فى العرش .. ونستطيع أن نستنتج من ذلك النص أن « أمنمحيه » استطاع أن يقيم حكماً قوياً بفضل أعوانه الذين كافأهم على حساب أعدائه وخصومه . ويبدو أنه وجد فى أسرات حكام المقاطعات التى ضعف شأنها فى الأسرة الحادية عشرة أكبر عون له على الوصول إلى العرش وتدعيم سلطانه ، وهكـذا استعـاد حكام الأقاليم من جديد نفوذهم وألقـــابهم منذ بدء الأسرة الثانية عشرة .

ومما يجدر بالذكر بهذه المناسبة أنه ظهر فى الفنتين حكام أقويـاء ذوو نفوذ عظيم وذلك منذ بداية الأسرة الثـانية عشرة فى حين أن حكام طيبة تمكنوا من بسط السلطان على حكام المقاطعات الجنوبية كلها قبل كفاحهم مع ملوك اهناسية .

وقد شغل « امنمحيه » على كل حال باقامة الحدود بين المقاطعات ليمنع بقدر الامكان أسباب الخلاف بين حكامها .. فشعروا جميعاً بفضل الملك عليهم واشتدت صلتهم به وأخذوا يشيدون بمدحه فى النقوش التى خلفوها فى مقابرهم ويقرون بفضله عليهم فى توليهم حكم المقاطعات ، وامتنعوا كذلك عن تأريخ الحوادث طبقاً لسنى ولايتهم الحكم فى مقاطعاتهم ويشير إلى ذلك « خنم حتپ الثانى » فى مقبرته بـ « بنى حسن » بقوله « عند مجىء جلالته ـ بعد أن قضى على الشر ـ أضاء مثل أتوم نفسه وأعاد بناء ما وجده خرباً ورد لكل مدينة ما استولت عليه من أملاك جاراتها ورسم الحدود بين مدينة وأخرى وأرسى معالمها كالسموات وميز بين أمواهها كما جاء فى المخطوطات متحدياً ما كان سارياً منذ القدم ... ذلك لأنه أحب العدالة كثيراً » .

* * *

ولقد كان تأسيس الدولة الجديدة يتطلب القضاء على عناصر الشر فى البلاد ، وقد كانت جهود « امنمحيه » فى هذه الناحية تستحق الاعجاب والتقدير فلقد حارب فى الشرق والجنوب والغرب .

وأما فى الشرق فان قائده « نسو منتو » الذى له لوحة باللوفر يشير إلى هذه الأحداث بأنه لا يروى كذباً ... ورغم أن ما يرويه يكاد يفوق الحقيقة فهو لا يحتمل الشك كثيرا « هزمت سكان الكهوف الأسيويين الساكنين على الرمال ... وتغلبت على حصون الرحل وحوتها حتى أصبحت كأن لم تكن شيئا مذكوراً » .

* * *

وأما فى النوبة فان امنمحيه يتحدث بنفسه فى تعاليمه لابنه عما أتاه هناك فيقول : « استأنست الأسود وقبضت على التماسيح ، هزمت واوات واستوليت على ماتوى وجعلت الـ « مداى » (البدو) يذهبون كالكلاب » ويشير نص على

صخرة فى « كورسكو » أنه « فى السنة التاسعة والعشرين من حكم ملك مصر العليا والسفلى « سحتب ايب رع » الذى يعيش إلى الأبد مخلداً أتينا لنغلب « واوات » على أمرها ونقضى عليها » .

ومن المعروف أن امنمحيه أشرك ابنه فى الحكم فى العام الحادى والعشرين من ولايته للعرش - أى قبل ذلك الحادث المسجل على صخور « كورســكو » بثمان سنوات - مما يدعو إلى الشك بأنه هو صاحب هذه الحملة ..

وقد أرسل أمنمحيه بعثة إلى وادى الحمامات سجلها رئيس البعثة المدعو « انيوتف » هناك وهو يشير فى ألقابه أنه « أمين بالوراثة ، حامل الخاتم الملكى ، الرفيق الوحيد ، المبعوث الملكى ، الكاهن الأول للإله مين » . وكان هدف البعثة استحضار كتلة من الحجر لمولاه كما فعل مولاه من قبل لسلفه .

* * *

وكان « امنمحيه » على نشاط جم فى تدبير أمور مملكته وحسن تنظيمها ولم يدخر وسعاً فى نشر الأمن والسلام فى ربوعها ، ومع ذلك .. فقد دبرت مؤامرة لاغتياله — وربما كان ذلك فى السنة العشرين من حكمه — بتدبير من الحريم على الأغلب ، ولكن لم يقدر لها النجاح . فعمد بعدها إلى إشراك ابنه فى الحكم وزوده بنصائحه فى الأثر المعروف بـ « تعاليم الملك امنمحيه » وهى قطعة أدبية تشتمل خلاصة تجاربيه الشخصية الواسعة التى يصف فيها أعماله وما لقيه من جهود وسوء تقدير ... وقد جاء فيها :

« حدث ذلك المكروه حين لم تكن إلى جانبى ... حين لم يكن يعرف البلاط أنى تنازلت عن سلطاتى لك ، حين لم تكن قد جلست معى على العرش بعد . .

كن على حذر من أتباعك ... لا تقترب منهم ولكن ... لا تكن وحيداً :

لا تثق فى أخيك ولا تعرف لك صاحباً ولا تقرب إليك شخصاً .. إن هذا لا يجدى . إن نمت فدع قلبك يحرسك فليس الأعوان لوقت الضيق . إنى أعطيت الفقير وأطعمت اليتيم وحققت أهـــداف من لا أمل له ، ولكن ثمن العطف كان خيـــانة .. إن من أكل خبزى احتقرنى ومن أعنته رمانى حين اشتد ساعده .. ومن كسوتهم بكتانى الرقيق نظروا إلى كما ينظرون إلى خيال ، ومن دهنتهم بعطورى رشوا على الماء .

كان ذلك بعد العشاء عند دخول الليل وكنت أقضى ســـاعة من الاستجمام متمدداً على فراشى ، كنت مجهداً وكنت أميل إلى النعاس ، وسمعت الأسلحة تتحرك وكأنها يدور البحث عنى وأنتفضت كما تنتفض حية الصحراء وقمت لأحارب وحيداً ولاحظت أنه شغب يدور بين الحرس المتلاحمين وأخذت أسلحتى فى يدى واستطعت أن أرد المجرمين المعتدين .. ولكن ليست هناك قوة فى الليل ولا يستطيع المرء أن يحارب منفرداً .. والنجاح لا يكون بغيرك أنت الذى تقوم على حمايتى .. أكانت المؤامرة بفعل الحريم ؟ أبثت بذورها فى أركان بيتى ؟ إن سوء الطالع لم يلزمنى منذ ولادتى ولم يحدث شىء من قبل يعدل بسالتى وإقدامى .. ومع ذلك فهذه خاتمة كل شىء ! » :

ثم هو يشير بعد ذلك إلى ما قام به من أعمـــال إنشائية وحربية ويختتم نصائحه بقوله :

« أيها الملك سنوسره .. لتسر أقدامك .. أنت قلبى ، وعيناى ترمقانك .. إن الأطفال أنفسهم يحسون النشوة حين يقفون إلى جانب الخلق الذين يقدمون لك المديح .. تأمل ! إنى مهدت وجهدت فى البداية وأنت تسيطر فى النهاية .. هناك بهجة فى قارب رع فالتماثيل أقيمت وقبرك سيكون فاخراً » .

* * *

واقد أشرك « أمنمحيه » ابنه « سنوسره » فى الحكم فى العام الحادى والعشرين من ولايته على الأرجح ، ويرى بعض المؤرخين أنه وإن لم يكن هناك ما يؤيد نجاح المؤامرة بصفة حاسمة فانها انتهت بقتل الملك ، وإن ذلك الأثر الأدبى كتب لأسباب سياسية فى عهد خلفه « سنوسرة » ... ولكن هذا الرأى يقوم ضده ما يدحضه ، إذ أن « أمنمحيه » حكم بعد المؤامرة مدى ثمان سنوات أو تسع كما تشير إلى ذلك لوحة « كورسكو » التى أشرت إليها من قبل . وإن كان يغلب على الظن أنه ترك مقاليد الأمور لابنه فى هذه الفترة واعتكف ليستريح من أعباء الجهاد الطويل ... وهناك لوحة لكاهن عرمه ويدعى « حر » مؤرخة بالعام التاسع من حكم سنوسرة وليست بها إشـــارة إلى ما يقـــابل هذه السنة من حكم « امنمحيه » .

* * *

ولعل أهم حادث فى أخريات سنى الحكم هو إيفاد جيش إلى الحدود الغربية لتأديب جيش الليبيين وصد عدوانهم ، وقد قاد الجيش الملك الشاب سنوسرة — وكان أبوه لايزال على قيد الحياة — وانتصر الجيش ... وجاءته الأنباء أثناء عودته بوفاة أمنمحيه .

ويشير النص المعروف بنص « سنوهى » (الذى يظهر أنه أحد أبناء الملك من أم غير ملكية والذى هرب خوفا من الأحداث المتوقعة) إلى الملابسات التى أحاطت بهذه الفترة وقد كتبه سنوهى بنفسه . ولكن الملك الجديد سنوسرة كتب خاتمة النص إذ دعاه للحضور وأمنه على حياته ما دام لم يقم ضد الملك ولم يفعل ما يغضبه . والنص — كما نرى — وثيقة تشير إلى العام الثلاثين من حكم امنمحية — وهى السنة التى توفى فيها — وفيه يقول سنوهى :

« الأمير ، حاكم أقاليم الملك فى أراضى الأسيويين ، خادم الملك الحقيق

الذى يحبه : « سنوهى » يقول : كنت مولى يتبع سيده ، وكنت خادما فى حريم الملك يقوم على خدمة الأميرة الممدوحة جداً الزوجـــة الملكية لـ « سنوسره » الابنة الملكية لـ « أمنمحية » ، فى مدينة هرم كانفرو ، « نفرو » الموقرة .

فى العام الثلاثين فى اليوم التاسع من الشهر الثالث من فصل الفيضان دخل الاله فى أفقه ، طار أمنمحيه إلى السماء واتحد مع الشمس وامتزج جسد الاله مع خالقه . . فسكنت العاصمة وملئت القلوب شجنـــاً وأغلقت البوابتان الكبيرتان وجلس رجال البلاط ورؤوسهم على ركبهم ، وعم الحزن الناس .

وكان جلالته قد أوفد جيشاً إلى أرض « تمحو » (الليبيين) وكان بقيادة أكبر أبنائه الاله الطيب « سنوسره » ، وكان فى طريق العودة ومعـــه أسرى « تحنو » وكل أنواع الماشية التى لاتحصى . وأرسل أمنـــاء القصر الملكى إلى الحدود الغربية رسلا لينبئوا ابن الملك بما حدث فى القصر ؛ وقابله الأمنـــاء فى الطريق ووصلوا فى المساء فلم يتأخر لحظة وطار الصقر « سنوسره » مع تابعه ولم ينبيء الجيش، ومع ذلك فقد أوفد رسوله إلى أبناء الملك الذين كانوا يصحبونه فى الحملة واستدعى أحدهم .

ويذكر سنوهى بعد ذلك أنه استمع لما دار من حديث فسقط قلبه وتهدل ذراعاه وتمشت الرعدة فى أعضائه وقفز باحثا عن مهرب فاختبأ بين شجرتين حتى تخلو الطريق من المارة .

أكان سنوهى عضواً فى مؤامرة أخرى ، استطاع سنوسرة - رغم نجاحها فى قتل الملك - من أن يؤمن العرش لنفسه باتخاذ خطى حاسمة فى تحكم الأمر والعودة فى سرعة بالغة إلى البلاط .

إن تفصيلات ذلك الأمر لايشار إليها وإنما يتحدث سنوهى بعد ذلك عن

تخفيه المستمر وعن سلوكه سبيله من الغرب إلى الشرق عن طريق «الجبل الأحمر» قرب العباسية الحالية ، ثم مسيره شمالا حتى وصل إلى « حائط الأمير » وانتظاره فى قلق نزول الليل ليستطيع عبور الحدود . وهو يتحدث عن طعم الموت الذى تذوقه عند وصوله «كم ور» (عند البحيرات المرة بالقرب من برزخ السويس) واستجاعه لقوته حين سمع ثغاء الماشية ، وتعرف أحد البدو عليه فمنحه ماء ولبناً مطبوخاً وصحبه إلى قبيلته وعامله بالحسنى . وطفق يسير من أرض الى أرض حتى وصل إلى جبيل (بيلوس) حيث أمضى عاما ونصف عام ... وتعرف إلى أحد رؤساء قبائل البدو ويدعى « نفشى » وألم الشيخ بقصته التى أظهر فيها سنوهى البراءة والبعد عن المؤامرات وتوقيره لمولاه سنوسرة . وزوجه الشيخ من كبرى بناته ووهبه أرضا وقطعانا من الماشية ، ورد سنوهى للرجل كرم وفادته له فذاد عنه وحماه من أعدائه مما أثار ضده عداوات الآخرين حتى تحرش به أحدهم واستطاع سنوهى أن يقضى عليه . . .

وبعد سنين طويلة أخذ الحنين إلى الوطن يهزه وتاق إلى أن يدفن بمصر فأرسل يستغفر ، ودعاه سنوسرة إليه بعد أن عفا عن ذنب لم يأته سنوهى ، وعاد سنوهى إلى مصر مخلفاً فلسطين وراءه سالكا « طريق حور » واستقبل استقبالا جعله يخر ساجداً عند باب القصر ، ثم عند أقدام العرش . وأمر فرعون بانهاضه وقال له : « ها أنت ذا قد عدت بعد أن طال بك المطاف فى الأرض كلها ... وقد تقدم بك العمر وسيدفن جسدك فى مصر بدلا من أن يدفنه برابرة الآسيويين فى أرضهم » ومنحه بيتاً وأمر أن يقدم له الطعام من القصر ثلاث مرات يومياً وأن يبنى له هرم من الحجر ورتب لخدمة روحه الكهنة الجنزيون

* * *

ولم يعن أمنمحية بتأمين البلاد فقط بل سعى الى تجميلها كذلك ، وهو يشير إلى هذا فى تعاليمه لابنه بقوله « شيدت منزلا زينته بالذهب وزخرفت سقفه باللازورد وصفحت أبوابه ومغاليقه بالبرونز وتركته يتحدى

الدهر ويغالب الفناء » .

ولقد أصلح الكثير من معابد مصر كلها التى لاتزال تشير إليها الأنقاض التى عثر عليها فى بوبسطة وتانيس ومنف وأبيدوس ... ومنها جميعاً تتضح محاولاته فى إرضاء طوائف الآلهة جميعاً ...

ولم تفته العناية بإلهه « مين » أو بالإلهة « حتحور » إلهة العهد السابق ، أو بمعبود أسلافه « منتو » الذى أصلح معبده فى أرمنت .

وأما معبود مدينته « أمون » فقد سبقت الاشـــارة إلى إدماجه فى رع واقترانه به حتى سمى « أمون رع » مما دعا إلى رفعة شأنه ، وقد بنى له هيكلا فى الكرنك .

وقد دفن امنمحية فى هرم بناه لنفسه فى اللشت من الطوب المغطى بالحجارة سماه « ايسوت خع » ودفن عظماء القوم حول مقبرته الهرمية فى الناحية الغربية منها ولم تسلم مقبرته من الاعتداء حتى تحولت إلى كومة من التراب . وقد كشف « ونلوك Winlock » عن مكان الهرم واستطاع العثور على ودائع الأساس التى كانت تحمل اسم الهرم واسم صاحبه .

٢ — سنوسرة الأول — خبر كارع Senusre I, Khepèr-Ka-Ra

خلف « س ان أوســـره » Senusre « الأول » (شكل ٢٧) أباه « امنمحيه الأول » على عرش مصر الموحـــدة . وكان أبوه قد أشركه عشرة سنوات على الأرجح ليدربه على شئون البـــلاد وليضمن له ولايته العرش من بعده حتى لاتثور منازعات تزلزل كيان الأسرة وتقضى عليهـــا .. وهى سنة تابعها « سنوسرة » نفسه وخلفاؤه طوال عهد الأسرة . ولكن « دريوتون » يفضل أن يجعل من « سنوسرة » أول من أشرك معه فى العرش ابنا له هو ابنه

الأكبر وامنمحية الثانى ، ليتحاشى الخلاف على ولاية العرش ويتجنب المؤامرات التى ربما راح ضحيتها أبوه امنمحية الاول ، ورأى « دريوتون » هنا ليس له ما يسنده من واقع الأمر ولاما يتفق مع ما أورده واصطلح عليه المؤرخون جميعا .



(شكل ٣٧)

وقد ولى « سنوسره » العرش فى ظروف رأينا خشيته إياها وإسراعه ليلا إلى القصر وتكتمه أمر موت أبيه مما يكاد يشير إلى أن موت أبيه تم فى ظروف غير متوقعة أو — ربما — نتيجة مؤامرة جديدة لسنا نجد إشارة صريحة إليها . وعلى أية حال فاننا نرى سنوسرة ينجح فى تأمين العرش الأسرة ، بل هو يظل جالسا عليه خمسة وأربعين سنة (منها الأعوام العشرة التى أشركه فيها أبوه) لم تشبها سحب تنذر بالعواصف بل نرى جهود العرش تتسم خلالها بالنشاط الداخلى حتى لتجعل من صاحبه واحداً من البنائين المعروفين فى مصر القديمة .

وقد سجل أحد الكتاب على ملف من الجلد (بعد خمسة قرون من حكم سنوسرة) نصاً نقله عن لوحة تذكارية كانت تقوم فى بهو معبد الشمس فى هليوبوليس . وقد ضاعت معالم ذلك المعبد ولم تبق منه سوى مسلته الموجودة بالمطرية اليوم . ويبدأ النص بتصوير جلالته يستشير نصحائه بصدد بناء المعبد أو هو يبدى قراره فى هذا الصدد : « حين توج الملك بالتاج المزدوج جمع نصحاءه وطلب مشورة رجال قصره والمشرعين وتحدث إليهم وهم ينصتون وسألهم الرأى قائلا : إن جلالتى يعتزم إتمام عمل ، بناء أثر وإقامة لوحة تذكارية لـورع

حراختي » . ولقد صورني لأعمل له مايجب عمله ولأنفذ ما يطلب . لقد جعل مني راعياً لشعبه لأنه كان يعلم أنني سأقوم بهذا العمل من أجله . ولقد أسبغ على الحماية . . . وعينه التي به (الشمس) تضيء وكل شيء يتم وفق إرادته . . . إنني أقيم موائد القرابين للآلهة وأشيد مبنى لأبي « أتوم » في الصالة الكبرى وسأجعلها كبيرة بقدر ماجعلني منتصرا . . . إنني أمون مائدة قربانه على الأرض وأبني لنفسي بيتاً مجاوراً حتى يذكر جمالي في بيته . وسيكون اسمي على حجر الـ « بنبن » وستكون البحيرة لتخليدي . إنني أستهدف الخلود ما دمت أقدم الخير : إن الملك لايموت طالما تخلد ذكراه متعلقات الاله . . إن الاسم الذى يذكر هناك لايختفي إلى الأبد . . . إن ما أقره سيكون ، وما أتحراه هو الخير والكمال » وأجابته الحاشية : « الأمر يخرج من فمك والفطنة تحف بك . . . أيها الملك : إن خططك ستنفذ أيها المولى - ياموحد الأرضين - في معبدك : إن البشر جميعاً لايتمون شيئاً عن طريق غير طريقك لأن جلالتك عين الرجال جميعاً أنت عظيم حين تقيم أثرك في أيون — مسكن الآلهة — أمام أبيك سيد البهو الأعظم « أتوم » ثور التاسوع : ألا فلتقم ببناء بيتك ولتقدم له عطايا الحجر السكائب حتى تقوم على خدمة تمثاله إلى الابد»

وتوجه الملك بعد ذلك بحديثه إلى المختصين من رجاله بالتنفيذ منبها إياهم بالإسراع في تلبية رغبته . . . ويظهر ان عناية «سنوسره» بمعابد الآلهة وعبادتهم امتدت الى أنحاء مصر فشملت إقامة أو تجديد المعابد والمصليات والنواويس والمحاريب في تانيس وبوباسطة وبجيج (في الفيوم) وغيرها . . . وسجلت سرابة الخادم في سينا جهوده - كفراعين الدولة القديمة - هناك ، وعمله في مناجمها ، وقد جدد كذلك المعبد الذى بناه أبوه في طيبة ، وبني مسكنا ومطعما للكهنة بجوار البحيرة المقدسة ، كما بني لنفسه هرماً ومعبداً جنزياً في اللشت . وقد عثر في غرفة بمقبرة

كبير كهنة ايون ويدعى «امحواب» (بالقرب من هرم الملك) على تمثالين من خشب الارز يمثلان الملك وأحدهما يصوره وهو يضع على راسه التاج الأحمر (تاج مصر السفلى) والآخر وهو يلبس التاج الأبيض (تاج مصر العليا) وتشير لوحة فى اللوفر لـ «مرى بن منخة» مساعد الخازن إلى انه كان خادما متحمساً محبوبا وأنه أوفد لانفاذ تصميم المسكن الابدى (الهرم) الذى كانت تطاول أعمدته السماء، ببحيرته التى تصل إلى النهر وبواباته الشاهقه الارتفاع... وهو مصنوع من حجر طرة الجيرى الفاخر».

° ° °

أما فيما يتصل بالنشاط الحربى فمن المعروف أن سنوسره أبدى همة ملحوظة فيما يتصل ببلاد النوبة وسار بنفسه مستهدفا إرساء قواعد ثابتة للحكم المصرى فى الجنوب... وأنباء هذه الحملة نجدها فى أكثر من مصدر... فهنا نص «امينى» (امنمحيه) أحد أمراء بنى حسن الاقوياء (وهو ابن خنم حتبة) وهو يشير إلى «حملة لجلالة الملك سنوسرة الذى يعيش إلى الابد فى العام الثالث والاربعين، وهى تعادل السنة الخامسة والعشرين فى إقليم الوعل لولاية الامير بالوراثة «امنمحيه» المبرر»... يقول: «تبعت مولاى حين أبحر جنوبا ليهزم أعداءه المتبربرين الاربعة وقد أبحرت معه إلى الجنوب كابن أمير يحمل الخاتم الملكى وكقائد لجيوش إقليم الوعل وكرجل يمثل أباه المتقدم فى السن (يقصد خنوم حتبه الذى أقعده تقدم سنه عن مصاحبة الملك) وكشخص محبوب فى القصر والبلاط. وعبرت كوش وتقدمت جنوباً نحو حدود الارض... وعدت بالمنح والعطايا حتى وصل الثناء على إلى عنان السماء. ثم عاد جلالته سالماً بعد أن هزم أعداءه فى كوش الخسيسة... وعدت وراءه دون أن أفقد رجلا من رجالى».

ويبدو أن امينى كان موضع ثقة الملك فهو يشير إلى أنه كان يدير كافة الشئون

له وأنه قضى سنوات كحاكم على إقليم الوعل ، وأن الملك كان يمدحه فى كل عام إحصاء بسبب ما يقدمه للقصر .. هذا إلى أنه يتشدق بعدالته وبأنه كان يرعى الأرملة واليتيم ، وأنه لم يحس أحد من رجاله الجوع فى سنى القحط

ويشير أميني بعد ذلك إلى حملتين تاليتين كان الغرض منهما استحضار الذهب، وقد صحبه فى الواحدة أربعمائة رجل وفى الأخرى ستمائة مما يشير إلى أن الأمر كان يتطلب قوة للقضاء على معارضة من يقف فى وجهه دون الحصول على ما يريد.

وهناك إشارة للقائد « منتو حتپة » خلدها نقش فى وادى حلفا يشير إلى هذه الحملة النوبية وقد صور « سنوسرة » فى اللوحة يقف أمام « مونتو » إله الحرب فى طيبة الذى يذكر له أنه جاء للاله الطيب بكل البلاد فى نوبيا تحت قدميه ... ويقود الاله للملك صفاً من تسعة من النوبيين الأسرى المقيدين يمثلون القبائل المحلية التى سجلت أسماؤها داخل ما يشبه الخاتم الملكية وفوق كل منها رأس الأسير وكتفاه. ويشير منتو حتپة فى ذلك النص ، الذى ضاعت معالمه أو كادت ، إلى القضاء على الأعداء وذبحهم وإشعال النار فى مساكنهم وإلقاء حبوبهم فى النهر .. ويظهر أن منتو حتپة أراد تسجيل صورته على اللوحة فأمر الملك بمحوها ورسم المعبود مكانها ، وهذا التصرف يشير إلى نفوذ الملك الكبير فى عهد الأسرة الجديدة بحيث لا يسمح بهذا العبث ، وبحيث لا يدع قائداً من قواده يحاول اكتساب النفوذ على حساب التاج .

وواضح من ذلك كله أن سنوسره أبدى نشاطاً كبيراً فى النوبة وأنه اتجه بشخصه حتى الجندل الثانى وقد كان من أثر ذلك احتلال الإقليم إلى ما وراء هذا الجندل حتى الجندل الثالث وتعيين حاكم من قبل فرعون عليه وكان رجلا له قيمته كشف « ريزنر Reisner » فى كرما فى بلاد النوبة عن مقبرته وهو « حب زفى » وألقابه تشير إلى أنه « أمير بالوراثة » و « حاكم ورئيس كهنة »

وله مقبرة صخرية تحمل اسمه فى أسيوط هى أكبر ما عثر عليه من هذا النوع فى ذلك العصر ، وتشير نقوشها إلى ملخص عشرة عقود تمت بينه وبين مختلف طوائف كهنة الإقليم للقيام بالطقوس الجنزية فى قبره . وهذه العقود لا نظير لها فى الآثار إذ تقدم طائفة من المعلومات الجديدة تشير إلى الاعياد الدينية لإحدى المدن المصرية فى عهد الدولة الوسطى ، ولابد أن ما جاء على جدران المقبرة « كان له أصل على أوراق البردى » كما يقول « إرمان » . وهى من غير شك تشير إلى توسع فى الاجراءات الدينية والقضائية ، ويرى « برستد » من مطالعتها وبحثها «أنه لم يكن يمر يوم من أيام السنة دون أن يتلقى « حب زفى » الطعام والشراب اللازمين لحفظ مقومات كيانه » . ورغم ذلك فإن « حب زفى » لم يدفن فى أسيوط فى مقبرته الفخمة بل فى « كرما » كما قدمنا من قبل ، وأحاطه النوبيون بكتيبة من العبيد ذبحوا ليقوموا على خدمته فى العالم الآخر . وكأنما كان « حب زفى » يحس قبل موته بأن كاهن مقبرته سيقصر فى أداء الخدمة الدينية رغم العقود المبرمة بينهما ، فنراه يبعث بخطاب إلى كاهن الا « كا » يقول فيه : «الأمير بالوراثة الحاكم ، رئيس الكهنة « حب زفى » يقول إلى كاهن الا « كا » الخاصة به : انلاحظ كل الأمور التى تعاقدت عنها مع الكهنة المطهرين الذين تحت إشرافك لأن كاهن « كا » المرء هو الذى يجعل متاعه وتقدماته نضرة . أنت تدرى ما أعطيت للكهنة المطهرين مقابل ما أعطونى . حاذر من أن ينسخها واحد منهم . سوف تتحدث أنت عما يخصنى مما أعطيته لهم وسوف تجعل إبنك ووريثك يستمع لهم وهو الذى سيكون كذلك كاهن « كا » ى . . . لقد منحتك أرضاً وعبيداً وماشية وبساتين وكل شىء ، حتى أصبحت كأى عظيم آخر فى أسيوط ، وذلك كى تتابع خدمتى بقلب راض وتباشر شئونى التى أسلمتك زمامها . إنها مسجلة أمامك كتابة وكلها ستكون من نصيب ابنك الذى اخترته أنت ليكون كاهن « كا » ى من بين أولادك جميعاً كنتفع بالايرادات دون أن يسبب خسائر ودون أن يسمح

بتوزيعها على أولاده طبقاً لما أعطيت من تعليمات » . . . وليس من شك أن كاهن «كا» «حب زفى» جهد فى أن ينفذ الوصية التى كانت روح «حب زفى» ترتحل من كرما لتحل فى تماثيله فى مقاصيرها بالمقبرة كى تستمتع بالطعـــام والشراب وتنعم بما يقدم من قرابين . . ثم نالتها عوادى الزمن فيما نالت فلم تبق سوى نقوش المقبرة تتحدث عن مجاهدة صاحبها فى الخلود ورغبته فى تأمينه بكل الوسائل السابقة .

* * *

على هذه الصورة وطد سنوسره سلطانه فى الجنوب مستهدفاً تأمين حـدوده الجنوبية أولا والحصول على ذهـب النـوبة ويشير إلى ذلك النصب التـذكارى الذى خلد انتصاره وكذلك تشييده لحصن يقصد من ورائه حماية الطرق إلى مناجم الذهب . . . ومنذ عهده نرى ذكر كوش (النوبة العليـا) يتردد فى النقوش المصرية .

وقد رأيناه قبيل ولايته للعرش يؤدب الليبيين فى حملته التى أوفده أبوه على رأسها إلى شمال غرب الدلتا ليرد هجاتهم ويطارد فلولهم وقد عاد منها — كما روى سنوهى — منتصراً

ولدينا كذلك ما يشير إلى بعثة أرسلها إلى الواحات تحت قيادة القائد «ايقوديدى» وهو على هذه الصورة نراه حين اشرك ابنه أمنمحيه الثانى معه فى السنة الثالثة والاربعين من الحكم (قبل وفاته بعامين) يسلمه دولة ثابتة الأركان قوية الدعائم مطمئنة إلى حدودها . . . وكان سنوسره يكاد



(شكل ٣٨)

يبلغ السبعين من عمره إذ ذاك ودفن فى هرمه باللشت بالقرب من العاصمة « ايثه تاوى » وجهز لمعبد هرمه قبل وفاته عشر تماثيل لم يقدر لها أن توضع فى مكانها فتركت مغطاة بالرمال حتى عثر عليها عام ١٨٩٤ ، وهى محفوظة بالمتحف المصرى (شكل ٣٨) مع ستة تماثيل أوزيرية لـ « سنوسرة » وثلاثة عشرة مائدة قرابين كرستها الكاهنات للملك .

٣ — امنمحيه « الثانى » نوب كاو رع Amenemhé II, Noub-Kau-Ra

لئن لم تميز عهد هذا الملك وعهد خلفه « سنوسرة الثانى » أحداث هامة إلا أنهما يمثلان استمراراً لمظاهر التقدم ، بل إن عهدى الملكين تركا من المخلفات مايشهد برفعة المستوى الفنى وتقدمه وهو أمر تشير إليه القطع الخالدة التى عثر عليها فى دهشور واللاهون .

وقد اشترك « امنمحيه الثانى » مع أبيه مدى ثلاث سنوات ثم انفرد بالحكم بعد ذلك . ومن المعروف أنه أرسل البعوث إلى مناجم سيناء حيث جدد العمل فى سراية الخادم ، وقد سجل ذلك الأمر عدد من الموظفين من بينهم « ساحتحور » وآخر يدعى « من بن موت » (ولوحته مؤرخة بالعام الرابع والعشرين) وثالث يدعى « سنفرو » كان يعمل كقائد للأسطول وقد عثر له هناك على تسع لوحات وتمثالين من بينها الجزء السفلى من تمثال للمعبودة « حتحور » سيدة الفيروز ، التى تحمى المناجم ، كرسها جميعاً لهذه المعبودة .

وهناك ما يشير كذلك إلى رحلة إلى بونت أشير إليها فى نص عثر عليه فى وادى جاسوس قرب البحر الأحمر (بالقرب من القصير) عند النقطة التى كانت ترتحل منها السفن إلى بونت ، وأهمية هذا الأثر تقع فى أنه يقدم اسم الميناء . واللوحة تمثل صاحبها « خنتى ختور » يتقدم بالعبادة إلى أمنمحيه الثانى الذى يقدم السكائب إلى « مين » إله قفط ، ومن ألقاب « خنتى ختور » « الأمير

بالوراثة وحامل الخاتم الملكى ورئيس قاعة العدل » . وقد أرخت اللوحة بالعام الثامن والعشرين بعد عودة الأسطول سالماً من بونت وعقب رسوه عند ميناء « سوو » (وادى جاسوس) .

وأرسل الملك كذلك بعثة لتعدين الذهب من النوبة ، ويحدثنا « ساحتحور » مرة أخرى أنه ذهب فى شبابه وزار المناجم هناك واضطر رؤساء النوبيين لـ « غسل الذهب » ، وأنه هزمهم هناك بخوفهم من سيد الأرضين وأنه ذهب إلى « هى » ودار حول جزرها وعاد بمحصولاتها .

وتتضح عناية « امنمحيه الثانى » بالمعابد ورعاية أمر القرابين من لوحة تركها مفتش المعابد « خنت ام سمتى » فى أبيدوس لأنه يشير إلى ذلك الأمر وإلى أن « الالكتروم » كان يصرف بإذنه ، وأنه وصل إلى الفنتين وخر ساجداً على الأرض أمام سيد الجندل «خنوم» ، كما يشير «ساحتحور» إلى عمل تماثيل للملك فى دهشور وفى هرمه .

وفى العام الثالث والثلاثين من الحكم أشرك الملك معه ابنه «سنوسره الثانى» على السنة المتبعة فى الأسرة ـ ويشير « مانيتو » إلى أن مدة الاشتراك تتراوح بين ست وسبع سنوات قامت فى نهايتها مؤامرة انتهت بقتل الملك وتولية ابنه . . . وهو أمر عجيب ليس هناك مايدعو له ، ولا ما يؤكده ، بل إن مدة الاشتراك كما تشير مختلف المصادر الأخرى تتراوح بين عامين وثلاثة أعوام .

وآثار الملكات والأميرات من عصره التى عثر عليها « دى مورجان » فى دهشور عام ١٨٩٥ تعد مع غيرها من عصر الأسرة الثانية عشرة أجمل مجموعة من الآثار الذهبية المطعمة التى يفخر المتحف المصرى باقتنائها (أنظر أشكال ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) وهى عبارة عن أكاليل وعقود وسوارات ودمالج وصدريات ترجع إلى عهد ذلك الملك وعهد خلفائه حتى امنمحيه الثالث وكلها تنم عن دقة فى

الصناعة أكاد أقرر أن الصانع الحديث يلقى عناء فى محاكاتها وصناعة مثيل لها بل هو لا يستطيع أن يبلغ ما بلغته من عناية وجمال .

٤ — سنوسره « الثانى » خع خبر رع Senusre II, Khaa-Kheper-Ra

يحدثنا مانيتو عن هذا الملك الجديد كأنما هو عملاق يبلغ ارتفاع قامته أربعة أذرع وثلاث قبضات وإصبعين أى أكثر من مترين . . . وهو لا يتحدث عنه كثيراً وربما يرجع ذلك إلى قصر مدة حكمه نسبياً إذ لم تزد عن ١٩ عاماً ، وعدم ظهور أحداث هامة فى عصره شأنه فى ذلك شأن سلفه . . . ويشك كثيراً فى أن قبضة مصر تراخت فى عصره عن النوبة وبدأت الحدود السـابقة تتقلص رغم ذهاب المفتشين لتدعيم القـلاع كما يشير إلى ذلك نص « حابو » الذى يسجل السنة الثالثة من حكم سنوسره الثانى .

ولقد استمر النشاط المعهود يأخذ مجراه فيما يتصل بالمواقع الدينية كهرقليوبوليس والكرنك ، وهيرقونبوليس وكذا فى أماكن قطع الأحجار والتعدين فى وادى الحامات وسرابة الخادم . . . كما أن هناك إشارة إلى رحلة إلى بونت « أرض الإله » قام بها « خنوم حتپ » وسجل ذكرها فى وادى جاسوس .

وقد بنى هذا الملك هرمه فى اللاهون قرب مدخل الفيوم ، وقد كشف « پترى » هناك عن مساكن للعمال الذين قاموا ببناء الهرم وملحقاته من معابد حيث عثر على كثير من أوراق البردى استطاعت أن تلقى ضوءاً على الحياة الاجتماعية فى مصر فى ذلك العصر . وقد أمكن الكشف عن حوالى ألفى غرفة فى مساحة تبلغ ١٨ فداناً بها قصور كبار الموظفين وأكواخ العمال على السواء .

وإلى جنوب الهرم كانت توجد مقابر الأميرات وقد نهبت فيما عدا واحدة منها كشف عنها « برنتون » « Brunton » عام ١٩١٤ وعثر فيهـا على حلى

الأميرة «سات حتحور عنة» التى تشير إلى مهارة ودقة بالغين فى الصناعة ومن بينها صدريتان الواحدة لـ «سنوسرة الثانى» أبيها (أنظر شكل ٤٢) والأخرى لزوجها «امنمحيه الثالث» (أنظر شكل ٤١) وكذا عقود ومرايات وأساور أو معاضد من الذهب المطعم بالأحجار شبه الكريمة وتاج (أنظر شكل ٤٣) ؛ والمقارنة بين صدريتى «سنوسرة» و «أمنمحيه الثالث» تشير إلى تقدم الصناعة فى عهد الأول عنها فى عهد الثانى .

ومن أشهر النصوص التى وصلتنا من ذلك العهد نص بمقبرة «خنوم حتپه الثانى» وهو من أسرة حكام بنى حسن التى سبقت الإشارة إليها والتى عين امنمحيه الأول عميدها خنم حتپة الأول (جد صاحب النقش هنا) أميراً على منعت خوفو (إقليم الوعل - بنى حسن) ثم حاكما على المقاطعة كلها فيما بعد .

وخنوم حتپة الثانى هو ابن السيدة «باكت» ابنة خنم حتپة الأول التى زوجها من حاكم إقليم الأرنب «نهرى» (إلى الجنوب من بنى حسن - تونة ؟) وقد ولى حكم الامارة بعد وفاة عمه «نخت» فى العام التاسع عشر من حكم أمنمحيه الثانى وقد تزوج من السيدة «خيتى» وريثة إقليم ابن آوى (الى الشمال من بنى حسن) واستطاع ابنه «نخت الثانى» أن يصبح حاكما على إقليم ابن آوى بحق الوراثة من أمه كما وصل خنم حتپة الثالث إلى حكم ولاية بنى حسن عن طريق أبيه .

والأسرة كانت تتوارث إمارة إقاليم مصر الوسطى ، وتزخر مقابر بنى حسن بالنقوش التى تشير إلى أنها كسبت هذا المركز بفضل حسن صلتها بالتاج بل إن خنم حتپة الثالث مثلا يشير فى نقوشه إلى أنه الرجـــل الذى يطيعه الضباط لأنه الفم الوحيد الذى تنغلق أفواههم أمامه حين ينطق . . . وهو المستشار الرفيق الوحيد المملوء بالفضائل ، العظيم بين السمار ، حارس بوابة المرتفعات «خنم حتپة

ابن خنم حتپة بن نهرى » . . .

ولعل أهم ما تشتهر به مقبرة خنم حتپة الثانى هو صورة على جدران المقبرة تمثل وصول جماعة من بدو الصحراء الشرقية عدتها ٣٧ شخصاً يقدمهم الكاتب « نفر حتپة » ، وهو يمسك فى يده ملفاً من البردى كتب عليه « العام السادس تحت حكم جلالة حور قائد الأرضين ملك مصر العليا والسفلى سنوسرة . يبلغ عدد الـ « عامو » الذين جاء بهم الأمير خنم حتپة بسبب خضاب الكحل ٣٧ رجلا » ، والجماعة من رجال ونساء يصحبهم طفلان ، والرجال يحملون حراباً وأقواساً . والنساء لهن شعور سوداء وينتعلن أحذية لانعالا . . . وللرجال لحى ووجوههم سامية ويميزهم الأنف العبرانى . والكل يلبسون ملابس صوفية زاهية . . . ويتقدم الجماعة رئيسها حاكم البلاد الأجنبية « ابشاى » ويحمل لقب « حق » أى « أمير » .

وربما كان قدوم هؤلاء الأجانب إلى مصر بقصد الاتجار ، وقد يلقى هذا ضوءاً على تردد وفود الأسيويين واستقرارهم فى البلاد الأمر الذى نشهده ينتشر بصورة ملحوظة فى أعقاب الأسرة .

٥ - سنوسره « الثالث » خع كاو رع Senusre III, Khaa-Kau-Ra

يظهر أن سنوسرة الثانى مات فجأة قبل أن يشرك معه ابنه سنوسره الثالث (شكل ٣٩) الذى حكم البلاد حوالى ٣٨ عاما . وينسب إليه أنه رجل حرب ، والواقع أن الحروب التى خاضها لاتستطيع أن تضعه فى مصاف القواد المحاربين فى مصر القديمة فهو أدب الجنوب - الذى كاد يفلت فى عهد سلفيه - وأدب فلسطين بحملات تأديبية ، لم تستهدف الاستعمار ولم تسع إليه ، ولكنها كانت ضرورية من غير شك لتشعر القوم أن عين فرعون ساهرة وأنه متيقظ وأنه يستطيع أن يوقف الأعداء عند حدهم .


(شكل ٣٩)
سنوسره الثالث

بدأ سنوسره ولايته العرش بتأديب القبائل النوبية ، ومهد لذلك بشق قناة عند الجندل الأول ليسر عبور الأسطول (وهو أمر كان « ونى » قد قام به فى عهد الأسرة السادسة) أو على الاصح بتعميق المجرى شرق جزيرة سهيل .. وقد أعاد تطهيره فى العام الثامن من حكمه كما تشير إلى الأمرين نقوش جزيرة سهيل، وهو يتحدث فى نفس العام الثامن عن هزيمة كوش التعسة،ويذكر أن طول القناة ١٥٠ ذراعا وعرضها ٢٠ وعمقها ١٥ .. وقد تقدم سنوسرة الثالث إلى مسافة ٣٧ميلا جنوب وادى حلفا ، وأقام نصباً تذكارياً فى سمنه وأقام قلعةهى إحدى القلعتين المتقابلتين على ضفتى النهر وسجل عليها أنها«الحدود الجنوبية التى تمت فى العام الثامن تحت حكم جلالة ملك مصر العليا والسفلى خع كاو رع الذى يعطى الحياة إلى الأبد مخلدا ليمنع أى زنجى من تخطيها عن طريق الماء أو البر بسفينة أو بصحبة قطعان من الماشية فيما عدا من يأتى للاتجار فى « أكن » أو فى مهمة، فانه يلقى عندئذ كل التسهيلات ، ولكن لايسمح لسفينـــة من سفن الزنوج أن تتخطى « حح » إلى الشمال ».

وبعد سنوات أربعة نرى حملة ثالثة تتم فى العام الثانى عشر سجلت أمرهـا فقرة نقشت عـلى صخور أسوان تشير إلى التـــاريخ ثم اسم الملك و « ارتحل جلالته ليهزم كوش » .

وبعـد أربع سـنوات أخرى نراه يسلك نفس الطريق . ونراه يقيم نصبـاً

آخر فى سمنة ويضع لوحة مشابهة له فى جزيرة أورونارتى ، ولكن نص جزيرة أورونارتى فيه إفاضة عن نص سمنة وإلى مقابل «سمنة» كانت توجد «قمة» وبها قلعتها كذلك، وعرض النيل هنا لا يتجاوز ٣٥٠ متراً وهى مسافة ضيقة تستطيع القلعتان المتقابلتان أن تتحكما فى مجرى النهر عندها وتوقفا أى تقدم عن طريق الماء . . . أو البر ، فهما تفيان بالغرض الذى أقيمتا من أجله . وكان بكل قلعة من القلعتين معبد ، وكرس معبد سمنة للاله «ددون» الاله المحلى وللاله «خنوم» إله الجندل والقنتين ، وقد أقيمت بالمعبدين الاحتفالات بالنصر على الزنوج . ويستحلف سنوسرة - فى النص الذى تركه فى سمنه - خلفاءه بأن يحافظوا على الحدود التى وصل إليها وإلا فهو برىء منهم ، وهو يشير إلى خلق الزنوج وإلى بؤسهم وإلى ما حل بهم وإلى اقامته تمثالا لشخصه هناك ليشجعهم (أى خلفاءه) على عدم التراجع عن الحدود التى رسمها لهم .

ولكن النوبيين لم يرعووا فاضطر بعد ثلاث سنوات أخرى إلى أن يذكرهم بقوته ويشير نص «ساتت» الذى أقيم فى أبيدوس إلى أنه «أتى إلى أبيدوس مع الخازن الأول «ايخر نفرة» ليضع تمثالا لـ «أوزير» حين كان الملك «خع كاو رع» الذى يعيش إلى الأبد فى طريقه لهزيمة تعساء كوش فى العام التاسع عشر».

وأما فى فلسطين فراويتنا هنا هو «سبك خو» الذى يقدم فى لوحة فى أبيدوس صورة من جهاده كجندى تحت إمرة سنوسره فى حملة سورية فهو يقول «تقدم جلالته إلى الشمال ليغلب الـ «منتيو» على أمرهم. ووصل جلالته إلى «سكم» (١) وسقطت «سكم» و«رتنو» التعسة وأنا أحرس المؤخرة . التحمت المؤخرة من المدنيين فى الجيش بالآسيويين وأسرت آسيوياً وسلمت أسلحته إلى مدنيين من

---

(١) يرى البعض أنها هى «شخم» الواقعة فى ناحية السامرية

الجيش لأنى لم أرجع عن القتال بينما كان وجهى إلى الإمام دائماً ولم أدر ظهرى للأسيويين . أقسم بحياة «سنوسرة» أنى أقول الحق ؛ وعندئذ أعطانى «سنوسره» عصاً من الألكتروم فى يدى وقوساً وخنجراً من الالكتروم وكذا أسلحة أسيرى».

وقد عاصر « سبك خو » امنمحيه الثانى من قبل وهو يسجل ألقابه فى النص الذى جاء به : « ظهر جلالة ملك مصر العليا والسفلى خع كاو رع « سنوسره الثالث » المنتصر بالإكليل المزدوج على عرش حور كملك . وجعلنى جلالته أقوم بالخدمة كمحارب خلف وإلى جانب جلالته مع ستة من رجال البلاط . وكنت إلى جانبه . ثم أمر أن أعين وصيفاً لجلالته . وجهزت ستين رجلا حين أراد أن يذهب إلى الجنوب لغزو القبائل فى النوبة وقبضت على زنجى — ثم تقـــدمت شمالا مع ستة من رجال البلاط وعيننى رئيساً على الوصفاء ومنحنى مائة رجل مكافأة لى » .

والأمر هنا فى سورية كما نرى كان غارة مفـــاجئة أكثر منه حملة حربية منظمة ذات أهداف وهى لا تقارن بحملات الدولة الحديثة ولا تستهدف استعمار تلك النواحى فإن هذه الفكرة لم تكن لتخطر على بال « سنوسره الثالث » لأنه كان يكتفى كما نرى بتأمين الحدود دون توسيعها أو مدها ومع ذلك فمن الطريف أن نشير إلى أن المصريين وصلوا بعيداً إلى شمال سورية فقد عثر على ما يشير إلى أن ملكين من جبيل تلقيا هدايا من امنمحيه الثالث والرابع. وقد عثر فى الطود على آثار ذهبية من نفس العصر من صناعة ميزوبوتاميا وايجيه تحمل اسم أمنمحيه الثانى ربما كانت هدايا من بيلوس . وعثر فى قطنة شمال حمص على تمثال لأبى الهول يحمل اسم واحدة من بنات أمنمحيه الثانى كما عثر على عدد من هذه التماثيل فى رأس شمرا وعلى آثار أخرى فى « أتخانا » عند مصب الاورونت وكلها دلائل.. إن لم تكن على تغلغل النفوذ ، فهى على الأقل تشير إلى علاقات قوية مباشرة .

وتحدثنا لوحة من عهده وجدت فى أبيدوس لوزيره «إيخرنفرة» أنه أرسله لترميم آثار أوزير بذهب كوش ، واللوحة تشير إلى عدد من الألقاب يظهر أن مجموعها كان يشتمل اختصاصات ما نعرفه اليوم بوزير المالية كما تدخل فى اختصاصاتها مراقبة أعمال البناء مثلا ما دام يقوم بالإنفاق عليها ؛ وهو يقول فى لوحته «أمر ملكى إلى الأمير بالوراثة حامل الخاتم الملكى الرفيق الوحيد سيد بيت الذهب المزدوج ، سيد بيت الفضة المزدوج الخازن الاكبر ، إيخرنفرة الموقر : يأمر جلالتى أن تصعد النهر إلى أبيدوس لتقيم تماثيل لأبى أوزير أول الغربيين ولتزين مكانه الخفى بالذهب الذى جعل جلالتى أحضره من النوبة العليا بانتصارى . ستفعل هذا كقربان لترضى أبى أوزير مادام جلالتى يحرسك . وإن قلبى لواثق من أنك ستؤدى كل شىء وفق إرادة جلالتى ، لقد كنت فى حاشية جلالتى وقد عينتك وأنت فى السادسة والعشرين من عمرك ؛ وقد فعل جلالتى ذلك لأننى توقعت أن تكون ممتازا فى الخلق حاضر اللسان ، منذ خروجك من الجسد ، وقوى الحجة . إن جلالتى يرسلك لتفعل ذلك مادام جلالتى قد عرف أنه ليس هناك من له صفاتك الطيبة ، اذهب بسرعة وافعل كل ما يأمرك به جلالتى . . »

ويشير «إيخرنفرة» أنه أنفذ رغبة مولاه فزين المصلى العظيم وصنع محفة للمصلى من الذهب والفضة واللازورد والاخشاب ذات الرائحة العطرة وخشب الخروب وخشب «مرو» وصاغ الآلهة المتصلة بتاسوعه المقدس وجدد مصلياتهم وجعل الكهنة يقومون بواجباتهم ويؤدون الطقوس كل يوم وفى الأعياد فى بدء المواسم وأشرف على بناء القارب المقدس وضع مصلى له ، وزين جسد سيد أبيدوس باللازورد والدهنج والألكترون وكل حجر ثمين . . وألبس الاله بنفسه لأن وظيفته كانت «سيد الأشياء الخفية» وكان

كاهنا فى الوقت نفسه ، ثم يشير أخيراً إلى أنه كان طاهر اليد عند تزيين الاله .
كان كاهناً نظيف الأظافر .

* * *

وتشير نقوش أخرى من عصر سنوسرة إلى أنه اخضع ليبيا كذلك ، وفى هذا دلالة على أنها ثارت كما ثارت النوبة من قبل . . . ولكن إخضاعها كان يستهدف كذلك استغلالها ـ لا استعمارها ـ والانتفاع بمحصولاتها كما انتفع بأخشاب سورية وعطورها وبذهب النوبة .

ولم يكتف الملك بذلك بل أرسل بعوثاً إلى المناجم والمحاجر ، وكان من أثر نشاطه الجم أن دعم نفوذه فى النوبة وأصبحت جزءاً من الممتلكات المصرية وأصبح ينظر إليه فى الأجيال التالية كفاتح لهذه البلاد ومعبود لها حتى لنرى تحوتمس الثالث يبنى لذكرى سنوسرة معبداً فى « سمنة » لعبادته .

* * *

وشيد « سنوسره » لنفسه هرماً فى دهشور ، وتقع بالقرب منه مقابر الملكة « نفر حنت » والأميرات وهى المقابر التى عثر بها على عدد هام من الحلى له قيمته الفنية التى أشرنا إليها من قبل والتى سنتناولها بشىء من التفصيل فى نهاية الفصل . وكان للملك قبر آخر رمزى فى أبيدوس .

وقد أشرك سنوسره فى أخريات أيامه ابنه امنمحية الثالث فى الحكم على السنة التى تابعتها الأسرة من قبله .

وقد سجلت إحدى البرديات التى عثر عليها من عصره قصائد تتناوله بالمديح وتطنب فى شجاعته وجهاده وصبره ، وهى دليل على أن آداب هذه الفترة من تاريخ مصر تمتاز بقوتها وفصاحتها وشعرها الرصين . والقصيدة التى جاءت بالبردية تشير إلى توحيده الأرضين وإخضاعه الأرض السوداء ومنحه السلام

لضفتى النهر ... هو الذى منح مصر الحياة وذاد عنها الآلام ... إنه جعل الناس يعيشون . . وجعل رعاياه يتنفسون . إنه سمح للمصريين أن يقوموا على تغذية صغارهم ودفن المسنين منهم . إنه مد حدود مصر وهزم البلاد الأجنبية وأطلق سهامه مثل « سخمة » وكان لسانه يخضع النوبيين وكلامه يجعل البدو يهربون من أمامه . . كان السلم يسود عهده وكان الأمن والطمأنينة يملآن النفوس . . إن المتطوعين للحروب كانوا فى هدوء .

٦ ـ امنمحيه (الثالث) نى ماعه رع Amenemhé III - Ni-Maae-Ra

تولى امنمحيه الثالث (شكل ٤٠) الحكم بعد أبيه سنوسره الثالث الذى أشركه معه فترة قصيرة. .وقد قيض له أن يظل حاكما على مصر قرابة النصف قرن (٤٨ عاماً) وقد ورث عن أبيه قوة العزيمة ، ولكن فى ميدان آخر غير ميدان الحروب . ويظهر أن ما أتاه أبوه من عمليات تأديب عند الحدود جعلت الشعوب المجاورة لمصر تحس بقوة المصريين وتجنح إلى المسالمة . ومن العجيب أننا نلق له أثراً عند « كرما » التى نعلم أن أباه لم يجعلها حداً جنوبياً له بل كانت الاقليم الذى رأينا « حب زفى » والياً عليه من قبل فى عهد سنوسرة الأول وليست على الأثر إشارة لالتحام حربى أو لغزو من أى نوع ، بل إن عصر أمنمحية يميزه سلم متصل مهد له أن يجنى ثمار الحروب التى خاضها أبوه من قبل.



(شكل ٤٠)
أمنمحية الثالث

وتتضح أهدافه السامية من استغلاله المتصل لمناجم سيناء فى سرابة الخادم ووادى مغارة حتى بلغت البعثات التى أوفدها خلال مدة حكمه الطويل حوالى ثمانية عشرة بعثة تبدأ من العام الثانى حتى العام الخامس والأربعين ، وكانت كلها تتم فى الشتاء على الأغلب فيما عدا واحدة منها شكا رئيسها من أنه أوفد فى فصل غير مناسب « كانت الشمس فيه تشوى الجـلود » وقد وسع المعبد القائم فى سرابة الخادم لعبادة حتحور وهو المعبد الذى كان قائما هناك منذ عهد سنوفرو.

وأحس بحاجته إلى الأحجار كذلك ، فأوفد البعثات إلى وادى الحمامات ويشير إلى ذلك نص لموظف يدعى سنوسرة جاء به « الحجر الأسود الجميل » (البازلت) لـ « امنمحيه عنخ » (وهو بيت سوبك فى كروكوديلوپوليس) وجاء بأحجار لصنع عشر تماثيل جالسة على عروشها ارتفاع الواحد منها خمسة أذرع . ولم يغفل أمر محاجر طرة كذلك فنراه فى العام الثالث والأربعين يرسل العمال ويفتتح المحاجر من جديد لاستحضار ذلك الحجر الأبيض الجميل لبناء معابد الاله . وأما النوبة فقد استغلها كذلك إلى أبعد الحـدود ليستحضر منها الذهب الذى رأى الحصول عليه ضروريا لاتمام أعماله العمرانية .

ولكن لعهد امنمحيه الثالث آثار لا تغيب عن الذهن استطاعت أن تخلده لا بين فراعين الدولة الوسطى وحدها بل بين الفراعنة المصريين قاطبة .

كان من بين ما عنى به امنمحيه تنظيم أمر مياه الفيضان الزائدة عن الحاجة والتى لا تستطاع الافادة منها بل تذهب هباء . ولقد أمر أولا بتسجيل ارتفاع النهر عند القلاع التى أنشأها أبوه فى سمنة وقمنة ، ولا تزال مستويات ارتفاع النهر مسجلة فى الأعوام ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، وهى تزيد ما بين ٢٦ ، ٣٠ ، قدماً عن متوسط مستويات ارتفاعه اليوم . وكان يظن أنه أقام خزاناً هناك رفع من المستوى إلى ذلك الحد

ولكن ليس هناك من الآثار المادية أو غيرها ما يشير إلى ذلك ولسنا نعرف سبباً لانخفاض مستويات النهر خلال الثلاثين قرناً الماضية .

ولعـــل من أهم آثار امنمحية الثالث ذلك العمل الهندسي الضخم الذي كان هدفه استصلاح أراضي منخفض الفيوم . كانت تشغل المنخفض في عهد الدولة القديمة بحيرة كبيرة تدعى « مر — ور » التي أطلق عليها اليونان اسم « موريس » وكانت الفيوم الحالية تقع على شواطىء البحيرة المذكورة (ومكانها الحالي يبعد عشرين كيلو متراً من شاطىء البحيرة) ، وكان بحر يوسف - ولا يزال - يصب فيها وهو يخرج من شمال أسيوط كفرع من فروع النيل ويسير محاذياً لمجراه من الناحية الغربية ثم ينحرف إلى الغرب مخترقاً المرتفعات الغربية بالقرب من اللاهون .

ورغبة في الافادة من مياه الفيضان الزائدة عن الحاجة رؤى خزنها في منخفض الفيوم ثم تصريفها عند الحاجة لري مساحات كبيرة من شمال الفيوم وقت الجفاف . وقد دعاه ذلك إلى إقامة سد كبير عند مدخل الفيوم زوده بفتحات وقنوات لتصريف ماتدعو الحاجة إلى التصريف من مائه المخزون ، وبذلك أمكن اكتساب ٢٧٠٠٠ فدان من غمر الفيضان . ويذكر « سترابو » أنه شهد الطريقة التي كانت تخزن بها المياه مما يدل على أن العملية ظلت قائمة حتى عام ٢٤ ق. م. على الأقل .. وقد استطاع عن طريقها أن يحول إقليم الفيوم إلى بقعة من أخصب بقاع مصر ... وقد أقام أمنمحية على الشاطىء الشمالي من البقعة التي اختلسها من الغمر — عند مكان يعرف باسم بياهمو — حاجزين ضخمين أقام فوقهما تمثالين كبيرين جالسين يمثلانه ، ارتفاع الواحد منهما حوالي ١٢ متراً — بخلاف القاعدة — من الكوارتز الصلب .

* * *

وعلى مقربة من هذا المشروع الضخم شاد امنمحية مبنى هائلا اشتهر فى العالم باسم « اللابيرنت » وسمى كذلك لتشعب طرقه. وقد تحـــدث عنه « سترابو » بما يشير إلى وجوده فى عصره ، وقد دهش « هيرودوت» عند رؤيته إياه وآثار عجبه ، وضللته حالته الجيدة حتى نراه ينسبه إلى العهد الساوى ، وهو يصفه بقوله « لقد شهدته ووجدت أنه أكبر مما يوصف ، إن ما شاده اليونانيون أقل من ناحية العمل والنفقات من هذا « اللابيرنت » ، إن اللابيرنت يفوق الأهرام نفسها .. إن به اثنى عشر بهوآ تدور حولها الأسوار وأبوابها متقابلة ، ستة منها إلى الشمال وستة إلى الجنوب ويدور حولها السور الخارجى كذلك ، وبه نوعان من الغرف بعضها تحت الأرض وبعضها فوقها ويبلغ عددها ثلاثة آلاف غرفة نصفها سفلى والنصف الآخر علوى . لقد دخلت بنفسى إلى الغرف العلوية وشهدتها وأنا أصف من واقع رؤيتى إياها . وأما الغرف السفلية فقد سمعت عنها لأنه لم يسمح لى بمشاهدتها إذ قيل لى إنها أضرحة للملوك ، الذين شادوا من قبل هذه اللابيرنت ، وكذا للتماسيح المقدسة . وعلى ذلك فإن ما أرويه عن الغرف السفلية سمعته بأذنى وأما وصف هذه الغرف العلوية فمن مشاهداتى ... إن الممرات والطرقات الملتفة فى الأبهاء وتنوعها تثير آلاف الدوافع للدهشة التى كانت تحتوينى حين أنتقل من البهو إلى الغرف ومن الغرف إلى الصالات ثم إلى ممرات من القاعات وإلى أبهاء من الغرف . أما السقوف فمن الحجر ، وكذلك الجدران المليئة بالنقوش . وتحيط بكل بهو مجموعة من الأعمدة من الحجر الأبيض . ويتصل باللابيرنت هرم ارتفاعه ٢٤٠ قدماً نقشت عليه صور مختلفة وله ممر سفلى » .

أما « سترابو » فيشير إلى أن سقف كل غرفة كان مكوناً من كتلة واحدة من الحجر وهو يظن أن كل مقاطعة فى مصر كانت لها صالة اجتماعات خاصة بها .

ويقول پليني Pliny « إن عادية الزمن لم تقو على القضاء على هذا المبنى الضخم ولكن قضى عليه سكان هرقليوپوليس وهو أمر لا نستطيع أن نهضمه فى يسر أو نصدقه فليس هناك مايدعو الى ذلك،وليس من المحتمل ان يكون العداء الدينى بين« حرشف » معبود « هرقليوپوليس » و « سوبك » معبود الفيوم سبباً لذلك. وقد عثر «پترى» على أنقاض المعبد الذى استغل سكان الجهات المجاورة أحجاره، ومن تصميمه يتضح أن مساحته كانت تبلغ حوالى ٧٥٠٠٠ متراً مربعاً وهى مساحة تزيد على مساحة معبدى الكرنك والاقصر معاً . وأما الهدف من بنائه فيغلب على ظن بعض المؤرخـــين أنه كان مركزاً للحكومة يستغل جانب منه للأغراض الدينية ..

وقد دفعت الاصلاحات التى قدمها امنمحية الثالث القوم إلى التغنى بعظمته وقوته ، وقد عقد أواصر النسب مع أمراء جبيل (ببلوس) وشجع التبادل التجارى مع فينيقيا .

° ° °

وقد بنى امنمحية لنفسه هرمين أحدهما عند مدخل الفيوم فى هوارة والآخر فى دهشور ، وقد دفن عند موته فى الهرم الأول .

وقد أشرك فى العام الأخير من حكمه ابنه امنمحيةالرابع فى العرش .

٧ - امنمحيه (الرابع) ماع خرو رع Amenemhé IV, Maa-Kherou-Ra

اشترك أمنمحية الرابع مع أبيـه ، ولـكن مدة حكمـه لم تطل إذا لم تتجـاوز تسع سنوات ، وتشير بردية تورين إلى أنه حكم ٢٧ يوم ٣ شهر ٩ سنة ومصادرنا عن عهده مستمدة من نقوش فى الجهات النائية ، فهناك نقش من « قمـة » يشير إلى تسجيل ارتفاع النيل ، وهناك نقوش ترجع إلى الأعـــوام : الرابع والسادس والثامن والتاسع من حكمـه فى وادى مغارة وسرابة الخـادم تشير إلى استثمار المناجم هناك ، وهناك كذلك بعض قطع الآثار التى عثر عليها وتحمل اسمـه من

صندوق للزينة وعدد من الجعول . وترجع بعض برديات اللاهون إلى عصره كذلك . ولـ « أمنمحية الرابع » أطلال معابد فى كوم ماضى بالفيوم وفى طيبة ، كما عثر له على قاعدة ناووس فى مصر العتيقة ، ويحتفظ المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية بتمثال له وجد فى « أبو قير » .

ويقال إنه دفن بعد موته بهرمه فى المزغونة (إلى جنوب دهشور) كما يقال إن هرم المزغونة الآخر لأخته التى خلفته على العرش . وليس هناك حول الهرمين مقابر للحاشية . وقد عثر بهرمه على جثة لأخت له تدعى « پتاح نفرو » ويظهر أنها ماتت خلال عهده . ويرى « چكييه » Jequier أن عمارة الهرمين لا تتصل بالأسرة الثانية عشرة بل بالثالثة عشرة وهو أمر يحتمل الكثير من الشك فالتفرقة على ما أرى لا تحتمل ذلك الجزم بالنسبة إلى قرب العهد بين الأسرتين أو بين أمنمحية الرابع نفسه والأسرة الثالثة عشرة .

ويشير عصره إلى بدء مرحلة الانهيار فى عهد الدولة الوسطى التى آذنت بمغيب عصرها الذهبى وبزوال ذلك المجد الذى استمتعت مصر به أكثر من قرنين من الزمان .

٨ ـ سبك نفرو رع Sobek Nofrou-Ra

خلفت أمنمحية الرابع على العرش ملكة تحمل هذا الاسم . ولم يعترف بها جدول أبيدوس، وأما بردية تورين فتقدم لها مدة حكم قدرها ٢٠ يوم ٤ شهر ٣ سنة وأما مانيتو فقد أطلق عليها اسم « سكيوفوريس » Skemiophoris

ولسنا ندرى على وجه التحقيق لم كان العرش من نصيب امرأة ... فهل هى زوجة لـ « أمنمحية الرابع » أو هى الخليفة الشرعية لأمنمحية الثالث لم يستطع حزبها أن يوصلها للعرش بعد وفاة أبيها فانتهز الفرصة بعد تسع سنوات

من ولاية أمنمحية الرابع وخلعه ونصبها على العرش ثم لم تستمتع هي به فخلعت بعد أربع سنوات ؟ . . . أم أن هناك حقائق أخرى لانعرف عنها شيئا ؟ إننا في الواقع نسير في الظلام وليس لدينا نص واحد ينير أمامنا السبيل لنستطيع أن نقدم رأياً يعتمد على سند تاريخي عن هذه الفترة المبهمة الغامضة .

لقد حلت « سبك نفرو رع » معها نهاية الأسرة التي يظهر أن بناءها كان قد بدأ يتداعى قبيل ولايتها للعرش .

وقد وجد اسمها في خرائب اللابيرنت مما يشير إلى أنها أسهمت هناك باضافة أو تعديل لبعض المباني . وهناك كتل عثر عليها في هرقليوبوليس تحمل صورة أخرى لاسمها ربما كانت هي الاسم الذي كانت تحمله عند ولايتها للعرش « سوبك كا رع ، سوبك شدتي نفرو » وليس معروفاً من آثارها المنقولة سوى جعل وخاتم أسطواني .

* * *

على هذه الصورة تنتهي الأسرة الثانية عشرة وينطوي عهد من أمجد عهود مصر الفرعونية يمثل مستوى رفيعاً استطاع المصريون أن يصلوا إليه ؛ وأظهروا خلاله تقدماً ثقافياً كما أظهروا نمواً مطرداً في مختلف نواحي الحياة . وتحمل آدابه وفنونه الأدلة على نشاط وحيوية وذوق تنأى بالعهد كله عن الخشونة التي كنا نلقاها أحياناً فيما سبق من عصور . . . وهي أمور سنتناولها بالتفصيل في الصفحات التالية .

الحضارة المصرية فى عهد الدولة الوسطى

النظام الادارى

مقدمة

لم تكن مصر فى عهد الدولة الوسطى تختلف كثيراً عن مصر فى عهد الدولة القديمة من نواحى عدة . إن هناك بعض الاختلاف حقاً فيما يتصل بالتنظيم الاجتماعى والادارة واللغة والدين والفن ولكن التغيير الذى تناول هذه النواحى لم يكن مصدره خارجياً . إن مصر خرجت عن الحدود التقليدية التى عرفناها فى الدولة القديمة ولكن نظرتها إلى الشعوب المجاورة كانت نظرتها إلى المتبربرين. إن ظواهر الأمور تشير إلى أنهم كانت لهم مدنية ، قد تفوق مدنية مصر فى بعض النواحى ... ولكن نظرة التعالى التى تجرى فى عروق المصريين جعلتهم يستصغرون شأن الشعوب المجاورة : فهذا سنوسره الأول يهزأ أو يسخر من هيئة سنوهى الأسيوية ويدعو أهل بيته لرؤية ذقنه وملابسه ... وهذه نقوش بنى حسن تنتقد زى وهيئة قبيلة العامو وتنظر إليهم فى دهشة وازدراء .

كانت مصر تتطور داخلياً فى هذه المرحلة غير متأثرة بعناصر أجنبية تستطيع أن تنال حياتها العامة بالتغيير ... فالحياة المصرية عامة فى هذه الفترة تطور لحياة الدولة القديمة مع تغييرات اقتضتها سنة التطور .

الملك

لقد تناول التطور فيما تناول سلطان الملك فلم يعد عرش العاصمة « ايثة تاوى » يحتوى صورة للملك بل كان هناك ملك يباشر سلطانه إلى أبعد الحدود ويرى فيه الناس رجلا يخدم مصالح الدولة .. كان ملوك الأسرة الثانية عشرة سادة الأرض كلها ولم يستطع واحد أن يثير أمامهم المتاعب بل إن أضعفهم

شأناً استطاع أن يوقف الأمراء عند حدهم ، ولسنا نستطيع أن نجد فى هذا العهد الجديد إشارة مثل تلك الاشارة التى أوردها حاكم البرشا فى العهد السابق حين يقول « لقد انقذت مدينتى فى يوم الشدة من رعب البيت المالك » ... لقد استطاعت قوة البيت المالك الجديد أن تضع حداً للفوضى السابقة مما قضى على المنازعات الداخلية وزاد فى أمن الناس وسعادتهم . ومما دعم نفوذ البيت المالك فى ذلك العصر تركيز الادارة ... كان للأمير فى ولايته سلطان محلى من غير شك وكان له بلاط هو صورة مصغرة للبلاط الكبير فى العاصمة بكل تفصيلاته ... كان الكاهن الأكبر لمعبد إقليمه وكان يستطيع أن يشيد المبانى والمعابد ويجبى الضرائب ويرأس قاعات القضاء ومن حوله كتابه وموظفوه ... ولكن هذا كله لم يكن يعنى استقلالا محلياً بل إن حكام الأقاليم يضطرون إلى ذكر الملك فى مختلف المناسبات فهو الذى « أنعم باقامة التمثال » مثلا إذا أراد أحدهم أن يقيم تمثالا ، لأنه لايستطيع أن ينكر فضل الملك فى السماح له بالاستمتاع بذلك الشرف.

لقد أدرك الملوك فى هذه الحقبة أن القضاء على نفوذ حكام المقاطعات هو خير السبل لضمان ثبات العروش من تحتهم ... كما كون الملك جيشاً ثابتاً يسنده ويدعم سلطانه . ويستطيع أن يقمع به أى تمرد أو عصيان إن حاول أحدهم أن يثير البلاد ضده .

وكان الاشتراك فى الحكم - وهى سنة جديدة نشأت مع الأسرة - والدربة عليه مما ساعد الملوك على الاحتفاظ بعروشهم الموروثة دون إثارة مشاكل تدور حول الحق فى ولاية العرش.

وأما أملاك الولاة فكانت من نوعين : الأول يوارثها الابن عن الأب والثانى إقطاعية ملكية مشروطة بموافقة الملك للمخلصين من الأعوان ، والملك لا يتدخل فى توريث الأولى فهى حق خاضع للقانون ، أما توريث الثانية فهو

أمر يتصل برضى الملك وحده ، ومن هنا كان رضى العرش والتقرب له ضرورياً لمباشرة الوالى لسلطانه حتى لا يحرم من دخل ضخم يؤذى حرمانه منه كيانه وكيان أسرته المادى .

وقد نشأت إلى جانب الولاة طبقة الموظفين الكتاب يتصلون بالوزير مباشرة ويرفع هذا بدوره الأمر إلى الملك ، وكان هذا اللون الجديد من الرقابة من شئون الولايات مما حد من سلطان الولاة من غير شك وأضعف من نفوذهم .
ولقد عنى الملوك بإعادة تنظيم البلاد فى هذه الفترة على أساس قوى وكان من أثر ذلك أن أخذت البلاد المجاورة تحسب حساباً لمصر وتقدر قوة شخصية ملوكها .

وأهم مايميز ملوك هذه الفترة هو إصلاح البلاد وتنظيم وسائل الرى والزراعة واستثمار المناجم وتقوية الصلات التجارية بين مصر وماجاورها مما كانت له آثاره الواضحة فى ازدهار الحياة الاقتصادية وترقية الفنون والصناعات المختلفة .

على أنه تجب ملاحظة أنه لم يعد يفصل الملكية عن الشعب ذلك الفاصل العظيم الذى كان ماثلا فى الدولة القديمة ، فقد اقتربت الملكية من الشعب وأصبحت تستشعر وجدانه وتحس مشاعره مما جعلها تعمل على رفاهيته وتتفانى فى خدمته .

* * *

الوزير

كان الوزير على رأس الأداة الحكومية وكان الملك يعينه فى وظيفته ، وقد قدمنا أنه كان يقوم بمعاونته عدد كبير من الموظفين الموزعين على دوائر وإدارات مختلفة بالعاصمة والأقاليم .

وكان للوزير الإشراف الأعلى فى المسائل الخارجية والداخلية كما كان يشرف على فرض الضرائب وتجنيد رجال الجيش والعمال ، وكان مكتب الوزير يعتمد فى ذلك على تقدير صحيح بقدر الامكان لحالة السكان أساسه قوائم خاصة يعدها رب

كل أسرة ويضمنها أفراد أسرته وخدمه وأتباعه .

وكان الوزير يشرف على مكتب تسجيل الأراضى.. وعلى أساس ذلك كان يفصل فيما ينشأ من منازعات بشأن تحديد ملكية الأراضى .

وكان كذلك الرئيس الأعلى للقضاء بوصفه رئيس محكمة الدور الستة المؤلفة من عظماء الجنوب الثلاثين التى كان لها حق الفصل فى الأمور القضائية .

وكان له كذلك - بوصفه الحاكم على العاصمة - الاشراف على الأمن وقوة البوليس .

* * *

الادارات

كانت أقسام مصر الادارية ثلاثة : مصر العليا ، ومصر الوسطى ، والدلتا وكان ينضوى تحت كل قسم عدد كبير من المقاطعات كان يتولى إدارتها فى الجزء الأول من الأسرة الثانية عشرة حكام الاقطاع ، غير أنه فى عهد « سنوسرة الثالث » حل محلهم موظفون من قبل الحكومة المركزية .

وكانت من أهم إدارات الحكومة المركزيه إدارتان : إحداهما الادارة المالية والأخرى إدارة الأعمال العامة . وكان يشرف عليها رئيسا بيتى المال . وكان لمنصب كل منها من الأهمية ما لا يقل كثيراً عن منصب الوزارة نفسها . وكان عليها مراقبة إيرادات ومصروفات الحكومة والعمل على زيادة دخلها والاشراف على ما يدفع لمصر من جزية وإدارة العمل فى المناجم وتجهيز البعوث التجارية .

وإلى جانب ذلك كانت إدارة الاعمال العامة تقتضى من رئيس مكتب المال جهداً كبيراً . ومن بين هذه الاعمال إقامة المبانى فى العاصمة وتشييد الجبانة الملكية والمعابد المختلفة فى أنحاء البلاد وإقامة الحصون وحفر الترع وما يترتب على ذلك كله من عمل فى المحاجر الواقعة قرب النيل أو فى الصحارى مما كان يستدعى نقل

الأحجار المختلفة على الأرض والماء وما يستلزمه من حجارين وبنائين ونحاتين ولكل فريق رؤساؤه وملاحظوه وكتبته .

ومما بقى فى « كاهون » من آثار يتضح لنا أنه كانت تبنى إلى جانب المبانى الضخمة مدن خاصة تتألف من صفوف متوازية من منازل متشابهة يفصلها عن بعضها البعض شوارع ضيقة لايواء العمال وعائلاتهم . وكان هذا كله يقتضى من غير شك جهداً كبيراً وحسن إدارة وتنظيما فائقاً وخاصة إذا أدركنا أن ملوك الدولة الوسطى قد أكثروا من تشييد المبانى وخاصة للآلهة المحلية للمقاطعات المختلفة كما يتضح ذلك من آثار عثر عليها فى دندرة والكرنك وهرقليوبوليس ومنف وبوبسطة وتانيس وغيرها ... وإن كان معظم ما شادوه قد عمل فيه معول الهدم والتخريب فيما بعد الدولة الوسطى ، فنى هليوبوليس مثلا لم يبق من آثار « سنوسرة الأول » سوى مسلته المشهورة . كما أن عهد « أمنمحية الثالث » وهو من أزهى عصور الدولة الوسطى ، كان عهداً امتاز بما تم فيه من أعمال بنائية وتعمير وإصلاح ولكن لم تبق منه الأيام سوى القليل .

أما عن حكام مقاطعات مصر المختلفة فيبدو أنهم استعادوا بعض قوتهم فى أول عهد الأسرة الثانية عشرة بقصد شد أزر مؤسس الأسرة أمنمحية وقوى نفوذهم من جديد لأنهم أصبح لهم حق فرض الضرائب على سكان المقاطعات أو إعفائهم منها كما يذكر « امينى » من عهد « سنوسرة الأول » .

هذا إلى أنهم ظلوا يقيمون فى مقاطعاتهم يحيط بهم أتباعهم وخدمهم وقد كسبوا حب مواطنيهم لهم بمعاملتهم إياهم بالحسنى واهتموا بمرافق مقاطعاتهم وحسن إدارتها ، وانتشرت الصناعات والفنون المختلفة وازدادت مواردهم إذ كانت لديهم فرصة الاشراف على جباية الضرائب المستحقة للملك وتوريدها كاملة للخزانة الملكية ، كما كان من حقهم حشد الرجال للخدمات العامة والحراسة

المحلية وتجهيز القوات المحلية لشد أزر الملكية عند اللزوم .

على أنه لم يلبث التاريخ أن أعاد نفسه ، فازداد نفوذ هؤلاء الأمراء من جديد بدرجة كبيرة وقد استطاع « سنوسرة الثالث » على ما يظهر القضاء عليهم نهائيا وبذا قضى على النظام الاقطاعى وأصبحت السلطة محصورة بين يدى الملك وموظفيه . وليس من شك أن ذلك يرجع إلى تأليف جيش ثابت للملك اعتمد عليه فى تدعيم سلطانه فى الداخل والخارج . وقد أنشأ الملك علاوة على ذلك فرقة من الضباط أطلق عليهم اسم « أتباع الحكام » كانت على صلة مباشرة بالملك تتبعه حيثما انتقل لتحميه من غائلة المخاطر فى الداخل والخارج . وقد كان لهذه الفرقة أثر كبير فى تدعيم نفوذ الملكية وسلطانها خلال حكم ملوك الأسرة الثانية عشرة .

سياسة مصر الخارجية فى عهد الدولة الوسطى

ألمعنا فيما سبق إلى سياسة مصر الخارجية عند كلامنا على ملوك الدولة الوسطى منفردين ، ويمكن إجمال هذه السياسة فيما يلى :

التزمت سياسة مصر الخارجية فى عهد الدولة الوسطى حدود سياستها فى عهد الدولة القديمة تقريباً ، على عكس ما أصبح عليه الأمر فى الدولة الحديثة ، فلقد كانت سياسة مصر بصفة عامة فى الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة ترمى إلى الاكتفاء بحدود بلادها دون الرغبة فى التوسع الخارجى إلا ما تقضى به الظروف والملابسات لتأمين حدودها ضد إعتداءات الشعوب المجاورة أو رغبة فى الحصول على بعض مواردها .

وقد اقتصرت علاقة مصر بشعوب آسيا الغربية على تأمين حدود مصر الشمالية الشرقية وتأديب القبائل التى كانت دائما مثار خطر على حدودها . ولا غرابة إذا اهتم ملوك الأسرة الثانية عشرة بإقامة حائط ضخم يعرف بـ « حائط الأمير » على

حدود الدلتا الشرقية يظن أنه أقيم فى أواخر عهد « امنمحيه الأول » عقب حملة حربية بقيادة « نسومنتو » . ويظن أن هذا الحائط قد حقق الغرض منه وهو رد غارات الآسيويين إذ يلاحظ أنه حتى عهد سنوسرة الثالث لم تكن هناك أدنى إشارة إلى قتال ضد الآسيويين ، وإن كان الأمر لا يخلو أحيانا من مناوشات ضئيلة تمت فى صورة حملات تأديبية على نطاق ضيق . على أنه يلاحظ أن بعض البدو كانوا يدخلون مصر طلباً للعمل فيها ولخدمة أمراء الأقاليم وكبار الموظفين ومع ذلك فليس من شك فى أنه كانت هناك علاقة بين مصر وغرب آسيا ، وأن سمعة ملك مصر ومهابته وصلت حتى سورية ، وأن وفود مصر كانت تجوب هذه البلاد كما كانت منتجات آسيا تجـــد طريقها إلى مصر . وإننا لنجد وصفاً ممتعاً لهـذه البـلاد وعادات سكانها فى قصـة « سنوهى » . وقـد كان سنوهى أحـد الذين صاحبوا « سنوسره » عند إيفاده لقتال الليبيين فى أواخر عهد « أمنمحية الأول » غير أنه سمع مصادفة نبأ وفاة الملك فخشى على حياته لأسباب ليس من السهل معرفتهـا والتحقق منها ، فهرب إلى آسيا وأخذ يتنقل من قبيلة إلى أخرى حتى وصل إلى « بيبلوس » وتابع سيره إلى شرقى دمشق الحاليـة حيث سمع أنباءه أمير رتنو العليا (مرتفعات فلسطين) فدعاه إليه وقربه منه وزوجه ابنته الكبرى ومنحه أرضاً وساعد الأمير فى حروبه ضد أعدائه فأثار ذلك روح الغيرة فى نفس أحد أبطال البدو فدعا سنوهى إلى مبارزته ولـكن سنوهى أمكنه أن يتحاشى رماح خصمه ثم أرداه قتيلا وأخذ خيمته وكل ما بها فـكسب بذلك كثيراً ، وسمع « سنوسرة الأول » بمغامراته وجاءه استغفاره إياه فى خطاب وجهه له فدعاه إلى القدوم إلى مصر وعفا عنه وكافأه بالهبات والعطايا والمنح الـكثيرة .

* * *

هذا وقد توطدت الصلات بين مصر وبيلوس عقب عهد الانتقال الأول

حتى أنه ليظن أن موظفاً مصرياً حكم فى فينيقيا فترة ما إذ أنه عثر فى « بباوس » على نقوش وكتابات هيروغليفية تتضمن ذكر شخصية كبيرة تحمل لقباً مصرياً كبيراً ولكننا نجهل ما إذا كانت سيادة مصر على فينيقيا ظلت مدة طويلة . ولكن ما ليس فيه شك هو أن تأثير « ببلوس » كان عظيما طوال عهد الأسرة الثانية عشرة . وقد أشرنا من قبل إلى نصب «سبك خو» أحد ضباط «سنوسره الثالث» ويفهم من نقوشه أنه ذهب إلى « سكمم » وأنه هزمها مع « رتنو » التمسة مما يدل على نشاط « سنوسره الثالث » فى فلسطين وسورية .

* * *

وإلى جانب ذلك كانت هناك علاقات مستمرة بين مصر وجزر البحر المتوسط وخاصة جزيرة كريت إذ يلاحظ أنه منذ عهد الأسرة السادسة ظهرت فى مصر أختام على شكل أزرار عليها علامات مختلفة منها ما هو على شكل حلزونى ومنها ما يمثل حيوانات مختلفة — وقد وجدت أمثال هذه الأختام فى كريت وفى مقابر كشف عنها فى ايطاليا .

ومنذ عهد الأسرة الثانية عشرة انتشرت فى مصر الأختام التى على شكل جعول وأخذت تحل محل الأختام الاسطوانية والأختام التى على شكل أزرار ، وكان ينقش على الأختام الجعلية أسماء أصحابها تحيط بها خطوط حلزونية هى من غير شك ذات اتصال بانتشار الخطوط الحلزونية فى كريت وجزر بحر إيجة .

وقد عثر علاوة على ذلك فى أماكن كثيرة فى أبيدوس وكاهون على كثير من الفخار من طراز فخار بحر إيجة الملون المزخرف المعروف بطراز «كمارس» وقد يكون معنى ذلك أن بعض الكريتيين جاءوا كتجار إلى مصر ، أو جىء بهم كأسرى ، فقاموا بصناعة هذا الفخار ، أو أن المصريين وصلوا إلى هناك وعقدوا صلات تجارية . ولقد عثر فى أقدم الطبقات فى القصر فى « كنوسوس » (فى

كريت ، وكانت مشهورة فى عهد الدولة الوسطى) على تمثال لأحد المصريين من عهد الأسرة الثانية عشرة عا يدل على ما كان هناك من صلات بين مصر وكريت، وعلاوة على ذلك فقد ذكر « حنو» وزير مالية « منتو حوتپ سعنخ كارع » أنه أخضع « الحاونبو » (وهم الكريتيون على الأرجح أو سكان جزر البحر المتوسط عامة) . كما ذكر أحد الموظفين فى أوائل الأسرة الثانية عشرة أن « قلبه أحاط بالحاونبو» مما يدعو إلى الظن بأنه كان يعمل فى إحدى الادارات الخاصة بالأعمال التجارية مع كريت وباقى جزر البحر المتوسط الشرقية ، ووجود هذه الادارة يدل على وجود صلات وثيقة بين مصر وتلك الجزر فى ذلك العصر .

أما علاقة مصر بالليبيين فلم تخل من صدام أو عراك إذ أنه لما كانت بلادهم فقيرة كانت ظروف الحياة تضطرهم إلى التسلل إلى وادى النيل حيث الحياة أيسر نسبياً . وقد رأينا « منتو حوتپ نب حپت رع » يشير إلى انتصاره عليهم عند توحيد البـــلاد ويبدو كذلك أن « نب خرورع منتو حوتپ » قد حاربهم . وقد فعل ذلك أمنمحيت الأول أيضاً ، فأرسل ابنه سنوسرة الأول لمحاربتهم قبل موته على أنه يبدو أنهم أخلدوا للسكينة بعد ذلك فلم يجد ما يدعو لقتالهم فى بقية عهد الأسرة الثانية عشرة .

وكانت الواحات خاضعة لمصر وكان ملوك مصر يبعثون اليها البعوث للاشراف على الأمن ولاستثمار محاصيلها .

أما الحدود الجنوبية فقد اتبعت مصر سياسة أخرى نحوها فقد اتجهت الفكرة من ناحية النوبة إلى الغزو والفتح حتى وصلت حدود مصر إلى الجندل الثانى . ومن الكشوف الحديثة يتضح أنه فى المرحلة ما بين الدولة القديمة والوسطى بدأت بعض القبائل تتحرك نحو الشمال على ضفة النيل شمال الجندل الثانى وأخذت هذه

القبائل تتغلب على السكان الأصليين فى النوبة السفلى وتخطت مرجاتهم حـــدود مصر الجنوبية عبر الجندل الأول حتى شمال الكاب حيث عثر لهم على آثار عديدة. وتدل هياكلهم على أنهم كانوا من الجنس الحامى وأنهم كانوا يسكنون أكواخاً مستديرة ، كما كانت تعلو مقابرهم مبان مستديرة كذلك . وتدل آثارهم على أنهم كانوا على درجة بدائية من الحضارة شديدة الصلة بآثار مصر فى عهد ما قبل الأسرات ، وهو ما يبدو واضحاً من نوع فخارهم وأشكاله وطريقة صنعه . على أنه لم يكن لهؤلاء الأقوام الذين نزلوا الوادى الضيق فى النوبة السفلى خطر على مصر غير أنه قامت فى دنقلة إلى الجنوب منهم دولة كانت عاصمتها جنوب الجندل الثالث قرب « كرما » وهى دولة « كوش » التى بدأ اسمها يظهر لأول مرة فى التاريخ فى عهد الأسرة الثانية عشرة . وينتمى شعب « كوش » هذا إلى نفس الجنس الذى كانت تنتمى إليه القبائل الحامية التى تسكن النوبة السفلى ، غير أنه كان ذا حضارة تختلف عن حضارة هذه القبائل من وجوه عديدة وإن تشابهت معها فى بعض الوجوه » وكانت هذه القبائل التى نزحت إلى النوبة السفلى ونزلت بها واستقرت ، تجد فى دولة كوش الناشئة سنداً لها يدفعها شمالا إلى حدود مصر الجنوبية مما اضطر ملوك الدولة الوسطى إلى أن يتخذوا الاحتياطات والقيام بحملات للقضاء على الأخطار التى تهدد هـــذه الحدود . ولقد رأينا من قبل أن « نب خرو رع منتو حوتپ » ضم إلى مصر الواحات القريبة منها ، وأكمل ملوك الأسرة الثانية عشرة هذه الحدود ومدوها حتى كورسكو على الأقل فى عهد الملك أمنمحيه الأول ثم سنوسره الأول حتى الجندل الثانى على حدود كوش . وفى عهد سنوسرة الثالث دعا الأمر إلى القيام بحملات حربية وإنشاء الحصون عند الجندل الثانى وتأمين النوبة السفلى وحدود مصر الجنوبية ضد غارات القبائل المتاخمة وأقام بالقرب من سمـــنة عند الحدود الجنوبية تمثالا له وإلى جانبه نصباً استحلف فى نقوشه خلفاءه من الملوك على أن يعملوا على المحافظة على حدود مصر

الجنوبية . وإذا كان ملوك الأسرة الثانية عشرة لم تمتد فتوحاتهم إلى قلب مملكة كوش نفسها للقضاء عليها إلا أنه تيسر لمصر بفضل ما شيده سنوسرة الثالث من حصون قوية ، تأمين ما فتحه من أملاك . وقد استؤنف الاتصال التجارى بين مصر والسودان ، ومع ذلك ظلت النوبة السفلى محتفظة بحضارتها مما لا يسمح بالقول إن مصر عمدت فى عهد الدولة الوسطى إلى استعمار هذه البلاد بالمعنى الصحيح.

والواقع أن حدود مصر فى عهد الدولة الوسطى كانت البحر المتوسط شمالا وكانت آخر حدودها شرقاً مدينة الاسماعيلية الحالية وغرباً الواحات وجنوباً الجندل الثانى ..... أو « كرما » أحياناً .

الآداب والفنون

الآداب والعقائد

لم يتسام الأدب فى عصر من عصور مصر القديمة إلى مثل القمة التى استقر عندها فى الدولة الوسطى ، فلقد ظلت اللغة حتى ذلك العهد تتكون وتأخذ أشكالها وصورها التى استقرت عليها فتخلصت من الشذوذ والبربرية التى كانت تشوهها، وأخذت بعدئذ تحسن فى الأساوب وتجدد فى التعبيرات وترقق فى الكتابة حتى أصبح أسلوب ذلك العصر مثالا يحتذى فى العصور التالية على منواله ويتخذه التلاميذ نموذجاً فى كتاباتهم .

وإننا ندين لهذا النسخ بالكثير ، فقد سجل لنا الناسخون تراثاً من المخلفات الأدبية عند محاكاتهم للخط أو الأسلوب ، واستطعنا بذلك أن نضع أيدينا على ثروة أدبية ضخمة كان غيابها يبعدنا عن كثير من حقائق الأمور ومن دراسة تلك العصور .

ولقد شهدنا نماذج من الأدب فى ذلك العهد ومن بينها « حوار المتعب من

الحياة مع روحه » ، « تحذيرات أيبو - ور » ، و نبوءة نفر - تى » وكلها قدمت صوراً لما كانت تعانيه البلاد فى محنتها وما ترزح تحته من مصائب وأرزاء . وطالعنا كذلك الأغنية الجنزية وفيها من الاستهتار مافيهـا ، وهى تشير إلى مـذهب آخر من مـذاهب الحيـاة والنظرة لهـا وهو مذهب الشكية ، ومع هذا المذهب نشأت فـكرة أن السعادة فى العالم الآخر قد تعتمد لا على السلطان والنفوذ على الأرض بل على الصفات الخلقية والتصرفات ، وأن الانسـان يلقى فى الآخرة جزاء ما صنع على الأرض إن خيراً فخير وإن شراً فشر ... إن هذا اللون من التفـكير جديد من غير شك على الحياة المصرية ، وتغيير بل وانقلاب لما جرى العرف عليه والايمان به من قبل . فهناك تتحقق العدالة ما دام ليس من السهل توفيرها هنا ، ونستطيع أن نستشف ذلك من « تعاليم مرى كارع » التى جاء فيها :

« إن القضاة الذين يحاكمون المضطهدين . . . أنت تعرف أنهم لا يلينون فى ذلك اليوم الذى يحاكم فيه التعساء فى ساعة اتخاذ القرار . إن الأمر يسوء حين يلقى العاقل « تحوت » رب الحـكمة « الاتهام . لا تثق فى طول السنين ، إن عمر الأنسان لديهم كساعة . والانسان يبقى بعد الموت وتجمع أعماله إلى جواره فى كومة . إن الإنسان يكون هناك إلى الأبد وهم يعذبون من يستخف بهم (أى القضاة) . أما من يأتيهم بغير ذنوب فإنه يبقى هناك كإله ويخطو فى جرأة إلى الأمام كسادة الأبدية » .

وتكاد نفس العقيدة تتردد فى حـديث « صراع المتعب مع روحـه » حيث يفـكر فى الحياة فى العالم الآخر ويرى فيها حياة تتجاهل المثل العليـا على الأرض

« ذلك الذى هنـــاك سيقبض بعنف كإله حى على الخطـــاة وسيوقع العقـاب عن المعصية على من ارتكبها . ذلك الذى هناك سيقف فى قارب الشمس وسيختار ما يروق له ويمنحه للمعابد . ذلك الذى هناك سيكون عالماً ولا يعوقه شىء (فى تقربه من الله) وسيدعو رع حين يتكلم »

والرجل المستقيم قد يلقى شقاء على الأرض ولـكن العدالة تتحقق له فى العالم الآخر بل إنه سيحاكم من كانوا يهزأون من استقامته على الأرض وسيرتحل مع إله الشمس كل يوم عبر السموات ويرى الإله ويتحقق من أن القرابين لا يتخطفها الموظفون

الحرب والذمة بل تصل إلى مكانها الصحيح. ويصل فى النهاية إلى الحضرة الالهية ويستمع إلى شكاواه بعد أن كان يطرد من حضرة الكهنة المتعجرفين .

وهناك نص أدبى آخر يعالج مشكلة العدالة فى الحياة اليومية يعد من طراز ممتاز ، بل من خير ما ترك لنا من الآداب المصرية ; وهو النص المعروف بنص « الفلاح الفصيح » فالفلاح يشكو فيه إلى رئيس الموظف ، وهو رجل من رجال قصر فرعون ، ويعجب الرجل بفصاحة الفلاح ويفضى بالأمر إلى مولاه فرعون ... ويتأنى فرعون عن عمد فى تحقيق العدالة حتى يفرغ الرجل من إلحاحه فى تسع شكايات تفيض بالألم والحسرة ... وينتهى المزاح أخيراً ويعاقب المسىء ويثاب صاحب الحق ... ولقد كان التأخير فى إرساء قواعد العدل مما دفع الفلاح المسكين إلى أن يتطلب الموت ليستريح مما حاق به من ظلم « كما يلتمس الظمآن الاقتراب من الماء ... كما يرجو الرضيع الوصول إلى الثدى ... أتوق أنا إلى الموت » . ويرى « ارمان » Erman « أن فى الأحاديث التى تجرى فى النص » تمتدح العدالة ويزرى بحقارة الموظفين وضعتهم » والواقع أن النص يعالج فى هدفه مشكلة من أدق المشاكل فى كل العصور هى ظلم القوى للضعيف وجور الحكام وما يلحق أصحاب الحق من أذى إن تأخر تحقيق العدالة لهم ... وهى أمور نشهدها كلها فى نصوص الدولة الوسطى ولم تمر بنا من قبل فى الدولة القديمة . فنحن هنا لا نلتقى قوة فى الأسلوب والحجة فقط بل ألواناً متباينة من التفكير هى ثمار المحنة التى رزحت تحت عبئها البلاد قروناً طويلة .

ومن بين ألوان الأدب التى نلقاها فى ذلك العهد أدب القصة والمغامرات وتمثله قصة « البحرى الغريق » وهى تشبه من ناحية من نواحيها قصة السندباد البحرى . وأما عناصر القصة فبسيطة ، بل إنه ليست فيها حبكة القصة وإنما هى رواية لمغامرات تنتهى دائماً بالنهاية السعيدة بعودة المغامر إلى بيته وبلاده ،

وهناك القصة التى أشرنا اليها من قبل وهى قصة « سنوهى» ومغـامراته فى رحلته إلى فلسطين وهى — إلى جانب قيمتها التاريخية التى أوردناها — تشير إلى نوع الحياة فى هذه البلاد ومدى علاقة أهلهـا بمصر، وتستطيع أن تلقى ضوءاً على البلاد الشرقية المجاورة لمصر فى ذلك العهد البعيد .

وإننا لنجد للشعر نصيبه فى أدب الدولة الوسطى . . فلقد التقينا به من قبل فى متون الأهرام ، ولكن شعر الدولة الوسطى هنا شعر موزون مقفى كان يغنى أحياناً ويصحب الغنـاء الموسيقى . ومن أشهر الأناشيد من هذا العصر الأنشودة المشهورة لـ « سنوسرة الثالث » التى يظن أنها كانت تغنى لمناسبة التتويج فى واحدة من مدن الوجه القبلى وهى كما يقول برستد « أقدم مثـال معروف للشعر يعرض كل مقومات الفن الأدبى ، وفيها يشار إلى الملك كأنما « هو سد يحمى النهر من إغراق الأراضى فى الفيضـان ، وهو حصن يحتمى فيه الخائف ، وهو ظل ظليل ، وهو نسيم عليل ... هو دفء حين يطلب الدفء ، وهو ابتراد فى سـاعات القيظ ... هو جبل يحمى من العواصف حين تثور السماء ، وهو « نخمة » على الأعداء » »

العمارة والفنون

يكاد يصدمنا فيما يتصل بالعمارة فى الدولة الوسطى أن القطع الفنية المعمارية الهامة قد اندثرت جميعاً تقريباً ، فاللابيرنت الذى قدمنـا وصف هيرودوت وسترابو له ، ، والأهرام التى دفن بها الملوك ، والمعابد التى تجاورها ... كلها أصبحت أنقاضاً ثم أخذت أحجارها واستعملت فى أغراض أخرى . . . وليس لنا إلا أن نتخيل قول هيرودوت عن اللابيرنت بالذات « إنه أفخم من الأهرام نفسها وهو أهم وأرعى للانتباه من جميع مبانى بلاد اليونان الهامة مجتمعة » ... إن تدمير اللابيرنت ورفع أنقاضه لا يدع مجالا للخيال فلسنا نستطيع أن نكون

ولو فكرة خيالية عن ذلك الشيء الذى أذهل الكاتب المؤرخ حين رآه .

وأما بالكرنك فلدينا كتل من الأحجار أمكن جمعها إلى بعضها وترميمها وإخراج هيكل ينم عن دقة فنية رائعة ، وقد نقشت على الجدار الخارجى منه إلى ناحية الشمال أقاليم الشمال وعلى الجدار الجنوبى أقاليم الجنوب . وتبدأ أقاليم الشمال من منف منتشرة بين فروع الدلتا وعلى أطرافها . أما أقاليم الجنوب فتبدأ من أسوان (فيلة) وتنتهى عند أطفيح جنوب منف حيث وضعت علامة السكين كأنما تفصل بين القسمين . وكان الصعيد يقسم كذلك إلى قسمين : الصعيد الشمالى (وهو مانعرفه اليوم بمصر العليا الشمالية) وينتهى عند أبيدوس ، والصعيد الجنوبى (وهو ما نعرفه بمصر العليا الجنوبية) ويمتد حتى الجندل الأول .

وأما فى الدير البحرى فتشير أنقاض معبد منتوحتپه الجنزى إلى عبقرية الفنانين وابتكارهم .

وأما أهرام الدولة الوسطى فلئن أعوزتها الضخامة فإن تصميمها الداخلى ينم عن فكر ثاقب يستهدف تضليل اللصوص ، ورغم ذلك لم يفلت واحد منها من هذا المصير .

ولعل مما يثير الانتباه مقابر النبلاء الصخرية فى الاقاليم ، ويقول «هول» Hall عن مقبرة « أمينى » فى بنى حسن « إن البهو بما فيه من أعمدة جميلة النحت لا يعدله شىء فى جماله إن قورن بنظائر له فى عصور أخرى ».. هذا إلى العناية بالمحافظة على التناسق التام ومراعاة النسب ، وكانت الاعمدة مثمنة أحياناً ، وهى فى قبر « أمينى » هذا ذات ستة عشر جانباً وبها قنوات ليست غائرة إلى عمق بعيد فى كل الجوانب ما عدا جانب واحـــد . وهذا الطراز من الأعمدة هو المعروف بـ « البروتودورى » لدى اليونان فيما بعد .

أما النحت فقد انهار فى أعقاب الدولة القـــديمة لأن التماثيل لم تصبح ذات

جدوى من ناحية ، ولأن الانفاق على صناعتها لم يعد فى استطاعة انسان . فلما تحسنت الأحوال فى عهد الأسرة الحادية عشرة وبدىء فى العودة إلى النحت لم يستطع الفنان المصرى الوصول إلى المستوى الذى كان قد استقر عنده من قبل ، ولكن التحسين بدأ يدخل على هذه الناحية تدريجياً حين اتحدت البلاد ، وربما كان مرجع ذلك إلى أن فنانى منف لم يكونوا قد فقدوا بعد قدرتهم على ممارسة هذه الصناعة . وتشير إلى هذا التقدم أضرحة الأميرات الستة للملك « منتو حتپه الثانى » ولكنه تقدم فى فن تعوزه الدقة على كل حال كما تعوزه المرونة ، ومع ذلك ففيه طرافة وجاذبية .

وتلى هذه الفترة فترة أخرى تملك الفنان خلالها ناصية صناعته واكتسح الميدان ، ويشير « مرتى سن » إلى مهارته ويفخر بدربته وتعليمه وخبرته كفنان ملكى ونحات لـ « منتو حتپه الثالث » ، والنص يشير إلى أنه كان مزهوا بتقدمه على أقرانه وسبقه لهم مما يشعر بأنهم فى حالة من التأخر والعجز لا تسمح لهم بالوصول إلى مستواه . ولئن كان « مرتى سن » فعلا هو الذى قام بزخرفة المعبد لجنزى للملك فإنه لم يعد الحقيقة فيما أشار إليه .

° ° °

ولكن الطفرة جاءت فى الأسرة الثانية عشرة حين تمت الوحدة وثبتت على يد الأسرة الجديدة واستطاع الفنان أن يتقدم بخطى واسعة نحو الكمال المنشود حتى ليستطيع أن يقارن أعماله بخير نتاج لفنانى الدولة القديمة . ونحن أمام رأيين متعارضين يقدمها « برستد » و « هول » فى هذا الصدد فـ « برستد » يرى « أن تماثيل الدولة الوسطى ليست بهـا الحيوية والفردية اللتان تميزان نحت الدولة القديمة » أما « هول » فيرى « أن النقش البارز وتماثيل الملوك فى الدولة الوسطى .. تقدم لنا صوراً لقوى لم يستطع فنانو الأسرة الرابعة أن يقدموا على منافستها أو

الوقوف أمامها ... ولكن الرجلين بعدا حقاً عن محجة الصواب . وليس الأمر أمر حيوية وفردية بل الأمر أبعد من ذلك . إن العصرين يختلفان فعلا .. إن فنان الأسرة الرابعة رسم ومثل ما يراه كما رسم فنان الدولة الوسطى ومثل ما يراه ... إن الأول رأى إلها يدرك قوته فى عنفوانها فاستشف ما وراء الصورة واستلهمه فخرج تمثال « خع اف رع » فى جلاله وقدسيته ، أما فنان الدولة الوسطى فكان يرى رجلا من الرجال أرهقته مشاكل الحياة وألح عليه الكفاح حتى ترك الغضون تسرى فى أنحاء وجهه وجبهته .. إنه رجل وليس إلها .. إن فيه العواطف الانسانية وفيه الضعف البشرى ... ورسم الفنان أو نحت ما رآه لم يحد عنه .. والفنانان أتقنا عملها من غير شك وقدما الصورة التى كان يفترض من فنان مارس فنه دهراً طويلا أن يقدمها على وجهها الصحيح .

أما النقش فقد بدأ كذلك خشناً ضعيفاً كما تشير إلى ذلك « لوحة انيوتف » ، ثم أخذ ينتقل فى خطى واسعة نحو الكمال ، وإننا لنرى « برستد » يزرى دائما بفنانى الدولة الوسطى فيتحدث عن نقوش مقابر النبلاء فى ذلك العصر قائلا « إنها أحط بكثير من الأعمال التى كنا نعرفها من قبل » . ويقف « هول » فى الطرف الآخر ليقرر « أن المظهر الطبيعى والتكتل الجماعى فى منظر مصارعة الرجال المنقوش على الجدران حول مدخل الغرفة الداخلية لمقبرة « أمينى » فى بنى حسن لا يستطاع مقارنته إلا بنقوش الأوانى اليونانية فى أزهى عصورها . إن نقوش ذلك الجدار تذكرنا بنقوش تابوت كلازومينى » والواقع أن « برستد » يغالى كثيراً فى الحط من شأن هـــذا الفن ويجانب الصواب ، ذلك لأن فنان الدولة الوسطى ترك نقوشاً يستطيع أن يفخر بها ويضعها فى مستوى النقش فى الدولة القديمة أحياناً .

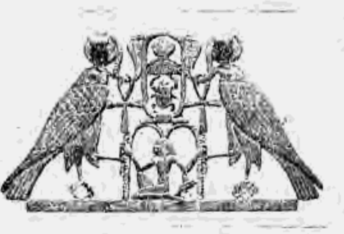
ولكن الدولة الوسطى لا يميزها فن العمارة أو النقش أو النحت ، وإنما لون آخر من الفنون هو الذى اصطلح على تسميته بـ « الفنون الصغرى » ورغم قلة

ما وصلنا من القطع التي تمثل هذا الفن إلا أنها تكفي لتضع فنان هذا اللون في القمة بين فناني مصر في عصورها جميعاً ، بل بين فناني التاريخ في



(شكل ٤١) صدرية امنمحيه الثالث (ني ماعه رع)

أية دولة من العالم . وكما يقول بيكي : « إن مقبرة توت عنخ أمون استطاعت أن تقدم للعالم مجموعات من القطع الفنية الصغيرة الرائعة واسكن ما أخرجته مقابر الأميرات من عهد الأسرة الثانية عشرة في دهشور واللاهون — رغم قلته من الناحية العددية — أجود من الناحية الفنية، ويفوق كافة ما جاء



(شكل ٤٢) صدرية سنوسرة الثاني (خع خبر رع)

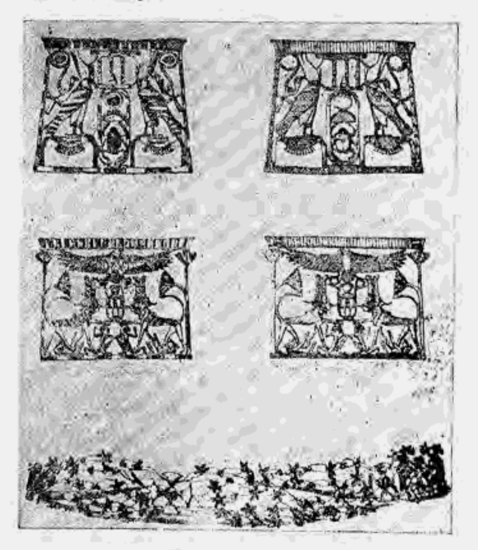
من وادي الملوك » والواقع أن التيجان والقلائد والصدريات (أشكال ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) تضع هذه الفنون الصغرى في مرتبة رفيعة يستطيع عهد الأسرة الثانية عشرة أن يفخر بفنانيه في مضمارها .

ويقول « هول » Hall : « استطاع الفن في عهد الأسرة الثانية عشرة أن يصل إلى الغاية من الدقة والذوق ومراعاة التناسب : ولم يحدث من قبل أن أنتج في مصر مثل الحلي من الذهب المطعم بالأحجار المختلفة التي عثر عليها بأهرام



(شكل ٤٣)
تاج الأميرسات حتحور ».

الأسرة الثانيــة عشرة فى دهشور واللاهون ، بل إن شيئاً فى جمال هــذه الحلى لم يعثر عليه فى أى مكان آخر » .



(شكل ٤٤) « حلى من عهد الدولة الوسطى »

الفصل الحادي عشر

رجعة إلى الفوضى واضطراب الأمور

يظهر أن « سوبك نفرو رع » لم تترك وريثاً ، كما لم يترك « أمنمحية الرابع » من قبل وريثاً ذكراً ، فكان هذا ايذاناً بانتهاء الأسرة وانتقال الملك إلى يد أخرى .. إلى أسرة جديدة هي الأسرة التي حدثنا عنها مانيتو فقال : « إن الأسرة الثانية عشرة خلفها ملوك ينتسبون إلى أسرة ترتيبها الثالثة عشرة » وهو يسميهم « الملوك الذين جاءوا بعد أسرة أمنمحية » وهو يذكر أن نشأة الأسرة كانت في طيبة ، وقد ذكر من أسماء ملوكها ستين اسماً قال إنهم حكموا مصر مدى ٤٥٣ سنة وتلتها أسرة من الدلتا — من سخا — ذكر من أسماء ملوكها ٨٦ اسماً قال إنهم حكموا مصر مدى ١٨٤ سنة ثم خلفتها أسرة لملوك الهكسوس هي الأسرة الخامسة عشرة ، وعدد الأسماء التي أوردها هنا ستة ويليها ٣٢ اسما للأسرة السادسة عشرة . وتلي ذلك الأسرة السابعة عشرة وقد قسمها إلى أسرتين إحداهما من الهكسوس بالدلتا وعدد ملوكها ٤٣ ملكاً والأخرى أسرة مصرية تحكم الوجه القبلي وتناوىء الهكسوس .. كما قرر أن حكم الهكسوس استمر ٩٢٩ سنة وعلى ذلك فتكون المرحلة التي انقضت بين سقوط الأسرة الثانية عشرة وقيام الأسرة الثامنة عشرة — في رأيه — تبلغ ١٥٦٦ سنة ... وهو تقدير مبالغ فيه جداً :

ذلك لأن لدينا تواريخ ثابتة ، فالأسرة الثانية عشرة تنتهي عام ١٧٨٧ ق . م .

بينما تبدأ الأسرة الثامنة عشرة حكمها عام ١٥٧٥ ق . م . فالمرحلة بين الأسرتين لا تعدو ٢١٠ عاماً . ودليلنا على ذلك أن بردية تورين ذكرت أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة محددة بالسنة والشهر واليوم ، كما أن النصوص المصرية ذكرت أن نجم الشعرى اليمانية ظهر فى أفق « منف » فى السادس عشر من برمهات من السنة السابعة من حكم سنوسرة (أى حوالى ١٨٨٢ — ١٨٨١ ق. م.) فتكون الأسرة الثانية عشرة قد بدأت حكمها حوالى ٢٠٠٠ ق. م. . ولما كانت النصوص المصرية قد جاء بها كذلك أن نفس النجم ظهر فى التاسع من أبيب فى السنة التاسعة من حكم « امنحتب الأول » ثانى ملوك الأسرة الثامنة عشرة أى حوالى ١٥٥٠ ق. م. ، ولما كانت سنى حكم « عحموزة الأول » أول ملوك الأسرة معروفة فإن الأسرة الثامنة عشرة تكون قد بدأت حكمها حوالى ١٥٧٥ ق.م. . . . هذا إلى أن آثار العصر تشير من الناحية الفنية إلى أن المدة لا يمكن أن تزيد عن قرنين من الزمان .

ولما كان المعروف أن الهكسوس — كما سنرى فيما بعد — مكثوا فى البلاد قرابة ١٥٠ عاماً استغرقت المرحلة ما بين الأسرتين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، فإن المدة الباقية وتبلغ ٦٠ عاماً ، هى مدة حكم ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة .

ويعزز ذلك ما جاء ببردية تورين ويشير إلى قصر مدة حكم ملوك الأسرتين ، وتتفق هذه البردية مع ما أورده مانيتو من ناحية تقسيم الأسرات وعدد الملوك : فالجزء التالى للأسرة الثانية عشرة به خمسة صفوف يكون كل منها مجموعة أسماء إحدى الأسرات الخمسة التى تكون فترة الاضمحلال الثانى . . . ولكن تهشيم البردية يحول دون تحديد فترات الحكم . وقد ورد بها ٢١ اسماً لملوك الأسرة الرابعة عشرة .

أما قائمة الكرنك فقد أوردت أسماء ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة وعددها ٣٥ إسماً لم يبق محفوظاً منها سوى ٢٥ ولم تتعرض لذكر ملوك الأسرات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة.

وأما جدولا سقارة وأبيدوس فيهملان إهمالا تاماً ذكر الملوك بين الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة فهم لدى أصحاب القائمتين — على ما نرى — ليسوا ملوكاً شرعيين.

* * *

ولسنا ندرى تماماً ماذا حدث فى أعقاب الأسرة الثانية عشرة هل خلعت الملكة واستطاع أن يلى العرش مكانها أحد الأمراء الأقوياء ذوى النفوذ فى البلاد؟.. أم إن المؤامرة تمتد إلى أبعد من ذلك، إلى عهد سلفها الذى حكم أقصر مدة إذا قورن بأسلافه جميعاً فى الأسرة؟ أم إن مؤسس الأسرة الجديدة أحد أصهار الأسرة استطاع أن يصل إلى العرش عن طريق المصاهرة فأسس الأسرة الجديدة ما دام ليس عضواً فى الأسرة السابقة. إن النصوص لا تتحدث عن شيء من ذلك... بل إن كل ما تورده فى هذا الصدد هو ذكر اسم الملك حكم ٤ سنوات على الأقل هو «خو تاوى رع» (وجاف) عنى بتسجيل مدى ارتفاع منسوب الماء عند «سمنه» وانقطع التسجيل منذ العام الرابع من حكمه. وله آثار فى تل اتريب وتانيس، وسجل اسمه وزير له يدعى «خنمس» فى صخور أسوان كما وجد اسمه فى «شط الرجال»، وهو الذى يرى مانيتو — ويوافقه المؤرخون المحدثون — على أنه مؤسس الأسرة الجديدة — الثالثة عشرة — وقد ورد اسمه فى قائمة الكرنك كذلك.

ويشير برستد Breasted إلى أن الظلمة التى نجتازها فى هذه المرحلة من تاريخ مصر أحلك من سابقتها، وهو يرى أن البلاد عادت إلى الانقسام والتفتت إلى

دويلات صغيرة يشير إليها وجود ١٨٠ اسماً على الأقل بما يوحى بصراع مستمر حول العرش .

ومن العجيب أن نرى « ويجال » Weigall لا يحس بهذه الظلمة التي تدفع إلى الحيرة بل هو يحاول أن يعتصر شيئاً من وراء المعلومات البكماء ليضيء السبيل أمامنا ... ولكنه لم يفلح فى ذلك على كل حال رغم محاولته اليائسة .

وأما « پترى » Petire فقد استطاع أن يقدم بعض الآثار من مخلفات العشرات من هؤلاء الحكام الملوك الجدد ولكن نجاحه فى هذه الناحية لم يستطع أن ينير السبيل أكثر مما أثاره صاحباه ... فظهور اسم على جعل أو قطعة من الحجر لا يكاد يكشف عن الكثير ... والأمر لا يتعدى ذلك فى معظم الأحيان

الأسرة الثالثة عشرة

كان ملوك الأسرة الثانية عشرة فى النصف الثانى من عهد الأسرة يعتمدون على موظفين أرسلوا للمقاطعات ليمثلوهم وليكسروا من شوكة حكام الأقاليم ،وكان لهؤلاء الموظفين نفوذ وسلطان مستمدان من نفوذ وسلطان الملك القوى نفسه، وكان من أثر وجودهم أن قل نفوذ الأمراء فى مقاطعاتهم ولكن وجود الموظفين كان سلاحاً ذا حدين فهو يهدد نفوذ الملك فى المقاطعات البعيدة وخاصة إذا كان الملك ضعيفاً .

فاذا أضفنا إلى هذا العامل عاملا آخر لايقل عنه خطراً وهو ما استنه ملوك الأسرة الثانية عشرة من تكوين جيش لوجدنا أنفسنا أمام حزبين لهما خطرهما، وقد وجد رجال الحزبين الفرصة مواتية للقيـــام بمؤامراتهم فى عصر الملك « امنمحيه الرابع » والملكة « سبك نفرو رع » على الأرجح وخلا الجو لهما بموت الأخيرة فتشاحنا وقضيا بتشاحنهما على نظام الحكم والادارة فى عصر الدولة الوسطى .

ويظهر أن أحد الحزبين كان يفوز بالعرش ثم يخلفه الحزب الآخر قبل أن يستقر به المقام ، ولعل فى هذا تفسيراً لكثرة عدد ملوك الأسرة الذين بلغوا ستين ملكاً حكموا ستين عاماً فى رأى البعض ، ٨٥ عاماً فى رأى آخر ، وكان يحمل بعضهم لقب « رئيس الجيش » مما يدل على نوع الحزب الذى كان ينتمى إليه قبل أن يستوى ملكاً على عرش البلاد .

ومن الطبيعى ألا تسعف الاحوال واحداً من ملوك هذه الاسرة باتخاذ سياسة خاصة ما دام يحس العرش يهتز من تحته وما دام همه منصرفاً إلى محاولة المحافظة على كيانه قبل كيان البلاد .

ولذا نرى حياة هذه الاسرة مرت على البلاد دون أن تحدث فيها حدثاً أو تطبعها بطابع خاص اللهم إلا الفوضى التى انتشرت ، والحروب الداخلية التى أضعفت من شأنها وسهلت للأعداء أن يجدوها أمامهم لقمة سائغة ، فدخلها الهكسوس فى عصر أحد ملوك هذه الاسرة وهو « آى » (حوالى سنة ١٧١٠ ق. م.) واستقروا فى البلاد مدى قرن ونصف من الزمان .

ويمكن تمييز ثلاث فترات لانحلال سلطان الملوك وثلاثة مجاميع لهم فى عهد هذه الاسرة :

١ — فالمجموعة الاولى لها تماثيل ونقوش ذكرت أسماء أصحابها فى بردية تورين وقائمة الكرنك، وألقاب أصحابها الملكية معقدة ومتشابهة ، فهناك « أمنمحية سوبك حوتپة » وهناك « أمنى انيوتف أمنمحية » . وهناك « سبك حوتپة » كذلك ثم « سبك أم سا إف » ومنهم ١٣ حكموا مدداً قصيرة توجد آثارهم فى سمنة والكاب وطيبة واتريب .

٢ — ومجموعة أخرى تكون الآثار المهمة الوحيدة للأسرة ، وتماثيل هذه المجموعة منتشرة فى أنحاء البلاد وأسماؤهم مرتبة فى الكرنك ولكن ألقابهم توحى بأنهم مغتصبون ، فأحدهم « سمنخ كارع بن رع » رئيس الجند يوحى لقبه أنه اغتصب العرش بحد السيف ، وآخر يدعى « نفر حتپة » أعادة عبادة أوزير فى أبيدوس ويذكر اسم أبيه وأمه اللذين لا يمتان بصلة إلى عائلة ملكية . ويليه بعد ١١ سنة ابنه ولا يمكث على العرش سوى ثلاثة أيام ثم يخلعه عمه عنه ويصبح ملكا تحت اسم « سبك حتپة الرابع » وله آثار فى الدلتا وتانيس وبوبسطه ومنف

وجزيرة «ارجو» عند الجندل الثالث .

٣ — ومجموعة ثالثة مكونة من ٣٤ ملكاً طبقاً لبردية تورين ، أحدهم يحمل لقب «نحسى» أى زنجى وقد أصلح معبداً لـ «ستخ» فى تانيس ، وفى هذا ما يلقى ضوءاً على بعض الاحوال فى ذلك العصر إذ أن «ستخ» هو اله الصحراء والبلاد الآسيوية الذى جعل منه الهكسوس فيما بعد حامياً لهم ... و«تانيس» «اواريس» (حاوعرة) هى القلعة التى تحكم طريق القوافل عند البوابة الشرقية للدلتا وسنرى أنها أصبحت عاصمة للهكسوس ، وعلى ذلك فإن «نحسى» هذا الملك السابع والخمسون من قائمة الستين ملكاً هو الذى ركز عبادة «ستخ» الذى صار معبوداً للهكسوس فيما بعد

وقد حصر ماير Meyer أسماء ملوك المجموعات الثلاثة السابقة على النحو الآتى معتمداً فى ذلك على مانيتو وتورين وعلى ما عثر عليه من آثار لبعض هؤلاء الملوك :

١ — خو تاوى رع (وجاف) I — Khou-Taoui-Ra (Ugaf)

سخم كا رع Sekhem-ka-Ra

سعنخ ايب رع «امنى انتف أمنمحات»
Sankh-ib-Ra (Ameny Intef Amenemhat)

سخم رع سشد تاوى «سوبك أم سا إف» (الأول)
Sekhem-Ra Seshed taoui (Sobek-em-sa-ef I)

سبك حتب (الأول) Sobek-hotep I

٢ — سخم رع تاوى «سوبك حتب» (الثانى)
II — Sekhem-Re-Khou-taoui (Sobek-hotep II)

سمنخ كا رع مر مشع (رئيس الجيش)
Semenkh-Ka-Ra (mer-mesha)

سخم رع سوادج تاوى ، سوبك حتب ، (الثالث)
Sekhem Ra Souadj-taoui (Sobek hotep III)

Sekhem Ra Ankh taoui — سخم رع عنخ تاوى

خع سشش رع ، نفر حتب ، (الأول)
Khaa-Seshesh Ra (Nofer hotep I)

Sa-Hathor — سا حتحور

خع نفر رع ، سوبك حتب ، (الرابع)
Khaa-nofer Ra (Sobek hotep IV)

خع عنخ رع ، سوبك حتب ، (الخامس)
Khaa-ankh-Ra (Sobek hotep V)

خع حتب رع ، سوبك حتب ، (السادس)
Khaa-hotep-Ra (Sobek hotep VI)

Wah-ib-Ra (Iy ib) — واح ايب رع ، ايع ايب ،

III — Mer-nofer-Ra (Ay) — ٣ — مر نفر رع ، آى ،

مر حتب رع ، سوبك حتب ، (السابع)
Mer-hotep-Ra (Sobek hotep VII)

مر كاو رع ، سوبك حتب ، (الثامن)
Mer-Kau-Ra (Sobek hotep VIII)

Khenjer — خنزر

سخم رع وادج خعو ، سوبك ام سا إف ، (الثانى)
Sekhem-Ra-Uadj-Khaou (Sobek-em-sa-ef II)

Sobek-hotep (?) — سوبك حتب (؟)

Amenemhat Sobek-hotep — أمنمحات سوبك حتب

مر سخم رع ، نفر حتب ، (الثانى)
Mer-Sekhem-Ra (Nofer-hotep II)

سخم رع « سمن تاوى دحوتى »
Sekhem-Ra (Semen-taoui-Dihouti)

سخم رع نفر خعو « وپوات ام سا إف »
Sekhem-Ra-nofer-Khaou (Upwat-em-sa-ef)

سخم رع واح خعو « رع حتپ »
Sekhem-Ra-Uah-Khaou (Ra-hotep)

Sekhem-Ra Khou-taoui سخم رع خو تاوى « بن ثى »

Dad-Nofer-Ra (Dadu-Msw) دد نفر رع « ددو موسى »

Dad-hotep-Ra (Dadu-Msw) دد حتپ رع « ددو موسى »

Dad-ankh (Montou-em-sa-ef) دد عنخ « مونتوام سا إف »

Nehesi نحسى

° ° °

ومدة حكم المجموعة الاولى ٢٥ عاماً والثانية خمسون عاماً وكذلك الثالثة ، وتمتد جميعاً من ١٧٨٥ إلى ١٦٦٠ ق م .

ويرى الأستاذ أحمد بدوى بعد تقديم المجموعة السابقة نقلا عن « ماير » Meyer أن المكتشفات الحديثة فى طيبة غيرت من بعض الأوضاع وترتيب الأسماء ، فكان « سخم رع خو تاوى » (أمنمحات سوبك حتپ الذى كان يعد من قبل سوبك حتپ الثانى) على رأس الأسرة فى رأيه . وكذلك يضاف إلى المجموعة « حور إيب شدة » ثم « سوداج ان رع » (نب ارى راو رع) . والأمر على ذلك ينحصر بين اثنين على رأس الأسرة يتشابه إسماهما وهما « وجاف » (خو تاوى رع) (؟) و « سخم رع خو تاوى » (؟) .

° ° °

ولقد أجمع المؤرخون على وضع الأول على رأس الأسرة ، وتشير أحدث الآراء على أن الثانى هو صاحب هذا المكان . فلئن كان « وجاف » على رأس

الأسرة فإنه ليس من أفراد الأسرة المالكة السابقة على أية حال وربما كان من طبقة الأشراف أو كبار الموظفين استطاع أن يرتفع تدريجياً حتى وصل إلى العرش فى غفلة من الزمان ، وربما اعتمد فى تدعيم مركزه الجديد على الزواج من إحدى الأميرات من البيت المالك ومهما يكن الأساس الذى اعتمد عليه «وجاف» فإن الأمور استقرت له على أية حال فترة من الزمان وجعل من «إيثة تاوى» عاصمة له كأسلافه فى الأسرة الثانية عشرة .. ولابد أن ذلك أثار فرعاً من فروع الأسرة السابقة من نسل أمنمحيه وسنوسرة كان لا يزال يتخذ من الجنوب مستقراً له .. كما لا بد أن ذلك الفرع من الأسرة حاول أن يخرج بالجنوب على سلطان الملك الجديد الذى استقر فى « إيثة تاوى » ...

وإننا لنلحظ بعد ذلك أسماء ملوك يحملون لقباً جديداً يلتصق بـ « سوبك » اله الفيوم — الاله التمساح — هو « سوبك حتپة » (أى سوبك راض) ونستطيع من وراء هذا اللقب أن ندرك ارتباط الملكية الجديدة بإقليم الفيوم . . ومن بين من يحملون اللقب « سخم رع خو تاوى » الذى يرى البعض فيه مؤسساً للأسرة .

* * *

ولقد تابع الطيبيون سياستهم فى محاولة ادعاء الملك بقدر ما وسعهم ذلك ، فأقاموا لأنفسهم التماثيل كما لو كانوا ملوكاً شرعيين ، وإن لم تعترف بهم قوائم الملوك فخلت من أسمائهم وأبقت على أسماء الأسرة المستقرة فى « إيثة تاوى » .

* * *

وعلى هذه الصورة نرى مصر تتفكك مرة أخرى وتعود إلى حالة الانقسام التى عهدناها من قبل ... ولقد استطاع « سوبك حتپة » آخر ملوك المجموعة الأولى (ماير) — على ما نستطيع أن نتلمسه وسط هذه الظلمات التى تحيط بنا — أن يؤمن الوحدة فترة من الزمان حتى لنرى خلفه على رأس المجموعة الثانية يشير

إلى هذا التوحيد فى لقبه « سخم رع خو تاوى » وهو يستهدف من وراء ذلك أمرين أولهما صلته بالفيوم فى لقب « سوبك حتپة » والثانى صلته بمؤسس الأسرة — على الرأى الأول — الذى ينتحل اسمه وهو « سخم رع خو تاوى » ويتضمن الاسم الاشارة إلى الأرضين ، ولدينا من الأدلة المادية ما يشير إلى أنه حكم مصر من الدلتا إلى النوبة،فله بقايا آثار فى بوباستة وله نقوش فى سمنة تشير إلى تسجيل ارتفاع منسوب النهر ، ويعتبر هذا التسجيل آخر تسجيل من نوعه فى ذلك المكان ، وقد جاء فيه«ارتفاع النيل فى السنة الثالثة تحت حكم جلالة الملك «سخم رع خو تاوى» الذى يعيش إلى الأبد ، وحين كان حامل الخاتم الملكى قائد الجيش « رن سنب » حاكماً اقلعة « قوى هو خع كاو رع (سنوسرة) » وهذه الأدلة المادية مجتمعة تشير إلى حكم مصر الموحدة فى عهده مما يجعل الرأى يتجه إلى ولايته للعرش قبل مرحلة التفكك .

ولكن لعل هذا التوحيد للبلاد كان كذلك آخر صورة للتوحيد فى عصر الأسرة .. ذلك لأن الأسماء التالية تشير إلى أمور شتى ، فسلسلة الأسماء التى تحمل لقب « سوبك حتپة » — وأصحابها من نسل هذا الملك على الأغلب — تصل إلى ثمانية ملوك يحملون اللقب بينما نجد آخرين يحمل أحدهم لقب قائد الجيش « مر — مشع » وهو يشير إلى أن واحداً من رجال الجيش استطاع أن ينتحل لنفسه صفة الملك ، كما نجد أسرة أخرى ينتحل أصحابها لقب « سوبك ام سا إف » وكما نجد واحداً يحمل لقب « نحسى » أى زنجى ، وآخر يطلق على نفسه « خنزر » ، وربما كان ذلك اسماً بابليا ، كما يرى بعض المؤرخين ، أما أسرتا انيوتف وأمنمحية فقد تركتا آثارهما كذلك فى أسماء ملوك هذا العهد .

ويظهر أن « سخم رع سوادج تاوى » « سوبك حتپة الثالث » استطاع أن يحتفظ ببعض النفوذ الذى كان لأبيه فى مصر كلها قبل أن تتفكك البلاد نهائياً ،

فهناك بعض الآثار له فى الأقصر والكرنك وقفط وجبلين والكاب ، وله تمثال (فى المتحف البريطانى) عثر عليه فى بوباستة وكذا بقايا مقصورة كان قد بناها فى « المدامود » .

أما خلفه « خع سخم رع » الملقب « نفر حتپة » (الأول) فهو مغتصب للعرش يسجل أنه من عامة الشعب ، ويحدثنا فى لوحة بأسوان أنه كان ابنا لكاهن ويظهر أنه استطاع أن يحكم البلاد كلها كذلك فقد ترك آثاراً فى وادى حلفا ، واسمه مسجل فى سلسلة وسهيل وكنوسو عند الجندل الأول ، وكانت أبيدوس فى قبضته ، وله تمثال من البازلت (فى متحف پولونيا) يشير إلى عبادة اله الفيوم « سوبك » (التمساح) وتشير لوحته فى أبيدوس إلى أنه ورث غيرته على عبادة الآلهة عن أبيه وقد دفعه ذلك إلى الارتحال إلى أبيدوس حيث جيء له بصورة أوزير عند ضفة النهر انتقابله ؛ وعاد الملك والاله معاً إلى المعبد ، وقد مثل فى الموكب دور مأساة موت وبعث أوزير (التى أسهم فيها من قبل ايخر نفرة) وقد جاء فى اللوحة :

ظهر جلالته على عرش حور فى قصر « حامل الجمال » وتحدث جلالته إلى النبلاء والرفاق فى حاشيته من الكتاب الحقيقيين للكتابة المقدسة والملمين بالأسرار قائلا : إن قلبى يتوق لمشاهدة الكتابات القديمة لـ « أتوم » فقوموا بالتحريات ، ليعرف الاله ما يتصل بالخليقة وتصوير الآلهة وتقدماتهم ... ولأعرف الاله فى صورته كى أعيده إلى حالته السابقة حين صاغوا (الآلهة) التماثيل فى مجمعهم حتى أستطيع أن أقيم التماثيل والآثار على الأرض . لقد أعطونى تراث « رع » إلى مدار الشمس وسأضيف إلى ما أجده وسيزداد حبهم لى بمقدار طاعتى لأوامرهم .

وقال له رفقاؤه « إن ما طلبته « كا » الملك سينفذ ، أيها الملك والمولى ، لتتقدم جلالتك نحو المكتبات وسترى كل الكتابات المقدسة » .

وتقدم جلالته إلى المكتبة وفتح مع رفاقه الملفات ووجد بيت أوزير سيد الغربيين مولى أبيدوس ، وقال جلالته لرفاقه : إن جلالتي يحيى أباه أوزير أول الغربيين سيد أبيدوس . سأصوغه . سأصوغ أعضاؤه ووجهه وأصابعه كما رأى جلالتي ذلك فى الملفات التى تبين صورته كملك لمصر العليا والسفلى عند خروجه من جسد « نوت » .

واستدعى الملك صفيه الذى يصحبه وقال له : اتجه جنوباً بجيشك وأسطولك ولا تنم ليلا أو نهاراً حتى تصل إلى أبيدوس ، ودع سيد الغربيين يتقدم حتى أصنع تماثيله كما كانت فى البدء .

وقال له رفاقه « إن ما أمرت به أيها الملك مولانا سيحدث وسيتم فى أبيدوس ذلك الأمر لأبيك سيد الغربيين » .

وارتحل الموظف إلى الجنوب لينفذ أوامر الملك ووصل إلى أبيدوس وجاء جلالة الاله إلى القارب المقدس لسيد الأبدية وغمرت شاطىء النهر عطور بونت ... وجاء واحد لينهى إلى جلالة الملك أن الاله وصل سالماً فتقدم جلالته فى القارب المقدس مع الاله فأمر بتقديم القرابين المقدسة إلى أبيه سيد الغربيين من من ومن الأشيـاء المقدسة لأوزير سيد الغربيين فى أسمائه جميعاً وهزم أعداء القارب المقدس ... وظهر جلالة الاله فى الموكب يحف به تاسوعة وكان « وبوات » أمامه يفتح السبل . وأمر جلالته أن يتقدم الاله إلى مسكنه ويستقر على عرشه فى البيت الذهبى حتى يستطيع جلالته أن يصوغ جمال جلالته وتاسوعه وكذا موائد قرابينه من كل حجر قيم فى أرض الاله . وبدأ جلالته الصياغة الذهبية بنفسه لأن جلالته كان طاهراً طهارة اله » .

وبعد انتهاء جلالته من العمل وجه حديثه للكهنة فى أبيدوس قائلا : « اعتنوا

بالمعبد واهتموا بالآثار التى صنعتها ... إنى أضع الخطة الأبدية أمامى لقد تحريت عن الأمور النافعة مستقبلا بأن قدمت هذا المثال لقلوبكم :.. ذلك لأننى أريد أن أقيم تماثيلى فى معبده وأخلد عقودى فى بيته . إن جلالته (أوزير) يحب ماصنعته من أجله ويسعد بما أمرت بصنعه له . لقد منح النصر لى ... أنا ابنه الذى يذود عنه ... إنه أورثنى ملك الأرض ...أنا الملك العظيم فى قوته الممتاز فى أوامره . إن من يناصبنى العداء لن يكتب له أن يحيا . ومن يثور ضدى سوف لا يتنسم الهواء وسوف لا يكون اسمه بين الأحياء ..سيقبض على « كا » « أمام الموظفين وسيطرد من لدن هذا الإله كل من يعصى أوامر جلالتى ولا يمتدحنى أمام الإله العظيم ولا يمجد ما قدمت من قربان ولا يرجى الثناء على فى كل عيد من أعياد هذا المعبد ، من كافة كهانة قدس أقداس هذا المعبد ومن كل وظيفة فى أبيدوس .

أنظروا ! إن جـــلالتى أقام هذه الآثار لأبى أوزير سيد الغربيين مولى أبيدوس لأننى أحببته جداً أكثر من كافة الآلهة ... حتى يكافئنى بقدر عملى بما فى ذلك ملايين السنين » .

° ° °

وهناك مرسوم آخر أصدره الملك حرم فيه الوصول إلى المكان المقدس من جبانة أبيدوس « إن من يرى عند هذه اللوحات صانعاً كان أو كاهناً فإنه سيوسم كياً بالنار . وكل موظف يصنع لنفسه قبراً فى هذه الجبـانة منذ اليوم سيعرف وسيتخذ القانون مجراه ضده كما يتخذ ضد ناظر الجبانة » .

° ° °

ولقد استطاع خلفاؤه أن يحافظوا على الملك الموحد على الأغلب فترة من الزمان فترى « سوبك حتپ » (الرابع) يترك تمثالا لشخصه فى جزيرة « ارجو » كما ترك آثاراً أخرى فى تانيس وبوبستة والفيوم وأبيدوس وطيبة ودندرة .

وقد أشرف معه على الأغلب ابنه سبك حوتپ (الخامس) إذ وجد الاسمان

معاً على أثر من عهدهما ، وقد عثر له فى طيبة على تمثال كما عثر له على مائدة قرابين مهداة إلى « مين » (بمتحف ليدن) ... وقد عنى ـ كأسلافه جميعاً ـ بأبيدوس فترك هناك لوحة بها مسحة من دقة الفن وجماله .

* * *

ولقد استمر تمجيد أوزير فى هذا العصر تمجيداً يدعو للالتفات حتى لنرى مغتصباً للعرش يحمل اسماً بابلياً هو « خنزر » المسمى « نى خع نى ماعة رع » يكاد يكون ملكياً أكثر من الملك ـ إن صح أن الدم البابلى يجرى فى عروقه ـ فهو يدعى أن المعبد كان يحتاج إلى التنظيف والترميم ـ كأن نصائح « نفر حتپة » لم تكن مجدية ـ بل هو يتجاهل ما أتاه « نفر حتپة » فلا يعرض له بذكر ويعود بنا إلى أيام سنوسرة الاول ... وقد خلد لنا اسم الموظف الذى قام بالعمل وهو الكاهن « أمينى سنب » (وله لوحة باللوفر) الذى تحدث فى زهو عن مهمته وعما نال من عطايا جزاء إخلاصه وتفانيه فى أداء واجبه وأمانته : «جاء إلى كاتب الوزير « سنب » ابن الوزير بأمر من الوزير ، وذهبت معه ووجدت الوزير « عنخو » فى البهو ، وأعطانى هذا الموظف أمراً قائلا : إنه مطلوب إليك إن تنظف ذلك المعبد فى أبيدوس وسيوضع تحت إمرتك الصناع مع هيئة كهانة نواحى مخازن القرابين .

فقمت بتنظيفه . أسفله وأعلاه وكذلك جدرانه من الداخل والخارج وملأه النقاشون باللون والمعجون ورمموا ما كان قد صنعه ملك مصر العليا والسفلى « خبر كارع سنوسرة » (الأول) . عندئذ جاء « حاى ـ شجرة ـ الزيت » ليتخذ مكانه فى هذا المعبد وكان يتبعه مندوب رئيس الخزانة وشكرنى كثيراً قائلا : ما أكثر نجاح من فعل ذلك من أجل الاله ! وأعطانى كومة زنة « ١ دبن » ومنحنى بلحاً ونصف ثور . وكان هناك فرح عظيم من أجل ذلك » .

وقد ترك لنا « أمينى سنب » المرسوم الملكى المتصل بهذا العمل الذى كوفىء من أجل إنجازه بوظيفة دائمة هى « مفتش معبد أبيدوس » فى لوحة أخرى يظهر فيها اسم الملك « الاله الطيب سيد الارضين رب القرابين ملك مصر العليا والسفلى « نى خمع نى ماعة رع » الذى يعطى الحيــاة إلى الابد الابن الجسد (رع » – خنزر – ليعط الحياة والبقاء والعافية إلى الابد ... لقد أصدر الاوامر بتكليف رئيس طائفة الكهنة فى أبيدوس ، أمينى سنب ، قائلا : شوهد ما أتممت من عمل ، والملك يمدحك من أجل ذلك كما تمتدحك « كا » ه . لتقض سنى شيخوختك الطيبة فى معبد الهك هذا » ، ثم أمر بمنحى مؤخر ثور وقال « قم بالتفتيش فى هذا المعبد » ونفذت الأمر : وقمت بترميم كل مقصورة فى المعبد وجددت موائد قرابينها من خشب الأرز وكذا مائدة القربان الكبيرة ... ونفذت ما أردت مما أرضى إلهى وامتدحنى الملك من أجله ... »

° ° °

ومن أطراف ما وصل إلينا من عهد ملك لم يذكر بالقوائم السابقة هو « سوداج ان رع » صك يتنازل فيه حاكم إقليم الكاب عند منصبه لرجل يدعى « سبك نخت » مقابل ٦٠ وزنة من الذهب . وأمر الملك بوضع صك التنازل فى لوحة بساحة أمون بالكرنك . ويرجع تاريخ الصك إلى الشهر الرابع من فصل الفيضان من السنة الأولى من حكم « سوادج ان رع » ويشير فيه المتنازل إلى صحة العقد مادام قد ورث الوظيفة وراثة صحيحة وأنه يورثه إلى أحد أقربائه « سبك نخت » ولهذا الأخير حق توريثها لأعقابه . وهو يشير فى الصك إلى الثمن الذى تقاضاه ويحذر من النظر فى أى اعتراض قد يقيمه واحد من نسله هو فى هذا الشأن . ونص فى العقد على أسماء الشهود فشاهد البائع ووكيله هو صاحب مائدته وأما شاهد المشترى فكاهن الامارة .

° ° °

من وراء هذا كله نستطيع أن نستشف وجود ملوك حاولوا أن يقلدوا أسلافهم وينتحلوا ألقابهم ... ولكن البلاد كانت مفككة من غير شك... يشير إلى تفككها الاغراق فى التقرب من الآلهة ... وكثرة الملوك على قصر العهد ... واختلاف ألقابهم بما يوحى بولايتهم فى أقاليمهم وادعائهم ملك البلاد جميعاً ... ودخول أسماء أو ألقاب توحى بوجود عناصر أجنبية فى البلاد ... وعدم ظهور شخصية ثابتة أو أسرة واحدة — اللهم إلا أسرة سوبك حتپ — تستطيع أن تترك فى البلاد آثاراً متتابعة تشير إلى وحدة متصلة لها ، وحكم ثابت وطيد لملوكها .

ويطالعنا فى آخر الأمر اسم لواحد من أسرة انيوتف — لعله سليل الأسرة العتيقة — ويدعى « نب خپرو رع » جاء ذكره فى مرسوم قفط الذى يشار فيه إلى أحد الخونة فى المعسكر المصرى ... وهو مرسوم يرجع إلى ما قبل فترة الغزو مباشرة وهو ينقلنا إلى المحنة الكبرى التى دخل الغزاة فيها مصر من الشرق فدنسوا أرضها ... ولسنا ندرى طبيعة الخيانة هنا ... أهى خيانة للعرش الذى كان كالكرة يتقاذفها اللاعبون ويسيطر عليها الطامعون أم هى خيانة لمصر واتصال بعدو مصر ... فإذا صح الأمر الاخير فإن الخيانة كانت تعنى اتصالا بالغزاة مما يجعل عصر انيوتف يقابل فترة الغزو تماماً ... والمرسوم الذى نحن بصدده لا نظير له فى التاريخ المصرى وقد جاء فيه :

« اليوم الخامس والعشرون ، الشهر الثالث ، الفصل الثانى من السنة من حكم جلالة ملك مصر العليا والسفلى « نوب خپرو رع » ابن رع « انيوتف » الذى يعطى الحياة مثل رع إلى الابد . مرسوم من الملك إلى حامل الخاتم الملكى أمير قفط « من ام حيه » ابن الملك . ومدير قفط « كانن » وحامل الخاتم « منخ من » ، وكاتب المعبد « نفر حتپ ور » ، وكل حامية قفط وكل موظفى المعبد .

أنظروا ! إن هذا المرسوم صدر إليكم لتعرفوا أن جلالتى أرسل الكاتب

وحامل الخاتم المقدس ا « أمون » « سا أمون » ، ورئيس الحاشية « أمون وسر » ليقوم بالتحقق فى معبد « مين » . لقد جاء موظفو معبد مين إلى جلالتى ليذكروا أن أمراً سيئاً حدث فى هذا المعبد هو ايواء « تى » بن « منحتپة » — على اسمه اللعنة — للأعداء .

ألا فليطرد وليلق به أرضاً خارج معبد أبى « مين » . . . ليخلع من وظيفته فى المعبد ولتحرم على ابنه ووريث وريثه . . . ليطردوا جميعاً ويلقوا على الارض . . . ليستول وعلى رغفانه على لحومه المقدسة . . . ألا لا يذكر اسمه فى هذا المعبد جزاء وفاقا لمثله فى استعدائه الخصم على إلهه . . . تمح ألقابه من معبد « مين » وكذلك من كل ملفات دواوين الحكومة ، وإن كل ملك أو حاكم قوى يصدر عنه عفواً لا يحمل التاج الابيض أو يضع التاج الاحمر أو يجلس على عرش حور الحى . . . ألا لاتمنحه القوتان معروفهما كمحبوب منهما . . إن كل حاكم أو أمير أو مدير يتقرب إلى المولى من أجل العفو عنه . . ليؤخذ قومه وأمـــلاكه وأراضيه وتعطى جميعاً منحة لأبى « مين » فى فقط . . . ألا لا يرقى واحد ممن يحيطون به أو من أقارب والده أو أمه إلى هذه الوظيفة . ولتعط هذه الوظيفة إلى الرئيس حامل الختم فى القصر « من ام حيه » ولتمنح رغفانها ولحمها المقدس ولتسجل له كتابة فى المعبد — معبد أبى « مين » فى قفط — ولتكن وراثية من بعده لابنه وابن ابنه ووريثه وابن وريثه » .

هذا لون من ألوان الخيانة العظمى بالنسبة للبلاد على الأرجح — لا بالنسبة للعرش — حرم انيوتف مجرمها من حقوقه السياسية والمدنية إلى الأبد كما حرم نسله إلى الجيل الثالث والرابع وكما حرم كل من يلوذ به . . .

* * *

ولم يخلف لنا انيوتف الكثير من الآثار ، وكانت تزين قبره فى طيبة مسلتان ارتفاع الواحدة منها حوالى أربعة أمتار تحملان ألقابه وأسماءه جميعاً .. ويحدثنا نص

مفتشى المقابر من عهد رمسيس التاسع ، أن اللصوص دخلوا إلى مقبرة الملك « نوب خپرو رع » عن طريق نقب خارجى سعته ذراعان ونصف ثم نقب سعته ذراع فى الحجرة الخارجية للضريح ... أما القبر الملكى فى حالة جيدة إذ لم يستطع اللصوص الوصول إليه » وقد شارك انيوتف هذا سلفه — على الأغلب — المدعو « سشش رع وپ ماعة انيوتف » الذى لقب نفسه « انيوتف عا » فقد « وجدت المقبرة وقد نقبتها يد اللصوص حيث ثبتت لوحتها ولكنهم لم يستطيعوا الدخول اليها » . وقد عثر على التابوت المذهب .. ولكن اختلسه لصوص آخرون ... وهو من مقتنيات المتحف البريطانى اليوم مع الشكل الهرمى الذى يحمل اسم الملك . . أما الصندوق الجنزى بأوانيه الكانوبية الأربعة فمن مقتنيات متحف اللوفر ... وهكذا اقتسم اللصوص المحدثون الغنيمة بعد أن لم يستطع قدماء اللصوص — من الأفراد — الوصول إليها ...

الأسرة الرابعة عشرة

انتهت الأسرة الثالثة عشرة فى صورة غامضة وتلتها أسرة هى الأسرة الرابعة عشرة ، كتب لمصر فى عهدها أن تنكب بمحنتها الكبرى فيحتلها الغزاة من الشمال ويعيثون فى أرضها فساداً ، وقد مكنهم ضعف الملوك — وربما وجود الخونة وضعاف النفوس — من محاولة تثبيت أقدامهم فى شرق الدلتا ، وكانت مصر قبيل دخولهم ترزح تحت عبء الفوضى والاضطراب ... وربما استطاع ملك جنوبى يدعى « نحسى »أن يصل إلى العرش فهو ، كما نرى من ألقابه ، يحمل لقب الملك المصرى وإن لم يزاول السلطان الملكى الحقيقى .

ويرى مانيتو أن الأسرة الرابعة عشرة لا تنتسب إلى طيبة كسابقتها ، مما يشجع على التمادى فى هذا الظن . . .فأغلب الأمر أن الصعيد رضخ لذلك الـ« نحسى » فاستقل الشمال ، ولم يخضع له،وتأسست المملكة الشمالية — بعد أن انفصلت — وجعلت لها عاصمة هى « سخا » . ويعد مانيتو من ملوك هذه الأسرة ٧٦ ملكاً يحكمون ١٨٤ عام . وقد جاء ببردية تورين ٢١ اسماً من ملوك هذه الأسرة .

فى ثنايا هذا الاضطراب والنزاع بين الشمال والجنوب استطاع المعتدى الغاصب أن يشق طريقه إلى شمال شرقى الدلتا ، وأن ينزل فى «حا وعرة» وقد استعمل من ضروب القسوة الشىء الكثير فهدم المعابد وقتل الأطفال وجعل واحد منهم نفسه ملكاً ، فرض الجزية على الدلتا وجزء من مصر الوسطى ، واستقر فى « اواريس » التى جعل منها قاعدة ملكه وحصنها بجند عددهم ٢٤٠٠٠٠ جندى

وكان يرسل الرسل إلى منف كل عام لتحصيل الخراج . ويروى مانيتو كذلك أنه حكم البلاد ثلاثة عشر عاماً مات بعدها .

ولم يستطع الغزاة أن يسيطروا على غرب الدلتا وجزء من وسطها حيث كانت أسرة « سخا » الحاكمة ... ولم يعثر على آثار تلك الأسرة بعد ، ولم توجد أسماؤهم فى مصر العليا وربما كانت آثارهم باقية لم يكشف عنها . . . وربما كانت جبانة كوم الحصن — كما يستدل من طريقة الدفن والأثاث الجنزى — ترجع إلى عهد هذه الأسرة ، لأنها لقوم اتخذوا الحرب مهنة وكانوا على درجة لا بأس بها من الثراء .

أما مصر العليا فلم يستطع الغزاة أن يحكموها حكماً فعلياً ... بل ظلت طوال حكمهم إقليما مصرياً يحكمه أمراء من طيبة تمكنوا من مناوأة الهكسوس طوال احتلالهم حتى استطاعوا فى نهاية الأمر — لا إجلاءهم عن البلاد فحسب ، بل مطاردتهم كذلك . . . وإن ظلوا يدفعون لهم طوال حكمهم الجزية كارهين فى الوقت الذى يحيكون خيوط المؤامرات ضدهم ويشعلون نيران الثورة ويذكونها فى كل مكان .

الفصل الثاني عشر

المحنة الكبرى

غزو الهكسوس :

الغزو طبقاً لمانيتو ، الفترة التمهيدية للغزو ، موطن الهكسوس ، الهكسوس ليسوا جنساً واحداً ، الاله الوطني للهكسوس (ست تشوب) ، غزو الهكسوس وعلاقته بهجرات آسيا الغربية ، هجرات مشابهة فينيقية واسرائيلية ، مدى عصر الهكسوس في مصر ، ملوك الهكسوس وما خلفوه من آثار ، أثر حكم الهكسوس في مصر .

طرد الهكسوس :

تاعا ، تاعا ، تاعا قن ، كامس

الهكسوس

غزو الهكسوس طبقاً لمانيتو : بالصدفة البحتة نرى المؤرخ اليهودي «جوزيف» يهتم بالهكسوس الذين يرى صلة بين دخولهم وبين دخول بنى إسرائيل إلى مصر . وقد سجل بصدد هذا الحادث فقرة كاملة لهذا الحادث التاريخي ، وهو المستند الوحيد الذي نملكه عن الغزو بل هو القطعة الوحيدة الكاملة من كتاب مانيتو ، أما ماعداه فلخصات دونها المؤرخون . وفي أول النص يحدثنا عن ملك يدعى توتيماوس «كان يحكم البلاد وغضب الآلهة على مصر فراجها شعب أتى من الشرق ودخل البلاد من غير حرب واستوطنها دون سفك دماء ثم أسر زعماءها وأشعل النار في مدائنها وخرب معابد الآلهة وهدمها وقتا

على الأهالي وسبي النساء والأطفال . وكان « سلاتيس » على رأسهم فجعل من نفسه ملكاً على مصر وجعل عاصمته أواريس التي حصنها بحامية عددها ۲٤۰,۰۰۰ جندي ، وكان يأتي إلى منف فيفرض الضرائب ويجمع الخراج ويضع جنده على القلاع . وماث بعد أن حكم تسعة عشر عاماً » .

وتحدثنا بردية من عهد الأسرة التاسعة عشرة عن عهد الهكسوس فيقول كاتبها « وقعت مصر فريسة لعدو ماكر ولم يكن يحكم البلاد فيها ملك ، وكان « سقنن رع » يحكم مقاطعات الجنوب بينما يربض العدو في الشمال ، واستقر ملكهم في أواريس حيث كانت تجبي له الضرائب ويؤتى بها من أنحاء البلاد شمالا وجنوباً» .

أما نصوص « اسطبل عنتر » التي كتبت في عهد « حاشبسوة » فتذكر « أن شعب العامو دخل من الشرق ومكث في الشمال وجعل ملكهم من « حا وعرة » عاصمة له وهدم كل ما كانت قد شيدته أيدي المصريين » .

من هذه الأقوال كلها يمكننا أن نستخلص الحقائق الآتية :

أن الهكسوس قوم أتوا من الشرق وأنهم شيدوا عاصمتهم في شرق الدلتا في أواريس « حا وعرة » وأن الجنوب لم يكن تحت سلطانهم وأن أمراءه كانوا يرسلون الجزية للمغتصب ، وفي هذا دلالة على أنهم رغم دفعهم للجزية كان لهم بعض النفوذ في مقاطعاتهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

الفترة التمهيدية للغزو : كان لوصول الهكسوس إلى مصر مظهر الهجرة المفاجئة الجماعية التي أدهشت المصريين وأتت بنتائج سريعة حاسمة .. أليس الجهل الذي نتخبط فيه عن علاقات مصر بآسيا خلال الأسرة الثالثة عشرة هو ما يؤدي إلى هذا الارتباك ؟ الواقع أن بعض الأحداث السابقة تدفع إلى الشك في وجود تسرب بطيء مزمن من سورية نحو الدلتا ، فهناك القبيلة من الـ ۳۷ عامو تحت

قيادة شيخ البلاد الأجنبية « ايبشاى » التى تصل إلى « بنى حسن » فى السنة السادسة من حكم « سنوسرة » حوالى عام ١٩٠٠ ق . م ؛ وهؤلاء المهاجرون يحملون لابن الحاكم الاقليمى « خنوم حتپ » خضاب الكحل من أسيوى الصحراء وهم مسالمون ملحاحون لأن مصر قوية .. وفيما بعد نرى قبائل أكثر عدداً يدفعها البرابرة من كل الأجناس فى هجرة تجوز بالقوة أبواب الدلتا الشرقية ويستعيضون بها عن التسرب الخفى . والشيخ المصور فى بنى حسن يحمل لقب « حقا — خاست » الذى اشتقت منه كلمة هكسوس ، مما يذكرنا بحملة سنوسرة الثالث ، المشكوك فيها ، فى سورية وكنعان حيث قابل خصوما عنيفين ؛ وستكون مصر قريباً غير قادرة على الهجوم أو الدفاع ما دامت تقصر قوتها على دفعهم بالسلاح .

موطن الهكسوس : اختلفت الآراء بصدد موطن الهكسوس وأصلهم ، فـ « يونكر » يرى أنهم من أصل آرى ، و « كيننج » يرى أنهم من أصل عربى و « شارف » يرى أنهم من أصل سامى وأنهم اليهود وأنهم شرقيون موطنهم الأصلى فلسطين . والرأى الأخير أقرب إلى الصواب ، وليس ببعيد أنهم دخلوا مصر بعد أن اتصلوا بشعوب آرية أخرى فإن مخلفاتهم فى مصر تدل على تأثرهم بحضارة آرية ، وقد سمى الهكسوس فى مصر بأسماء كثيرة منها :

١ — « هكسوس » وهى بالمصرية القديمة (حقا — خاسوت) أى حكام البلاد الأجنبية .

٢ — « منتيو ساتت » وكان المصرى يطلق هذا الاسم على قبائل البدو التى كانت تجوب الصحراء الشرقية وسينا ، وهم ساميون .

٣ — « شاسو » وهى القبائل المقيمة فى صحراء جنوب فلسطين وكلمة « شاسو » معناها « رعاة » .

٤ — « الهكسوس » وهى باليونانية من كلمتين : « هك » بمعنى ملك و « سوس » راعى — أى « الملوك الرعاة » .

من هذه الأسماء جميعاً يستدل على أن الهكسوس من أصل سامى أو هم من البدو الذين يسكنون فلسطين أو جزءها الجنوبى على الأقل ، ويساعدنا على التمسك بهذا الرأى :

١ - أن أغلب الأسماء التى خلفوها بمصر سامية مثل : يعقوب وعبد وخمن وأباخنان ويااناس .

٢ - أنهم هم الذين أدخلوا العربة والحصان فى مصر وأخذ المصريون فى استعمالها بعد تحرير البلاد وأطلقوا عليها نفس الأسماء السامية ، فالحصان يسمى فى اللغة المصرية « سسمت » وهى كلمة بالمذكر المفرد واصلها مفرد وجمع باللغة العبرانية لنفس الحيوان وهو « سوس » بمعنى الخيل (ولعل فى كلمة سوس تقاربا من كلمة سيسى الحالية) .

أما كلمة عربة الحالية أو مركبة فهى بالمصرية « مركبوتى » وهى كلمة عبرية سامية تقابل الكلمة العربية « مركبة » وبالمثل كلمة « عجلة » أو « عجولتى » وهى من أصل كنعانى .

٣ - أنه منذ دخول الهكسوس ظهرت فى مصر آلهة غير مصرية بل سامية الأصل مثل عشتروت وبعليم .

٤ - علاقة ملوك الهكسوس بفلسطين علاقة وثيقة فقد عثر فى الحفائر فى تلال فلسطين فى غزة على بعض الآثار من مخلفات ملوك الهكسوس وعلى بعض مقابر الهكسوس التى تحمل أسماء باللغة العبرية .

٥ - أسفرت الحفائر المذكورة كذلك عن العثور على جثث الخيل مدفونة

بعناية كبيرة مما يدل على أن القوم كانوا يقدسونها حتى أن بعض ملوكهم أطلق على نفسه لقب « الحمار القوى أو الكبير » .

٦ - أنهم حين طوردوا لجأوا إلى بلدة شاروحين فى جنوب فلسطين وتحصنوا بها ثلاث سنوات مما يدل على أنه كان لهم فيها سند ، كما أن العاصمة التى اتخذوها لهم بمصر وهى « أواريس » « حاوعرة » تقع فى أطراف مصر من ناحية الشرق فى فلسطين ، وقد ثبت من الأبحاث الأخـــيرة أن المدينة التى أقام الرعامسة على أنقاضها عاصمة ملكهم المسماة « بر - رعمس » هى أواريس . ولعل سر اختيار الرعامسة لهذا المكان بالذات هو أن إلههم كان نفس الاله الذى عبده الهكسوس وأقاموا له معبداً كبيراً فى أورايس وهو الاله ست أوستخ . ولدينا من الأدلة ما يكفى لأن نقرر أن أورايس التى اتخذها الهكسوس عاصمة لهم هى « بر — رعمس » التى اتخذها الرعامسة عاصمة ملكهم كذلك ، وهى تانيس « صا الحجر » التى كشف « مونتيه » فيها عن مقابر بعض ملوك عصر النهضة منذ بضع سنين .

الهكسوس ليسوا جنساً واحداً : كل شىء لدينا يحملنا على الاعتقاد بأن الهكسوس لم يكونوا جنساً واحداً بل خليطاً من سكان قدموا من هضاب آسيا الصغرى وكانوا يجذبون الكنعانيين معهم فى اتجاههم إلى مصر ، وهذا ما يفسره التحليل اللغوى للكلمات ، يضاف إلى ذلك تسليح وتجهيز الهكسوس ، فأجنادهم يستخدمون السيف المستقيم والبالات أو السيوف المقوسة أو الخناجر والحراب ذوات الطرف الطويل والمتسع من البرونز والحديد وهى تبين فى ذلك العصر مدى الثروة فى المعادن التى تميز آسيا الصغرى . وبهذه الأسلحة الثقيلة أمكنهم أن يؤكدوا تفوقهم على الحراب والسهام وأسنان الظران والنحاس التى كان المصريون يستعملونها . يضاف إلى ذلك أنه كانت لدى الهكسوس الخيل المعلقة فيها العربات

الحربية ، وكانت مجهولة لدى المصريين ؛ ويمكن بذلك أن ندرك أثر هذه السرعة الصاعقة للغزو والفتح ، والرعب الذى حل بسكان وادى النيل بظهور هذه الخيل والعربات التى زادت من سرعة النقل وقلبت الفنون الحربية رأساً على عقب : ومن المصادر الميزوبوتامية يمكننا أن نقرر أن الهجرات التى أدخلت الحصان والعجلة واستعمال البرونز والحديد فى مدنية البحر المتوسط هى ذات أصل إسيانى أو آرى على اتصال بمناجم أرمينية وطوروس من ناحية ومع منطقة العشبية فى الروسيا وسيبيريا الوسطى من ناحية اخرى . والهندو أوربيون هم بصفة خاصة فرسان متفوقون . وبمقارنة أسماء الهكسوس ومعداتهم أمكن الاستدلال على أنهم كانوا إلى حد ما من أصل أناضولى أو من أقاليم شمالية .

الاله الوطنى للهكسوس (ستخ تشوب) : ودين الهكسوس كذلك لغز ، وتتفق المصادر على أن الهكسوس قاوموا رع بالاله ست . والاله ست عند المصريين يمثل فى القصص الدينى الشر والعاصفة والصحراء والبلاد الأجنبية وهو كثير الشبه بالاله تشوب اله العاصفة والرعد والحرب عند الأناضوليين وخاصة الحيثيين والميتانيين . والوثائق المكتوبة فى لغتين من عصر رعمسيس الثانى تؤكد وجود هذا التشابه بين ستخ وتشوب ، وقد تحول ستخ عند هذه النقطة إلى الاله العائلى لمقتصبى الدلتا الشرقية حتى لنجد لوحة فى تانيس مكرسة « ستخ المحارب المقدام جداً » .

غزو الهكسوس وعلاقته بهجرات آسيا الغربية : إن الأحداث المصرية الخاصة بالهكسوس لاتظهر قيمتها إلا إذا قارنا ما بينها وبين حوادث آسيا التى كشفت عنها الابحاث الحديثة لمحفوظات الحيثيين فى « بوغاز كوى » . فهذه المحفوظات تذكر لنا أن الدولة التى أقامها ملوك بابل مثل حورابى حوالى سنة ١٩٤٠ ق . م . فى سورية الكنعانية قضى عليها سكان من أصل هندو أوربى

أتوا من أوروبا ومن أواسط أسيا عن طريق البوسفور والقوقاز وهضبة إيران ، وقد أسس ملك من هؤلاء الحيثيين وهو «حيتاس ابن انيتاس» حوالى سنة ٢٠٠٠ ق. م امبراطورية كانت بلاد نيسا عواصم لها ، ثم «خاتى» الذى مد نفوذه من حلب واسكندرونة إلى البحر الاسود وكان خلفاؤه أقوياء لدرجة أنهم رفعوا سلاحهم فى وجه ميزوبوتاميا وسورية وقد قام «مورسيل الاول» بحملة حوالى ١٨٠٦ ق . م . ، دخل حلب وخرب المدينة والبلاد ودفع بقسوة على بابل التى أخذها بحملة نهب . وبالتالى فإن الحيثيين — لأسباب مجهولة — انحلوا ولم تعد لهم قوتهم السابقة إلا فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ومع كلّ ذلك فقد كانت الصدمة الاولى عنيفة لدرجة أن مملكة بابل ظلت مزعزعة حتى أنه كان من أمر غزو الكاسيين سنة ١٨٠٠ ق . م . (وهو جنس ربما كان «هندو أوربى» نزل من إيران واحتل بابل وأسس أسرة كاسية) أن حكم البلاد من ١٧٥٠ إلى ١١٧٥ ق . م .

ومن ناحية أخرى فإن الحيثيين طردوا من حلب ومن ميزوبوتاميا العليا — طردهم منها جنس من المغتصبين الذين تسميهم النصوص الحيثية «خوريت» ويسميهم المصريون «ميتانيين» وهم فرع هندى من الجنس الهندو أوربى وآلهتهم هى : اندرا ، فاروتا ، احى ، التوأمان ارفين . وقد استخدم هؤلاء الميتانيون - مثلهم فى ذلك مثل الحيثيين المحاربين والفرسان - عجلات القتال والأسلحة من البرونز والحديد . وقد اصطفت عواصمهم بالتدريج على جداول الفرات عند «رزينا» على «الخابور» وعند «خورى» على البالخ . وخلال انحلال الحيثيين دفع الميتانيون بهجمات قوية على بابل وآشور ثم ناحية حلب وقادش على الأورنت . وحوالى عام ١٦٥٠ ق. م . بلغ «الخوريت الميتانيون» أوجهم وامتد سلطانهم على إقليم بين الفرات والاورنت وأشع بعيداً عن

سورية حتى كنعان .

ألم يكن المصريون منذ الأسرة الثانية عشرة على اتصال بهولاء الميتانيين الخوريت ؟ إننا إذا وافقنا على الاشتقاق اللفظى الذى يقترحه « هوروزنى » فإن إسم رزنو الموجود بقصة سنوهى مشتق من البلدة الميتانية « رزينا » من الإقليم شرقى جبيل . كما أن اسم خارو الذى أطلقه الغزاة الأولون من الأسرة الثانية عشرة لسورية و كنعان هو صورة أخرى من خورى ، خارى الذى أطلقه الميتانيون على عاصمتهم ومقاطعات امبراطوريتهم .

وليس من شك أن الموجات المتتالية للحيثيين والكاسيين والخوريين التى تدفقت على ميزوبوتاميا وسورية الشمالية دفعت إلى ارتحال السكان وسببت هجرة نحو مصر أوقفها فى مبدأ الأمر فراعنة الأسرتين ١٢ ، ١٣ ثم أصبحت لا تقاوم فى مبدأ القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وإن ما نسميه غزو الهكسوس ليس طبقاً لكل مظهر سوى الحادث العرضى الأخير فى الرجة المزمنة التى انتهت باعتداء الحيثيين والميتانيين ، فإن كتلة مختلفة الأجناس والطباع (جذب فيها سيل من الشعوب المهاجرة لساميين و كنعانيين) قدمت من الأناضول ومن أعلى الفرات واقتحمت الحواجز إلى الدلتا، وكان من المستحيل بالنسبة للكنعانيين وحدهم (وهم من لم يقفوا يوماً أمام وجه أجناد المصريين) أن يتمكنوا من غزو الدلتا والوادى ، بل يجب أن ندرك أن المزارعين المسالمين كانوا ينتظمون فى الجندية كجنود استمالهم ودربهم غيرهم . ومن هنا كان لابد للعنصر المحرك للهكسوس أن يرجع إلى أصل أسيوى أو آرى ما دام الحلف الصاخب الذى كان دافعاً للغزو قام على الكنعانيين فى معظمه .. ومن هنا كان اختلاط الأسماء السامية والأسيوية .

هجرات مشابهة فينيقية واسرائيلية : هناك هجرات أخرى تقابل تراجع السكان الساميين نحو الجنوب وهم من نسميهم بالفينيقيين الذين يقال إن مسكنهم

الاول كان جزر وشواطىء الخليج الفارسى وابتعدوا عن طريق البحر الأحمر إلى شواطىء البحر المتوسط وقد بحثوا على شاطىء سورية عن موانى وجزر صالحة للملاحة ; وقد عثر بهم المصريون فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى ذلك المكان من كرمل إلى خليج اسكندرونة . وإذا رجعنا إلى ما جاء بالتوارة فاننا نجد ابراهيم قاد قبيلته حوالى ١٩٤٠ ق . م من «أور» فى بلاد السومريين حتى كنعان متبعاً فى خطى متباطئة الطرق المائية للفرات وللعاصى والاردن : وقابل أولا الحيثيين ... ومع الكنعانيين بعد الهكسوس ، دخل أصحاب يعقوب ويوسف إلى أرض جوشن فى وادى الطميلات , وهناك قصة قديمة تجعلهم يصلون إلى مصر أيام حكم الملك «ابيبى» . . وهناك جعول فى فلسطين والدلتا تحمل اسم يعقوب ، وهناك ساميون آخرون هم الذين أصبحوا عبرانيين وبصفة خاصة أدوميين لابد أنهم اخترقوا كنعان من ذلك العصر لأن المصريين وجدوهم مستقرين هناك حوالى القرن السادس عشر قبل الميلاد .

مدى عصر الهكسوس فى مصر : لو تابعنا ما سرده مانيتو لوصلنا إلى نتيجة سبق أن تناولها الشك من ناحيتنا ولا ستحالت صحتها ، وهى المدة التى تقدر بأكثر من تسعة قرون، وقد ذكرنا من قبل أن هذه المدة لا يمكن أن تزيد على ٢١٠ سنة بما فى ذلك مدة حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة .

ولما كان من المعروف أن الهكسوس عبدوا الاله «ستخ» وأن هذا الاله عبد كذلك فى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، لهذا كان الاهتداء إلى لوحة من عصر رعمسيس الثانى دليلا جديداً يمكن من ورائه تحديد هذه الفترة التى خالها المصريون دهراً طويلا من جراء ما عانوه خلالها من قسوة واستعباد .

لوحة الأربعمائة سنة : تتحدث هذه اللوحة عن ملك هو «نوبتى» أو ستخ القوى وقد أرخت بالرابع من مسرى من السنة الأربعمائة من حكم هذا الملك (ونوبتى

هو اسم من أسماء ستخ نسبة إلى المدينة الأولى التى كان يعبد فيها هذا المعبود) ومعنى حكمه أربعمائة سنة أنه قد مضت على عبادته هنا ٤٠٠ سنة أو أن هذه اللوحة أقيمت لمناسبة مرور ٤٠٠ سنة على تأسيس عبادته فى الدلتا بمعنى آخر ...

ولما كان حكم رعمسيس الثانى معروفاً (حوالى ١٢٨٠ ق . م .) فإن عبادة ستخ تكون قد قامت فى الدلتا حوالى ١٦٨٠ ق . م . وهى السنة التى يفترض فيها على هذا الاساس قيام دولة الهكسوس وتأسيس أواريس وبدء الاعتراف بعبادة ستخ . ولكن هذه العبادة لابد أن تكون قد قامت فى الدلتا قبل ذلك بوقت طويل ، ولابد أنه كانت لها مقدمات . ويعزز ذلك ما عثر عليه فى الدلتا ، وهو قطعة من الحجر كتب عليها اسم ملك يدعى « نحسى » كان يحكم الدلتا وكان « محبوبا من ستخ إله اواريس » ولابد أن الملك المذكور كان معاصراً للهكسوس وترتيبه الثالث قبل الأخير من ملوك الأسرة الثالثة عشرة وكان يعيش حوالى عام ١٦٦٠ ق.م .

وإذا أمكن إثبات أن الهكسوس كانوا موجودين حين كان يحكم الملك « نحسى » فمعنى هذا أنهم دخلوا البلاد فى عصر سابق لعصره . والمرجح أنهم دخلوا البلاد فى عصر « آى » وهو أحد الملوك الذين سبقوا « نحسى » على العرش حوالى عام ١٧١٠ ق.م.

وليس ببعيد على هذا الأساس أن يكون الهكسوس قد دخلوا مصر حوالى عام ١٧١٠ ق.م . وأسسوا عاصمتهم أواريس « حا وعرة » وأقاموا معبداً للاله ستخ حوالى سنة ١٧٨٠ ق . م . ثم طردوا من مصر على يد عحموزة الأول عام ١٥٨٠ ق . م . فيكونون قد مكثوا بالبلاد مدى قرن ونصف من الزمان لا مدى تسعة قرون ونيف وهو الرقم الذى يقدمه أكثر من مؤرخ قديم .

ملوك الهكسوس وما خلفوه من آثار : لم يترك ملوك الهكسوس آثاراً

ضخمة أو معابد كبيرة وسبب ذلك أن المصريين حين طردوهم من البلاد حطموا كل ما يمت لهم بسبب حتى تمحى ذكراهم من النفوس وحتى لا يبقى لهم أثر يذكر بعدهم ، والواقع أن ما وصلنا من أسماء وجد على قطع صغيرة من الفخار أو الأواني أو الجعول وعدتها ٢٣ إسماً ولا يمكن ترتيبها ترتيباً تاريخياً وإنما يمكن تقسيمها إلى مجموعات خمسة :

١ – المجموعة الأولى : ملوك ثلاثة لقبوا أنفسهم بألقاب ملك الشمال والجنوب أو ملك الأرضين كما انتحلوا لأنفسهم اسم العرش « ابيبي » وهم :

١ – عا أوسر رع ٢ – نب خپش رع ٣ – عاقنن رع .

٢ – المجموعة الثانية : ملوك ثلاثة أطلقوا على أنفسهم لقب « حقا خاسوت » وهم :

١ – سمكن ٢ – عانت هر ٣ – خيان .

٣ – المجموعة الثالثة : ثمانية ملوك لقبوا أنفسم بلقب الإله الطيب .

٤ – المجموعة الرابعة : ستة ملوك لقبوا أنفسهم بلقب ابن الشمس .

٥ – المجموعة الخامسة : ثلاثة أسماء وردت على حجر أقامه كبير كهنة منف حوالى عام ٧٠٠ ق . م . ذكر فيه أنسابه ومع كل نسب العصر الذى عاش فيه جده الأول واسم الملك الذى كان يحكم البلاد ومن بين هؤلاء الملوك أسماء ثلاثة لملوك الهكسوس هم :

١ – عاقن (الحمار القوى) ٢ – شارك ٣ – ابيبي .

وإذا قارنا هذه الأسماء والأسماء التى تركها مانيتو لوجدنا فارقاً كبيراً فى النطق اللهم إلا فى إسمين فقط وهما ابيبي (أبو فيس) وخيان (ياناس) .

خيان : يعتبر خيان أهم الملوك الذين حكموا فى عصر الهكسوس وأكثر من

ترك من بينهم آثاراً لا فى مصر وحدها بل فى البلاد المجاورة كذلك مثل فلسطين وسورية والعراق وكريت ، ولقد أراد البعض أن يتخذ من ذلك دليلا على وجود دولة أسسها الهكسوس تمتد فيما بين النهرين إلى كريت وتضم سورية وفلسطين ومصر ، ولكن البعض الآخر لا يرى فى ذلك سوى دليل على العلاقة الوطيدة فقط بين الهكسوس وموطنهم الاول أما فيما يختص ببلاد النهرين فالواقع أن ما وجد هناك لا يتعدى تمثالا من الحجر لأسد رابض حفر عليه اسم خيان ، اشتراه المتحف البريطانى من تاجر عاديات يجهل مصدره ، وليس ببعيد أنه نقل من مصر وظهر فى بغداد عن طريق التجارة ، وأما فيما يختص بكريت فقد عثر على غطاء من المرمر لإناء صغير عليه اسم خيان ، وليس فى هذا دليل على التوطن بل ربما كان انتقال الغطاء عن طريق التجارة كذلك إذ أن علاقة مصر التجارية بكريت وبجزر البحر المتوسط كانت قائمة قبل ذلك العصر كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، يضاف إلى ذلك أن هناك من الأدلة ما يكفى لاثبات أن حدود الهكسوس لم تتعد مصر ، منها :

١ — أن آثار الهكسوس فى مصر وغيرها مصرية الطابع وإلا لوجدنا فى مصر فناً متأثراً بالفن الأشورى أو البابلى أو أن الفن المصرى أثر فى أحد هذين الفنين .

٢ — اندماج الهكسوس فى الحضارة المصرية واتخاذهم الألقاب المصرية

٣ — ما قاله مانيتو من أن الهكسوس أقاموا قلاعاً من ناحية الشرق وحصنوا الحدود الشرقية . فهل هناك من يحصن مصر إذا كان يملكها ويملك ما وراءها ؟ ومن يخاف إن كان ما وراء الحدود ضمن أملاكه ؟

أثر حكم الهكسوس فى مصر : يزعم المؤرخون أن الهكسوس دخلوا مصر دون أن يريقوا دما . ولكنهم عاثوا فساداً فهدموا المعابد واستعبدوا

المصريين الذين لم يرضخوا طويلا لذلك النير فرفعوه عن أعناقهم وثاروا فى وجه المغتصب وطاردوه حتى طردوه وطلبوا الموت فى سبيل حريتهم .

ولم يتصف المصريون قديما بالبسالة والشجاعة بمثل ما اتصف به مصريو هذا العصر . ولم يتعلق المصرى بالجندية أو يفاخر بانضمامه إلى الجيش بمثل ما فاخر به مصريو ذلك العصر .

وليس من شك أن حكم الهكسوس لمصر كان العامل الأكبر الذى جعل من الشعب المصرى للمرة الأولى فى تاريخه شعباً محارباً مستبسلا طلب الحرية فنالها ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى النصر فخرج خارج حدود بلاده بعد ذلك يطلب الغزو ويسعى وراء المغانم وما لبث أن خضعت له كل البلاد المجاورة فنشأت الامبراطورية المصرية الأولى . . . كونها البطل الفذ تحوتمس الثالث . أما ما أفاده المصريون من الهكسوس فهو معرفتهم للعربة التى يجرها الحصان فقد دخل الهكسوس البلاد ومعهم هذا الحيوان يجر هذه المركبة العجيبة ، واستعانوا بها على التغلب على المصريين وسرعان ما تعلم المصرى هذه الحرفة وأجادها ثم استغلها بعد ذلك فى ثورته ضد مبتدعيها ونجح فى ذلك النجاح كله ، وقد عثر فى حفائر « بوهن » أخيرا على جثث للخيل وقد رجح المكتشف أن المصريين كانوا يعرفون الحصان فى عهد الدولة الوسطى ، ومع ذلك فانهم لم يعرفوا العربة .

طرد الهكسوس : كانت هناك إمارة مصرية تحكم فى صعيد مصر اتخذت من طيبة مقراً لها . ويظن أنها تمتعت بسلطان داخلى محدود إذ أنها كانت تقوم بدفع الجزية لملوك الهكسوس . وكان أمراء هذه المقاطعة هم الذين بدأوا بمناوأة الهكسوس وهم الذين يعترف بهم المؤرخون كملوك للأسرة السابعة عشرة ، ولقد وصلت إلينا عدة قطع أثرية سجلت عليها أخبار ثورة هؤلاء الأمراء ضد الهكسوس . وأهم ملوك الأسرة :

١ ـ تاعا ٢ ـ تاعا الكبير ٣ ـ تاعا الشجاع (تاعا قن)
٤ ـ كامس .

١ — تاعا Ta-aa

لم يصلنا ماينبىء بقيام أية قلاقل أو ثورات ضد الهكسوس فى عهده .

٢ — تاعا الكبير Ta-aa-aa « تاعا — عا »

واسمه الثانى مثل سلفه « سقنن رع » . وكان معاصراً للملك المسمى « عاقنن رع » من الهكسوس ، وقد وصلنا عن عهده أول أخبار الثورة وكان ذلك عن طريق بردية هى « بردية ساليه » التى كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وهى محفوظة فى المتحف البريطانى نورد هنا ترجمتها لأنها قد تلقى ضوءاً على أحداث ذلك العصر من وجهة النظر المصرية القريبة من العهد المذكور ، والواقع أن أجزاء كثيرة من البردية مهشمة ولم يمكن معرفة محتوياتها إلا عن طريق ما بقى منها :

« حدث أن حل البلاء (الأجانب) بمصر ولم يكن بها سيد أو ملك وكان الملك « سقنن رع » حاكماً على الجنوب . وكان البلاء على المداثن فى صورة العامو وكان « ابيبى » أميراً فى « حا وعرة » وتسيد على البلاد بكل خيراتها وبكل ما هو طيب فى أرض مصر . وجعل « ابيبى » من « ستخ » إلها ولم يقدم الولاء لاله آخر فى الأرض كلها غير ستخ ، وبنى له معبداً ... وكان يذهب كل يوم لتقديم الضحايا والتقدمات إلى ستخ . وكان قواد الملك مكللين بالغار كما كانت الحال فى معبد « رع حور ام اخت » من قبل . وأمره ابيبى » أن ترسل رسالة إلى الملك « سقنن رع » كبير مدينة الجنوب (طيبة) وبعد ذلك بأيام كثيرة أرسل الملك « ابيبى » إلى كبار رجاله وقواده ولكنهم لم يعرفوا ماذا يقولون لملك الجنوب « سقنن رع » أمير القسم الجنوبى من البلاد ، فأرسل الملك « رع ابيبى » إلى كتابه الماكرين فأرشدوه إلى ما يمكن كتابته وقالوا له : ليرسل رسول إلى أمير مدينة الجنوب ويقول له « اعمل على أن يطرد عجل البحر الذى فى حوش مدينتك « طيبة » لأنه

يقض مضجعي نهاراً وليلا والضوضاء تؤذى أذنى وسوف لا يوافق على ذلك أى إله فى البلاد المصرية سوى أمون رع ملك الآلهة » . وقد كان المقصود من الرسالة من غير شك ، أن المؤامرة التى تحاك ضدى فى طيبة تعكر على صفوى » .

وبعد ذلك بأيام كثيرة أرسل « ابيبى » إلى أمير البلاد الجنوبية الرسالة الملغوزة التى نصحه بارسالها كتابه الماكرون وذهب رسول الملك « ابيبى » إلى أمير المدينة الجنوبية وقادوه إلى أمير المدينة الجنوبية فقال لرسول الملك ابيبى : أى رسالة أحضرت إلى المدينة . . . الجنوبية ؟ ولم حضرت من هناك ؟ فقال له الرسول « الملك ابيبى يرسل قائلا : دع ... فى قناة فرس البحر التى فى ... من المدينة لأن النوم لا يزور جفنى ليلا أو نهاراً » فتألم أمير الجنوب كثيراً وانزعج لأنه لم يعرف كيف يجيب رسول الملك رع ابيبى .. ثم قال له أمير الجنوب « إن ذلك الذى يرسله سيدك إلى أمير البلد الجنوبى ... الكلمات التى أرسلها إلى ... » وأعطى الأمير إلى الرسول بضائع ثمينة وأشياء أخرى من لحوم وخبز ... وسافر الرسول إلى مولاه ...

ثم استدعى أمير البلاد الجنوبية إليه كل القواد والرؤساء والعظماء وأسر إليهم بالكلمات التى أرسلها إليه الملك ابيبى ... وسكتوا جميعاً لما نالهم من أسى . ولم يعرفوا بماذا يجيبون أخيراً أم شراً ... » ويتهشم النص بعد ذلك حتى لا نعرف ما تم . ولكن من الكلمات المتقطعة السابقة يمكننا أن ندرك أن سير الأمور فى الجنوب لم يكن مما يرضى عنه « ابيبى » وأنه كان يخشى أن يوجه لوماً مكشوفاً قد يكون من أثره مالا تحمد عقباه ففضل أسلوباً مرناً أدرك مغزاه حاكم الجنوب... وكان الشرارة التى اندلعت منها نيران الثورة .

هكذا بدأ النزاع بين الهكسوس وأمراء طيبة ، فقد أراد أمراء طيبة أن يبدأوا بمناوأة الهكسوس وطردهم من مصر فسمع بذلك ملوك الهكسوس فأرادوا

استفزازهم واستدراجهم إلى الحرب فاتهموهم بهذه التهمة الغريبة .

٣ — تاعا قن (تاعا الشجاع) سقنن رع Ta-aa-Qen (Seqenen-Ra)

عثر على جثته فى مخزن المومياء فى الدير البحرى . ويمكن من مظاهر الجثة أن ندرك أنه مات مقتولا فى معركة . فبالجثة إصابات قاتلة فى مؤخر الرأس وفى أعلى الجبهة إلى اليمين . ويظهر أن أعوانه التقطوا جثته وعنوا بتحنيطها . وكان تاعا الشجاع طويل القامة نحيفاً قوياً وكان شعر رأسه طويلا وكان حليق اللحية ، ويمكن الاستدلال من سحنته أنه من العنصر النوبى وكانت زوجته « عاح حتپة » إحدى الملكات الخالدات فى تاريخ مصر . وكان لابنها « عحموزة » سحنة مصرية . أما ابنتها المشهورة «نفرت أرى» فكانت سوداء . ولما كان « سقنن رع » نوبيا فى الغالب فإن «نفرت أرى» أخذت منه سواد لونها . أما «عحموزة» فتغلب عليه الملامح والسحنة المصرية ، ويزعم البعض إن عمل « عحموزة » عند اعتلائه العرش بعد هذه الفترات القصيرة من حكم من سبقوه ، يدل على أنه أكبر أشقائه ، وهو أمر غير مفهوم . كما يزعم البعض أن «عاح حتپة» كان لها زوج آخر قبل «سقنن رع» وكان هذا الزوج مصرياً . وإن أهمية « نفرت أرى » كوريثة تدل على أن «عاح حتپه » لم ترزق ابناً من زواجها الثانى . واعتلاء « كامس » العرش قبل عحموزة تدل على أنه كان أكبر منه سناً ، ووجود اسم « ساخنت نب رع » بين «عحموزة» و « كامس » يدل على وجود أخ آخر بين الاثنين : وهكذا نصل إلى شجرة النسب لأسرة جديدة فى رأى بعض المؤرخين ، وهى صلات يعتورها الشك فى صحتها اللهم إلا فى انتسابهم إلى الأم « عاح حتپة » .

وقد عاشت « عاح حتپة » طويلا ، وهناك لوحة طيبية تدل على أنها عاشت إلى السنة العاشرة من حكم « امنحتپة الأول » ولا بد أنها كانت تبلغ إذ ذاك الثامنة والثمانين من عمرها الطويل . ومعنى هذا أن « عحموزة » كابن ثان أو ثالث ولد لها وهى فى العشرين من عمرها .

وهناك لوحة أخرى تبين أنها عاشت فى عصر « تحتمس الأول » فلابد أنها بلغت المائة من عمرها ، وهكذا عاشت هذه الملكة دهراً طويلا تمهدت فيه الثورة جنيناً ثم رأتها تولد وشبت فى أحضانها حتى اكتملت ثم أطلقتها حتى أكلت العدو المغير ... وعاشت حتى رأت السلام يسود البلاد وحتى رأت ثروات آسيا ينقلها إلى مصر ابنها وحفيدها وحفيد ابنها .

٤ — كامس « وادج خبر رع » Ka-mes (Uadj-kheper-Ra)

وصلتنا وثيقة كتبت فى السنة الثالثة من حكم هذا الملك تعرف بلوحة « كارنارفون » تشير إلى جدال طويل بين « كامس » ورجال حاشيته المجتمعين عنده للتداول فى أمر الثورة ضد الهكسوس ، وفيها يقول الملك : « أريد أن أعرف ماهى قوتى ولم اشتهرت بالشجاعة ما دام هناك أمير فى « حا وعرة » (أواريس) وآخر فى كوش وأنا هنا فى طيبة بين عامو ونحسى (أسيوى وزنجى) وكل واحد تحت نصيبه من أرض مصر (يملك حقه) يشاركنى فى الأرض وليست لدى فرصة الوصول إلى منف ... انظروا تجدوا الأسيويين يحكمون مصر حتى الأشمونين وقد هدموا كل الأبنية وخربوها ولكننى سأهاجم ملكهم وسوف أبقر بطنه بيدى .. إن كل أملى أن أخلص مصر من تعسف الأسيويين وأطردهم شر طردة » . فأجاب رجال الحاشية قائلين : « إذا كان الأسيويون قد توغلوا فى مصر حتى « القوصية » وإذا كانوا يلفقون التهم ضدنا (يسحبون لسانهم علينا) إلا أننا نعيش فى سلام فى منطقتنا وجزيرة فيلة محصنة تحصيناً قوياً . ونحن نحكم مصر حتى أسيوط ونملك أحسن الأراضى وقطعاننا ترعى فى أمان وما زلنا نستورد الحبوب لماشيتنا من الدلتا . دعهم فهم يحكمون الشمال فقط بينما نحن نحكم مصر الحقيقية » .

وهنا غضب الملك عليهم وقال : « يجب أن يلهج المصريون باسمى ويتحدث

الكل على قائلين « ها هو ذا مخلص مصر » .

ثم جمع الملك جيشاً من رجاله البواسل والفرقة النوبية مطيعاً بذلك أمر الاله أمون وسار بهذا الجيش شمالا وهاجم « تيتى » بن « پيپى » الموالى للملوك الهكسوس والذى احتمى فى مدينة « نفروزى » فاخترق حصون المدينة وهزم رئيسها واتجه نحو الشمال .. ويظهر أن الملك « كامس » هاجم أيضاً العدو الجنوبى ، ودليلنا على ذلك العثور على اسمه منقوشاً على صخرة فى توشكا (بين الدر وأبى سنبل) وبأسفله اسم « عحموزة » أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة .

ونحن لا ندرى إلى أى حد وصل « كامس » فى معاركه ضد الهكسوس ولكننا نعرف تماما أنه كان ملكاً لم يستسلم لضعف قواده وترددهم بل واصل الجهاد وأتم رسالة أبيه الذى مات مقتولا بيد الأعداء فانتقم له وترك أخاً بعده لم يعمر طويلا . ولعله قتل هو الآخر ، ثم ترك هذا لأخيه « عحموزة » إتمام الرسالة فأتمها على خير وجه ، كما سنرى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وأعاد للبلاد وحدتها وقوتها واستقلالها ..

قوائم أسماء الملوك

الأسرة الاولى

ثمانية ملوك حكموا ٢٦٤ سنة (بين ٣٢٥٢ ، ٢٩٨٣ طبقا لمانيتو)

الترتيب طبقا ا: تورين	مانيتو	ايدوس	سقارة	الاسم طبقا ا: تورين	مانيتو	ايدوس	سقارة	الاسم الحوري	الاسم النبتي أوالانسيا	الاسم فى القوائم الملكية	مدة الحكم طبقا ا: تورين	مانيتو	الآثار	مدة الحكم المقترحة
١	١	١		منى	مينس	منى		نعرمر عحا	من	منى		٦٢ ٦٠ ٣٠	يوم شهر سنة ٧ ٦ ٦٢	يوم شهر سنة ٧ ٦ ٦٢
٢	٢	٢		اتت ، اتى ، تى ؟	أتوتس	آتى ، اتت تتى		حـر	اتيت	اتى تتى	٠٠٧	٥٧ ٢٧ ٢٥	٥٧	٥٧
٣	٣	٣		أتو	كنكنس	آتى		ادجو ، زت ، وادجى	ازتى ؟	ايتا	٠٠٩	٣١ ٣٩	٢٩	٢٩
٤	٤	٤		حسبتى	ونفس	ايتا				حن تيت		٢٣ ٤٢	٢٦	٢٦
٥	٥	٥	١	زمتى (؟)	وسفايس	زمتى (؟)		وديمو ، دن ، زمتى	زمتى (؟)	زمتى (؟)		٢٠	٤٠	+ ٣٠
٦	٦	٦			ميبيس	مربابى	مربابن	عدج ايب	مربى با	مربا بى		٢٦	١٣	١٤
٧	٧	٧		سمسم	سمسس					سمسم		١٨	٩	+ ٣٠
٨	٨	٨	٢	قبح	بتيخس	قبح	قبح	قاعا	قاعا	قبح		٢٦	٢٦	٢٨

ملحوظة : اختلاف تقدير سنى الحكم لدى مانيتو ناشىء عن الرجوع الى المصادر التى نقلت عنه : افريكانوس ، يوسيبوس ، النص الارمنى .

الأسرة الثانية

الترتيب طبقاً ا: تورين	الترتيب طبقاً ا: مانيتو	الترتيب طبقاً ا: أيدوس	الترتيب طبقاً ا: سقارة	الاسم طبقاً ا: تورين	الاسم طبقاً ا: مانيتو	الاسم طبقاً ا: ايدوس	الاسم طبقاً ا: سقارة	الاسم الحورى	الاسم النبتى أو الانسيا	الاسم فى القوائم الملكية	مدة الحكم طبقاً ا: تورين	مدة الحكم طبقاً ا: مانيتو	مدة الحكم طبقاً ا: الآثار	مدة الحكم المقترحة
٩	١	٩	٣		بويثوس بوكوس	بدجاو		حوتب سخموى	حوتب	بجاو		٣٨	٤٧	٤٧
١٠	٢	١٠	٤	كاكاو	كايخوس	كاكاو	كاكاو	نب رع	توب نوفر	باثر		٣٩	٣٩	٣٩
١١	٣	١١	٥	بانوت جرن	بينوترس، بيوفس	بانوت جرن	بانوت جرن	نى نوثر، نوثر ان	نى نوثر، نوثر ان			٤٧	٣٨	٣٨
١٢	٤	١٢	٦	ودج نس	تلاس	ودج نس	ودج نس	سخم ايب، برإبن ماعة	وج	براب (اسم سوتى)		١٧	١٧	١٧
١٣	٥	١٣	٧	سندى	سثينس	سندى	سندى		سند			٤١	٣٧	٣٧
	٦			عاكا	خايرس							١٧	٣٢	٣٢
١٤	٧		٨		نوفركيرس		نفر كارع		نفر كارع		شهر سنة	{ ٢٥ ٤٨		
١٥	٨		٩	نفركاسوكر	سيسوخريس		نفركاسوكر		نفر كاسوكر		٣ ٨		٨	٣ ٨
١٦			١٠	حوزفا			حوزفا				٨ ١١		١١	٨ ١١
١٧		١٤	١١	بيتى		جاجاى	بيبى	خع سخم، خع سخموى	جاجاى	خع سخموى	٢ ٢٧		٣ ٢ ٢٧	٣ ٢ ٢٧
١٨	٩	١٥		نب كا	خنيرس	نب كا					١٩	٣٠		

تسعة ملوك حكموا ٣٠٢ سنة (بين ٢٩٧ ، ٣٠٢ سنة طبقاً لمانيتو) والتقدير مبالغ فيه فإن مدة حكم الأسرتين الأولى والثانية على الأغلب لا تزيد على أربعة قرون

ملحوظة : (١) الاسم الحورى (والنبتى والانسيا) « سخم ايب بر ان ماع رع » استبدل باسم يحمل شعار « ست » على الأغلب هو « بر ايب سنى »

(٢) « خع سخم » فى الشعار الحورى هو فى بعض الآراء « خع سخموى » نب وى حوتب ام اف » فى شعارى « حور » و « ست »

الأسرة الثالثة

الترتيب طبقا ل				الاسم طبقا ل				الاسم الحورى	الاسم النبتى او الانسيا	الاسم فى القوائم الملكية	مدة الحكم طبقا ل			مدة الحكم المقترحة
تورين	مانيتو	ايدوس	سقاره	تورين	مانيتو	ايدوس	سقاره				تورين	مانيتو	الآثار	
											شهر سنة	سنة		شهر سنة
	١				نخروفس							٢٨		
١٩	٢	١٦	١٢	زوسر لت	توزورثوس سزورثس	زسرزا	زوسر	نثرى خيه	زوسر نثرى خيه	نثرى خيه	٣ ١٩	٢٩	١٩	٣ ١٩
٢٠		١٧	١٣	زوسرتى		تتى	زوسرتاتى		زوسر تاتى		٦		٦	٦
٢١		١٨	١٤	جفا (٢)		سجس					١ ٦		٦	١ ٦
	٣				توزايس							٧		
	٤				سوخريس							١٧		
	٥				سوفس							١٦		
	٦				توسرتاسس							١٩		
	٧				آخس							٤٢		
	٨				سفورس							٣٠		
	٩				كيرفيرس							٢٦		
٢٢		١٩	١٥	حو...		نفر كارع	حونى				٢٤		٢٤	٢٤
٢٣		٢٠	١٦	سنوفرو	سوريس	سنفرو	سنوفرو	نب ماعة	سنوفرو	نب ماعة	٢٤	٣٠	٢٤	٢٤

ستة ملوك حكموا ٩٨ سنة ويرجح البعض أن مدة الملك لا تزيد عن ٥٥ سنة ؛ أما تقدير مانيتو فيصل إلى ٢١٤ سنة وهو تقدير مبالغ فيه كما نرى.

ملحوظة (١) لا تذكر الآثار سوى أسماء « زوسر » (نثرى خيه) و «حونى» (واسمه الحورى مجهول) و «سخم خيه»

(٢) ورد هذان الاسمان الحوريان فى نصوص الكتاب وهما «خع با» و «زانخت»

الأسرة الرابعة

الترتيب طبقا ل				الاسم طبقا ل				الاسم	الاسم الانسيا والنبتى	الاسم فى الآثار	مدة الحكم طبقا ل			مدة الحكم
تورين	مانيتو	ايدوس	سقارة	تورين	مانيتو وهيرودوت	ايدوس	سقارة	الحورى			تورين	مانيتو	الآثار	المقترحة
٢٤	٢	٣١	١٧	خواف وى	كيوپس ، سوفس(١)	خفوى	خفوى	مترو	خم خفوى	مدج دو	٢٣	٦٣	٢٣	٢٣
٢٥	٥	٢٢	١٨	رع جد اف	راتويس	رع جدف	رع جدف	خپر	رع جدف	خپر	٨	٢٥	١١	١١
٢٦	٣	٢٣	١٩	خع[افرع]	كفرن سوفس(٢)	رع خع اف	خع اف رع	وسرايب	خع اف رع	وسرايب		٦٦	١٨	١٨
٢٧					حور جدف									
	١				رع با اف سورس			شارو (؟)				٢٩	١	١
٢٨	٤	٢٤	٢٠		منخيرس، ميسرينوس	من كاو رع	من كاو رع	كاخت	من كاو رع	كاخة	١٨	٦٣	٢٤ ٤ ١٨	٢٤ ٤ ١٨
					بيكيرس							٢٢		
٢٩	٧	٢٥	٢١		سبركيرس							٧		
						شپسس كاف				شپسس خة			٤	٤
٣٠	٨		٢٢		ثمفثيس				ايمحب		٢	٩	٣	٢

سبعة ملوك حكموا مدى ٧٧ عاما ورفع بعض المؤرخين المدة الى ١٦٠ عاما بل يرفعها البعض الى ٢٨٨ عاما .

ملحوظة : أصبح الاسم الحورى على الآثار أقل أهمية من اللقب .

الأسرة الخامسة

الترتيب طبقا ل تورين	الترتيب طبقا ل مانيتو	الترتيب طبقا ل أبيدوس	الترتيب طبقا ل سقارة	الاسم طبقا ل تورين	الاسم طبقا ل مانيتو	الاسم طبقا ل أبيدوس	الاسم طبقا ل سقارة	الاسم الحوري	اسم رع	اللقب	مدة الحكم طبقا ل تورين	مدة الحكم طبقا ل مانيتو	مدة الحكم طبقا ل الآثار	مدة الحكم المقترحة
٣١	١	٢٦	٢٥	[وسر]كا[ف]	اوسر كيرس	أوسركاف	اوسركاف	ايرماع		أوسركاف	٧	٢٨	٧	٧
٣٢	٢	٢٧	٢٤		سفرس	ساحو رع	ساحو رع	تب خمو	ساحو رع	—	١٢	١٣	١٢	١٢
٣٣	٥	٢٩	٢٧		كيرس	رع نفراف	خع نفررع	نفرخمو		رع نفر اف		٣٠	٤	٤
٣٤	٤		٢٦		سيريرس		شبسس كارع	؟	شبسس كارع	ايزى ؟	٧	٧	٧ ٩ ٢٨	٧ ٩ ٢٨
٣٥	٣	٢٨	٢٥		نفر كيرس	كاكاى	نفرايركارع	اوسرخمو	نفرايركارع	كاكاى	٢١	٢٠	٢١	٢١
٣٦	٦	٣٠			راثورس	نى وسررع		ستيب تاوى	نى وسر رع	ايى	١١	٤٤	١١	١١
٣٧	٧	٣١	٢٨	من كاحور (من كارع)	منخيرس	من كاوحور	من كاوحور	من خمو		من كاوحور	٨	٩	٨	٨
٣٨	٨	٣٢	٢٩	جد	تانخيرس	جد كارع	ماع كارع ؟	جد خمو	جد كارع	ايزوزى	٢٨	٤٤	—	٢٨
٣٩	٩	٣٣	٣٠	اوناس	اونوس	اوناس	اوناس	وادج تاوى		اوناس	٣٠	٣٣	—	٣٠

تسعة ملوك حكموا مدى ١٢٨ عاما

« ويرفع بعض المؤرخين مدة الحكم الى ١٤٠ عاما »

الأسرة السادسة

	الترتيب طبقا لـ				الاسم طبقا لـ				الاسم الحورى	اللقب	"ابن الشمس" لقب سارع	مدة الحكم طبقا لـ			مدة الحكم المقترحة
	تورين	مانيتو	أبيدوس	سقارة	تورين	مانتو	أبيدوس	سقارة				تورين	مانيتو	الآثار	يوم شهر سنة
ستة ملوك حكموا مدة ١٣٥ عاما	٤٠	١	٣٤	٣١		اوثيوس	تتى	تتى	حتب تاوى	تتى ، تتى		٢١ ٦ ٠٠	٣٠		٢١ ٦ ٨
* ويرى بعض المؤرخين مدة الحكم الى ٢٤٣ عاما *	٤١		٣٥				وسر كارع			اوسر كارع					٦
	٤٢	٢	٣٦	٣٢		فيوس	مرى رع	ببى	مرى تاوى	ببى (ببى ١)	نفر زاحور (مرى رع)	٢٠	٥٣		٢٠
	٤٣	٣	٣٧	٣٣		مثوسوفس	مرانرع	مرنرع	عنخ خعو	عنتى أم زااف	مرن رع	٤	٧		٤
	٤٤	٤	٣٨	٣٤		فيوبس	نفر كارع	نفركارع	نثر خعو	ببى (ببى ٢)	نفر كارع	٩٠	١٠٠، ٩٩، ٩٥		٩٦
	٤٥	٥	٣٩			منثسوفس	مرن رع عنتى ام زااف			مرانرع	عنتى ام زااف	يوم شهر سنة ١ ١	١		١ ١
		٦			نيتوقرتى	نيتوكريس							١٢		

ملحوظة : تقدم بردية تورين بعد ذلك مجموعا للاسرات ٩٤٩ عاما ثم تضيف ست سنوات بغير حكم ملوك فالمجموع من بداية الأسرة الأولى الى نهاية الأسرة السادسة ٩٥٥ عاما . كما تضيف البردية اسماء نفر كا (طفل) و « نوفى » وحكمه ١ سنة ١ شهر ٢ يوم وكا كارع (ولقبه ابى وحكم ٤ سنة ٢ شهر) وآخرين لم يوجد اسماها ولكن الأول حكم ١ سنة ١ شهر ٢ يوم والثانى سنة ونصف يوم ؟

الأسرة السابعة

الترتيب طبقا لـ		الاسم طبقا لـ			الاسم النوبتي	نطق آخر للاسم	مدة الحكم طبقا لـ	
تورين	ابيدوس	تورين	ابيدوس	اراتوستين			مانيتو	اراتوستين
٤٦	٤٠		نتر كارع		نتر كارع			
٤٧	٤١	نت اقرتى	من كارع	نيتو كريس	من كارع	نت اقرتى	١٢	٦
٤٨	٤٢	نفر كاحنو	نفر كارع	مورتايوس	نفر كارع ، نفر كاحنو			٢٢
٤٩	٤٣	نفراس	نفر كانبي		نفر كارع تبي	نفر لس		
٥٠	٤٤	ايب	جدكاماع رع	زوسيارس	جدكارع ماع	ايبي		١٢

خمسة ملوك حكموا ٧٥ عاما (الترجمة الأرمنية)
٧٠ ق. ٧٠ يوما (أفريكانوس) ٥ ملوك في ٧٥ يوما (يوسيبوس)

ملحوظة : لا يقدم مانيتو من الاسماء سوى اسم « نيتو كريس »
ومجموع مدد الحكم ٧٥ عاما لدى مانيتو وتورين
بل ان مانيتو ذكر « سبعين ملكا من منف حكموا سبعين يوما »

الأسرة الثامنة

الترتيب طبقا لـ تورين	الترتيب طبقا لـ ايدوس	الاسم طبقا لـ تورين	الاسم طبقا لـ ايدوس	الاسم طبقا لـ اراتوستين	الاسم طبقا لـ الآثار	مدة الحكم طبقا لـ تورين	مدة الحكم طبقا لـ اراتوستين
	٣٩		مرنرع عنى امزا اف				
	٤٠		تترى كارع				
	٤١		من كارع				
	٤٢		نفر كا رع				
٥١	٤٣	نفر كارع	نفر كا رع نى				
٥٢	٤٤		جد كارع شمع		جد كارع شمع		
٥٣	٤٥	... ادتى	نفر كارع خندو		خندو		
٥٤	٤٦	... ى	مرن حور		مرن ان حور		
	٠٠				نفر حونى حور		
	٤٧		صنفركا		سنفركا		
	٤٨		نى كارع		نى كارع		
	٤٩		نفر كارع ترو	تنيلوس Thinillos	ترو		٨
	٥٠		نفر كا حور		نفر كا حور		
	٥١		نفر كارع پپى سنب		نفركارع پپى سنب		
	٠٠			سنفر وكراتس	سنفرعنخرع پپى		١٨
	٥٢		صنفر كا عنو		نفر كامين عنو		
	٥٣		قا ... كاورع		قا كارع ابى		
	٥٤		نفر كاورع		كايا ابى (أز كاحور)	يوم شهر سنة	
	٥٥		نفر كاو حور		نفركا.حورتترباو	١ ١ ٢	
	٠٠				وادج كارع	١ ٢ ٤	
	٠٠				نفر خم حور	١ ١ ٢	
	٥٦		نفرابر كارع		دمدج ايب تاوى	ـ ـ ١	

ثمانية عشر ملكا حكموا ١٠٦ عاما (مجموع الملوك لدى مانيتو ١٤٦ سنة وعدة الملوك ٢٧ ملكا)
مجموع الملوك في تورين للاسرتين ٧ و ٨ يبلغ ١٨١ سنة = ١٠٦ + ٧٥)

الأسرة التاسعة : خيتى

الاسم طبقا ا			مدة الحكم	
مانيتو	أراتوستين	الآثار	ايراتوستنيس	المقترحة
اختيوس	خوثير	واح كارع	٧	٧
... ...	مويرس	مرى ايب رع	١٢	١٢
... ...		نب كاو رع	..	٢٥
... ...		مرى كارع	..	٩

أربعة ملوك حكموا خمسين عاما

وهم لدى مانيتو ١٩ ملكا من هرقليوبوليس حكموا ٤٠٩ سنة

الأسرة العاشرة

	الاسم طبقا لبردية تورين
٩	
٢	تفر كارع
٣	خيتى
٤	مـ . . . . ع
٥	
٦	مر . . . .
٧	ستى . . . .
٧	حـ . . . .
٩	

تسعة ملوك حكموا ٢٥ عاما

وهم لدى مانيتو ١٩ ملكا هرقليوبوليتانيا حكموا ١٨٥ اعاما

الأسرة الحادية عشرة : انيوتف ومنتوحتب

الترتيب طبقا ا: أبيدوس	الترتيب طبقا ا: سقارة	الاسم طبقا ا: أبيدوس	الاسم طبقا ا: سقارة	الاسم الحورى	الاسم واللقب	مدة الحكم المقترحة
				سهر تاوى	انيوتف ١	
..	..			واح عنخ	انيوتف ٢	٥٠
..	..			نخت نب تب نوفه	انيوتف ٣	١٠
..	..			سعنخ ايب تاوى ؛ نب حدج		١٥
..	..			نب خرو رع منتو حتب سام تاوى		٢٥
٥٧	٣٥	نب حبت رع	نب حبت رع	نب حبت رع منتو حتب	نب حبت رع ؛ منتوحوتبة ١	٤٧
٥٨	٣٦	سعنخ كا رع	سعنخ كا رع	سعنخ تو اف	سعنخ كارع..منتوحوتبة ٢	١٠
..	..			نب تاوى رع	..نب تاوى رع..منتو حتبه٣	٣

سبعة ملوك حكموا ١٦٠ عاما

ورع لدى مانيتو ١٦ ملكا من ديوسبوليس (طيبة) حكموا ٤٣ سنة وجاء بعدهم امنمس وحكم ١٦ سنة وتقدم بردية تورين مجموعا للمدة الحكم ١٤٣ سنة رجوعا من ١٩٩١ ق.م. أما بداية الأسرة القادمة ؛ أى امنمس فتقدم لها ٢١٣٤ ق.م.

الأسرة الثانيـــة عشرة

الترتيب طبقا ا: مانيتو	الترتيب طبقا ا: ايدوس	الاسم طبقا ا: مانيتو	الاسم طبقا ا: ايدوس	الاسم الحورى	الاسم واللقب	مدة الحكم طبقا ا: مانيتو	مدة الحكم طبقا ا: الآثار	مدة الحكم المقترحة	مدة الاشتراك فى الحكم ابتداء من العام
١	٥٩	اما نميس	حتب ايب رع	وحم مس وى	حتب ايب رع امنمحة (١)	١٦	٣٠	٣٠	٢١
٢	٦٠	سيزو نحوسيس	خپر كارع	عنخ مس وى	خپر كارع سنوسره (١)	٤٦	٤٤	٤٥	٤٣
٣	٦١	اما نميس	نوب كاو رع	حكن ام ماعة	نوب كاو رع امنمحى (٢)	٣٨	٣٥	٣٥	٣٢
٤	٦٢	سيزوستريس	خع خپر رع	سشموتاوى	خع خپر رع سنوسره (٢)	٤٨	٦	١٩	
٥	٦٣		خع كاو رع	نترى خپرو	خع كاو رع سنوسرة (٣)		٣٣	٣٨	؟
٦	٦٤	لاخاريس	نى ماع رع	عـاو	نى ماع رع امنمحى (٣)	٨	٤٥	٤٨	٣٤ ؟
٧	٦٥	اميريس امنمس	ماع خرو رع	خپر خپرو	ماع خرو رع امنمحى (٤)	٨ ٨	٦	٩	؟
٨		سكمبوفريس		حرت رع	سبك كا رع سبك نوفرو	٤		٤	

ثمانية ملوك حكموا ٢١٣ سنة ١ شهر ١٧ يوم « بردية تورين »

والمجموع لدى مانيتو ١٦٠ سنة عن افريكانوس و ٢٤٥ سنة عن يوسيبوس

العهد الثنى (الأسرتان الأولى والثانية ٣١٩٧-٢٧٧٨ ق.م. تقريبا)

الأسـرة الأولى

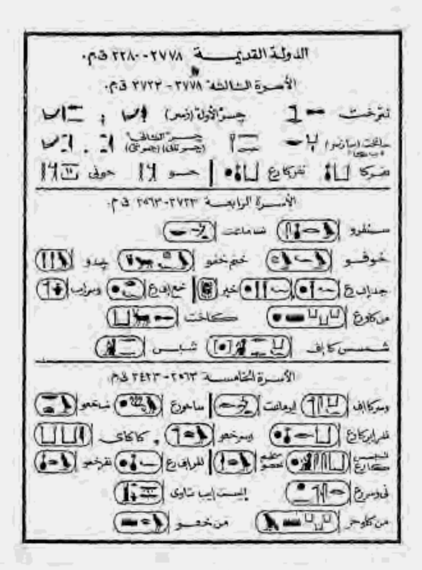
حور عحا	منى	نعرمر
اتى	جر	خنت
اتى		جت
	سمتى	دن
	مربيا	عدج إيب
	شمسو	سمرخت
سن	قبحو	قع

الأسـرة الثانية

بياجاو	حتب سخموى
كاوو (كاكاى)	نب رع
بانثرو	نثرى مو
واجنس	برابسن
سنج - سند - سندى	
نفر كارع	خع سخم
جاجاى	خع سخموى

I.		
Hor-Aha	Menes (Meni)	Narmer
Aty	Zer	Khent
Ity	— ——	Zet-Edjo
————	Zemty	Den
————	Merbiape	Adj-ib
————	Semsem	Semer-Khe
Sen	Kebeh	Kaa

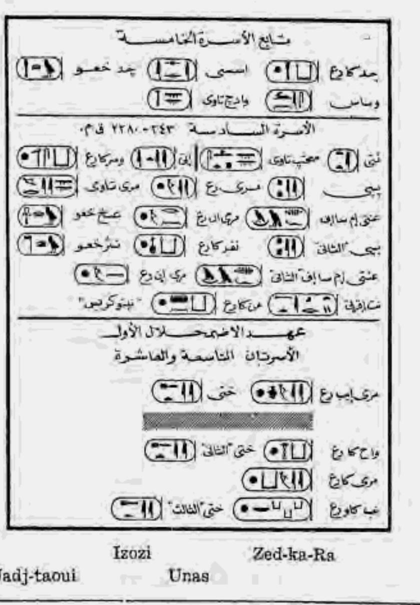
II.	
Bazau	Hotep-Sekhemoui
Kaou	Neb-Ra
Ba-neterou	Netry-mou
Uadj-nes	Per-ab-sen
Senedi	————
Nefer-ka-ra	Khaa-sekhem
Zazai	Khaa-sekhemoui



III Zoser — Neter-Khe
Zoser-tati — Za-nekht (Sa zeser)
Hu, Huni — Nofer-ka-Ra; Nofer-ka

IV Neb-maae — Snofrou
Zedu, khoum khufui — (Cheops)
User-ib khafra | Kheper, Ra-Zedef
ka-khet — Men-kau Ra
Shepses — Shepses ka-ef

V Neb-khaou, Sahure | Ir-Maae, Userkaf
kakai, — User-Khaou
Nofer-khaou, Ra-Nofer-ef-Sekhem-khalou, Shepses-ka-Ra
Iset-ib-taoui — Neuser-Ra
Men-khaou — Men-kau-Hor



Zed-khaou Izozi Zed-ka-Ra
Uadj-taoui Unas

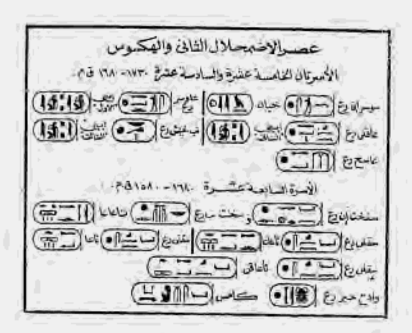
VI User-ka-Ra, Aty | Sehotep-taoui, Teti
Mery-taoui Mery Ra Pepy
Ankh-khaou Mery-n-Ra Anty-em-sa-ef
Neter-khaou Nofer-ka-Ra Pepy II
Mery-en-Ra Anty-em-sa-ef
Nitokris Men-ka-Ra

IX,X Khety Mery-ib-Ra
Khety II Uah-ka-Ra
Mery-ka-Ra
Khety III Neb-kau-Ra



XI. Inyotef-aa I — Seher-taoui
Inyotef III, Nekht neb tep nofer; — Inyotef II, Uah Ankh
Montouhotpe I — Sankh ib-taoui
Montouhotpe III Neb-kherou-Ra | Montouhotpe II, Nebhapt-Ra
Montouhotpe V, Sankh-ka-Ra | Montouhotpe IV, Neb-taoui-Ra

XII. Amenemhé I — Sehotep-ib-Ra
Senusre I — Kheper-ka-Ra
Amenemhé II — Noub-kau-Ra
Senusre II — Khaa-kheper-Ra
Senusre III — Khaa-kau-Ra
Amenemhé III — Nil-Maae-Ra
Amenemhé IV — Maae-kherou-Ra
Sobek-nofrou-Ra



XV, XVI Ipepi I, Aa-User Aa | Khian, Suser-en-Ra

Ipepi III Neb Khepesh Ra | Ipepi II, Aa qenen-Ra

Aa-Seh-Ra

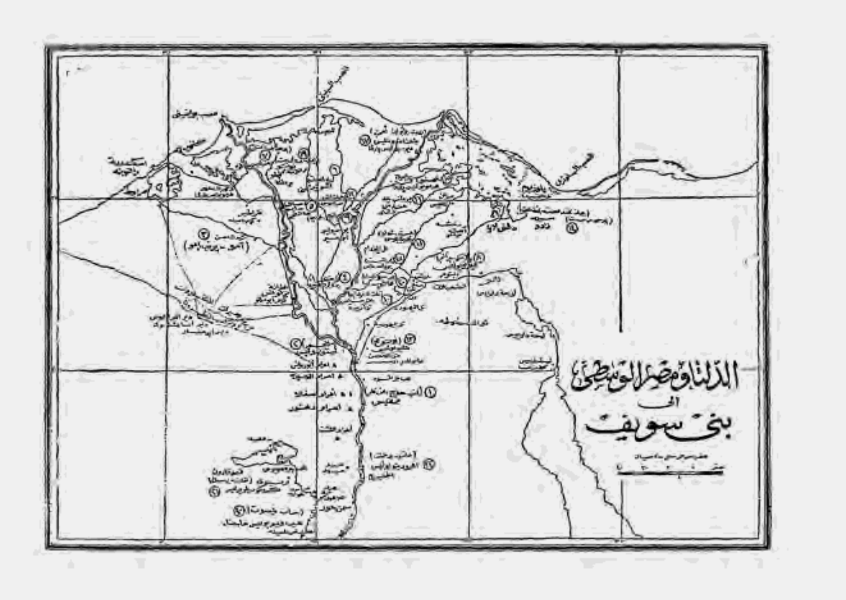
XVII Ta-aa(Sekhent - neb-Ra, Senekht-en-Ra

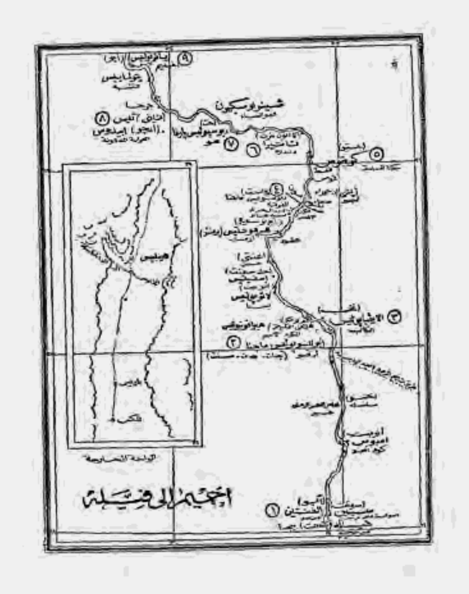
Ta-aa, Seqenen Ra ' Ta-aa-aa, Seqenen Ra

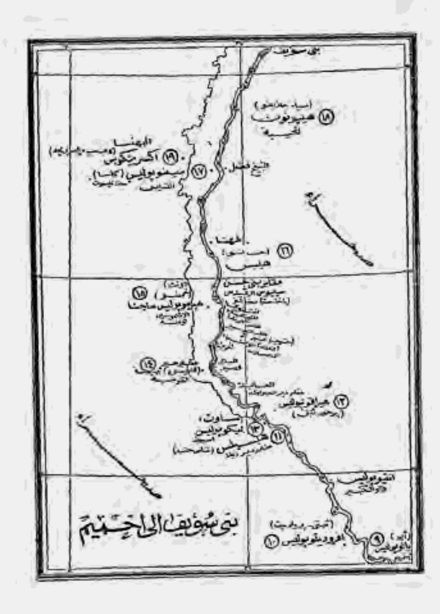
Ta-aa-qen Seqenen Ra

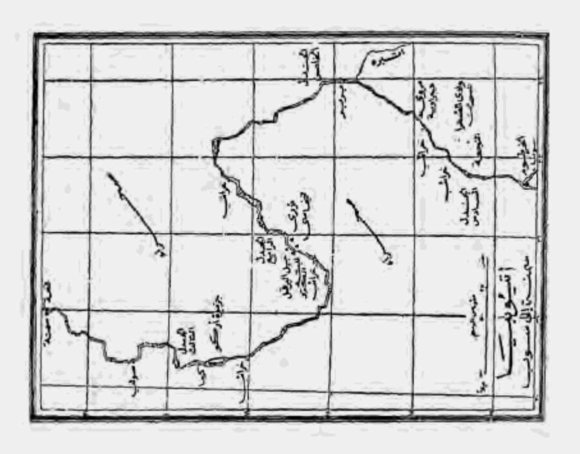
Ka-mes, Uadj-Kheper-Ra

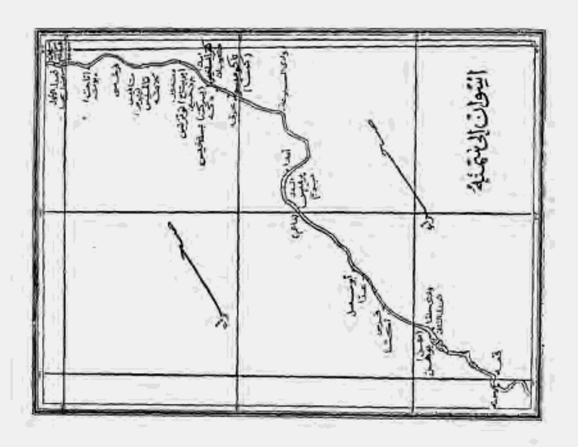
الخرائط


الدلتا ومصر الوسطى
الى
بني سويف


اخميم الى فيلة
شينوبسكيون
هيليس
الواحة الخارجة
كوبتوس


بني سويف الى اخميم
بني سويف
هيبونوس
اكسرينكوس
البهنسا
هليس
بانوبوليس
افروديتوبوليس





مراجع الكتاب

مراجع عامة

١ — باللغة العربية :

١ — الأستاذ الدكتور أحمد بدوى : فى موكب الشمس (جزءان)

٣ — الأستاذ الدكتور أحمد فخرى : مصر الفرعونية .

٢ — الأستاذ الدكتور سليم حسن : مصر القديمة (١٥ جزءا)

٢ — باللغة الاجنبية :

BAIKIE (J.) : A history of Egypt: 2 vols., *London* 1929.

BREASTED (J.H.) : 1 — Ancient Records of Egypt; 5 vols. *Chicago* 1906-1907.

2 — A history of Egypt from the earliest times to the Persian Conquest, 2nd. ed., *London* 1945.

3 — A history of the Ancient Egyptians; *London* 1915.

BUDGE (E.A.W.) : A history of Egypt from the end of the neolithic period to the death of Cleopatra vii; 8 vols. *London* 1902

DRIOTON (E.) & VANDIER (J.) : Les peuples de l'Orient méditerranéen (t. II' l'Egypte) ; *Paris* 1938.

GARDINER (Sir Alan) : Egypt of the Pharaohs, Oxford (1961).

GAUTHIER (H.) : Le livre des Rois d'Egypte; *Le Caire* 1908-1917.

MORET (A.): 1 — L'Egypte pharaonique (dans Hanotaux: Histoire de la Nation Egyptienne, t. II, *Paris*, 1932).

2— Le Nil et la civilisation égyptienne (t. VII de la collection «l'evolution de l'humanité,» *Paris* 1920).

MURRAY (M.A) : The splendour that was Egypt, *London*, 1950.

PETRIE (W.M.F.: A history of Egypt, 3 vols. *London*, 1907.

STEINDORFF (G.) & SEELE (K.C.): When Egypt ruled the East *Chicago*, 1942.

WEIGALL (p.) : A short history of Ancient Egypt, *London*, 1934.

WILSON (J.): The burden of Egypt, *Chicago*, 1951.

مراجع ماقبل العهد الثنى

BOVIER - LAPIERRE : 1 — L'Egypte prèhistorique (dans Précis de l'histore d'Egypte, t. I. *Le Caire*, 1932),

2— La paléolithique stratifié des invirons du *Caire* (I Anthropologie, vol. XXXV, 1925).

3— Une Nouvelle station néolithique (El Omari) au nord de Hélouan (Congrés international de géographie, *Le Caire*, 1925, t. IV, 1926).

BRUNTON AND CATON THOMPSON: The Badarian Civilisation and predynastic remains near Badari, *London*, 1928.

BRUNTON: The beginnings of Egyptian civilisation (Antiquity vol. III, 1929).

GABRA (SAMI): Fouilles du Service des Antiquités â Deir Tassa (A.S.A. XXX, *Le Caire* 1930).

MENGHIN & AMER (MOUSTAFA) : The Excavations of the Egyptian University in the Neolithic site at Maadi (1930-1932).

MEYER (ED.): Aegyptische Chronologie (traduction Moret, *Paris*, 1912).

PETRIE (F,): Diospolis Parva, The Cemeteries of Abadiyeh and Hu. 1898, 1899 *London* 1901.

PETRIE & QUIBELL : Nagada and Ballas, *London* 1890.

PETRIE, WAINWRIGHT & MACKAY: The Labyrinth, Girzeh and Mazguneh; *London*, 1912.

PETRIE, WAINWRIGHT & GARDINER : Tarkhan I and Memphis V. 1913.

PETRIE (F.): Tarkhan II, 1914.

QUIBELL : Hierkonpolis I, 1900,

QUIBELL & GREEN : Hierkonpolis II, 1902.

RANDAL-MACIVER & MACE : El Amrah & Abydos 1899-1900, *London*, 1901.

SANDFORD & ARKELL: Paleolithic man in the Nile Valley, in Nubia and Upper Egypt, *Chicago*, 1933.

SANDFORD : Paleolitic man in the Nile Valley, in Upper and Middle Egypt, *Chicago*, 1934.

VIGNARD: Une nouvelle industrie lithique, le Sébilien (Bulletin de l'Inst. F. d'Arch. Or. vol XXII, *Le Caire*, 1923).

مراجع العهد الثنى

DE MORGAN (J.): Recherches sur les origines de l'Egypte *Paris*, Leroux, 1897.

EMERY (W.B.): Great Tombs of the 1st. Dynasty 2 vols:
Vol. I. Govt. Press Cairo 1949.
Vol. II. Oxford University Press 1954.
Archaic Egypt 1961

PETRIE (F.): 1 — The Royal tombs of the first dynasty 2 vols and 1 vol. extra plates, *London*, 1900-1901.

2— Abydos 3 vols. *London*, 1902-1904.

REISNER & MACE : The early dynastic cemeteries of Naga-ed-Deir, 2 vols., *Leipzig*, 1908-1909.

REISNER (G.A.) : The development of the Egyptian tomb down to the accession of Cheops; *Cambridge*, 1936.

SAAD (ZAKI YOUSSEF) : 1 — Royal Excavations at Saqqara and Helwan, *Cairo*, 1941-1945 (Suppl. aux A.S.A. Cahier 3).

2— Royal Excavations at Helwan 1945-1947, *Cairo* (Suppl. aux A.S.A. Cahier 14).

٣ ـ الحفائر الملكية بحلوان : الفن والحضارة فى الأسرتين الأولى والثانية — القاهرة ١٩٥٢

VANDIER (J.) : La Religion Egyptienne, *Paris*, 1944.

مراجع الدولة القديمة

DAVIES (N. DE G.) The Rock Tombs of Sheikh Said, *London*, 1901.

DRIOTON (E.) & LAUER (J.P.) : Sakkarah, The monument of Zoser, *Cairo*, 1951.

ERMAN (A.) : The literature of the Ancient Egyptians (translated by Blackman, *London*, 1927).

FAKHRY (A.) The Pyramids, Chicago 1961

FIRTH (C.M.) & QUIBELL (J:E.) : The step pyramid; 2 vols. *Cairo*, 1935.

GARSTANG (J.) : 1 — Mahasnah and Beit Khallaf, *London*, 1903.

2— Tombs of the 3rd. Egyptian dynasty of Raqaq̄nah and Beit khallaf, *London*, 1904.

JEQUIER (G.) & DUNHAM (D.); Le Mastaba Faraoun, *Le Caire*, 1928.

LAUER (J.P.): La pyramide à degrés; *Le Caire*, 1936.

MARIETTE (A.): Les mastabas de l'Ancien Empire (publié par Maspero. *Paris*, 1884-1885.

MASPERO (G.C.C.): 1 — La pyramide du roi Ounas (Rec. T. 3, *Le Caire*, 1882).

2— Les inscriptions des pyramides de Saqqarah (Rec. T. 3-4 *Le Caire*, 1882-1883).

MURRAY (M.A.) & SETHE (K.H.): Saqqara mastabas. *London*. (1905 & 1937).

PETRIE (F.): The pyramids and the temples of Gizeh, *London*, 1883.

2— Deshashah, *London*, 1897, 1898.

3— Meydum and Memphis; *London*, 1910.

PIRENNE (J.): Histoire des Institutions et du droit privé de l'ancienne Egypte. 3 vols., *Bruxelles*, 1932-1934.

ROUGE (E.): Recherches sur les six prémières dynastries, *Paris*, 1866.

SETHE (K.H.): 1 — Urkunden des alten Reichs, *Leipzig*, 1932-1933.

2— Die Altaegyptischen Pyramidentexte, *Leipzig*, 1908-1932.

مراجع عهد الاضمحلال الأول

BLACKMAN (A.M.): The rock tombs of Meir. *London*, 1914-1924.

DAVIES (N. DE G.): The rock tombs of Deir El-Gabrawi, *London*, 1902.

FIRTH (C.M.) & GUNN (B.): Teti pyramid cemetries, *Cairo*, 1926.

GARDINER (A. H.): The admonitions of an Egyptian sage, *Leipzig*, 1909.

GRIFFITH (F.L.): Beni Hasan, *London*, 1893-1900.

NEWBERRY (P.E.): On the parentage of the Intef king of the eleventh dynasty (A.Z.) 72, 1936.

NEWBERRY (P.E. & GRIFFITH (F.L.): Elbersheh, *London*, 1895.

VANDIER (J.): Un nouvel Antef de la XIe dynastie (Bull. de l'Inst. Fr. d'Arch. Or. XXXVI *Le Caire*, 1936.)

WEILL (R.): Les décrets royaux de l'Ancien Empire Egyptien, *Paris*, 1912.

مراجع الدولة الوسطى

BRUNTON (G.): Lahun I, the Treasure, *London*, 1920.

BRUNTON (G.) & PETRIE (F.): Lahun II; *London*, 1923.

DE MORGAN (J.): Fouilles à Dahshour, 2 vols.; *Vienna*, 1894.

GRIFFITH (F.L.): The inscriptions of Siut and Deir Riffeh, *London*, 1888-1889.

GUNN (B.): The instructions of Ptah Hotep and kagemni, *London*, 1909.

MASPERO (G.C.C.): Les Contes populaires de l'Egypte Ancienne, *Paris*, 1882.

MONTET (P.): Notes sur les tombeaux de Bèni Hassan, *Le Caire*, 1911.

NEWBERRY, (P. .): Bèni Hasan vols. I-IV *London*, 1893-1900.

PETRIE (Sir Finders): 1 — Hawara, Biahmu & Arsinoe: *London*, 1889-1890.

2 — Illahun. Kahun. & Gurob, *London* 1889-1890.

3 — Kahun, Gurob and Hawara, *London*, 1890.

SETHE (K.): Aegyptische Lesestucke, *Leipzig*, 1928.

WINLOCK (H. .): The Theban Necropolis in the Middle Kingdom. (American Journal of Sem. lang & Lit. XXXII, 1915.)

مراجع عصر الهكسوس

GARDINER (A.H.): The defeat of the Hyksos by Kamose, (The Carnarvon Tablet No. 1) (J.E.A.III. 1916).

باهور لبيب : لمحات من الدراسات المصرية القديمة ـ القاهرة ١٩٤٧ (من صفحة ٤١ الى صفحة ٥٨)

WEILL (R.): La fin du moyen Empire égyptien 2 vols. *Paris* 1918.

WINLOCK (H.E.) The Tombs of the kings of the seventeenth dynasty at Thebes J.E.A., X, 1924.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ش

ص

ط

ع

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

لا

ى

فهرس الأشكال واللوحات والصور

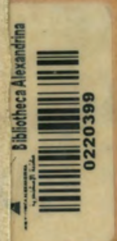
شكل		صفحة
٢٥	دبوس الملك عقرب	٩٤
٢٦	صلاية الملك نعرمر	٩٥
٢٧	السيدتان الربتان « العقاب والصل » نخبة ، ودجه	١٣١
٢٨	خع اف رع	١٧٢
٢٩	منكاورع وزوجته	١٧٧
٣٠	نقش من معبد ساحورع	١٨٩
٣١	تمثال من النحاس	٢٠٦
٣٢	الرعاة والماشية — من مقبرة من عصر الاهرام	٢٤٢
٣٣	منظر من مقبرة نبيل — من عصر الاهرام	٢٤٢
٣٤	تمثالا رع حوتپ والاميرة نوفرة	٢٤٣
٣٥	منظر صيد فى المستنقعات — الدولة القديمة	٢٤٨
٣٦	منظر يمثل صناعة الاثاث الخشبي — الدولة القديمة	٢٤٨
٣٧	سنوسرة الاول	٣٣٢
٣٨	جانب من تماثيل سنوسرة الأول العشر بالمتحف المصرى	٣٣٧
٣٩	سنوسرة الثالث	٣٤٣
٤٠	امنمحية الثالث	٣٤٨
٤١	صدرية امنمحية الثالث	٣٧٢
٤٢	صدرية سنوسرة الثانى	٣٧٢
٤٣	تاج الاميرة سات حتحور عنة	٣٧٣
٤٤	حلى من عهد الدولة الوسطى	٣٧٣

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة



ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر ١١١٦ كورنيش النيل
فرع الاسكندرية — ٢ ميدان التحرير (المنشية)